منشورات الجامعة اللبنانية

قسم الدراسات التاريخية

٤٨

لبنان في كتابات الرحالة

مجموعة باحثين

إعداد
عبد الله الملاح



التوزيع:

دائرة منشورات الجامعة اللبنانية، الادارة المركزية، المتحف
الفروع الجامعية في المناطق

بيروت ٢٠٠٨

منشورات الجامعة اللبنانية

قسم الدراسات التاريخية

٤٨

لبنان في كتابات الرحالة

مجموعة باحثين

إعداد
عبد الله الملاح



التوزيع:
دائرة منشورات الجامعة اللبنانية، الادارة المركزية، المتحف
الفروع الجامعية في المناطق

بيروت ٢٠٠٨

تقديم عام

د، عبد اللّه الملاح

تماشياً مع التقليد المتبع في قسم التاريخ ـ الفرع الثاني، انعقد مؤتمرنا العلمي هذه المرة تحت عنوان «لبنان في كتابات الرَّحالة» في ٨ و٩ أيار ٢٠٠٣، وذلك برعاية عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية الدكتور رياض قاسم وحضوره، وحضور مدير الكلية الدكتور جوزيف أبو نجم.

افتتح الجلسة الصباحية الأولى، في الثامن من أيار ٢٠٠٣، الدكتور فؤاد بو سابا، عريف الجلسة، بكلمة ترحيبية؛ ثم تحدث العميد قاسم منوها بأهمية المؤتمر على الصعيدين الأكاديمي والتاريخي داعماً خطوات الباحثين قائلاً لهم: «إن الجامعة اللبنانية كبيرة بكم... وفخورة بعطائكم، وأن ما تقومون به يسطّر صفحة نقية العطاء... عزيزة المرتجى...» متطلعاً في الختام» إلى إنجاز نشر وقائع وبحوث هذا المؤتمر وسواه، مما ينتجه باحثو الكلية...».

وكانت الكلمة الثانية لمدير كلية الآداب الفرع الثاني الدكتور جوزيف أبو نجم الذي هنّأ أساتذة قسم التاريخ على مجهودهم، وتوقف عند تمايز نشاط القسم وريادته، لأسباب كثيرة، من أبرزها:

- «المواظبة على تحضير مؤتمر سنوي...
- تعدد الأصوات في المؤتمر...

- أهمية المواضيع التي تتناولها المؤتمرات. . .
- حسن التنظيم والإعداد. . .».

وتلاه بعدئذ الدكتور عبد اللّه الملاح، منظم المؤتمر، متكلماً باسم قسم التاريخ، معرباً عن سروره باجتماع نخبة المفكرين الأكاديميين حول «لبنان في كتابات الرحالة»، هذا الوطن الذي يكبر بأهله، يكبر أيضاً بمحبيه الذين فُتنوا بسحره وجماله، وكتبوا عنه بمختلف اللغات، مقدراً جهود المشاركين في أعمال هذا المؤتمر، شاكراً الإداريين والباحثين ولجنة التنظيم والطلاب وجميع الذين ساهموا في التحضير والتنظيم.

اشترك في أعمال هذين اليومين مجموعة من الباحثين والمؤلفين الناشطين في ورشة إعادة النظر بتاريخ لبنان. وقد بلغ عددهم واحداً وعشرين محاضراً؛ وطالت محاضراتهم زمنياً حقبات التاريخ المختلفة: بدءاً بمرحلة ما قبل التاريخ وصولاً إلى القرن التاسع عشر.

في بداية أعمال المؤتمر تولت الدكتورة تريز الدويهي التعريف بالرحالة الفرنسيين الذين أمّوا جبل لبنان وطبيعة هذه الرحلات والشروط المواكبة، بمحاضرة حملت عنوان: Les voyageurs français au Mont-Liban au cours du 19eme siècle. بعد ذلك ترأس الجلسة الصباحية الأولى الدكتور انطوان الحكيم، وتكلم فيها الدكتور عصام علي خليفة، فاستعرض «رحلة ون ـ أمون إلى جبيل في منتصف القرن ١١ ق.م». وكان الأب أغناطيوس سعادة المحاضر الثاني، فعرض الزيارات التي قام بها بعض الحجاج الأولين ووصف مشاهداتهم وانطباعاتهم عن لبنان بين العام ٣٣٣ والعام ٦٧٠. ثم حاضرت الدكتورة جوليات الراسي عن «بيروت وجبل لبنان في رحلة دانيال الروسي (القرن الثاني عشر)». وشرح الدكتور جان شرف حملة إبراهيم باشا على الشوف العام ١٥٨٥ من خلال كتاب مينادوي Minadoï.

وترأس الجلسة الثانية من اليوم الأول الدكتور قاسم الصمد، وتكلم فيها تباعاً:

- د. إلياس القطار، حول «لبنان في نصوص الرحالة الأجانب في القرنين ١٥ و١٦».
- د. عصام كمال خليفة، حول «طرابلس وجبل لبنان من خلال رحلة دنديني» في أواخر القرن ١٦.
- الأب د. سركيس الطبر بحث في «رحلة الأب جان ـ باتيست بوميه Poumet (١٦٨٦ ـ ١٦٨٨) إلى لبنان.
- الأستاذ انطوان خاطر تحدث عن «لبنان على أقلام أشهر الرحالة الأسبان في القرنين ١٦ و١٧».

أدار جلسات اليوم الثاني (٩ أيار ٢٠٠٣) تباعاً: الدكتور جوزيف أبو نهرا، والدكتور نقولا زياده، والدكتور إميل معكرون؛ وحاضر في الجلسة الصباحية الأولى الأب د.كرم رزق بموضوع «رحلة بوكوك في القرن ١٨». وعرض د.أحمد حطيط «ملامح من الحياة الاجتماعية اللبنانية في القرن ١٨ من خلال مذكرات الرّحالة François De Pagesse. وقدّم الأب د.ناصر الجميل مداخلة بعنوان «كارستن نيبوهر Niebuhr، أمير الرحالين المحققين (١٧٣٣ ـ ١٨١٥)» من خلال كتاب مشاهدات في سوريا وبخاصة في جبل لبنان.

ثم استطلع د.جان نخول أحوال «المناطق اللبنانية التي وردت في رحلة دي فوغيه De Vogué في العام ١٨٧٢»، أما د.إبراهيم بيضون فبحث في ما ورد عن «المدن اللبنانية في رحلة الشيخ القاياتي» في القرن ١٩.

وشارك في الجلسة الثانية:

- د. سعاد سليم بموضوع «لبنان في كتابات الموفد البريطاني دايفيد أوركوهارت David Urquhart في القرن ١٩».
- د.فيغان العلم، تناول «جون كارن» ورحلته إلى جبل لبنان في بداية القرن ١٩.

- الباحثة جومانا الدبس، قلّبت صفحات كتاب القنصل الروسي قسطنطين بيتكوفيتش: جبل لبنان بين ١٨٦٩ و١٨٨٢.
- د.علي شعيب استعرض تاريخ جنوب لبنان من خلال كتابات بعض الرحالة في القرن ١٩.

وتكلم في الجلسة الثانية:

Dr Pablo Martin Asvero حول: نظرات إسبانية إلى لبنان بين ١٨٦٠ و١٩١٠، وتوقف د.مسعود ضاهر عند «بيروت وجبل لبنان من خلال مذكرات كريمسكي» في أواخر القرن ١٩، وساهم د.مارون رعد، في إبراز «الأمير بشير الثاني الكبير وإبراهيم باشا من خلال كتاب F. Perrier (١٨٤٢). ثم قدّم د.عبد اللّه سعيد، كلمة الختام عن «الريف اللبناني من خلال كتابات القنصل الفرنسي هنري غيز (١٨٠٣ ـ ١٨٤٢)».

وهكذا انتهى المؤتمر بمناقشة عامة وإعداد مجموعة من التوصيات.

لقد جاءت أبحاث جميع المشاركين في هذا المؤتمر على قدر عال من الموضوعية العليمة، واتسمت بالدقة والتدقيق، وكشفت جوانب عديدة جديدة، وأضحت من المراجع القيّمة التي تفيد كثيراً عند الرغبة في الاطلاع على الرحالة الذين زاروا لبنان وكتبوا عنه، وقد اتحفنا معظم الباحثين بمحاضراتهم، الأمر الذي شكّل موضوع هذا الكتاب. وأقول معظم الباحثين، لأن بعض المحاضرين الكرام قد تعذر عليهم تسليم محاضراتهم للطبع، أو رفضوا القيام بذلك لأسباب خاصة، على الرغم من الوقت الطويل الذي استنفدته مرحلة تحضير المحاضرات والإعداد للطبع الذي استغرق اربع سنوات.

كلمة عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية

د. رياض زكي قاسم

السيدات والسادة

حضور هذا المؤتمر... من رسميين ومهتمين بالفكر والتوثيق ومن علماء باحثين...

نجتمع اليوم لنشهد نمو حلقة ضافية من حلقات العلم الرصين، تندرج في بناء المعرفة الأكاديمية من حيث علو الكعب في التأريخ، وبسط أسباب البحث الهادف، وترجمة التواصل اللبناني، قديمه وحديثه، في مؤتمر يعقده قسم التاريخ في جامعتنا بمشاركة الجمعية التاريخية اللبنانية حول «لبنان في كتابات الرحالة».

يتمحور الاهتمام هذه السنة، عند علمائنا المؤرخين، حول نظرة الآخر، الآتي من بقاع الأرض إلى لبنان... فيرصدون في ما يزيد على عشرين بحثاً قاع التناظر والتقابل بين صورتين: صورة ما يعرفه أو يعيشه الرحالة عن موطنه، وصورة ما يشاهده وما تفاعل معه، جزءاً أو كلاً، في لبنان... في مشاهده مجتمعة، أو في مشاهد دون سواها...

ومن معطى التقابل، أو التناظر، أو المقالات، في خطيه العمودي أو الأفقي تتبدى التمايزات والفروق، وربما المفارقات.

وإنه، بقدر ما يكون الرصد والوصف والتسجيل والتوصيف محايداً بقدر

ما نفيد من كتاب الرحالة، فنزيد على أرشيفنا اللبناني وثيقة، أو وثائق جديدة...

وبقدر ما يكون التقابل بين مجتمع الرحالة ومجتمعنا الذي بات في عينه وعقله وقلبه... فهما في المنطق الحتمي مجتمعان ومتغايران في أشياء، وربما متشابهان في بعض الأشياء... فبقدر ما تكون الموضوعية مسلكاً إلى تدوين المرئي والمسموع، وبقدر ما يكون التحليل والتركيب حاضراً يشهد على نزاهة الرحالة... بقدر ما سنفيد من لحظ ورصد الفوارق في مجتمع المدينة ومجتمع الريف... وبقدر ما ستكون الأضداد قادرة على فرز التمايز بين لبنان وموطن الكاتب الرحالة.

وفي مجمل أحوال مستويات الكتابة التي خطها هؤلاء الرحالة عن لبنان، فنحن أمام كمّ من المشاهدات والوثائق التي تحتاج بهمة الباحثين في هذا المؤتمر وخارجه إلى تحليل متبصِّر، وإلى تركيب يستند إلى أسس معرفية واسعة في حقل الاختصاص، ولسوف نزداد غنىً معرفياً بتكوين الوطن، ونتعرف بالقرينة إلى نظمه الاجتماعية، وأشكاله التنظيمية، عبر مراحل من الزمان.

أيها المؤتمرون... إنه لمن جلائل أمور التقدم البحثي، أن نؤسس لتاريخ لبنان الحديث والمعاصر بكتاب يضيء حقباً، ومراحل كانت مطوية في العتمة، وإنه لمن الصواب عينه أن ينظر المؤرخ الحديث، بالأسلوب العلمي المتقدم، مادةً وتقانةً، إلى وثائق الأمس وأرشيفه، ثم يعود إلى حاضره، وقد ازداد علماً بمكونات وطنه فيسترشد الحاضر بعبر الماضي، ويتعزز حضور الماضي بحداثة الحاضر، فيغدو الأمر المعرفي موصولاً، ويصبح التاريخ نبضاً حيّاً في قلب الحدث الجاري... إذ ذاك تتحقق الحداثة الفعلية في صنع التاريخ... أو لنقل كتابة تاريخ الوطن.

حضور هذا المؤتمر... إن الجامعة اللبنانية، وكلية الآداب والعلوم

الإنسانية تحديداً، ترى في ما يعقده باحثوها من مؤتمرات وندوات، وما ينشرون من بحوث وكتب حضوراً فاعلاً في سوق التنافس الأكاديمي، الذي قارب على الخمسين جامعة في لبنان... إنكم بما تنتجون وتسهمون في تطويره تحددون المسار... وتصنعون الشعار... فنحن معاً في الجامعة اللبنانية سننافس الآخرين بالمستوى... ونعمل على إعلاء شأن البحث العلمي... وأيّاً كانت المناخات المحيطة بنا... من صعوبات في الموازنة، أو صعوبات في إيفاد الممنوحين، أو مرارة فقدان التوازن بين عدد المتقاعدين والداخلين الجدد إلى العمل الجامعي... فإن العزم أكيد على مواصلة تطوير الجامعة من حيث الأداء ومن يحث الاندماج الفكري... والتلاقي المعرفي، والسهر على رعاية طلابنا، رجال الغد، لنقدمهم إلى سوق العمل قادرين بكفاءتهم ومستواهم المميّز... فالرهان على المستوى هو ما يجب أن يبقى شغلنا الشاغل.

وفي الختام... أقول لكم... إن الجامعة اللبنانية كبيرة بكم... وفخورة بعطائكم، وإن ما تقومون به يسطّر صفحة نقية العطاء... ثمينة الهدف... عزيزة المرتجى.

نتطلع إلى نجاح هذا المؤتمر السنوي، كما كانت المؤتمرات السابقة... ونتطلع إلى نتائج بحثية في الجلسات الخمس، والمناقشات والمداخلات والتوصيات...

ونتطلع، معاً، إلى إنجاز نشر وقائع وبحوث هذا المؤتمر وسواه، مما ينتجه باحثو الكلية...

برعاية اللّه... عشتم وعاشت الجامعة اللبنانية.

كلمة مدير كلية الآداب ـ الفرع الثاني

د. جوزيف أبو نجم

من المواسم الثقافيّة الثابتة في كلّيّتنا، والتي تُشكِّلُ محطّةً سنويّةً مهمّةً ينتظرُها كلُّ فروعِ الجامعةِ اللبنانيّةِ، المؤتمرُ الذي يُنظِّمُه قسمُ التاريخِ عندنا.

والحقُّ يُقال، إنّ النشاطَ سِمةٌ من سِماتِ كلِّ الأقسامِ الإكاديميّة في كلّيّةِ الآدابِ ـ الفرعِ الثاني، التي أتْحَفَتْنا السنةَ، كما في السنواتِ الماضيةِ، بمجموعةٍ منَ اللّقاءاتِ الثقافيّةِ والنّدَواتِ العِلْميّةِ، ولمّا تنتهِ مواسمُها بعدُ.

غيرَ أنَّ النشاطَ الذي يَقومُ به أساتذةُ قسمِ التاريخِ، نشاطٌ رائدٌ ومميَّز، لأسبابٍ كثيرةٍ، إليكم بعضَها:

أوّلاً: المُواظَبَةُ على تحضيرِ مؤتمرٍ سنويٍّ يَدخلُ ضمنَ النشاطاتِ الثقافيّةِ للقسمِ، حتّى أصبحَ المؤتمرُ تقليداً عريقاً راسِخاً.

ثانياً: تعدُّدُ الأصواتِ في المؤتمرِ، حيثُ يَضُمُّ ـ كلَّ عامٍ ـ خيرةً منَ الباحِثينَ والمؤرِّخينَ من مُختلفِ فروعِ الجامعةِ اللبنانيّةِ، ومن سائرِ الجامعاتِ في لبنانَ والخارج. وهذا ما يَشرحُ المستوى الأكاديميَّ الرفيعَ الذي تكونُ عليه المؤتمراتُ، والانفتاحَ الثقافيَّ الذي تُجسِّدُه، والتَّواصُلَ الحضاريَّ الحاصِلَ عَبرها من خلالِ الرُّؤى المختلفةِ التي يَعرِضُها المؤتمرون؛ فتلتقي تلك الرُّؤى وتتفاعلُ، وتَخرُجُ إلى الضَّوءِ كنوزٌ كادَتْ تَضيعُ في خَبايا التاريخ.

ثالثاً: أهمّيّةُ المواضيعِ التي تتناولُها المؤتمراتُ؛ فمن «مؤتمرِ القريةِ

اللبنانيّةِ» إلى «مؤتمرِ المدرسةِ المارونيّةِ» إلى «مؤتمرِ الأقلّيّاتِ في الدّولةِ العثمانيّةِ» «فمؤتمرِ أرشيف تاريخ لبنان»... وصولاً إلى المؤتمرِ اليومَ حولَ «لبنان في كتاباتِ الرَّحّالةِ»... كلُّها تُقَلِّبُ صفَحاتٍ من ذاكرةِ وطِننا لبنانَ من أجلِ تأكيدِ تَجذُّرِنا فيه بخاصّةٍ وفي الشَّرقِ بعامّةٍ. من هنا، تتعدّى أهمّيّةُ هذه المؤتمراتِ القيمةَ العِلميّةَ لِتَغْدُوَ، عبرَ تسلْسُلِها، وتَتابُعِها المُنتظَم، مشروعاً إنسانيّاً ووطنيّاً ذا أهدافٍ حضاريّةٍ واضحةِ المعالِم.

رابعاً: حُسْنُ التنظيمِ والإعداد؛ وإنَّ نظرةً إلى جدولِ أعمالِ المؤتمرِ وتَوزيعِ النَّدَواتِ فيه، كافِيَةٌ لتَلَمُّسِ الجُهدِ الكبيرِ والعملِ الدَّقيقِ اللَّذين تَطَلَّبَهما إعدادُ هذا المؤتمر.

هذا، أيّها الأصدقاء، بعضُ ممّا يستوقفنا في هذه المحطّةِ الثّقافيّةِ العريقةِ في فرعِنا.

ولا يَسَعُني في هذا الإطار إلاّ أن أهنِّئَ رئيسَ وأساتذةَ قسمِ التاريخِ على مجهودهم في تنظيم هذا اللقاءِ الرّاقي. وأقولُ لهم ولجميعِ المشترِكينَ في المؤتمر: وَفَّقَكُمُ اللّهُ في مُعالجةِ الإشكاليّاتِ المطروحةِ بكلِّ موضوعيّةٍ ومنهجيّةٍ؛ وإنّي لعلى يقينٍ بأنّ التَّوصياتِ التي ستخرجونَ بها، سوف تُسهِمُ في إضافةِ مداميكَ عِلميّةٍ جديدةٍ، ثابتةٍ ومتينةٍ، إلى الصَّرحِ الثقافيِّ الشّاهقِ الذي نَذَرتُم أنفُسَكُم لإشادتهِ.

عشتم، عاشتِ الجامعةُ اللبنانيّةُ، وعاشَ لبنان.

كلمة قسم التاريخ ومعدّ المؤتمر

د. عبد الله الملاّح

تمرُّ السِنون، وتتوالى معها مؤتمرات قسم التاريخ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ الفرع الثاني. يُعقد مؤتمر هذا العام كالعادة، بمؤازرة نخبة كريمة من الزملاء الكرام القادمين إلينا، من مختلف فروع الجامعة اللبنانية، ومن الجامعات الخاصة والأجنبية. لهذا يسرُّني وزملائي في قسم التاريخ، وفي الجمعية التاريخية اللبنانية، أن نرحب بكم، وأن نلتقي معاً في جامعتنا الوطنية على مدى يومين كاملين للحوار العلمي البنّاء، والتفاعل الحضاري المفيد.

يَرفعُ مؤتمرُنا هذا العام موضوعاً لافتاً استحوز على اهتمام بحاثة ورحالة وأدباء ومغامرين منذ فجر التاريخ، ويتمحور حول «لبنان في كتابات الرحالة»، ويمتد زمنياً على امتداد عشرة قرون، أي منذ القرن الحادي عشر ق.م حتى بدايات القرن العشرين. ترى لماذا آثر هؤلاء المفكّرون والأدباء، البحث حول الرحالة إلى لبنان بخاصة، والشرق بعامة؟

مما لا شك فيه أن المجيء إلى لبنان في تلك القرون الغابرة لمغامرة عظيمة. فمنهم من قصدَ الشرق استكشافاً واستطلاعاً، ومنهم من جاءه لغاية سياسية أو اجتماعية أو دينية... فاطّلعَ ودرسَ شؤون المجتمع، وطبائعَ السكان، وطوائفَهم وعاداتِهم وأزياءَهم، كما اهتم بالنواحي السياسيةِ والاقتصاديةِ والفكريةِ والثقافيةِ والفنية إلخ... المهم أن هؤلاء المغامرين

خرجوا من لبنانَ بانطباعاتٍ وأحاسيسَ نشروها بالطبع، وتركوها أثراً بعد عين.

لا نذيعُ سراً إن قلنا أن انطباعاتِ هؤلاء الرحالة قد تراوحت بين الإيجابية والسلبية[١]، فمنهم من أحبَّ هذا الجبل الأشمّ حتى العشقَ، ومنهم من ذمَّهُ وقبَّح بعضَ عاداتِه واستنكرها أو استغربها، كعادة تزيّنِ الرجالِ بالسلاح في القرون الفائتة، التي رأى فيها غودار Goudard أمراً يثيرُ الخوفَ والرعب في النفوس[٢]، أو انتقاد خلوّ البلاد من مهندسين معماريين، وإظهار عجز البنائيين عن صنع زوايا مستقيمة، وخطوط عمودية وسطوح متساوية[٣]...

إن هذه المواقف النابعة من أعماق الرحالة أمر طبيعيٌّ نظراً لتنوّع شخصياتِ هؤلاء وتعدّدِ جنسياتِهم ومشاربِهم واتجاهاتِهم ومشاعرِهم وانطباعاتِهم وثقافاتِهم.

أيها السادة

«الأوطان تكبُر باهلها وتصغرُ أيضاً بأهلها[٤]»، ونضيفُ إلى هذه المقولة أن لبنان يكبرُ أيضاً بمحبّيه الذين ذاقوا في سبيله مرارة الطريق يوم كانت طرق المواصلات تعزّ على عابري السبيل، وتغنوا به شعراً ونثراً، وفُتنوا بسحر جمالِه وطبيعتِه، يومَ كان مثل هذا الكلام من القطع النادر، وكتبوا عنه بمختلف اللغات، من الهيروغليفية الفرعونية القديمة إلى اللغات الحية العصرية.

(١) أميره جبر: الرحّالة الفرنسيون في موطن الأرز، ١٩٩٣، ص ٤١١.
(٢) المرجع نفسه، ص ٤١٨.
(٣) المرجع نفسه، ص ٤٢٠.
(٤) الياس القطار: كلمة معدّ المؤتمر، في كتاب دولة لبنان الكبير (١٩٢٠ ـ ١٩٩٦)، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٩٩، ص ١٩.

ومن القطع الأدبية الجميلة التي قيلت في لبنان، شهادة أديبٍ كبيرٍ، زار وطنَ الأرز وشُغِف به، وأودَعَ ترابَه رفاةَ فلذة كبده «جوليا». إنها شهادةُ الشاعر الفرنسي الكبير الفونس دي لامارتين (١٧٩٠ ـ ١٨٦٨) الذي كتب يقوله:

«Le Liban a un caractère que je n'ai vu, ni aux Alpes, ni au Taurus: c'est le mélange de la sublimité imposante des lignes et des cimes, avec la grâce des détails et la varieté des couleurs... Ce sont les Alpes sous le ciel de l'Asie...?»(1).

هكذا شاهد لامارتين لبنان. فكيف نظر إليه سائرُ الرحالة، الأجانب منهم، والعرب؟.

سؤالٌ يحاولُ الإجابة عليه ثلاثةٌ وعشرون باحثاً أكاديمياً في المحاضرات المتتالية.

أيها الحفل الكريم

لن استطردَ في الكلام على الرغم من جاذبية الموضوع وإغراءاتِ الموقع، تاركاً للمؤتمرين الكرام وضعَ النقاطِ على الحروف، شاكراً حضورَكُم الغالي، مقدراً جهودَ حضرة العميد وحضرة المدير اللذين حضنا مؤتمرنا العلمي هذا، موجهاً آيات الشكر والتقدير أيضاً لكل من ساهم معنا من الأساتذة والباحثين والإداريين في سبيل إنجاح هذا المؤتمر. ولن أنسى بالطبع طلابَنا الأعزاء والهيئة الطلابية الذين شاركوا في التحضير والتنظيم.

عشتم، عاشت الجامعة اللبنانية، عاشت كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وعاش لبنان

(١) A. De Lamartine: Voyage en Orient. Paris, Hachette, 1903, T.I.

كلمة مقدم الاحتفال

د. فؤاد بوسابا

تاريخ لبنان في كتابات الرَّحالة، موضوع بحثٍ جديدٍ يُضاف إلى المواضيع العديدة والمهمَّة التي عالجها قسم التاريخ في هذا الصرح العلمي.

ناهيك عن المحاضرات والمداخلات القيِّمة التي أعدَّها أكثر من أستاذ فيه، في مناسبات علمية عديدة داخل لبنان وخارجه.

وكأننا في ذلك قد تعهدنا بعدم ترك أيةَ إشكالية تاريخية دون الغوص في غمارها. فنحن معشرُ هذه الكلية بشكل عام وأساتذةُ قسم التاريخ فيها بشكل خاص تواقون للانطلاق من الحقائق العلمية الثابتة، دون الأخذ بالفرضيات التقليدية الخالية من أي مضمون علمي. لأننا مصممون على كشف الحقائق التاريخية البعيدة عن النزعات الأيديولوجية.

واليوم أخص بالذكر «تاريخ» بالذات، الذي هو موضوع خلافٍ وتباينٍ في بعض جزئياته، ومن خلال هذا المؤتمر الذي شاركَنا في إعداده «الجمعية التاريخية اللبنانية» وسيشارك في جلساته أساتذةٌ كبارٌ يتميزون بالموضوعية والنزاهة والمقدرة العلمية بقصد أن نصل إلى بعض الحقائق التاريخية التي تساعدنا على الاطلاع على مميزات هذا الوطن وفرادته التاريخية، وتحليه بخصوصية كيانية دائمة.

آملين مشاركتكم الفعَّالة والموضوعية، لعلنا وإيّاكم نصلُ إلى محطات تاريخية ثابتة تكون بمثابة أسانيد وركائز تاريخية مستقبلية لهذا الوطن.

رحلة ون ـ آمون إلى جبيل
في منتصف القرن الحادي عشر قبل الميلاد

د. عصام ع. خليفة[*]

يعود تاريخ العلاقات بين مصر والساحل الكنعاني عامة ومدينة جبيل خاصة إلى فترات الدولة القديمة في مصر، أي بدايات الألف الثالثة قبل الميلاد، ولم تنقطع هذه العلاقات حتى الفترات التاريخية المتأخرة. وشهد على هذه الصلات الحضارية الكثير من الأدلة الأثرية والأدبية.

وتعد قصة ون ـ آمون، مبعوث كبير كهنة آمون حريحور في زمن الفرعون رعمسيس الحادي عشر من الأسرة الحادية والعشرين، قصة لرحلة مميزة حدثت تقريباً عام ١٠٧٦ قبل الميلاد، في جوٍ أخذ فيه ظل السيادة المصرية على الساحل الفينيقي بالتقلص. وسرد ون ـ آمون المصاعب التي لاقاها، وكيف نهبت أمواله وأمتعته في ميناء دور، وكيف قابله ملك جبيل ذكر بعل، الذي قدم لمقابلته ليحصل على خشب الأرز لبناء مركبة فخمة للإله آمون. ويبدو من الاستقبال البارد والمعاملة الفظّة التي لقيها المبعوث في قصر ملك جبيل، إنه لم يعد باستطاعة مبعوث فرعون أن يفوز بالإجلال والإكرام عند ملك جبيل أو غيره من ملوك المدن ـ الدول الفينيقية، ويبدو من شكوى ون ـ آمون حيث قضى ١٩ يوماً في ميناء جبيل، وكان يرسل إليه

(*) أستاذ في قسم الآثار، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الفرع الأول، الجامعة اللبنانية.

ذكر بعل بأن ينصرف عنه، وبأنه لن يعطيه ما يطلبه إذا لم يدفع نقداً. وهذه المعاملة الفظّة تختلف اختلافاً تامّاً عن الخنوع الذي كان يبديه أمراء المدن ـ الدول الكنعانية والفينيقية في رسائل تل العمارنة عند مخاطبتهم فراعنة مصر. ويبدو أن أوراق اعتماد ون ـ آمون لم تكون كافية وصالحة للمثول أمام أمير جبيل. وأخيراً حنّ قلب الأمير عليه، وبعد صلاة للإله آمون، قبل أن يحضر إلى مجلسه وخاطبه الأمير بلهجة غطرسة وإباء وبأنه ليس خادماً للذي بعث بون ـ آمون إلى الأمير. فأجابه ون ـ آمون بأن البحر ولبنان هو للإله آمون. ولكن هذا الدفاع لم ينفع، مع اعتراف أمير جبيل بتفوق مصر الثقافي، ولكنه يرفض بشدة الاعتراف بسيطرة مصر على جبيل. ولم ينزل الأمير عند طلب ون ـ آمون إلا بعد أن قبض ثمن الأخشاب.

أكمل ون ـ آمون رحلته إلى مصر عن طريق قبرص بعد أن تعرض لبعض المصاعب وكتب تقريره بشكل قصة تعكس أجواء الرحلة والمصاعب التي لاقاها.

إن هذا التقرير يلقي الكثير من الأضواء على الأوضاع السياسية والاقتصادية خلال القرن الحادي عشر ق.م. وأهم ما نلاحظه:

- **أولاً**: استقلال المدن ـ الدول الفينيقية اقتصادياً وسياسياً.
- **ثانياً**: تعاطي التجارة من قِبل وكالات تجارية تابعة للملك سمندس في تانس بمصر. ووكالة أخرى تابعة لملك صيدا برئاسة وكيله (وركات ـ إيل)، وأن هذه الوكالات تابعة مباشرة للملك، يمثله وكلاء وموظفين كرؤساء مينا. ومن خلال السلطة المشرفة على الموانئ، كان يتم مراقبة نشاطات التجار الأجانب.
- **ثالثاً**: إشراف ملك جبيل مباشرة على تجارة أخشاب الأرز من قطعها ونقلها والإتجار بها، ولم تعد قضية هدايا ملكية. فعدم وجود تغطية

لأثمان هذه الأخشاب، وأوراق اعتماد رسمية صالحة المفعول يؤدي إلى إيقاف التعامل التجاري، بغض النظر عن أطراف التعامل ومكانتهم السياسية.

- **رابعاً**: أهمية ومقادير الأخشاب المطلوبة والأثمان الواردة. ففي طلب واحد أرسل (ذكر ـ بعل) ثلاثماية عامل وثلاثماية ثور لقطع ونقل الأخشاب. كما أن الصفقة شملت أوزان كبيرة من الذهب والفضة وكميات كبيرة من الكتّان الجيد والأثواب والحبوب والأسماك المجففة، والكثير من لفائف ورق البردى كما علمنا من أن أرشيف الميناء يشير إلى صفقة سابقة شملت ستة سفن محملة بالبضائع المصرية. مما يشير إلى ازدهار حركة التجارة وقدمها، وبأنها تعود إلى أيام جد (ون ـ آمون)، أي تعود للقرن الثاني عشر ق.م. وأن أثمان هذه السلع مبنية على أساس سعر مقايضة ثابت مقابل أثمان خشب الأرز.

- **خامساً**: الأطراف في هذه التجارة العالمية كانت المدن ـ الدول الفينيقية. المدن المصرية، بعض جماعات شعوب البحر، حيث هناك إشارة واضحة لجماعات (TJEKKER) في ميناء دور بشمال فلسطين.

- **سادساً**: إشارة إلى الترتيبات التجارية التي تربط موانئ شرق المتوسط وقبرص ومصر، حيث نشاطات تجارة البرونز والنحاس خاصة. كما أن وجود شخص مصري في ميناء قبرص يعد إشارة واضحة إلى علاقة قبرص مع كل من الموانئ الفينيقية والموانئ المصرية.

- **سابعاً**: يشير التقرير إلى أهمية ميناء صيدا في هذه الفترة. حيث كانت ترسو خمسون سفينة، بينما كان في ميناء جبيل عشرون سفينة فقط. ممّا يدعم الرأي السائد بأن صيدا كانت تترأس المدن الفينيقية في القرنين الثاني عشر والحادي عشر ق.م. تليها جبيل ومن ثم صور. وإن المدن الفينيقية إجمالاً، استعادت نشاطها الاقتصادي بعد النكسة التي تلت

ظهور شعوب البحر في شرق المتوسط في أوائل القرن الثاني عشر ق.م.

- **ثامناً**: يشير (ون ـ آمون) إلى أن ملك جبيل طلب استشارة الأرشيف الملكي ليدعم دفاعه عن قدم التعامل بين جبيل وفراعنة مصر وعن المبالغ التي كانت تدفع ثمناً للأخشاب. وهذا دليل مهم يشير إلى احتفاظ المدن الفينيقية بأرشيف ملكي. وقد علمنا أن صور كذلك احتفظت بأرشيف مماثل، ادعى المؤرخ (مننذار) من أفسوس بأنه ترجم هذا الأرشيف إلى اليونانية.

- **تاسعاً**: تعكس القصة واقع الحالة السياسية والاجتماعية في مصر وتعطينا مؤشراً حقيقياً عن الوضع السياسي آنذاك، فقد عاش (ون ـ آمون) في فترة اضطراب، وكان لهذا الاضطراب صدى في البلاد المجاورة، ولم يعد لمصر أي نفوذ في الأقطار الآسيوية. فمصر مقسمة إلى منطقتين تخضع كل منها لأمير شبه مستقل تقريباً، شمالاً مقاطعة الأمير (سمندس) وقاعدتها ممفيس، وجنوباً تخضع لكبير كهنة آمون، (حريحور) وهو مُرسل (ون ـ آمون) وقاعدة هذه المقاطعة في طيبة. وكلا المنطقتين تخضعان اسمياً للفرعون رعمسيس الحادي عشر من الأسرة الواحدة والعشرين.

وقد كان الفرعون يميل إلى جانب (حريحور) رغم اعترافه بسلطة (سمندس) في الشمال على مضض. وبعد ذلك سارت البلاد من سيئ إلى أسوأ مع اشتداد نفوذ كهنة آمون وضعف الفراعنة.

تعتبر قصة (ون ـ آمون)، إلى جانب صبغتها التقريرية والإدارية، من عيون أدب الرحلات في العصور القديمة، ونموذجاً لأسلوب الكتابة واللغة المصرية القديمة في عصورها الأخيرة، كما تحمل أكثر من شاهد على ازدهار المدن الفينيقية واستقلالها في تلك الفترة وعلاقتها المميّزة مع مصر، إضافة

إلى الإشارة لاعتزاز المبعوثين المصريين أثناء تمثيلهم لفراعنتهم ومعبودهم الرئيسي آمون حتى في فترات الضعف وعدم الاستقرار، كما تشير إلى لباقتهم وحنكتهم عند مواجهة المصاعب في الخارج.

يضاف إلى ذلك أن المصري قديماً عرف بحبه للأدب بصورة عامة، وكان الكاتب ينظر إليه نظرة الشخص المحترم، فكان يتمتع بشيء من الاستقلالية، أما ما عداه من الأشخاص فكان تابعاً محكوماً. وهذا يدل على شأن الكتّاب حيث كانوا يرتفعون سريعاً ويتقلدون أعظم المناصب وأرفعها، ولهذا كانت مهنة الكتابة مفضلة عن كل ما عداها من المهن الأخرى، وقد يصبح الكاتب أميراً حكيماً، وكان المصري قديماً يعتقد بأن الكاتب يصل إلى الإله (تحوت) الذي يهبه العلم وينير له السبيل.

ولقد ترك لنا هؤلاء الكتبة مجموعة من الأدبيات تغطي مختلف أنشطة الإنسان، وعكست أحوال المجتمع والعلاقات العامة والصلات الحضارية والتاريخية بين مصر القديمة والدولة المجاورة.

لائحة المراجع

1 - Gardiner, Sir Alan, *Egypt of the Pharoahs*, oxford: At the Clarendon press, (1962), pp: 306 - 313.

2 - Kitchen, K.A., *The third intermediate period in Egypt*, Warminster, England: Aris & Phillips, (1973), pp: 16 - 17; 250 - 252.

3 - Pritchard, J.B., Editor, *Ancient Near Eastern Texts relating to the old testament*, princeton: princeton university press, (1969), pp: 25 - 29.

لبنان في كتابات الحُجّاج الأوّلين

(٣٣٣ ـ ٦٧٠)

الأب أغناطيوس سعاده م.ل. (*)

ترتبط الرحلات القديمة إلى لبنان أو الساحل الفينيقي، بالنسبة إلى مسيحيي الغرب، بالحج إلى الأرض المقدسة، ذهاباً أم إياباً أو الأمرين معاً. إنه طريقهم المحتومة وممرّهم الطبيعي، نظراً للامتداد الجغرافي من جهة، ولكون لبنان وبعض مدنه الساحلية وردت أسماؤها في الكتاب المقدس منذ عهد سليمان الحكيم وحيرام ملك صور فضلاً عن زيارة السيد المسيح لها من جهة ثانية. ولم نعثر، خلال الحقبة التي نؤرخها هنا، على حاجّ تسلّق الجبال وزار منطقة الأرز أو المواقع الأثرية، باستثناء واحد فقط مرّ في بعلبك مروراً عابراً، لأن مقصِدهم هو الأرض المقدسة.

بعد أن منح الأمبراطور قسطنطين الكبير، بمرسوم ميلانو سنة ٣١٣، الحرية للكنيسة، وتصالح العرش والمذبح، ورُفع الاضطهاد عن أعناق المسيحيين، أخذت طلائع الحجّاج تتدافع نحو الشرق للتبرّك بقبر المسيح ومهده. فحوالى سنة ٣٢٠، كتب المؤرخ الكنسي أوسابيوس القيصري أن المؤمنين الآتين من كل مكان كانوا يتجمعون للصلاة في جبل الزيتون وعلى الجلجلة وفي مغارة الميلاد ويعتمدون في الأردن في المكان الذي اعتمد فيه السيد المسيح.

(*) مدير تحرير مجلة المنارة.

وسنة ٣٢٦، حجّت القديسة هيلانة، أمّ قسطنطين، إلى القدس بحثاً عن الخشبة التي صُلب عليها ابن الله المتجسد وشيّدت مكانها كنيسة القيامة وكنائس أخرى في غير أماكن من الأرض المقدسة. وأشار القديس أيرونيموس (جيروم) في أواخر القرن الرابع إلى أن الحجّاج كانوا يأتون من الهند والحبشة وغاليا وبريطانيا وإيبيريا وإيرلندا: أكليروس وعلمانيون، رجال ونساء، أفراد وجماعات، ارستقراطيون ومن عامة الشعب. ومنهم من قضى شهوراً، ومنهم سنوات، ولكن الذين دوّنوا رحلاتهم قليلون جداً.

ومع توالي السنين، وُضع للحجّاج شروط تنظم طريقة مسيراتهم: زيّ خاص بالتائبين، ديبلوما يحمل اذن الملك وهو نوع من جواز سفر يعرّف عن صفتهم الدينية والاجتماعية، فنادق خاصة لإقامتهم. وبعضهم كانوا يأتون مشاة على الأقدام، والبعض الآخر ممتطين الخيول المطهّمة. ومعظمهم كانوا يأخذون البحر إلى إحدى الموانئ القريبة ومنها يواصلون السير، فيقضون إما استراحة قصيرة (mutationes = relais) في المدن التي يمرّون فيها، أو الإقامة ليلة أو أكثر (mansiones = étapes) في نزل خاص مع اصطبل للمركوب واستبداله بآخر. وإذا ما نزلوا بحراً في طرطوس مثلاً، أخذوا حتماً طريق الساحل الفينيقي حتى عكا، ومنها إلى الناصرة وجوارها فأورشليم وبيت لحم وغيرها. وبعد انتهاء فريضة الحج، كان بعضهم يدخل صور من عكا ويتابع ساحلاً حتى طرابلس، ومنها يدخل سوريا حتى أنطاكيا عائداً إلى بلاده.

وكان يروق لبعض المتعلمين والمثقفين منهم تدوين مشاهداتهم وانطباعاتهم أو تكليف أحد مرافقيهم بهذه المهمة. وغالباً ما كانوا يذكرون المسافة بين مدينة وأخرى إما باليوم أو بالميل الذي تختلف قياساته البحرية والبرية، وبحسب كل بلد. وهذه المدوّنات بشكل يوميات سفر حُفظ قسم منها بفضل النسّاخ الذين تناقلوها عن بعضهم البعض منذ تلك العصور

السحيقة؛ وبعضها مبتور أو غير واضح القراءة بسبب فعل الزمن فيها، إلى أن اكتشفها الباحثون في خزائن الأديار في القرن التاسع عشر، وأخذوا بنشرها إما على علاّتها دون أي تعليق أو في طبعات نقدية مقارنة وبترجمتها عن لغتها الأصلية إلى اللغات الحديثة. فظهرت الفروقات بين نص وآخر، كما ظهرت الأخطاء في كتابة أسماء بعض الأماكن، كما سنرى بالنسبة إلى المدن الفينيقية التي صعب علينا أحياناً ضبط أسمائها الصحيحة، وقد كتبها الحجاج كما سمعوها من أفواه المواطنين وكما قرأها كل ناسخ. وهناك أيضاً اختلاف بين الناشرين أنفسهم حول تاريخ رحلة بعض الحجاج. كذلك حول جنسية بعضهم وصفته الكنسية أو الاجتماعية.

لقد وقعنا في تحرياتنا على أسماء سبعة حجاج مروا في لبنان على مدى ٣٣٥ سنة، وكتبوا بعض الشيء عنه. نستعرضهم هنا متبعين التسلسل الزمني من الأول إلى الأخير.

١ ـ حاج بوردو (٣٣٣):

إنه طليعة الحجاج الغربيين المعروفين حتى اليوم، الذي مرّ على ممتد الساحل الفينيقي من عرقا شمالاً حتى صور جنوباً. وقد ظل اسمه مجهولاً؛ فعُرف باسم مدينته بوردو (Burdigalense). اتفق الباحثون على اسم موطنه وتاريخ رحلته لذكره ذلك في مطلع كتابه، واختلفوا على صفته وشخصيته. فقال بعضهم إنه مسيحي متهوّد، ورجح البعض أنه أسقف المدينة، وارتأى البعض الآخر أنه موظف كبير في الامبراطورية كونه يستخدم البريد الرسمي ويتجول على الطرقات الرومانية في أفضل الحالات.

خرج سنة ٣٣٣، كما يقول في الأسطر الأولى، «من مدينة بورديغالا، القائمة على ضفاف نهر الغارون (Fluvius Garonna)...». ورسم جدولاً دقيقاً بالمدن التي اجتازها من موطنه حتى عودته إليه محدداً المسافة بين موقع

وآخر دون أن يقدم لنا أي وصف حتى دخوله الأرض المقدسة حيث أخذ في تدوين ما شاهده وما سمعه وما قرأه عنها.

دخل لبنان من اللاذقية قادماً من أنطاكية، ومنها اجتاز جبلة وبانياس «حدود سوريا الثانية وفينيقيا». ثم بلدات خراب مرقيّة وإرواد «وهي مدينة في البحر تبعد ميلين عن الشاطئ». ومنها إلى المنطار وتل البيرة، وهي في سوريا الحالية.

ونتتبّع خطواته داخل الأراضي اللبنانية كما سجّلها الحاجّ على النحو الآتي. والكلام له:

«عرقة (Arcas) ٨ أميال. إقامة.

الباردة أو خان العبدة (Bruttus, Brutius) ٤ أميال. استراحة.

مدينة طرابلس (Civitas Tripoli, Trepoli) ١٢ ميلاً.

الهري (Triclis, Trecles) ١٢ ميلاً. استراحة.

البترون (Bruttosalia, Bratto salia) ١٢ ميلاً. استراحة».

نلاحظ هنا التقارب اللفظي بين الباردة والبترون، والمعنى الحرفي لهذه الأخيرة هو الباردة الأخرى أو الباردة المالحة. وكلا اللفظتين خطأ وقع به إما السائح أو النساخ؛ ولعلهم قصدوا كتابة Botrys وهو الاسم الأصلي للبترون. كما نلاحظ الخطأ نفسه في كتابة Triclis وهي الهري، والصحيح هو Triaris.

ويتابع الحاج:

«جبيل - بيبلوس (Alcobile. Alcovile) ١٢ ميلاً. استراحة.

مدينة بيروت (Civitas Birito, berito, bireto) ١٢ ميلاً».

نشير هنا أيضاً إلى قصر المسافة بين جبيل وبيروت دون أن يأتِ الرحّالة

على ذكر الأماكن التي اجتازها إلى بيروت. كما نلفت النظر إلى أن ترجمة مارافال الفرنسية استعاضت عن (Alcobile) بكلمة (Palaiobiblos) وهي لا وجود لها في النص الأصلي اللاتيني، وعلّق عليها المترجم الفرنسي: «جونيه أو صربا» بدلاً من جبيل التي أسقطها في تعليقه، ومعناها الحرفي هو «بيبلوس القديمة»، علماً بأن المترجم المذكور يصرّح بأنه اعتمد النص اللاتيني الذي اعتمدناه نحن وهو لا يتضمن هذا الاسم إطلاقاً.

وبعد بيروت، يتابع الرحالة:

«خلدة (Heldua, Eldua, Heldusa) ١٢ ميلاً. استراحة.

الجيّة (Porphirion, Parphirion, Parpinon) ٨ أميال. استراحة».

هنا ينقص سطر تركه الناشر اللاتيني بياضاً، وكتب في الحاشية عن مخطوطة أخرى:

«صرفند (Sarepta) ٩ أميال. وإلى هناك صعد إيليا عند الأرملة وطلب منها طعاماً»، إشارةً إلى ما جاء في سفر الملوك الأول ١٧/ ١٠. أما المترجم الفرنسي مارافال فأثبت هذا النص بكامله في المتن بعد الكلام عن صيدا.

«مدينة صور (Civitas Tyro) ١٢ ميلاً.

من أنطاكية إلى صور ١٧٤ ميلاً و٢٠ استراحة و١١ إقامة».

ومن اللافت أن حاج بوردو لم يذكر الإقامة ولا الاستراحة لدى مروره في ما يسمّيها «المدن»، مثل طرابلس وبيروت وصيدا وصور.

ومن صور عبر إلى الأرض المقدسة بطريق أكديب (Ecdeppa) وعكا (Ptolomaia) وصولاً إلى قيصرية، وكتب: «من صور إلى قيصرية فلسطين (Caesarea Palestina) ٧٣ ميلاً واستراحتان وثلاث إقامات»[1].

(١) **Geyer,** o.c... Itinerarium Burdigalense, pp. 17-19; **Maraval,** o.c... Le pèlerin de Bordeaux, pp. 27-28.

٢ ـ ايجيريا أو ايتيريا (٣٨٤):

بعد خمسين سنة، حجت إحدى النبيلات الإسبانيات التي ذكر عنها أنها تتصل بقرابة نسب بالامبراطور تيودوسيوس الأول المولود في جليقية في شمال اسبانيا، وهو الذي أعلن المسيحية ديانة الدولة وحرم الوثنية وهدم معابدها اعتباراً من سنة ٣٨٠. وتأكد مؤخراً، من خلال تحليل نصوص رحلتها، أنها راهبة من دم ملوكي رئيسة أحد الأديار في جليقية. في العام ١٨٨٤، أي بعد مرور ١٥٠٠ سنة تماماً، نُشرت النسخة اللاتينية لرحلتها في دير Arezzo في إيطاليا، ومصدرها دير Montecasino نسخها بطرس الشماس سنة ١١٣٧ مع مجموعة رحلات، وأعطاها خطأ اسم القديسة سيلفيا، وبعدها ترجمت الرحلة إلى عدة لغات تحت اسم ايجيريا أو ايتيريا، وهي عبارة عن رسالة طويلة كتبتها الرئيسة إلى أخواتها الراهبات تصف لهن فيها مشاهداتها[1].

غير أن المخطوطة المذكورة طبعت ناقصة كثيراً في أولها الذي يبدأ بوصف جبل سيناء، وتنتهي فجأة في جبل الزيتون في أورشليم، وساقطة منها صفحات داخلية يصعب ضبط عددها، الأمر الذي حرم الباحثين معرفة أين بدأت الرحلة وأين انتهت. فالراهبة الحاجّة تتحدث داخل النص عن عودتها مروراً بأنطاكية حيث أمضت أسبوعاً، ومنها إلى كيليكيا والقسطنطينية وأفسس. ثم تقطع ذلك لتعود فتصف لأخواتها حفلات الشعانين وأسبوع الآلام في جبل الزيتون. فأيَ طريق سلكت ايتيريا للدخول إلى الأرض المقدسة ثم للذهاب إلى أنطاكية والعودة إليها إن لم يكن مروراً بالساحل

(١) **Geyer,** o.c... S. Silviae, quae fertur, peregrinatio ad Loca Sancta, pp. 37 ss; **Maraval,** o.c. Egérie, pp. 37 ss,; **Idem,** Egérie. Journal de voyage, Cerf, Sources chrétiennes, n. 296, 1982; **Jean Raymond,** Ethérie doyenne des voyageuses d'Orient, in **Charbel. Le Liban mystique**, n. 2, 1958, pp. 113-119.

اللبناني؟ أن سرّ ذلك ذهب مع النصوص المبتورة ولا مجال للعثور عليها. لذلك لن نتوقف عندها.

٣ ـ أيرونيموس وباولا (٣٨٥):

بعد ايتيريا بسنة واحدة، عاد القديس ايرونيموس من روما (وموطنه الأصلي دالماسيا وهي في كرواتيا اليوم) إلى الأرض المقدسة وأقام فيها ٣٥ سنة حتى وفاته في بيت لحم سنة ٤٢٠. في رسالة له عن تلميذته النبيلة الرومانية باولا وابنتها اوستاكيو اللتين التحقتا به وأقامتا في بيت لحم حيث أسّستا أدياراً وتنسّكتا، يقول عن باولا: «فأنتقل إلى رحلتها في سوريا الثانية وفينيقيا، وليس قصدي أن أكتب قصة سفَرها، بل أذكر فقط الأماكن الواردة في الكتب المقدسة. بعد أن مرّت في بيروت المستعمرة الرومانية، وفي صيدا المدينة العريقة، دخلت علّية إيليا الصغيرة على شاطئ الصرفند وسجدت هناك للسيد المخلص. ثم تابعت على شواطئ صور حيث ترك بولس آثار ركبتيه» (إشارةً إلى الكلام عن بولس عندما ودّع صور مع رفاقه: «وجثونا على الشاطئ وصلّينا» (أعمال ٢١/ ٥). «ووصلت إلى عكا ودخلت بلاد فلسطين وتجولت في الناصرة حيث تربى المخلص، وفي قانا وكفرناحوم أمكنة العجائب، وبحيرة طبريا»[1].

وترك أيرونيموس في كتاب آخر شهادات حية عن صور وقانا وغيرهما، متأثراً بكتاب أوسابيوس القيصري، «الاسمائيات» (Onomasticon) الذي نقله عن اليونانية إلى اللاتينية، وأضاف إليه مُلحقاً ذكرَ فيه أن قانا تبعد عن صور ١٤ ميلاً. وعلى هذه الشهادة اعتمد أصحاب الرأي القائل بأن قانا التي اجترح فيها يسوع أولى معجزاته إنما هي قانا اللبنانية الواقعة في قضاء صور في منطقة جليل الأمم.

(١) **Maraval,** o.c... Jérôme et Paula, p. 148.

٤ ـ أوكيريوس أسقف ليون (٤٤٥):

هي رسالة طويلة حول طوبوغرافية الأرض المقدسة بعث بها «إلى فوستوس كاهن الجزيرة»، وهي جزيرة Lérins وفيها دير للرهبان السيسترسيين كان فوستوس رئيساً عليه قبل أن يصبح بدوره أسقفاً على مدينة Riez في جبال الألب. وفي هذا الدير ترهب أوكيريوس قبل تسقيفه على أبرشية ليون. ويرى البعض أن هذا الأسقف لم يحج شخصياً الأماكن المقدسة بل جمعَ معلومات عنها من مؤلفات أيرونيموس ويوسيفوس اليهودي وأرسلها إلى فوستوس بشكل رسالة.

ومهما يكن من أمر، فما يهمنا هنا أنه في كلامه عن امتداد أرض الموعد طولاً وعرضاً، ينقل بالواقع مقطعاً عن أيرونيموس الذي أخذه بدوره عن أسفار العهد القديم. أما عن حدود اليهودية فيقول أوكيريوس: «إن بلاد اليهودية تمتد من شمال دان إلى بئر سبع. ودان هي في الواقع قرية صغيرة جداً على الحدود الشمالية من اليهودية على بعد أربعة أميال من بانياس (أي قيصرية فيلبس) على طريق صور. ومنها ينبع الأردن ويأخذ اسمه من هذا الموقع. ولكن العبرانيين يسمون هذا النهر يور، في حين أن بئر سبع هي قرية كبيرة على مسافة عشرين ميلاً جنوبي حبرون».

وعندما يتحدث عن حدود الجليل، يقول: «وفلافيوس يوسيفوس المؤرخ اليهودي الشريف يصف طوبوغرافية كل هذه المنطقة. فيميز في روايته بين حدود الجليل والسامرة وبقية الأمم التي تلامس حدود سوريا وفينيقية، وهي تختلف عنها. فلجهة الغرب توجد بطوليمايس (عكا) مع حدود أراضيها، وجبل الكرمل الذي كان سابقاً تابعاً للجليل وهو اليوم جزء من أرض الصوريين، وتتصل بهذه الأرض جبعة التي كانت سابقاً سبباً لكارثة كبيرة بالنسبة إلى اليهود. ولجهة الشرق توجد هيبانة وغدرة مع أراضيهما.

وهذه الحدود كانت في الأزمنة الغابرة تابعة لمنطقة الجولان (Gaulatinidi) ولمملكة أغريبا (كانت عاصمتها عنجر)... وشمالاً تشكل صور ومنطقة الصوريين الحدود من الجهة اليمين».

«ويقسم الجليل على النحو الآتي: إن ما يسمى الجليل الأدنى يمتد من مدينة طبرية حتى المدينة المسماة زابولون فوق عكا البحرية، ويمتد عرضاً من قرية شالوت Chalot (اوجالود) الواقعة في سهل فسيح حتى بئر سبع. هناك يبدأ الجليل الأعلى حتى يصل إلى قرى Bacatae (البقاع؟) وحدود أرض صور. وينطلق طولاً من قرية طالا (Thoalla) القريبة من الأردن. وهذا ما يجعلنا ندرك كم هي واسعة أرض الجليل التي تبدأ من الأردن وأن نعرف أن نميّز بين الجليلين... وتمتد اليهودية عرضاً من نهر الأردن حتى يافا. تبدأ من منابع الأردن وجبل لبنان وتمتد حتى بحيرة طبرية، وطولاً من قرية عرفة (Arfa) وتمتد حتى قرية (Iuliadem) التي يقيم فيها اليهود والصوريون معاً»[١].

٥ ـ تيودوسيوس (٥١٨):

حاج من أوائل القرن السادس مجهول الهوية والصفة. وفي رأي البعض أنه شماس أفريقي، وأن كتابه هو «دليل» للأرض المقدسة من مجموعة شهادات وإفادات منها شخصية ومنها مستقاة من مصادر قديمة. وقد رصدنا له هاتين الإفادتين عن الصرفند وعن قانا:

«صارفة صيدا المذكورة في الكتاب المقدس هي في فينيقية، سوريا الثانية، قرية من جبل الكرمل.

(١) **Geyer,** o.c... Eucherii... Epistola ad Faustum presbyterum, pp. 130-132; **Maraval,** Récits.. Eucher, pp. 174-175.

وقد ترجمها بلفظة Julias، ولعلها قرية جويّا في قضاء صور.

وبين صارفة وصيدا ١٢ ميلاً، ولذلك سميت صارفة صيدا، لأنه في تلك الأزمنة كانت صيدا هي المتروبول بالنسبة إلى صارفة، وأما الآن فالمتروبول هي صارفة. وبسبب أن إيليا أُرسل إلى تلك الأرملة التي أطعمته فأقام ابنها من الموت، توجد كنيسة على اسم القديس إيليا. واسم المرأة غير معروف، والمعروف فقط عنها أنها كانت أرملة» (١ مل ١٧/ ٩).

ويحدد موقع قانا على النحو الآتي: «من قيصرية إلى صفورة ٣٠ ميلاً، وهي موطن سمعان الساحر. ومن صفورة إلى قانا الجليل خمسة أميال، ومن صفورة إلى الناصرة خمسة أميال، ومن الناصرة إلى جبل طابور سبعة أميال، وهناك ظهر الرب للرسل بعد قيامته» (متى ١٨/ ١٦)[1].

٦ ـ الشهيد انطونينوس (بين ٥٦٥ ـ ٥٧٠):

نُسِب إلى مدينة بياتشنسا (Piacenza = Plaisance) في شمالي إيطاليا. أما حياته فمجهولة تماماً، وقد ذهب الذين أنكروا نسبة الرحلة إليه إلى أنه من شهداء القرن الثالث أو الرابع، وإن كاتب هذه الرحلة هو أحد المتأخرين عنه قرنين أو أكثر وقد وضع الكتاب «تحت حمايته» أي شفاعته، لأنه شاهده في الرؤيا أثناء حجته، وأن ناشريه أساؤوا فهم هذه التعابير المكتوبة باللغة اللاتينية الشعبية، فظنوا أنه هو الذي حجّ شخصياً إلى الشرق في النصف الثاني من القرن السادس. ولا تزال هذه المسألة موضوع جدل بين الباحثين.

وفي كل حال، فالحاج الذي نعرض مشاهداته، كائناً من كان، يُعتبَر أهم رحالة بين الذين ذكرناهم، خاصة وأن شهادته عن الزلازل المتلاحقة التي ضربت مدن الساحل الفينيقي قبل مروره فيها بسنوات قليلة، تجعلنا نحدد تاريخ رحلته بين السنوات ٥٦٥ ـ ٥٧٠، حيث كانت هذه المدن لا تزال

(١) **Geyer,** o.c... Theodosius. De situ Terrae Sanctae, p. 139; **Maraval,** o.c.. Théodosius. La topographie de la Terre Sainte, p. 197.

ترزح تحت أنقاضها وقد شاهدها بعينيه فكتب عنها في مطلع كتابه:

«خرجنا من القسطنطينية إلى جزيرة قبرس إلى مدينة كونستانسا حيث رفات القديس أبيفانيوس، والمدينة جميلة رائعة تزينها أشجار النخيل المثمرة. ووصلنا إلى بلاد سوريا آتين من جزيرة إرواد (In insula Antharidus)، ومنها ذهبنا إلى طرابلس سوريا (In Tripoli Syriae) وفيها يرقد القديس ليونسيوس (شهيد على عهد فسباسيانوس). وهذه المدينة دمرها زلزال مع مدن أخرى على أيام الامبراطور يوستينيانوس. ومنها ذهبنا إلى جبيل (Biblo) وإذا هي مدمرة أيضاً مع سكانها، وكذلك مدينة الهري (In Triarim Civitatem) مدمرة مثلها. وبعدها انتقلنا إلى المدينة الرائعة بيروت (In civitate splendissima Berito) التي كان فيها منذ مدة وجيزة مدرسة العلوم (Studium litterarum) (مدرسة الحقوق الرومانية)، فدمرت هذه المدينة. وأخبرنا أسقف المدينة أن ثلاثين ألف شخص معروفة أسماؤهم، ما عدا الأغراب، هلكوا هنا في لحظة. هذه المدينة تقع على أقدام جبال لبنان».

«ومن بيروت ذهبنا إلى صيدا (Sidona) المدمرة جزئياً وهي تابعة لبنان، والناس فيها ارديا. وهناك يجري نهر الأولي (Asclipius)، وعلى النبع الذي ينبجس فيه يوجد [فراغ]، ومن صيدا انتقلنا إلى صارفة (Sarapta) وهي مدينة صغيرة مسيحية جداً، والعلية التي أعدت لإيليا لا تزال قائمة فيها، وكذلك السرير الذي نام عليه وجرة الدقيق المصنوعة من المرمر التي خمّر فيها العجين. في هذا المكان تحصل تقادم كثيرة وعجائب كثيرة. وعندما خرجنا من صارفة ذهبنا إلى مدينة صور (In civitatem Tyro)؛ وبين صيدا وصور وصارفة سبعة أميال. وسكان صور قوم أشداء (Potentes) ذوو حياة رديئة وفحش (luxuria) لا يمكن وصفه (هنا يستعمل اللفظة genicia publica التي تحتمل معنَيين مختلفين، وهي في اليونانية ginaikeia، ومعناهما بيوت الدعارة أو الحِرَف اليدوية. وربما يقصد هذا المعنى الأخير، لأنه يتابع الكلام

«عن صناعة الحرير ومختلف أنواع الأقمشة. ومن هناك ذهبنا إلى عكا (Ptolemaida). وهي مدينة شريفة وفيها أديار ممتازة»[1].

لا بدَّ من الملاحظة أن الدكتور حسان سلامه سركيس، في محاضرة له عن آثار البترون، بعد أن تحدث عن الزلازل التي دمرت المدن الساحلية التي ذكرناها آنفاً، كتب: «وبعد مرور بضع سنوات على الكارثة، أتى كاتب «رحلة الشهيد أنطونينوس» الذي وضع كتابه سنة ٥٧٠، على ذكر مدينة البترون إضافة إلى أسماء طرابلس وترياريس وجبيل وبيروت، مما يدل على أن المدينة استعادت عافيتها بسرعة، وذلك بفضل المساعدات التي حصلت عليها من قِبَل الامبراطور يوستينيانوس أسوة بغيرها من المدن»[2]. فتعليقاً على هذا الكلام، نقول إن النص اللاتيني لهذه الرحلة الذي عارضه الناشر بثلاث نسخ أخرى على الأقل، وكذلك الترجمة الفرنسية، لا يأتيان على ذكر مدينة البترون، ولعل للدكتور سركيس مصادر أخرى اعتمدها لكتابة ما كتب.

في نهاية الرحلة ذكر كاتبها بطريقة عابرة مغادرته مدينة دمشق ومروره في بعلبك دون أي تعليق: «وفيما بعد ذهبنا إلى (Héliopolis)، ومنها انتقلنا إلى حمص... ومنها أفاميا المدينة الرائعة التي يقيم فيها كل أشراف السوريين»[3]. إنه الرَّحالة الوحيد في هذه الحقبة الذي دوّن اسم بعلبك دون أن يذكر شيئاً عنها؛ وحبذا لو أنه فعل.

وبالعودة إلى الزلازل التي ضربت بيروت، فقد نقل لنا الدكتور فيليب حتي شهادتين لمعاصرَين للأحداث. فكتب: «فكانت هذه النازلة الضربة

(١) **Geyer,** o.c. Antoninus Placentinus, pp. 159-161; **Maraval,** o.c... Le pèlerin de Plaisance, pp. 205-207.

(٢) **الدكتور حسان سلامه سركيس،** «محاولة في تاريخ مدينة البترون»، محاضرات المجلس الثقافي البتروني الأول، منشورات المجلس الثقافي البتروني، ١٩٨٥، ص ٣١.

(٣) **Geyer,** O.c... p. 190.

القاصمة التي قضت على المدينة وعلى معهدها. وقد رثاها محام إغريقي من آسية الصغرى معاصر للحوادث بقوله: «بيروت، اجمل المدن، الدرة في تاج فينيقية، فقدت لألأها ورونقها. بناياتها التي تعد آيات في فن العمارة تداعت وسقطت ولم يبقَ فيها جدار واقفاً. لم يثبت منها سوى الأساسات».

«وقد كان لهذه الفاجعة صدى تردد في جميع أنحاء الأمبراطورية. وقد رثاها أيضاً شاعر إغريقي معاصر من أسبانية بشعر تخيل فيه موقع المدينة ذاته بتفجع: «هاءنذا، المدينة التاعسة، كومة من خرائب، أبنائي أموات. ياللحظ العاثر المشؤوم. إلاهة النار أحرقتني، بعد أن هزت إلاهة الزلزال أركاني. يا لتعاستي، بعد أن كنت مجسّم الجمال أصبحت رماداً. هل تبكون عليَّ أيها العابرون الماشون فوق أطلالي، هل تسكبون عليَّ دمعة حزن، هل تأسون لمجد بيروت، بيروت التي لا وجود لها؟ أيها الملاح لا تمل بشراعك نحو شاطئي، لا تنزل شراع مركبك، فإن المرفأ الأمين أصبح أرضاً يابسة قفراء. أصبحت لحداً موحشاً. مِل عني، سِر إلى الموانئ الفرحة التي لا تعرف البكاء، إلى موانيها سِر على صوت قرع المجذاف. هكذا شاء الإله بوسيدون، إله البحر والزلزال، وهكذا شاءت الآلهة السمحاء، وداعاً يا ملاحي البحار. وداعاً أيتها القوافل الآتية من وراء الجبال»[1].

٧ ـ ادمنانوس عن أركولفوس (٦٧٠):

ننهي مداخلتنا حول حجاج القرون الأولى بما سطره الراهب أدمنانوس رئيس دير جزيرة يونا في أيكوسيا عن يوميات حجة القديس أركولفوس أسقف غاليا؛ وقد يكون رفيقه في هذه الرحلة الطويلة إلى الشرق وقد لا يكون. فقدّم لنا هذه الشهادة عن صور:

(١) **الدكتور فيليب حتي،** تاريخ لبنان، الطبعة الثانية ١٩٧٢، دار المشرق، بيروت، ص ٢٨٤.

«إن أركولفوس الذي رحل إلى أماكن عديدة، دخل أيضاً صور قاعدة مقاطعة فينيقية (Tyrum Foenicis provinciae metropolim)، المسماة بالعبرية والسريانية Soar. ونقرأ في تواريخ اليونان والبرابرة (أي اللاتين) أنه لم يكن لها أي مدخل من البر. ولكن البعض يؤكدون أن نبوخذنصر ملك الكلدانيين وضع لها جسوراً، وأن الموقع أعد للحصار بواسطة المجانيق. ثم جعلوا منها جزيرة على أرض مسطحة. وهذه المدينة كانت جميلة وشريفة جداً. وقد ترجمت بحق إلى اللاتينية angustia (الضيقة)، لأن الجزيرة والمدينة ضيقتان بمساحتهما[1]. وصور تقع في أرض كنعان، ومنها المرأة الكنعانية أو الصورية الفينيقية التي ذكرها الإنجيل (مر٧/٢٦). ونشير إلى أن رواية القديس أركولفوس حول موقع صور يتفق كل الاتفاق مع ما أخذناه سابقاً عن شروحات القديس أيرونيموس»[2]. غير أننا شخصياً لم نعثر على هذه الشروحات التي أشار إليها كاتب الرحلة.

وفي كلامه على منابع الأردن ذكر ما يأتي: «أن أركولفوس ذهب أيضاً إلى هذا الموقع في مقاطعة فينيقية، حيث يبدو الأردن على أقدام لبنان، وهو ينبع من نبعين، يدعى الأول جور والثاني دان. وعندما يلتقيان ويختلطان، يطلق عليهما الاسم المركّب جوردان...»[3]. وهذه الإفادة عن منابع الأردن قد ذكرها أكثر من رحالة كما رأينا سابقاً.

❋ ❋ ❋

المرجع الأساسي لهذه الدراسة هي النصوص الأصلية باللغة اللاتينية للحجاج السبعة، التي عارضها الناشر الألماني باولو جاير بنسخ خطية أخرى

---

(١) ويمكن للفظة اللاتينية ان تكون augusta، ومعناها الشريفة والجليلة.

(٢) **Geyer,** o.c... Adamnani de Locis Sanctis libri tres, p. 277; **Maraval,** o.c... Adomnan, Des Lieux Saints: Arculfe, P. 275.

(٣) **Geyer,** o.c... p. 268, **Maraval,** o.c... pp. 270.

وأغناها بالحواشي المقارنة. وعلى هذا المرجع بمعظمه استند المترجم بيار مارافال إلى اللغة الفرنسية، راجع:

Paulus Geyer, Itinera Hierosolymitana saeculi IV-VIII, in coll. Corpus Scriptorum ecclesiasticorum latinorum, vol. 39, New York and London, 1898.

Pierre Maraval, Récits des premiers pèlerins chrétiens au Proche-Orient (IIIè-VIIè siècle), textes choisis, présentés, traduits et annotés, Cerf, 2002.

بيروت وجبل لبنان
في رحلة دانيال الروسي (القرن الثاني عشر)

د. جوليات الرّاسي[*]

مقدّمة:

بدأ الحجّ إلى الأراضي المقدّسة في القرن الرابع الميلادي وذلك بعد إعلان منشور ميلانو سنة ٣١٣م والذي بموجبه سمح الملك قسطنطين للمسيحيين بممارسة شعائرهم الدينيّة بحريّة. لقد أخذ الحجّاج من جنسيّات مختلفة يتقاطرون إلى تلك المناطق. وقد ترك بعضهم مؤلفات تتناول مسار حجّهم وذلك باللاتينية أو اليونانية أو السريانية[١]. ومن تلك الرحلات نذكر رحلة حاج مدينة بوردو الفرنسية (Le Pèlerin de Bordeaux) سنة ٣٣٣م والتي رسم فيها هذا الحاج بدقة الطريق الذي اتبعه إلى الحج[٢]، كذلك هناك رسالة أثناسيوس أسقف الإسكندرية (Athanase évêque d'Alexandrie) بين عامي (٣٢٧ ـ ٣٧٣م)، والذي كتب رسالة موجهةً إلى العذارى المتوجهات للحج

(*) أستاذ في قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الفرع الثاني، الجامعة اللبنانية.

(١) Récits des premiers pélerins chrétiens au Proche-Orient (IVe-VIIe siècle), Textes choisis, présentés, traduits et annotés par Pierre Maraval, Cerf, Paris, 2002, Introduction p. 7-8.
وحول بدء الحجّ إلى الأراضي المقدّسة، أنظر أيضاً محمد مؤنس أحمد عوض، الرحّالة الأوروبيّون في مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩ ـ ١١٨٧ ميلادية)، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٢، ص ١٧.

(٢) Récits des premiers pèlerins, p. 11-41.

إلى بيت لحم والقدس، وذلك عام ٣٥٠م. ورسالته هذه المكتوبة بالسريانية تؤكد وجود حجّ نسائي إلى الأراضي المقدسة في هذه الفترة من الزمن أي القرن الرابع الميلادي. والأسقف يشجِّع في رسالته على الحجّ إلى الأراضي المقدسة[١]. كما أنّ القدّيس غريغوريوس النيصي (٣٣٥ ـ ٣٩٤م) (Grégoire de Nysse)، والذي اشترك في المجمع المسكوني الثاني المنعقد في القسطنطينية عام ٣٨١م، قد استغلّ فترة وجوده في مهمة في «ولاية العربية» لكي يتوجه إلى القدس للحج وليترك انطباعاته عن المؤمنين إذ يقول عنهم أنّ مشاركتهم بالنعمة تُقاس وفق إيمانهم وليس بسبب رحلتهم إلى القدس[٢]. والقديس غريغوريوس هو من أشهر معلمي التصوّف المسيحي[٣]. إذاً حسب رأي هذا القديس، إنّ الروح القدس يحلّ في قلب كل مؤمن مسيحي أينما وجد هذا المؤمن.

ولعلّ رحلة أيجيريا (Égerie) والتي تمّت بين عامي (٣٨١ ـ ٣٨٤م) هي أكثر ما استوقفت البحاثة عندنا إذ إنها ترجمت إلى العربية[٤]. وهي لم تقتصر على الأراضي المقدسة في فلسطين والمناطق المحيطة بها مباشرة بل تخطّتها إلى بلاد ما بين النهرين ومصر وإلى مدن مسيحية أخرى لم تتناولها بقية رحلات الحجّاج[٥].

ومن الرحلات التي تستدعي التوقف عندها نذكر رحلة حجّ بولا (Paula) التي دوّنها جيروم (Jérôme) عام ٤٠٤م، والتي تمّت بين عام (٣٨٥ ـ

(١) Récits des premiers pèlerins, p. 43-47.

(٢) Récits des premiers pèlerins, p. 49-54.

(٣) حول القديس غريغوريوس النيصي، أنظر المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، ط ٣٩، ٢٠٠٢، المنجد في الأعلام، جـ ٢، ص ٣٩٠.

(٤) ايجيريا، يوميات رحلة، نقلها إلى العربية الأب نعمة اللّه الحلو الراهب اللبناني ودقّق وعلّق عليها الأب باليكي البولسي، منشورات مجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت، ط١، ١٩٩٤.

(٥) Récits des premiers pèlerins, p. 55-142.

٣٨٦م). وكانت بولا تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية في روما وقد تخلّت عن كل ظروفها وأمجادها المادية والدنيوية، لتتوجه إلى الحجّ برفقة ابنتها وخدمها. وقد رافقها جيروم في رحلتها هذه انطلاقاً من القسطنطينية. وما يهمنا في هذه الرحلة هي الإشارات، ولو كانت مقتضبة، إلى بعض المناطق اللبنانية وأهميتها الدينية في القرن الرابع الميلادي. إذ يُشير جيروم، كاتب الرحلة، إلى أنّ بيروت كانت مستعمرة رومانية وبعدها يأتي على ذكر عراقة مدينة صيدا. أما بالنسبة إلى الصرفند فهو يُشير إلى وجود برج للنبي إيليا فيها، حيث صلّت بولا للمخلص. كما يُعلّق على قداسة شطّ صور حيث «ترك القديس بولس آثار ركبتيه»[١].

وقد استوقف جبل حرمون بولا في حجّها، كذلك سهول الجليل التي ذكرتها بما ورد من آيات عنها في العهد القديم أو التوراة[٢].

أمّا أقدم الرحلات الروسيّة المعروفة حتّى اليوم فهي رحلة بطرس الايبيري (Pierre d'Ibère)، الذي كان أميراً من منطقة جيورجيا (Ibérie) وكان رهينة عند الدولة البيزنطية لكنه استطاع الهرب إلى القدس مع صديق له ليلبس ثوب الرهبنة. وهكذا تحوّل اسم الأمير Nobarnougios إلى بطرس (Pierre). وقد أصبح فيما بعد أسقفاً في منطقة غزّة[٣]. لكنه لم يكتب رحلته بنفسه بل

---

(١) Récits des premiers pèlerins, p. 142-161؛ وقد جاء عن المناطق اللبنانية (ص ١٤٨) ما يلي:

«... En Syrie et Phénicie... Une fois passées, Béryte [Beyrouth], colonie romaine, et l'antique ville de Sidon [Saida], elle entra, sur le rivage de Sarepta [Sarafand], dans la petite tour d'Elie, où elle adora le Seigneur Sauveur; en suivant les plages de Tyr, où Paul avait laissé l'empreinte de ses genoux...».

(٢) «... La Galilée... Elle apercevait au loin les monts Hermon et Hermoniim et les très vastes plaines de Galilée, où Sisara et toute son armée furent terrassés lorsque Barach fut vainqueur...": Récits des premiers pèlerins, p. 159.

(٣) Récits des premiers pèlerins, p. 163-168؛ انظر أيضاً عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ١٩.

إنّ الإنطاكي جان روفوس (Jean Rufus) أو بيت روفينا (Beth Rufina) هو الذي كتب القسم الأول من حياة بطرس الإيبيري وبالتالي حجّه الأوّل إلى الأراضي المقدسة (الذي تمّ بين عامي ٤٣٨ـ٤٣٩م). وذلك أنّ بطرس قام بحجّه مرة ثانية بعد عام ٤٥٧م.

وقبل أن أنهي هذه المقدمة التي ترسم خطوطاً عريضة للحجّ إلى الأراضي المقدسة في القرون المسيحية الأولى، لا بدّ من التذكير بدليل للحجّاج وُضع في القرن السادس الميلادي وعنوانه: «Breviarius de Hierosolyma»، وهو عبارة عن دليل مختصر للحجّاج إلى الأماكن المقدسة الموجودة في مدينة القدس نفسها وعمّا دار فيها من أحداث تعود إلى العهد القديم[١].

أمّا الدليل الأهم في القرن السادس الميلادي فهو ما يسمى بدليل تيودوسيوس (Théodosius) وقد كتب بعد عام ٥١٨م. وهو يُعطي معلومات دقيقة عن الأماكن والمسافات والتفسيرات اللاهوتية. ذلك أنّ هذا الدليل قد بُني على ما يبدو، وكما قال مُحققه Pierre Maraval، على شهادات عينية لحجّاج زاروا الأراضي المقدسة، كذلك على مصادر مكتوبة عن الأماكن المقدسة في فلسطين وفي غيرها من مناطق الشرق[٢].

فما مدى حضور جبل لبنان وبيروت وغيرها من المدن والمناطق اللبنانية في هذا الدليل؟

هذا ما سأستعرضه فيما يلي، عند دراسة رحلة دانيال الروسي، لمعرفة ما قدّمه من جديد عن المناطق اللبنانية مقارنة مع من سبقه من الرحالة الأوائل.

---

(١) حول هذا الدليل انظر: Récits des premiers pèlerins, p. 179-184؛ كذلك انظر عوض، الرحالة الأروبيون في مملكة بيت المقدسة الصليبية، ص ١٩.

(٢) Récits des premiers pèlerins, p. 185-201; ici p. 185.

وكذلك الحال بالنسبة إلى رحلة حاج بلازنس (Le Pèlerin de Plaisance)، (بين عامي ٥٦٠ ـ ٥٧٠م) الذي لا نعرف اسم كاتبها، لكننا نعرف أنّ الحاج قد انطلق من مدينة بلازنس الإيطالية، (Piacenza) (في شمالي إيطاليا)، وقد ترك لنا معلومات دقيقة ومهمة عن مناطق لبنانية، لا تركّز فقط على المعاني الدينية بل تتخطاها إلى العادات والتقاليد ومصادر الرزق[1].

كما أنّ الرحلة التي كتبها رئيس دير إنكليزي يدعى Adomnan، والذي ارتكز فيها على رحلة حجّ قام بها أسقف غالي يُدعى Arculfe حوالى عام ٦٨٠م، أي بعد سقوط فلسطين بيد العرب، تعطي هي الأخرى معلومات قيّمة عن التغييرات التي حدثت نتيجة لفتح العرب لتلك المناطق، كما تركّز على المناظر الطبيعية وعلى الثقافات وغيرها من الأمور التي تثير الحشرية[2]. وقد أكمل Adomnan رحلة Arculfe التي نجد فيها إشارات ومعلومات مهمة حول جبل لبنان (لبنان) ونهر الأردن ومدينة صور التي كان Arculfe قد زارها بنفسه.

وكما سبق وأشرت، سوف أستعرض ما جاء في هذه الرحلات الأخيرة حول المناطق اللبنانية وسأقارنه مع ما جاء عند دانيال الروسي الرحالة، موضوع بحثنا هذا، والذي زار المنطقة بعد القرن السابع الميلادي بكثير، إذ زارها في بداية القرن الثاني عشر الميلادي. وذلك بعد سقوطها بيد الصليبيين بفترة وجيزة، وهنا تكمن أهميتها.

وقد كان تعبير «الأماكن المقدسة» في بداية القرن الرابع الميلادي مستحدثاً في المسيحية حسب Maraval، لكنه نجح في استمراريته عبر أجيالٍ

(١) Récits des premiers pèlerins, p. 203-235.

(٢) Récits des premiers pèlerins, p. 237-289؛ كذلك انظر عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ٢٠ـ٢١.

لاحقة. فالشرق البيزنطي، من أكبر مدنه إلى أصغرها، كان مزروعاً بالأماكن المقدسة. وكان بعضها يستقطب الحجّاج أكثر من بعضها الآخر. ففي القرون المسيحية الأولى كان هناك حذر من تقديس المكان، «إذ إنّ اللّه ليس مرتبطاً بمكان ما، ولكن معبده هو قلب كل مسيحي مؤمن»، والقداسة هي فعلٌ داخلي. لكن الأماكن المقدسة التي تكوّنت بفعل حيازتها على ذخائر قديسين، كانت تنطوي على قوة وطاقة يمكن للمسيحي المؤمن أن يشارك فيها بالذهاب إلى الأراضي المقدسة ورؤيتها ولمسها[1]. ويعتبر القرن الحادي عشر مرحلة مهمة بالنسبة إلى الحجّ والحجّاج الذين زاد عددهم[2].

١ ـ الإطار العام لرحلة دانيال الروسي:

كان بطرس الإيبيري (Pierre D'Ibère) الجيورجي الأصل قد انطلق إلى الأراضي المقدسة من عاصمة مسيحية مهمة وهي القسطنطينية. أي أنه كان متأثّراً بالأجواء التي عاش فيها هناك. أما في روسيا نفسها، فكان الوضع مختلفاً إذ إنّ الروس لم يتنصرّوا إلاّ على عهد الملك ڤلاديمير (Vladimir 1er) سنة ٩٨٨م[3]، وبعد ذلك تقاطر الحجّاج الروس إلى فلسطين وأورشليم وقد زاد عددهم كثيراً في القرن الثاني عشر الميلادي، لدرجة دفعت رجال الدين الروس إلى صرف الشعب عن هذه الزيارات البعيدة التي تعرّض الوطن للآفات (إذ كانوا يتخلون عن عائلاتهم ومزارعهم وأعمالهم للذهاب في

(١) Pierre Maraval, Lieux Saints et pèlerinages d'Orient, Les Editions du Cerf, Paris, 1985, p. 245-246.

(٢) عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ٢٣ـ٢٦.

(٣) Vladimir 1er (980-1012)، الذي يعتبره المؤرخ Diehl «كلوفس روسيا»، كما يعتبر المؤرخ نفسه، ابن ڤلاديمير، أي ياروسلاف (١٠١٥ ـ ١٠٥٤م) الذي تدعّمت ارتباطات روسيا بالمسيحية على عهده، «شارلمان روسيا». وفي عهده تقاطر الروس إلى فلسطين، أي منذ القرن الحادي عشر، عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ٧٥.

سفرات بعيدة)، لكن منعَهم من السفر إلى هناك شجّعهم أكثر فأكثر، حتى أنّ رئيس أساقفة نوفغورود (Novgorod) المدعو يوحنا والذي نشر رسالة في معارضة الزوّار ذهب بنفسه إلى زيارة أورشليم[١]. ومع أنّ اعتناق الدين المسيحي في روسيا في القرن العاشر الميلادي بدأ عند طبقة الأباطرة والنبلاء وانتقل بعدها إلى عامة الناس، إلاّ أنّ الحجّاج كانوا ينتمون إلى فئات مختلفة، فمنهم الأغنياء ومنهم الفقراء، كذلك رجال الدين. كما أنّ أهدافهم كانت مختلفة.

أمّا الطريق التي كانوا يعتمدونها فكانت:

- إمّا بحرية، إذ كانوا يجتمعون في مدينة كييف (Kiev)، ومنها يركبون سفناً خفيفة ويقطعون نهر الدنيبر (Dnieper) ويسيروا حتى بلغارية ومن ثم إلى القسطنطينية. ومن القسطنطينية يستأجرون سفناً إلى يافا، عبر بحر مَرمَرا إلى الأرخبيل اليوناني ثم إلى البحر المتوسط، مبحرين قريباً من السواحل. وعلى ما يبدو غالباً ما اتبع الحجّاج، خاصة في عصور الحجّ الأولى، الطريق البحري، لأنّ الرحلة البحرية كانت أسرع بكثير من الرحلة في البرّ[٢]، كما كانت الطريق البحرية، بالرغم من خطر العواصف، آمنة أكثر من غيرها.

- وإمّا برية كانت تمرّ عبر آسيا الوسطى إلى سورية الشمالية أو الساحلية،

(١) ألكسيس بوغوليوبسكي، رحلة السائح الروسي دانيال إلى الأراضي المقدسة في أول عهد الصليبين، المشرق، السنة ٢٤ (١٩٢٦)، ص ٦٤١ـ٦٤٨، هنا ص ٦٤١ـ٦٤٢.

(٢) Jean Maraval, Lieux Saints et pèlerinages d'Orient, p. 171 et 173؛ لكن محمد مؤنس أحمد عوض يعاكس هذا الرأي ويقول بأنّ مصاعب الطريق البحري دفعت البعض إلى اعتماد الطريق البري الأكثر أمناً، أي من آسيا الوسطى إلى شمال بلاد الشام إلى فلسطين، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ٧٦؛ وعن مخاطر الطريق البحري، انظر أيضاً بوغوليوبسكي، رحلة السائح الروسي دانيال، ص ٦٤٢ـ٦٤٣.

وهذه الطريق كسابقتها كانت خطرة وشاقة[١].

ولكن لماذا اختياري لرحلة دانيال الروسي بالذات والتي قام بها ما بين سنتي ١١٠٦ و١١٠٧م؟ (والتي يقول البعض أنها تمّت عام ١١٠٨).

إنّ رحلة دانيال الروسي هي واحدة من الرحلات المهمة التي قام بها أوروبيون إلى مملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي. ويعود سبب أهميتها إلى أنها جاءت في بداية فترة استيطان الصليبيين في بلاد الشام. بالإضافة إلى أنها قدّمت لنا معلومات قيّمة من سياسية وحربية عن مملكة بيت المقدس وعلاقتها بالمسلمين المجاورين لها آنذاك. كما أنها، أي الرحلة، تمّت قبل سقوط أهم مدن الساحل اللبناني في يد الصليبيين[٢]. إنها «أقدم تسجيل لرحلة روسي» إلى المنطقة.

فمن هو دانيال الروسي؟

وما كان سبب رحلته وهدفها؟

٢ ـ نبذة عن المؤلف:

كان دانيال راهباً وهيغوماناً (Hégoumène) أي رئيساً على بعض أديرة وطنه روسية. وليس هناك إلاّ معلومات قليلة عنه. ولكن يعتقد أنه وُلد في روسية الجنوبية وأن رحلته إلى القدس تمّت بين سنتي ١١٠٦ و١١٠٧م[٣]. وعن دانيال يقول عوض، أنه من المحتمل أن يكون قد قدِم من مقاطعة تكرنيكوف Tchernigov الروسية في روسيا الصغرى، Little Russia «ومن المفترض أنه هو دانيال الذي عمل أسقفاً لمنطقة سوريف Suriev في عام

(١) حول الطرق التي اتبعها الحجّاج في حجّهم أنظر: Jean Maraval, Lieux Saints et pèlerinages d'Orient, p. 163-177; Voir également cartes des itinéraires, p. 165.

(٢) فبيروت مثلاً سقطت في يد الصليبيين عام ١١٠٩م. أما صور فسقطت عام ١١٢٤م.

(٣) بوغوليوبسكي، رحلة السائح الروسي دانيال، ص ٦٤٣.

١١١٥م، والذي أدركته منيته في يوم التاسع من سبتمبر من عام ١١٢٢م...»[(١)].

أمّا سبب رحلته، كما جاء على لسان دانيال نفسه، فهو بكل بساطة: **«زيارة الأراضي المقدسة أي زيارة كل الأماكن المقدسة التي مشى عليها السيّد المسيح وحيث تجلّت عجائبه»**[(٢)].

لقد أراد دانيال إذن أن يشاهد تلك الأمكنة بعينيه المجرّدتين. لكن كان لديه هدف آخر وهو كالتالي:

«أن يكتب للمؤمنين مؤلفاً يساعدهم على معرفة الوصف (الصحيح) للأراضي المقدسة، حتى يتطلعوا إلى الوصول إليها بأفكارهم ونفوسهم، وحتى ينالوا من الرب ما يتمنّون مثلهم مثل الذين زاروا فعلياً تلك الأماكن المقدسة. لأنّ هناك الكثير من ذوي المكارم والأخلاق الذين بأعمالهم الخيّرة، كمساعدة الفقراء، يستجيب الرب لدعائهم ويكافئهم السيد المسيح دون أن يضطرّوا إلى ترك بيوتهم والذهاب إلى الحجّ إلى الأراضي المقدسة»[(٣)].

أي أنّ دانيال يدعو هنا إلى تطبيق التعاليم المسيحية قبل أي عمل آخر حتى ولو كان زيارة الأراضي المقدسة شخصيّاً.

---

(١) عوض، الرحال الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ٧٦، وبوغوليوبسكي، رحلة السائح الروسي دانيال، ص ٦٤٣.

(٢) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène Russe (1106-1107), dans Itinéraires russes en Orient, traduit par Mme De Khitrowo pour la Société de l'Orient Latin, Imprimerie Jules Guillaume, Genève, 1889, p. 1-83,
لكن بوغوليوبسكي يقول في مقاله عن رحلة دانيال بأنه ربما كان هدف دانيال أيضاً هو الهروب من حالة الفوضى التي كانت تتخبط بها روسية آنذاك، كذلك طلب بركة المزارات الشهيرة، لأنّ سورية وفلسطين كانتا حينذاك في هدوءٍ وراحة بعد فتح الصليبيين للقدس وسواحل الشام، بوغوليوبسكي، رحلة السائح الروسي دانيال، ص ٦٤٤.

(٣) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène Russe, p. 4-5 et p. 73-74؛ وبوغوليوبسكي، رحلة السائح الروسي دانيال، ص ٦٤٤.

٣ ـ نبذة عن رحلته:

إنّ رحلة دانيال الروسي إلى الأراضي المقدسة موجودة حاليّاً في نص فرنسي مؤلف من ٨٣ صفحة. وقد تمّت ترجمتها من الروسية إلى الفرنسية، بعد الاعتماد على ١٣ مخطوطة للرحلة نفسها من قبل Mme De Khitrowo، وطُبعت في جنيف ١٨٨٩، وذلك ضمن كتاب ضمّ رحلات روسية أخرى إلى الأماكن المقدسة. وهذا الكتاب بعنوان: «Itinéraires Russes en Orient». وقد تولّت طبعه جمعية الشرق اللاتيني (La Société de L'Orient Latin). أما لغة هذه الرحلة فبسيطة وسهلة دون أية تعقيدات لغوية. لكن تجدر الإشارة إلى استعمال شكل خاص للحرف S ضمن الطباعة، على القارئ أن يتعوّد عليه حتى لا يقرأه كحرف F. وهذه هي باعتقادي الصعوبة الوحيدة في قراءة النص الفرنسي للرحلة.

ونصّ الرحلة مهم جدّاً، لقلّة من كتب عن موضوع زيارة الأراضي المقدسة من قبل الروس. وكما يقول بوغوليوبسكي، مع كثرة الزوّار الروس لكن قلّ من كتب عن هذه الزيارة للأراضي المقدسة لأنّ «معظمهم كانوا من رعاع الناس وسفلة الشعب مع قلّة انتشار التعليم في زمانهم...»[(١)].

ويعترف دانيال نفسه بالأسلوب البسيط الذي اعتمده في كتابة رحلته، مبرّراً ذلك «بجهله»، وهذا دليل على تواضعه، وعلى أسلوب رجال الدين في كتابة الرسائل والكتب وإمضائها بطريقة تدلّ على ترفّعهم عن الأمجاد الدنيوية[(٢)].

---

(١) بوغوليوبسكي، رحلة السائح الروسي دانيال، ص ٦٤٣.

(٢) «... Excusez mon ignorance et la simplicité du récit [que je vais vous faire] de la Sainte Cité de Jérusalem, de cette terre bienheureuse et du chemin qui conduit à ces Saints Lieux...»., Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 4.

٤ ـ الطريق التي اتبعها دانيال في رحلته:

نتعرّف من خلال قراءتنا لرحلة دانيال الروسي على مسار تلك الرحلة وعلى الوسائل التي اعتمدها للوصول إلى الأراضي المقدسة. فعلى ما يبدو انطلق دانيال مع مرافقين له من مدينة Kiev في سفن خفيفة قاطعين نهر الدنيبر (Dnieper) وساروا حتى بلغارية ومن هناك اتجهوا نحو القسطنطينية.

ومن القسطنطينية أخذوا الطريق البحري مارّين على عدد من المناطق والجزر: مثل جزيرة بيتالا (Île de Pétala) وجزيرة كريت (Île de Crîte)، جزيرة تنادوس (Île de Ténédos) وجزيرة ميتيلان (Île de Mitylène)، جزيرة صاقس (Île de Chios)، وجزيرة باتاموس (Île de Patamos) وجزر لاروس (Île de Leros) وجزيرة رودس (Île de Rhodes) حيث أمضى الأمير الروسي Oleg، كما يقول دانيال، فصلَي صيف وفصلَي شتاء. ومن رودس ذهب دانيال إلى مدينة ماكري (Macrie) ثم إلى مدينة بتارا (Patara) ومنها إلى مير (Myre) فخلقيدونية (Chalcédoine) وبعدها وصل إلى جزيرة قبرص (Île de Chypre).

وكانت قبرص مركز انطلاقه بحراً إلى مدينة يافا، الذي سيتجه منها إلى مدينة القدس عن طريق برّي، يصفه دانيال بأنه كان محفوفاً بالمخاطر، لأنه صعب المسالك، ولأنه كان هناك خطر على أرواح الحجّاج الذين كانوا معرّضين لهجمات المسلمين الذين كانوا مسيطرين على المنطقة وقتلهم على أيديهم[١].

وتجدر الإشارة إلى أنّ دانيال يعطينا في رحلته المسافات التي كان عليه قطعها للوصول من منطقة إلى أخرى ومن جزيرة إلى أخرى بواسطة وحدة

(١) لتفاصيل أكثر حول مسار رحلة دانيال من روسيا إلى الأراضي المقدسة، انظر:
Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 6-11.

قياس روسية وهي ما يُدعى بالڤرست (Verste). وهي وحدة قياس روسية قديمة تساوي ١٠٦٧ متراً[١].

٥ ـ دليله ومرافقوه:

عندما وصل دانيال الروسي إلى الأراضي المقدسة، استقرّ لمدة ١٦ شهراً في دير القديس سابا (La Laure de Saint Sabbas) قرب القدس، ومنه كان ينطلق إلى بقية المناطق لزيارتها[٢].

وقد لعب دير القديس سابا الكبير في وادي قدّرون دوراً مهمّاً في «تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية والرهبنة، وذلك بفضل مساهمته في تثبيت الإيمان القويم وصدّ الهرطقات التي عصفت بالكنيسة والدفاع عن بطريركية أورشليم، إضافة إلى دوره في نشوء أخويات ورهبنات وتنشئة لاهوتيين ونساك...»[٣].

ويقدّم لنا دانيال تفاصيل مهمة عن هندسة دير القديس سابا وعن ذخائر القديسين فيه[٤].

ويُطرح هنا السؤال حول مقدرة دانيال للترحال من منطقةٍ إلى أخرى في الأراضي المقدسة للتعرف على معالمها والتبرّك بها، خاصة في فترة حرجة من تاريخ الشرق، كانت تشهد بدء استقرار الصليبيين فيه وبالتالي قمّة الصراع بينهم وبين حكامه المحليين.

(١) «une verste: russe versta. Ancienne mesure itinéraire utilisée en Russie (1067 mètres)...» Petit Robert 1, p. 2082;
أما الميل (mile) وهي وحدة قياس طول أنجلو ـ سكسونية فتساوي وحسب المرجع نفسه ١٦٠٩ أمتار. Petit Robert 1, p. 1200.

(٢) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 5؛ انظر أيضاً بوغوليوبسكي، رحلة السائح الروسي دانيال، ص ٦٤٥.

(٣) لولو صيبعة، دير القديس سابا ـ وادي قدرون، في مجلة النور، عدد ٨، السنة ٦٠ (٢٠٠٤)، ص ٤١٣ ـ ٤٢٠، ص ٤١٣.

(٤) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 33-35.

لقد كان دانيال يعي خطورة هذه الرحلة في هذه الفترة من الزمن، لذا نجده يهنّئ نفسه بالتعرف في دير القديس سابا على دليل لرحلته، منّ اللّه عليه به. ودليله هذا كان رجلاً طاعناً في السنّ تقياً ومتبحّراً في الكتابات الدينية. وهذا «الرجل القدّيس» كما يصفه دانيال، أحبّ الحاج الروسيّ وأطلعه بعنايةٍ على كافة المناطق المقدسة في مدينة القدس ومحيطها. كما رافقه إلى «بحر طبريّة» وإلى جبل الطابور وإلى الناصرة وأريحا وإلى نهر الأردن وغيره من المناطق التي ذكرها دانيال في رحلته(١).

ونستشف من خلال رحلة دانيال أصل هذا الشيخ التقي والمثقّف دينيّاً الذي ساعد دانيال على تحقيق حلمه بزيارة الأراضي المقدسة، فنرجّح أنّه كان من جبل لبنان، إذ يرد في الرحلة ما يلي:

«... لم أستطعِ أن أحثّ خطاي إلى جبل لبنان، خوفاً من الكفار، ولكن لديّ معلومات جيّدة عنه بفضل أدلائي المسيحيين الذين يقطنون هناك والذين لم يسمحوا لنا بالذهاب إلى هناك...»(٢).

وقول دانيال هذا يشير إلى أنه كان بصحبة عدة أدلاء، مع أنه في مناسبة أخرى يشدّد على ثقافة ذلك الدليل الشيخ الذي التقاه في دير القديس سابا ويهنّئ نفسه مرةً أخرى على التقائه به. فقد كان ذلك الدليل رجلاً مثقفاً أمضى فترة ٣٠ سنة في الجليل و٢٠ سنة في دير القديس سابا في القدس وقد أعطى دانيال معلومات دقيقة عن المواقع المسيحية مستقاة من الكتب المقدسة(٣).

---

(١) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 5؛ انظر أيضاً بوغوليوبسكي في رحلة السائح الروسي دانيال، ص ٦٤٥.

(٢) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 65-66.

(٣) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 60-61؛ وحول دقة المعلومات التي أعطاها الدليل الشيخ لدانيال سنتأكد من ذلك عند استعراضنا لمعلوماته عن بيروت وجبل لبنان ومقارنتها مع مصادر ومراجع أخرى.

إلاّ أنّ هناك مرافقاً آخر لدانيال في حجّه نحو بيت لحم، وهو قائد عربي مسلم كان مسلّحاً، وقد رافق دانيال ومن معه إلى كل الأماكن ولولاه لما استطاع أن يقوم بحجّه، وأن يقطع مناطق جبلية خطرة تكثر فيها أعمال اللصوصيّة من قبل الأعراب، أي أنّ هذا العربي المسلم قد دافع عن الحاج الروسي المسيحي ضد مسلمين آخرين:

«... Le chef Sarrasin, en armes, nous escorta jusqu'à Bethléem et nous accompagna partout, sans quoi nous n'aurions pu traverser ces lieux, à cause du grand nombre de Sarrasins qui commettent des brigandages dans les montagnes...»(١).

كما أنّ دانيال لم يكن وحيداً في رحلته انطلاقاً من روسية، بل رافقه ست حجّاج يذكر لنا أسماءهم وأسماء المدن التي جاؤوا منها، وذلك كضمانةٍ لصدق أقواله في رحلته هذه، خاصة فيما يتعلق بأخبار النور المقدّس في احتفال «سبت النور» في كنيسة القيامة الذي كان دانيال قد شارك فيه إلى جانب الملك بودوان (Baudouin 1er). ومرافقو دانيال جاؤوا من روسيا ومن نوفغورود ومن كييف وهم: ايزياسلاف، إيڤانوفيتش، غورودیسلاف، ميخائيلوڤيتش والأخوان من عائلة كاشكيتش:

«... Quant à mes récits et à mon infime personne, Dieu et le Saint Sépulcre de Notre Seigneur m'en font garants, ainsi que tous mes compagnons venus de la Russie, de Novgorod, de Kiev: Iziaslav, Ivanovitch, Gorodislav, Mikhaïlovitch, les deux Kashkitsh et beaucoup d'autres qui s'y font trouvés le même jour...»(٢).

وهولاء المرافقون الذي ذكر دانيال أسماءهم، قد رافقوه على ما يبدو في بقية محطات رحلته، إذ نجد إشارة أخرى إلى عددهم عند ذكر دانيال لزيارته لمدينة الناصرة، إذ يشير إلى القيام بهذه الزيارة ضمن مجموعة مؤلفة من

---

(١) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 49.

(٢) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 80.

لقد كان دانيال يعي خطورة هذه الرحلة في هذه الفترة من الزمن، لذا نجده يهنّئ نفسه بالتعرف في دير القديس سابا على دليل لرحلته، منّ اللّه عليه به. ودليله هذا كان رجلاً طاعناً في السنّ تقياً ومتبحّراً في الكتابات الدينية. وهذا «الرجل القدّيس» كما يصفه دانيال، أحبّ الحاج الروسيّ وأطلعه بعنايةٍ على كافة المناطق المقدسة في مدينة القدس ومحيطها. كما رافقه إلى «بحر طبريّة» وإلى جبل الطابور وإلى الناصرة وأريحا وإلى نهر الأردن وغيره من المناطق التي ذكرها دانيال في رحلته[١].

ونستشف من خلال رحلة دانيال أصل هذا الشيخ التقي والمثقّف دينياً الذي ساعد دانيال على تحقيق حلمه بزيارة الأراضي المقدسة، فنرجّح أنّه كان من جبل لبنان، إذ يرد في الرحلة ما يلي:

«... لم أستطعِ أن أحثّ خطاي إلى جبل لبنان، خوفاً من الكفار، ولكن لديّ معلومات جيّدة عنه بفضل أدلائي المسيحيين الذين يقطنون هناك والذين لم يسمحوا لنا بالذهاب إلى هناك...»[٢].

وقول دانيال هذا يشير إلى أنه كان بصحبة عدة أدلاء، مع أنه في مناسبة أخرى يشدّد على ثقافة ذلك الدليل الشيخ الذي التقاه في دير القديس سابا ويهنّئ نفسه مرةً أخرى على التقائه به. فقد كان ذلك الدليل رجلاً مثقفاً أمضى فترة ٣٠ سنة في الجليل و٢٠ سنة في دير القديس سابا في القدس وقد أعطى دانيال معلومات دقيقة عن المواقع المسيحية مستقاة من الكتب المقدسة[٣].

(١) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 5؛ انظر أيضاً بوغوليوبسكي في رحلة السائح الروسي دانيال، ص ٦٤٥.

(٢) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 65-66.

(٣) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 60-61؛ وحول دقة المعلومات التي أعطاها الدليل الشيخ لدانيال سنتأكد من ذلك عند استعراضنا لمعلوماته عن بيروت وجبل لبنان ومقارنتها مع مصادر ومراجع أخرى.

إلاّ أنّ هناك مرافقاً آخر لدانيال في حجّه نحو بيت لحم، وهو قائد عربي مسلم كان مسلّحاً، وقد رافق دانيال ومن معه إلى كل الأماكن ولولاه لما استطاع أن يقوم بحجّه، وأن يقطع مناطق جبلية خطرة تكثر فيها أعمال اللصوصيّة من قبل الأعراب، أي أنّ هذا العربي المسلم قد دافع عن الحاج الروسي المسيحي ضد مسلمين آخرين:

«... Le chef Sarrasin, en armes, nous escorta jusqu'à Bethléem et nous accompagna partout, sans quoi nous n'aurions pu traverser ces lieux, à cause du grand nombre de Sarrasins qui commettent des brigandages dans les montagnes...»[١].

كما أنّ دانيال لم يكن وحيداً في رحلته انطلاقاً من روسية، بل رافقه ست حجّاج يذكر لنا أسماءهم وأسماء المدن التي جاؤوا منها، وذلك كضمانةٍ لصدق أقواله في رحلته هذه، خاصة فيما يتعلق بأخبار النور المقدّس في احتفال «سبت النور» في كنيسة القيامة الذي كان دانيال قد شارك فيه إلى جانب الملك بودوان (Baudouin 1er). ومرافقو دانيال جاؤوا من روسيا ومن نوفغورود ومن كييف وهم: ايزياسلاف، إيڤانوفيتش، غوروديسلاف، ميخائيلوڤيتش والأخوان من عائلة كاشكيتش:

«... Quant à mes récits et à mon infime personne, Dieu et le Saint Sépulcre de Notre Seigneur m'en font garants, ainsi que tous mes compagnons venus de la Russie, de Novgorod, de Kiev: Iziaslav, Ivanovitch, Gorodislav, Mikhaïlovitch, les deux Kashkitsh et beaucoup d'autres qui s'y font trouvés le même jour...»[٢].

وهولاء المرافقون الذي ذكر دانيال أسماءهم، قد رافقوه على ما يبدو في بقية محطات رحلته، إذ نجد إشارة أخرى إلى عددهم عند ذكر دانيال لزيارته لمدينة الناصرة، إذ يشير إلى القيام بهذه الزيارة ضمن مجموعة مؤلفة من

(١) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 49.

(٢) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 80.

ثمانية أشخاص مسالمين «غير مسلحين» لأنّ هدفهم كان واضحاً وهو زيارة الأماكن المقدسة والتبرّك بها، مما ينفي عن الرحلة أي هدفٍ آخر. كما أنه يؤكّد لنا وصوله إلى الناصرة بأمان، أي أنه لم يعترضه أي عائق أمني. ذلك أنّ السلاح الذي استعمله دانيال ورفقاؤه في هذه الرحلة هو الصلوات لسيدتنا القديسة مريم العذراء والرجاء بالرب وبرحمته وبشفاعة القديسة مريم. يقول دانيال:

«... Mous avons fait ce voyage tout seuls, au nombre de huit hommes non armés, mais ayant mis notre espoir en Dieu, protégés par sa miséricorde et secourus par les prières de Notre Dame la Sainte Vierge, nous atteignîmes sans encombre et en sécurité la Sainte Ville de Nazareth...»[١].

وهذا مما يدلّ على أنّ الروس الستة كانوا برفقة دانيال ودليله الشيخ التقي الذي سبقت الإشارة إليه.

٦ ـ المناطق اللبنانية في رحلة دانيال: بيروت وجبل لبنان

ليس من المستغرب أن يشير دانيال الروسي في رحلة حجّه هذه إلى مناطق لبنانية عدّة، ومن ضمنها بيروت وجبل لبنان، إذ إنها بالنسبة إليه وبالنسبة إلى الحجّاج الذين سبقوه هي قسمٌ من الأراضي المقدسة[٢]. لذا كان عليه الإشارة ولو بطريقة مقتضبة إلى أهمية تلك المناطق الدينية المسيحية حتى ولو لم يكن قد استطاع زيارتها[٣]، لأنّ الساحل اللبناني لم يكن قد وقع

(١) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 69.

(٢) «... Ce petit pays va devenir, par la consecration qu'il reçoit du passage, de la prédication et des miracles de «Jésus, Une parcelle de la Terre Sainte», P. Corcket, Le Liban dans la Bible, Franciscan Printing Press, Jérusalem, 1978, p. 76.

(٣) وهذا مُخالف لما ورد عند بوغوليوبسكي الذي يشير إلى أنّ دانيال قد زار لبنان، رحلة السائح الروسي دانيال، ص ٦٤٩.

بعد بأيدي الصليبيين كما كانت الحال عليه بالنسبة للقدس وغيرها من المناطق الفلسطينية في بداية القرن الثاني عشر، وأهمية لبنان الدينية تعود بشكل خاص إلى العهد القديم. فقد ذُكِرَ لبنان في التوراة حوالى مائة مرة[١]. أما في العهد الجديد فلا تُذكر كلمة «لبنان»، ذلك أنّ الإنجيل «لا يكثر من المعطيات الجغرافية والتحديدات الطوبوغرافية»[٢].

ولكن هذا لا يعني أنّ الإنجيل لا يأتي على ذكر مناطق لبنانية، فأولى عجائب السيّد المسيح قد جرت في قانا الجليل وليس في قانا (فلسطين) حسب ما تشير إليه دراسات حديثة تتناول موقع قانا المذكورة في الإنجيل، وحيث حوّل السيد المسيح في عرس قانا، الماء إلى خمر[٣]، وحيث «أشفى أيضاً أحد رجالات الملك، وكان يقيم في كفرناحوم...»[٤].

كما أنّ الصرفند لها أهميتها الدينية، إذ إنّ فيها أقام النبي إيليا عند أرملة فقيرة أعالته عندما تعرضت إسرائيل للجفاف وللقحط كما أنه خلّص ابنها من الموت[٥]. وقد استشهد السيّد المسيح بهذه الأرملة (لوقا ٤: ١٦ ـ ٣٠ وبخاصة الآيات ٢٤ ـ ٢٦)[٦]؛ لذا فقد ذُكرت هذه المدينة عند معظم الرحالة

(١) Corcket, Le Liban dans La Bible, p. 16-17.

(٢) Corcket, Le Liban dans La Bible, p. 75.

(٣) من هذه الدراسات نذكر: Corcket, Le Liban dans La Bible, p. 78؛ كذلك هناك دراسة عنوانها: قانا جنوب لبنان، دليل تاريخي، من تأليف مارتينيانو بللغرينو رونكاليا وسميرة باسيل رونكاليا، بيروت، عام ١٩٩٥، وتفيد هذه الدراسة بالاعتماد على شهادة للمؤرخ أوسابيوس القيصري (٢٦٥ ـ ٣٤٠)، بأنّ العجيبة الأولى للمسيح قد تمّت في قانا الجليل/ فينيقيا، خاصة وأنّ السيّد المسيح كان قد قام برحالات عدة إلى فينيقيا/ الجليل (ص ٢٠ ـ ٢٣).

(٤) قانا جنوب لبنان، ص ٢٠.

(٥) Corcket, Le Liban dans La Bible, p. 29.

(٦) القس غسان إيليا خلف، لبنان في الكتاب المقدس، دار منهل الحياة، المنصورية، ١٩٨٥، ص ٢٤٩ ـ ٢٥١.

ومن بينهم دانيال الروسي. فمثلاً حاج بوردو، في القرن الرابع (Le Pélerin de Bordeaux) يذكر قصة الأرملة مع النبي إيليا كما وردت في العهد القديم، كما أنّ دليل تيودوسيوس (Le Guide de Théodosius) يقدّم لنا معلومات مهمّة عن هذه المدينة وعن مركزها الديني والسياسي على حدّ سواء في القرن السادس الميلادي. أمّا حاج مدينة بلازنس الإيطالية (Le Pèlerin de Plaisance)، فيصفها بأنها مدينة مسيحيّة جدّاً «Une petite ville très chrétienne»، ويُشير إلى أنّ النبي إيليا قد سكن فيها عند الأرملة. ومعلومات حاج بلازنس تعود إلى أواخر القرن السادس الميلادي. أما أركولف (Arculfe) الحاج الغالي وأدومنان (Adomnan) رجل الدين الإيكوسي الذي دوّن رحلة الأول، فيقدّمان لنا معلومات عن ولاية فينيقيا في أواخر القرن السابع الميلادي أي بعد الفتح العربي للمنطقة. ومن هنا أهميّة المعلومات التي يُقدّمانها لنا خاصة وأنّ أركولف قد زار المنطقة شخصيّاً وكتب في رحلته شهادات عينيّة عنها. لكننا لا نجد عنده إشارة إلى الصرفند بالذات بل لغيرها من المناطق[1].

أما دانيال الروسي فيكتفي بذكر المسافات بين المدن الساحلية اللبنانية القريبة من عكا مثل صور وصيدا والصرفند التي يضيف عنها معلومة مفادها بأنّ النبي أحيا فيها ابن الأرملة دون ذكر اسم ذلك النبي[2]. والصرفند «هي قرية في جنوب لبنان بقضاء صور. هي صرفة صيدا قديماً. تردّد إليها إيليا النبي وزارها المسيح». ويوجد فيها آثار فينيقية ورومانية وصليبية[3]. والصرفند أو (Sarepta)، أطلق عليها الصليبيون اسم سان رافاييل (Saint-

(١) Récits des premiers pèlerins, p. 27, 197, 209, 275; Corcket, Le Liban dans la Bible, p. 29؛ وخلف، لبنان في الكتاب المقدس، ص ٢٤٩ ـ ٢٥١.

(٢) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 54.

(٣) المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، ط٣٩، ٢٠٠٢، جـ ٢، ص ٣٤٥.

Raphaël)، وكانت مركزاً لمطرانيةٍ على عهدهم، كما كانت تابعة لصاحب صيدا (Sayette) الصليبي[1].

أما بالنسبة إلى الجغرافي ياقوت الحموي المعاصر للصليبيين، فإنّ الصرفند هي «صَرَفَنْدَة: بالفتح ثم التحريك، وفاء مفتوحة، ونون ساكنة، ودال مهملة، وهاء: قرية من قُرى صور من سواحل بحر الشام...» إذن هو يجعلها تابعة لصور وليس لصيدا، وذلك عند ذكره لأحد شيوخها فيقول: «كان من أهل صرفندة، حصن بين صور وصيداء على الساحل، وكان كثيراً ما يقدم دمشق ويخرج عنها...». فالصرفند بالنسبة إلى ياقوت الحموي هي من «أعمال صور»، على عكس المصادر المسيحية كدليل تيودوسيوس مثلاً الذي يربطها بمدينة صيدا[2].

وبالنسبة إلى هذه المدينة الأخيرة يعطينا دانيال قيمة المسافة بينها وبين مدينة صيدا من جهة ومدينة عكا من جهة أخرى، وهي تعادل ١٠ فرست (verstes)، التي هي وحدة قياس روسية[3].

بينما الرحالة الإنكليزي سايولف (١١٠٢ ـ ١١٠٣م) فيشير في رحلته إلى أهمية هذه المدينة العسكرية والحربية إذ إنّ صاحبها كان يمتلك أسطولاً مهمّاً يدافع فيه عن الساحل. وهو، كدانيال، لم يزر الساحل اللبناني[4]. على عكس ابن جبير الرحالة الأندلسي (٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، الذي زار مدينة صور ووصف حصانتها ونظافتها وطبيعة أهلها الليّنة وغناها ومساحة منازلها

(١) Corcket, Le Liban dans la Bible, p. 30.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٥ أجزاء، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، جـ ٣، ص ٤٠٢؛ Maraval, Récits des premiers pèlerins, p. 197.

(٣) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 45، حول قيمة هذه الوحدة أنظر حاشية سابقة، ص ٤٩، رقم ١.

(٤) عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ٤٦-٤٧.

ويُسر أحوال أهلها من المسلمين آنذاك، مع أنها كانت خاضعة للصليبيين[١]. وكانت المدينة قد سقطت في أيديهم عام ١١٢٤م.

وهذا ما يؤكده كل من الرحالتين: الألماني يوحنا الورزبرجي (John of Wurzburg)، الذي زار مملكة بيت المقدس (بين عامي ١١٦٠ ـ ١١٧٠م)، والذي وصف صور بكونها «أكبر مدينة عظيمة في كل فينيقيا» لأهميتها التجاريّة والحربيّة الدفاعيّة[٢]، كذلك الرحالة البيزنطي يوحنا فوكاس (Jean Phocas)، الذي زار المنطقة (عام ١١٨٥م)، والذي كتب إحدى أهم الرحلات عن المنطقة، وقد تمّت رحلته عامين قبل معركة حطين (عام ١١٨٧م). وتكمن أهميتها في أنّ مؤلفها زار الساحل اللبناني بنفسه وقدّم لنا معلومات قيّمة عن النشاطات الاقتصادية والحياة العامة في مدينة صور بالإضافة إلى معلومات دينية. فهذه المدينة، بالنسبة إلى فوكاس تتفوّق بجمالها على كل مدن فينيقيا. وهي بالغة الإتساع وذات مبانٍ جميلة تفوق طرابلس[٣].

فيوحنا فوكاس يختلف عن دانيال الروسي وذلك بإيراده معلومات مادية حول مدن الساحل اللبناني وليست دينية فقط.

فماذا تمثّله مدينة بيروت ومنطقة جبل لبنان بالنسبة إلى دانيال؟

(١) وقد زار ابن جبير المنطقة بين سنتي ١١٨٢ ـ ١١٨٥م، وحول مدينة صور أنظر، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، دون تاريخ، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٩ و٢٨٣.

(٢) عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبيّة، ص ١٢٩. أما أركولف الذي زار المدينة عام ٦٨٠م فيصفها بأنها «عاصمة ولاية فينيقيا»، dans Maraval, Récits des premiers pèlerins, p. 275.

(٣) عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبيّة، ص ٢١٤ـ٢١٥، ٢١٧ـ٢١٨.

أ ـ بيروت:

هذه المدينة العريقة لها أهميتها الدينية الخاصة عند دانيال، وليست الأهمية الاقتصادية كما هي الحال عليه عند سابقيه ومعاصريه ولاحقيه، فهي «محجّة» بالنسبة له، إذ جرت في مدينة بيروت عجيبة مهمّة غير معروفة من قبل الكثير من الباحثين، إذ إنّ فيها «نزفت أيقونة الصلبوت دماً وماءً عندما طعنها يهودي برمح». ونتج عن ذلك اعتناق عدد كبير من اليهود فيها للمسيحية.

يقول دانيال بعد أن يذكر المسافة بين مدينتي بيروت وصيدا وهي ١٥ verstes ما يلي:

> «... C'est dans cette ville [Bérythe] que les juifs percèrent d'une lance l'image du Christ, dont jaillirent du sang et de l'eau; et beaucoup se convertirent alors et se firent baptiser au nom du Père, du Fils et du Saint Esprit...»[1].

إذن يشير دانيال إلى دورِ بيروت الديني بإيراده خبر هذه العجيبة التي يبدو أنها قديمة جدّاً وتعود إلى أوائل المسيحية، وقد تناقلتها أجيال عديدة قبل وصولها إليه. وللتحقق من صحّة هذا الخبر كان لا بدّ لي من الاطلاع على مؤلفات لرجال دين مسيحيين. وقد وفّقت في الحصول على روايتين الأولى لمؤرّخ من القرن السابع عشر والثاني من القرن التاسع عشر. فحسب المؤرخ البطريرك مكاريوس ابن الزعيم (١٦٤٧ ـ ١٦٧٢م) في كتابه المخطوط «الدرّ المنظوم في أخبار ملوك الروم»، والمترجم من اللغة اليونانية عن كتاب ألّفه معاصره متى جيغالا (المتوفى سنة ١٦٤٣م)[٢]، فقد استعملت

(١) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 54-55.

(٢) حول هذا المخطوط انظر المقال التالي:
Juliette RASSI, La profession de foi de Gennade II, extrait de «Al-Durr al-Manzum», dans Parole de l'Orient 24 (1999), p. 267-317.

رواية عجيبة أيقونة بيروت من قبل جرمانُس، بطريرك القسطنطينية (٦٣٤ ـ ٧٣٣م)[١]، ضد محارب الأيقونات لاون الأيصوري، الامبراطور البيزنطي (٧١٧ ـ ٧٤٠م). فقد أورد خبر هذه العجيبة مع غيرها من العجائب ليبرهن وجوب تكريم الأيقونات، ويدحض مزاعم الأمبراطور لاون الثالث أو لاون الأيصوري أول محارب للأيقونات. مما يدل على أنّ خبر الأيقونة قديم جدّاً وربّما يعود، كما قلت سابقاً، إلى أوائل المسيحية. ويبدو أنه بقي متداولاً عند الأرثوذكسيين في الغرب، أي في اليونان، حتى القرن السابع عشر (عام ١٦٣٧ أو ١٦٣٨م)، تاريخ كتابة «الدرّ المنظوم» من قبل متى جيغالا. **فماذا تفيد هذه الرواية؟**

«(ص ٢٠٤)... وصار في بيروت عجباً// (ص ٢٠٥) آخر وهذه صفته: وهو أنّ واحداً من النصارى استأجر بيتاً لسكنه مدة سنة. ولما كملت السنة مضى واشترا له بيتاً آخر. وكان عنده أيقونة في بيته الأول مصوراً فيها المسيح مصلوباً. فسهى عن أخذها ومكتت في مكانٍ في ذلك المنزل.

وهذا البيت مضى واحد يهودي واستأجره. وبعد عبور زمانٍ قليل كانت امرأة ذاك اليهودي حامل فولدت فاجتمع في ولادتها يهوداً كثيرين. ففي حال جلوسهم في البيت تفرّسوا فراووا أيقونة الصلبوت فوق رؤوسهم. فللحين نهضوا بغضب أوليك اليهود ليهربوا من هناك. فقال لهم صاحب البيت اجلسوا يا أخوة لنفرح ونُسرّ. فأجابوه أولايك بغضبٍ: أنت كافر ناصري متجاوز الشريعة لا يجوز لنا أن نأكل معك خبزاً. فأجابهم وقال لهم: ألعلّي أنا نصراني؟! أجابوه اليهود: نعم نصراني أنت وبتومن بيسوع الذي صلبوه

(١) أو القديس جرمانس، بطريرك القسطنطينية (سنة ٧١٥م) تصدّى لمحاربي الأيقونات برئاسة الامبراطور لاون الأيصوري، واضطر إلى التنازل عن البطريركية عام ٧٣٠م؛

Le Petit Robert des noms propres, nouvelle édition, Paris, 1994, article Germain de Constantinople, p. 826.

آباؤنا. وهذه صورته عندك بتسجد لها. قال لهم: وحق إلاه آبائنا إبراهيم واسحَق ويعقوب، لا علم لي بها أصلاً، لكن الآن عرفت أنّ النصراني الذي استأجر هذا البيت قبلي نسيها هاهنا. وأنا لي أياماً قليلة أتيت إلى هنا وسكنت وما رأيتها ولكيما تصدّقوني خدوها واعملوا بها ما تريدون. فقالوا له اليهود: إن أردت أن نصدّقك أنت أولاً، إصنعَ بها سوءاً. وللحال من غير تباطؤ أخرج داك سكينته[١]، وقال: هاهنا موضع الطعنة، سأطعن أنا. وطعن الأيقونة بجسارة في الجنب الأيمن. وللحال كمثل حيّ انفتح الجنب وخرج منه دماً كثيراً.

ولما نظروا اليهود ذلك آمن منهم كثيرين، والبقية لبثوا في عدم إيمانهم، مثلك أيها الملك[٢]، لأنّ مثل هذه العجايب اجترحَتْ الأيقونات المقدسة وأنت لا تعرف. لكن تعصا نعمتهم. لأجل هذا مع هؤلاء اليهود سوف تذهب إلى العذاب الأبدي إن لم ترجع وتتوب.

فلما سمع الملك مجاهرة البطريرك وتوبيخه له، أقام يده ولطمه لطمةً قايلاً له بغضبٍ: إمضِ من هاهنا يا رأس السوء ولا تستبين قدامي أصلاً ليلاّ أعدمك الحيا عاجلاً! فاحتمل البطريرك القديس تلك اللطمة متشبهاً بالمسيح. وخرج من البلاط مطروداً. ولما نظر الملك الغبي// (ص ٢٠٦) المتجاوز الشريعة أنه لم يقدر على أن يعطُف البطريرك إلى هواه امتحن غيره...»[٣].

وهذه الرواية تثبت المركز الديني المسيحي المهم لمدينة بيروت. كما

(١) وليس رمحه، كما جاء عند دانيال الروسي.

(٢) والكلام هنا للبطريرك جرمانس يتوجّه به إلى الامبراطور لاون الثالث الأيصوري محارب الأيقونات.

(٣) الدرّ المنطوم في أخبار ملوك الروم، مخطوطة دير الشير، رقم ٨٠٤ (القرن الثامن عشر)، ٤١٧ ص، ص ٢٠٤ـ٢٠٦. ويجب الإشارة إلى أنني أثبت هنا النص الأصلي دون تعديل، كما كتب في القرن الثامن عشر، للمحافظة على الأمانة العلمية ولمعرفة طريقة الكتابة آنذاك.

تثبت ذلك رواية أخرى على لسان المونسنيور Mislin، الذي كان قد قام برحلة إلى الشرق مع دوق ودوقة Brabant، اللذين أصبحا فيما بعد ملك وملكة بلجيكا، وذلك حوالي سنة ١٨٤٨م. ومن البلدان التي زارها مصر وسوريا ولبنان وفلسطين وتركيا، كما أتبع ذلك برحلة ثانية إلى الأراضي المقدسة للتعرّف أكثر على تلك البلاد[١].

وعن رواية أيقونة بيروت العجائبية يُعطي Mislin تفاصيل أكثر دقة وأهمية، إذ يفيدنا عن تاريخ أدقّ لهذه العجيبة، وعلى لسان أي قديس ورد ذكرها ومصير الأيقونة وفي أية كنيسة أوروبية قد حُفظت. إلا أنه توجد فروقات في بعض التفاصيل بين رواية دانيال الروسي للعجيبة ورواية المونسنيور Mislin كما يلي:

«(P, 301)... Une histoire intéressante est racontée avec tous ses details par Saint Athanase[٢]; elle se trouve dans la «Collection des conciles». En voici un extrait:

«Les Juifs étaient alors très nomberux à Beyrouth. Un chrétien, qui demeurait près de leur synagogue, avait un crucifix fixé à la muraille près de son lit. Sa maison étant trop petite, il la quitta, et elle fut rachetée par un juif. Celui-ci, peu de temps après, invita quelques uns de ses amis à un repas; l'un d'eux, ayant remarqué (p. 402) l'image de notre Sauveur qui avait été oubliée, adressa de vifs reproches au nouveau propriétaire et alla en porter plainte aux princes des prêtres. Un grand attroupement s'étant formé, les princes des prêtres et les anciens se portèrent à la demeure indiquée, se saisirent du crucifix et dirent:

---

(١) Mgr. Mislin, Les Saints Lieux, pèlerinage à Jérusalem, 3 t., Lecoffre Fils et Cie, Libraires - Editeurs, Paris - Lyon, 3eme édi., 1876, t. I, p. XIX-p. XX.

(٢) والقديس أثناسيوس (٢٩٥ـ٣٧٣م.)، كان بطريركاً على الإسكندرية وهو من آباء الكنيسة. اشتهر في عمله الكنسي وشارك في محاربة الآريوسية وفي إلقاء الحرم الكنسي على أريوس في مجمع نيقية. نفي اثناسيوس إلى Trèves في ألمانيا بعد مجمع صور عام ٣٣٥م. لكنه عاد إلى مصر ليتوفى في الإسكندرية. وقد ترك عدداً كبيراً من المؤلفات،
Fernand Comté, Dictionnaire de la civilisation chrétienne, Larousse, Bordas, Paris, 1999, p. 235-236.

«Nos pères ont couvert le Christ d'insultes, faisons comme eux». Ils crachèrent dessus et renouvelèrent toutes les insultes de la Passion. Mais, quand ils lui eurent percé le côté, il en découla de l'eau et du sang[١].

إذاً إن رجلاً مسيحيّاً كان يقطن بالقرب من كنيس يهودي، وقد علّق صورة المصلوب على حائط بيته قرب سريره حسب هذه الرواية. وقد اضطر إلى ترك منزله الضيّق فاشتراه منه يهودي. واليهود كانوا كثراً في بيروت آنذاك، حسب الرواية نفسها. كما أننا نلاحظ مزيداً من الفروقات بين هذه الرواية وبين رواية القديس جرمانس أمام لاون الأيصوري، فاليهودي الذي اشترى البيت من المسيحي، لم تكن زوجته حاملاً، بل دعا أصدقاءه إلى البيت الجديد الذي اشتراه من الرجل المسيحي، فلاحظ أحدهم وجود أيقونة المصلوب على الحائط، مما جعله يصبّ الشتائم على صديقه ويذهب إلى حدّ الادّعاء عليه أمام هيئة من رجال الدين اليهود، الذين عقدوا اجتماعاً للتداول في هذه القضية، وقرّروا تقليد أجدادهم الذين كانوا قد سبّوا المسيح وبصقوا عليه وصلبوه. وهكذا طعنوا الأيقونة من جانبها، كما كانوا قد طعنوا المسيح من قبل، وفجأة فاض منها الماء والدم، كأي جسم حيّ.

«L'ayant recueilli dans un vase, ils se dirent les uns aux autres: «Les sectateurs du Christ» assurent qu'il a fait toutes sortes de prodiges: emportons ce vase dans notre synagogue; répandons ce sang sur les malades; si tout «ce qu'on dit du Christ est vrai, ils seront guéris».

Ils le portèrent donc dans la synagogue, où il s'opéra un grand nombre de prodiges sur des paralytiques, des aveugles, des lépreux et des malades de toute espèce, A cette vue, les juifs demandèremt pardon de leur faute et se convertirent tous au Seigneur.

La synagogue fut changée en église et consacrée au divin Rédempteur...»[٢].

---

(١) Mgr Mislin, Les Saints Lieux, t. I, p. 301-302.

(٢) Mgr Mislin, Les Saints Lieux, t. I, p. 302.

ويوجد فرق آخر في هذه الرواية، وهو أنّ اليهود لم يعتنقوا أو يرفضوا الدين المسيحي فور رؤيتهم للماء والدمّ اللّذين فاضا من الأيقونة، بل جمعوا ذلك في وعاء وأخذوه إلى الكنيس ورشّوه على المرضى، كالعميان والمجذومين والمشلولين، فتمّت بفضله عجائب كثيرة. عندها اعتنقوا جميعاً الدين المسيحي. كما أنّ الكنيس قد حُوِّل إلى كنيسة على اسم السيّد المخلّص. وهنا نتساءل عن أية كنيسة يتكلّم النص؟

وهكذا ينتهي الخبر عن عجيبة أيقونة بيروت، والذي استقاه المونسنيور Mislin من «مجموعة المجامع المسكونية»، لكن المونسنيور لم يتوقف عند خبر تحويل الكنيس إلى كنيسة مسيحية، بل حاول معرفة أصل هذه الأيقونة ومن رسمها وإلى يد من انتقلت، وهل هناك من عيد رسمي ديني في مدينة بيروت للاحتفال بذكرى هذه العجيبة. يقول Mislin:

«... On prit des informations pour savoir d'où était venue cette image miraculeuse, et on connut qu'elle avait été faite par le sénateur Nicodème, qui était allé trouver de nuit notre Sauveur, et qui ensuite lui avait rendu les derniers devoirs avec Joseph d'Arimathie; elle avait successivement appartenu à Gamaliel, à Saint Paul, à Saint Jacques, etc. L'anniversaire de ce miracle se célèbre chaque année, le 9 du mois de novembre...»(١).

ويتابع المونسنيور Mislin خبر الأيقونة العجائبية بقوله أنه تمّ الاستفسار عن مصدرها وعمّن وضَعَها، فعلم بأنها تعود إلى عصر السيّد المسيح نفسه، إذ تمّ رسمها على يد نيكوديم Nicodème الذي كان فريسيّاً ومن أعضاء محفل اليهود، آمن بالمسيح ثمّ قام مع يوسف فيما بعد بدفنه(٢). ومن ثم انتقلت هذه الأيقونة إلى يد عددٍ من الأشخاص منهم القديس بولس والقديس

(١) Mgr Mislin, Les Saints Lieux, t. I, p.301-302.

(٢) Dictionnaire de la civilisation chrétienne, p. 63; Petit Robert des noms propres, p. 1484.

وانظر أيضاً المنجد في الأعلام، جـ ٢، ص ٥٨٣.

يعقوب. وبأنّ عيد ذكرى هذه العجيبة يوافق التاسع من شهر تشرين الثاني(١).
وهكذا نعلم وفقاً لهذا الخبر الذي ينقله المونسنيور تاريخ رسم الأيقونة، ولكنّنا لا نعلم بالضبط تاريخ حدوث عجيبة الأيقونة الدقيق، مع أننا نستنتج من خلال ما سبق، أنّ ذلك تمّ على الأرجح في القرون المسيحية الثلاثة الأولى.

ثم إنّ المونسنيور يُطلعنا أكثر فأكثر حول مصير الدمّ الذي فاض من الأيقونة، إذ يقول:

«... L'évêque qui était alors à Beyrouth mit le sang qui avait coulé de ce crucifix dans plusieurs petites fioles en verre, et les envoya en divers lieux; l'une d'elles fut placée dans l'église impériale de Constantinople: c'est celle qu'on vénère aujourd'hui dans le trésor de la basilique de Saint-Marc à Venise. Quant au crucifix, il a été porté, vers le douzième siècle, dans un village près d'Ancône, qui s'appelle Umana, où il se trouve encore...»(٢).

إنّ أسقف المدينة عمد إلى وضع الدم الذي سال من الأيقونة في قوارير صغيرة وأرسله إلى أماكن عدة، منها قارورة وُضعت في الكنيسة الامبراطورية في القسطنطينية، أي كنيسة آيا صوفيا، وهي نفسها التي تُكرَّم حالياً في كنيسة القديس مرقس في البندقية. وعلى الأرجح نُقلت هذه القارورة إلى إيطاليا مع الحملات الصليبية ومع ما نُهِب من ذخائر من كنائس مدينة القسطنطينية في بداية القرن الثالث عشر(٣). ويتابع المونسنيور Mislin خبره بأنّ أيقونة المصلوب، وقد حُملت حوالى القرن الثاني عشر من بيروت إلى قرية قرب

(١) ولا نعرف هنا إذا كان المقصود تشرين الثاني غربي أم شرقي.

(٢) Mgr Mislin, Les Saints Lieux, t. I, p. 302.

(٣) حول موضوع نهب الذخائر وغيرها من القسطنطينية، التي كانت كالقدس، مستودعاً لذخائر القديسين، انظر:

Michel Balard, Croisades et Orient latin (11^{e}-14^{e} siècles), Armand Colin, Paris, 2003, p. 249-251.

(أنكونا) (Ancône)[1] تدعى أومانا (Umana) حيث كانت لا تزال موجودة حتى عصر المونسنيور، أي القرن التاسع عشر.

وكما أنّ المونسنيور Mislin يتابع خبره بقوله أنّ أيقونة المصلوب البيروتية جعلت رساماً من مدينة فلورنسا الإيطالية يستوحي منها ليزيّن صدر كنيسة القديس بطرس أو (Saint-Pierre-aux-Liens) سان بيار أو ليان في روما.

«... Un peintre de Florence, nommé Coppi[2] a représenté le miracle du crucifix de Béryte sur l'abside de la basilique de Saint-Pierre-aux-Liens, à Rome»[3].

كما رجع إلى ما قاله أحد المبشّرين الكاثوليك القدماء لمعرفة مصير أيقونة المصلوب، فعلم أنّها وُضعت في مكانٍ تحت الأرض في كنيسة «القديس المخلّص»، التي حوّلها الأتراك إلى مسجد. والمسيحيون كذلك الأتراك يلجأون إليها عند الحاجة، في مرضهم وفي حاجاتهم الأخرى:

«Un ancien missionnaire, en parlant de ce crucifix, ajoute: «Ce précieux monument est placé dans un lieu souterrain de l'église de Saint-Sauveur, dont les Turcs ont fait une mosquée. Nos chrétiens, et les Turcs mêmes, ont recours dans leurs maladies et dans leurs autres besoins à cette miraculeuse image de Jésus crucifié»[4]

---

(١) أنكون أو أنكونا مدينة إيطالية، كانت عاصمة للثغور، وهي تُعرف بكنيستها سان سيرياك (القرن الثالث عشر) وبجامعتها كذلك بمتحفها الوطني؛ Petit Robert des noms propres, p. 75 ووفقاً لمعجم المنجد في الأعلام، أنكونا هي مرفأ إيطالي على الأدرياتيك، يبلغ عدد سكانها ١٢٥,٠٠٠ نسمة ومشهورة بقوس ترايان وكاتدرائية من القرن ١٣» كما جاء سابقاً. (المنجد في الأعلام، جـ ٢، ص ٧٨).

(٢) لم أجد معلومات حول هذا الرسّام الإيطالي بالذات.

(٣) Mgr Mislin, Les Lieux Saints, t. I, p. 302، واسم هذه الكنيسة بالإيطالية San Pietro in Vincoli، كما تُدعى أيضاً Basilique Eudoxienne وقد أسستها في القرن الخامس الميلادي Eudoxie، زوجة الأمبراطور فالنتيان الثالث، وذلك لحفظ القيود التي استعملت ضد القديس بطرس والتي تُكرَّم حاليّاً كذخائر، Petit Robert des noms propres, p. 1848.

(٤) Mgr Mislin, Les Lieux Saints, t. I, p. 303.

لكنّ المونسنيور لا يوضح لنا عن أية كنيسة يتكلّم، وإنّ ذلك يدفعنا إلى التساؤل، إذا ما كان الخبر صحيحاً، عن اسم المسجد الحالي في بيروت الذي كان أصلاً كنيسة تحمل اسم «كنيسة المخلّص»؟!

إذاً نستنتج، من خلال ما سبق وأشرنا إليه، أنّ دانيال الروسي يعتبر بيروت وعن حق قسماً من الأراضي المقدسة. **فهل يا ترى لها أهمية أخرى بنظر الحاج الروسي؟**

للإجابة على هذا السؤال لا بدّ من العودة إلى نص الرحالة نفسه، حيث يقول دانيال:

«... C'est dans cette même ville de Bérythe que les fils de Xénophon, Jean et Arcadius vinrent étudier la philosophie. De Bérythe jusqu'à Zebel il y a vingt verstes; de Zebel à Tripoli quarante, et de Tripoli à la rivière Soudia soixante...»[1],

إذاً يشير دانيال إلى أهمية أخرى عُرفت بها بيروت وهي أهميتها الثقافية والعلمية، حيث كانت مقصداً لطلاب علم الفلسفة، ومنهم ولدا اكسنوفن المدعوّان يوحنا وأركاديوس، **فمن هو اكسنوفن؟ وما مدى صحة هذه الرواية؟ وما المغزى من إيرادها في نصّ رحلة دانيال نفسه؟**

في الواقع، إنّ رواية دانيال المقتضبة هذه عن دور مدينة بيروت كمركز علمي لتعلّم الفلسفة يؤكده المستشرق ومؤرخ الكنيسة، الألماني الجنسية، Georg Graf الذي وجد في خزانة الڤاتيكان مخطوطة باللغة العربية تحمل رقم ٧١ وقد كتبت سنة ٨٨٥م. وفيها «سيرة اكسنوفن القديس وأسرته» وقد نشرها في **مجلة المشرق** تحت عنوان: «**اجتماع الأهل بعد شتات الشمل، وهو أثر نصراني قديم فيه ترجمة أكسُنوفن وامرأته مريم**[2] **وولديهما يحنّا**

---

(١) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 55.

(٢) المشرق، السنة ١٢ (١٩٠٩)، ص ٦٩٥ ـ ٧٠٦.

وأرقاديوس القديسين، نشره الخوري جرجس كراف». وهذا النص العربي للسيرة مترجم عن اللغة اليونانية، ولكنه يبقى أقدم بمائة سنة من نص آخر للسيرة نفسها، التي تُنسب إلى المؤلف الشهير سمعان المعروف بالمترجم، والذي طُبع باللاتينية في **أعمال القديسين البولنديين** وثم باليونانية في **مجموع أعمال آباء اليونان**.

وتكمن أهمية النص العربي الذي نشره كراف، أنه تُرجم عن الأصل اليوناني الذي ضاع والذي هو أقدم من نص سمعان المترجم. كما أنّ المعلومات عن اكسنوفن وأسرته محدودة جداً حسب كراف الذي يفيد «أنّ المؤرّخ نيقيفورس كالستوس قد اختصر في تاريخه أخبار [اكسنوفن] وجعله من أهل القرن الخامس للميلاد. ويؤخذ من الأثر الذي ننشره أنه كان من البطارقة وأحد حاشية ملوك الروم. ومما يدل على قدم عهده، ما رواه عن بيروت التي كانت في القرن الرابع والخامس زاهرةً بالعلوم الفقهية وذلك ما حمله على أن يرسل إليها ولديه كما جرت عادة الأعيان في ذلك الزمان»[1].

ونصّ السيرة التي نشرها كراف مكتوب باللغة العربية الدارجة التي كانت شائعة عند المسيحيين آنذاك. ومفادها أنّ اكسنوفن البيزنطي، أحد بطارقة الملك، كان وزوجته مريم مسيحيين صالحين وقد ربّيا ولديهما يوحنا وأرقاديوس تربيةً صالحة وعلّماهما كل علم وحكمة ثم أرسلاهما إلى بيروت لإكمال دروسهما في الفلسفة، لكنّ عاصفة هَوْجاء اعترضتهما في وسط البحر، فانكسرت السفينة التي تقلّهما مع عبيدهما وألقاهما الموج على الساحل اللبناني وذلك في ناحية صور: يوحنا وقع في مكان يقال له ملفيتان (Malmephetan) وأركاديوس في موضع يُقال له الأربعة أبرجة[2]. لكن

(١) المشرق، السنة ١٢ (١٩٠٩)، ص ٦٩٥.

(٢) المشرق، السنة ١٢ (١٩٠٩)، ص ٦٩٩.

اكسنوفن وزوجته مريم لم يعرفا مصير ولديهما، لذلك أرسلا من يبحث عنهما في مدينة أثينا لاعتقادهما أنهما ربّما فضلا الذهاب إلى تلك المدينة عوضاً عن بيروت. وهذا مما يدل على أنّ بيروت كانت آنذاك توازي بل تضاهي مدينة أثينا على المستوى الثقافي. لكن مصير يوحنا وأركاديوس هو أن يترهّبا وأن يلتقيا فيما بعد بوالديهما اللّذين تركا بدورهما بيزنطية للبحث عن ولديهما. وتخلّيا فيما بعد عن حياتهما العادية المترفة، ليشكرا الربّ على حِفْظِه لولديهما من الموت، وترهّبا: «... فأمّا الغلامان فلحقا بالشيخ إلى البرية فساواهما اللّه أن يعرفا الغيب من قبل أن يخرجا من هذه الدنيا ويعملا العجائب. وأما أبوهما فبعث وباع كل شيء وقسّمه على المساكين وأعتق مماليكه. وأمّا امرأته فراهبها (فرهّبها) وجعلها في دير رهبانيات عذارى صالحات فحرصت وبلغت حتى أشفت (شفت) المرضى وأخرجت الشياطين. وأمّا اكسنوفن فلبس مسحاً وخرج إلى البرية أيام حياته فسُووي أن يعرف الغيب وسرائر (وأسراراً) كثيرة من عند اللّه. وأنهم تنيحوا أجمعين من هذه الدنيا كما وصفنا لكم وحدّثناكم يا أبهاتنا ويا أخوتنا لتعلموا أن ليس يسلم اللّه كل من يتوكل عليه ويخدمه بالحقيقة ولكن يهتم به ويخلصه من بلايا وأحزان كثيرة [حتى] يوصله إلى الحياة الدائمة كما فعل بهؤلاء بتدبير رحمته.

كذلك نحن نسأله أن يساوينا بملكوته والاهتمام بطاعته وأن يُلقي خوفه في قلوبنا لأن لا (لئلا) نهلك بتوانينا وكسلنا حتى لا يفوتنا الخير الذي هو لنا من عند ربّنا ومخلصنا يسوع المسيح الذي له [الحمد] مع أبوه (أبيه) وروح قدسه الطيّب المحيي من الآن وإلى دهر الداهرين آمنين. تمت قصة اكسنوفن ومرته (وامرأته) وابنيهما أرقاديوس ويحنا»[1].

(١) المشرق، السنة ١٢ (١٩٠٩)، ص ٧٠٥ ـ ٧٠٦، والكلمات الموضوعة بين قوسين قد أضافها محقّق النص الأب جورج غراف أو جرجس كراف نفسه.

وإنّ إشارة دانيال الروسي في رحلته إلى خبر إرسال اكسنوفن لولديه أركاديوس ويوحنا لتلقي علوم الفلسفة ببيروت، إنما يشير إلى اهتمامه بتاريخ المنطقة وتاريخ بيروت بشكل خاص، وبأنّ معلوماته في رحلته كانت تاريخيّة ولها أهميتها، وهي مبنية على مصادر قديمة. كما أنّ ذلك يؤكد على إرادة دانيال بإبراز دور بيروت الديني من جهة والثقافي من جهة أخرى، بالرغم من الاختصار الذي غلب على معلوماته عن هذه المدينة العريقة. أما اهتمامه بشخص اكسنوفن وامرأته وولديه بالذات فيبرّره كون اكسنوفن كان قد نصح ولديه بالاهتمام بالقديسين وخاصة الرهبان وبإكرامهم: «... والْزما أنفسكما الصلح مع كل واحدٍ واهتمّا بالقديسين وخاصة بالرهبان وأكرماهم وتكونان تأتيانهم فإنهم يصلّون أن يرحم اللّه الدنيا. فإنكما تعرفان أنه ما فات بيتي قطّ أبداً رهبان أكرماهم وأحرصا أن تحفظا هذا كله لكيما تبصرا الرب وتفرحا معه إلى الأبد...»[1]. وإنّ موقف اكسنوفن هذا هو الذي دفعه إلى حياة الرهبنة فيما بعد مع جميع أفراد عائلته.

ومما يؤكد على صحة المركز الثقافي الذي تبوأته بيروت في القرون المسيحية الأولى وخاصة في القرن الخامس الميلادي ما ذكره المونسنيور Mislin الذي يقول عن مدينة بيروت بأنّ الملك البيزنطي يوستنيانوس (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) قد سمّاها «بأمّ الشرائع ومرضعتها»، وبأنها كانت معروفة في العصور المسيحية الأولى بمدرسة «البلاغة أو الفصاحة» التي تهدّمت سنة ٥٦٦م، إثر الهزّة الأرضية التي تعرّضت لها المدينة[2]. وعلى ما يبدو خلّفت أضراراً بالغة فيها كما سيطلعنا عليه المؤرّخ فيليب حتّي في كتاب «تاريخ لبنان»، حيث يشير إلى تعرّض بيروت إلى سلسلة من الهزّات أو الزلازل العنيفة، أثرت

(١) المشرق، السنة ١٢ (١٩٠٩)، ص ٦٩٧.

(٢) Beyrouth est appelée par Justinien «la mere et la nourrice de la loi». Elle était fameuse encore pendant les premières siècles de l'Église par son école d'éloquence. Elle fut détruite par un tremblement de terre en 566...», Mgr Mislin, Les Saints Lieux, t. I, p. 296.

بشكل عنيف عليها وعلى غيرها من مدن الساحل اللبناني[1]. كما أن المؤرّخ فيليب حتّي يوافق دانيال الروسي، الذي يشير إلى احتلال بيروت مركز الصدارة علميّاً بالنسبة إلى أثينا والإسكندرية. فوفقاً لحتّي، من المرجّح أن يكون سبتموس سفيروس (١٩٣ـ٢١١م) هو مؤسس المعهد في بيروت. أمّا أبرز الأساتذة فيه فهما عالمان مشهوران: بابنيانوس وأولبيانوس. وقد ترك الأول إرثاً تشريعيّاً عظيماً استُعمِلَ منه ٥٩٥ مادة أو بنداً في شرائع يوستنيانوس الكبير التي وُضعت عام ٥٣٣م[2]. كما أنّ أولبيانوس الذي وُلِد في صور عام ١٧٠م، كان أستاذاً في معهد بيروت، وقد استدعي إلى روما ليكون مستشاراً للأمبراطور سفيروس نفسه. وكانت خدماته في مجال القانون أوسع من خدمات زميله، إذ إنّ مجموعة قوانين يوستنيانوس تضمّ أكثر من ٢٥٠٠ بنداً أو فقرة من كتاباته ومؤلّفاته، أي حوالي ثلث المجموعة اليوستنيانية.

كما أنّ المسؤول عن جمع قوانين يوستنيانوس كان هو الآخر أستاذاً من أساتذة الحقوق في بيروت واسمه دوروثيوس. فلا عجب إذاً أن يُسمّي يوستنيانوس مدينة بيروت «بأمّ الشرائع ومرضعتها»[3].

وبالإضافة إلى ذلك كانت بيروت مركزاً للدراسات اللاهوتية. وأقدم إشارة إليها في الكتب الكنسية جاءت في خطبة لغريغوريوس الملقّب «بصاحب العجائب» ألقاها عام ٢٤٠م. كما أنّ عدداً من رجال الكنيسة أمّوا بيروت ومنهم الأسقف غريغوريوس النازينزي (من مدينة نازينزوس في كبدوكيا) وصار فيما بعد أسقفاً على القسطنطينيّة ثم طوّب قديساً. وهو كان

(١) فيليب حتّي، تاريخ لبنان، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٧٢، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٤.

(٢) حتّي، تاريخ لبنان، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

(٣) حتّي، تاريخ لبنان، ص ٢٧٨.

قد هجر أثينا عام ٣٦٥م. «مفضلاً بيروت عليها. وجاءها ليتابع دروسه في القانون». ومن الذين قصدوا بيروت أيضاً سفيروس أسقف أنطاكية (من ٥١٢ ـ ٥١٨م)، والذي خلّف لنا أحد تلامذة القانون في بيروت، ويدعى زكريا الغزّاوي، سيرة حياته. ومن خلال هذه السيرة يتبيّن لنا أنّ بيروت كانت مدينة جامعة «تتمثّل فيها شعوب وحضارات وتقع جسراً بين الشرق والغرب. . .»[١].

أما معهد الحقوق في بيروت فكان يضمّ طلبة من جميع أنحاء المنطقة: من ليسيا، من آسيا الصغرى وايدسا (الرّها) وغزّة والإسكندرية وغير ذلك. كما أنّ هذا المعهد سيتوسّع ليضمّ كليات متعدّدة. يقول حتّي: «. . . وما إن كاد القرن الخامس ينصرم حتى أصبح معهد القانون هذا جامعة كبيرة تضمّ كليات متعدّدة: واحدة للآداب وأخرى للفلسفة وأخرى للقانون. وقد كان رئيسها ايفرغريوس رجلاً حسن التديّن صالحاً متقشّفاً. . .»[٢]. وهذا مما يدل على صحة المعلومة التي وردت عند دانيال الروسي من أنّ اكسنوفن قد أرسل ولديه لتعلّم الفلسفة فيها، لأنّ كلية الفلسفة كانت بالفعل إحدى كليات معهد بيروت.

لكنّ المدينة سوف تتعرّض لعدّة هزّات أرضية سنة ٣٤٩م ثم سنة ٤٩٤م و٥٠٢م، تسببت بأضرارٍ فيها، كذلك حدث خراب في صيدا وصور. لكنّ زلازل عنيفة ضربت المدن الساحلية اللبنانية بين عامي ٥٥١ و٥٥٥م وأدّت إلى تخريب شبه كامل في مدينة بيروت. «. . . وقد طفت موجة عارمة من البحر إثر أحد الزلازل (٥٥١م) سببت خسارة في الأرواح والممتلكات أكثر ممّا سبّبه الزلزال ذاته ونرجّح أن بنايات المعهد تهدّمت في هذا الزلزال. . . وقد ذكر أن ما يقرب من ٣٠ ألف نسمة من سكان بيروت لاقوا حتفهم في هذا الزلزال. وقد هرب الباقون يأساً وخوفاً تاركين المدينة قفراً. أمّا الذين

(١) حتّي، تاريخ لبنان، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.
(٢) حتّي، تاريخ لبنان، ص ٢٨٠ ـ ٢٨٢.

نجوا من أساتذة وتجار فإنهم ارتحلوا إلى صيدا. وهناك كان أساتذة القانون يعطون دروساً وقتيّة في انتظار إعادة بناء المدينة ومعهد القانون. وفي أثناء إعادة بناء بيروت، الذي كان يجري ببطء، وقع حريق هائل التهم أكثر البنايات الجديدة. فكانت هذه النازلة الضربة القاصمة التي قضت على المدينة ومعهدها. . .»[١].

ويوجد صدى أخبار الهزّات الأرضية التي تعرّضت لها مدن الساحل اللبناني في كتابات الرحالة الغربيين ومنهم حاج مدينة بلازنس Le Pèlerin de Plaisance، الذي زار المنطقة (ما بين سنتي ٥٦٠ ـ ٥٧٠م)، كما أشرنا، وقد ذكر في رحلته أخباراً معاصرة كالهزّات الأرضية التي أدّت إلى خرابٍ كبير في طرابلس وبيروت وجبيل وصيدا؛ مع الإشارة إلى أنّ هذه المدينة الأخيرة قد نجت تقريباً من الهزّة الأرضية وكان الخراب فيها محدوداً. أمّا مدينة بيروت فيشير حاج بلازنس إلى تهدّم معهد الحقوق فيها بسبب إحدى الهزّات التي حدثت قبل مروره بالمدينة بوقتٍ قصير، والتي أدّت إلى خرابٍ كبير فيها وزهق أرواح ٣٠ ألف نسمة دفعةً واحدة، كان أسقف بيروت، الذي نقل الخبر إلى حاج بلازنس، يَعرف أسماءهم جميعاً، ما عدا المسافرين الأجانب الذين كانوا في المدينة أثناء حدوث هذه الهزّة. وهذه الملاحظة الأخيرة عند الحاج الإيطاليّ تثبت دقّة ما أشار إليه المؤرّخ فيليب حتّي حول تاريخ تهدّم معهد بيروت[٢]. وقد جاء عند حاج بلازنس ما يلي:

«... Nous sommes arrivés dans le pays de Syrie, dans l'île d'Antaradus, et de là nous sommes allés à Tripoli de Syrie, où repose Saint Léonce. Cette ville, à l'époque de l'empereur Justinien, a été détruite par un tremblement de terre avec d'autres villes. Nous sommes allés de là à Byblos, qui elle aussi a été détruite avec ses habitants; de même dans la ville de Triaris, qui elle aussi a été détruite de la même façon.

(١) حتّي، تاريخ لبنان، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.
(٢) حتّي، تاريخ لبنان، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

Ensuite nous sommes allés dans la ville très splendide de Béryte [Beyrouth], où se trouvait il ya peu une école de lettres[١]. Cette ville a été détruite. L'évêque de la ville nous a dit que trente mille personnes dont on connaissait les noms, à l'exception des voyageurs, périrent ici en un instant. Cette ville est située au pied des montagnes du Liban. De Beyrouth nous sommes allés à Sidon [Saïda], qui s'est écroulée en partie; elle aussi touche le Liban. Les gens y sont très mauvais. Le fleuve Aschpius y coule...»[٢].

وبعد مقارنة ما جاء في رحلة دانيال الروسي عن مدينة بيروت وما جاء عند غيره من القدماء والمعاصرين، نستنتج أنه بالرغم من عدم مروره في مدن الساحل اللبناني، إلاّ أنّ معلوماته عن مدينة بيروت كانت دقيقة وصحيحة مع أنها جاءت مقتضبة[٣]. **فماذا عن جبل لبنان أو لبنان؟**

ب ـ جبل لبنان (أو لبنان):

من الطبيعي أن يذكر دانيال لبنان أو جبل لبنان في حجّه الذي يتبع فيه خطى السيّد المسيح. إذ أنّ ذلك الجبل هو مصدر أهم منابع نهر الأردن الذي تعمّد السيّد في مياهه. ولكنه لم يزره شخصيّاً بل نظر إليه من بعيد من بحيرة الحولة وأفادنا كذلك عن سكان ذلك الجبل الذي يطلق عليهم تسمية خاصة.

(١) نلاحظ أنّ حاج بلازنس يُطلق اسم «معهد اللغات» أو «معهد الآداب» على اسم معهد بيروت الذي اشتهر بشكل خاص كمعهد قانوني، لأنه وكما ورد عند فيليب حتّي، أصبح قبل تدميره يتألّف من عدة كليات، ولا شك أنّ «معهد الآداب» هذا كان يشكّل قسماً من تلك الكليات.

(٢) Récits des premiers pèlerins, p. 206.

(٣) بينما ركّز دانيال في رحلته على الدورين الديني والثقافي لبيروت، اهتمّ رحالة غربيون آخرون بالجانب الاقتصادي والمادي للمدينة فقال عنها فتيلوس (١١١٨ـ١١٣٠م) بأنها مدينة بالغة الثراء، وكذلك وصفها يوحنا الورزبرجي (١١٦٠ـ١١٧٠م). أما يوحنا فوكاس، الذي زار المدينة في نهاية القرن الثاني عشر (حوالى عام ١١٨٥م)، فقد أشار إلى اتساعها وعمرانها بالسكان، وذكر مرفأها الجيّد وكيفية التحكّم بالسفن فيه. ممّا يدل على أنها كانت تتمتّع بازدهار تجاري واضح على عصره. عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ١٢٩ وص ٢١٧.

يقول دانيال «. . . أنه من الجهة الأخرى للبحيرة [بحيرة جنيسارت أو الحولة] من جهة الشرق، يوجد جبلٌ عالٍ وكبير مكسوّ بالثلوج حتّى في فصل الصيف. واسمه **لبنان** وهو ينتج البخور والصّعتر الأبيض. ومنه يجري ١٢ نهراً. ستة منها تتجه إلى الشرق وستة أخرى إلى جهة الجنوب. وهذه الأنهر الثلاثة الأخيرة تصبّ في بحيرة جنيسارت (Génésareth). [والأنهر] الست الأخرى تتجه نحو أنطاكية العظمى. وهذا البلد هو ما يطلق عليه اسم ميزوبوتاميا (Mésopotamie)، والذي يعني [بلاد] ما بين الأنهار. ففي [بلاد] ما بين الأنهار تقع شرّان [أو حرّان] مسقط رأس إبراهيم. وهذه الأنهار تغذي كثيراً بحيرة جنيسارت، التي يخرج منها نهر كبير يصبّ في «بحر» [أو بحيرة] طبرية ويزيد من حجم مياه هذا البحر، الذي يجري منه الأردن [أو نهر الأردن]، كما قلت سابقاً وكما هو عليه واقع الحال. . .».

«LXXXV. Du Mont Liban. De l'autre côté de ce lac, vers l'Orient estival, s'élève une grande et haute montagne couverte de neige même en été; elle se nomme Liban et produit de l'encens du Liban et du thymiame blanc. Douze grandes rivières descendent du Mont Liban, six vers l'Orient et six vers le Sud; ces dernières tombent dans le lac de Génésareth et les six autres coulent vers Antioche la Grande; c'est ce pays qu'on nomme Mésopotamie, ce qui veut dire: entre les rivières; c'est là, entre ces rivières qu'est située Charran d'où sortit Abraham. Ces rivières alimentent largement le lac de Génésareth, dont sort ce grand fleuve qui tombe dans la Mer de Tibériade et grossit le volume d'eau de cette mer, dont découle le Jourdain, comme je l'ai dit plus haut et comme cela est en vérité...»[١].

لقد نظر دانيال من محيط بحيرةٍ باتجاه الشرق نحو الجبل الذي يُطلق عليه اسم لبنان، والذي يعرِّفه بصفاته المعروفة وخاصة أهمها، وهي كونه منبعاً لنهر الأردن، الذي تعمّد فيه السيّد المسيح. إلاّ أننا نجد ارتباكاً في

(١) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 65-66.

تحديد دانيال الروسي لكل من بحيرة الحولة و«بحر» طبرية. مما ولّد خللاً واضحاً في ما يورده من أخبار حجّه إلى هاتين المنطقتين ومحيطيهما. ولا نستطيع أن نتلمّس مباشرة الموقع الذي ينظر منه دانيال من فلسطين إلى جبل لبنان. فهو يخطئ في التحديدات الجغرافية. فبالنسبة إليه بحيرة جنيسارت هي بحيرة الحولة، وبالتالي فهي ليست «بحر» أو بحيرة طبرية. بينما في الواقع بحيرة الحولة[١]، التي تقع في شمالي فلسطين، لا يطلق عليها اسم بحيرة جنيسارت[٢]. بل كان يُطلق هذا الاسم على بحيرة طبرية؛ كما أُطلق عليها اسم آخر، على أيّام السيّد المسيح، هو اسم «بحر الجليل»[٣]. وهذه البحيرة تتصل بالبحر الميت بواسطة نهر الأردن[٤]. لكن دانيال الروسي يقدّم

(١) بحيرة في شمال فلسطين على حدود الجليل الأعلى إلى جهة الشرق، وقد جُفّفت مياهها ابتداءً من عام ١٩٣٤ لتصبح سهلاً لزراعة الحبوب والزهور
Petit Robert des noms propres, p. 984.

(٢) «Génésareth ou Gennésareth dans les Évangiles synoptiques, localité située au N.O. du lac de Tibériade, et par extension nom donné à ce lac». Petit Robert des noms propres, p. 818.

(٣) «Tibériade (lac de) ou lac de Génésareth, mer de Galilée, lac de Kinneret. Lac d'Israël situé aux frontières de la Syrie en Galilée, et relié à la Mer Morte par le Jourdain. A plus de 200 m. au-dessous du niveau de la mer, il occupe en partie la dépression de Ghor et couvre plus de 200 km^2... les Évangiles y situent plusieurs épisodes de la vie de Jésus, notamment la pêche miraculeuse (Luc, V, 1-11). Petit Robert des noms propres, p. 2054;
انظر أيضاً خريطتين حول الموضوع في أطلس الدارسين للكتاب المقدس، صدر عن دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، ١٩٩٤، خريطة ٢٠ (الرب يسوع في الجليل) وخريطة ٢١ (فلسطين في أيام المسيح).

(٤) حول تحديد آخر لبحيرة جنيسارت الخاطئ، انظر دانيال حيث يقول:
«Une grande rivière qui sort du lac de Génésareth et tombe dans la mer de Tidériade. Le lac de Génésareth est très grand, de forme ronde, ayant quarante verstes de largeur sur autant de longueur, et contient beaucoup de poissons; près de ce lac se trouve la ville du nom de Génisara, c'est pourquoi il s'appelle [lac] de Génésareth...». Vie et pèterinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 65.
والملاحظ أنّ دانيال يعطي أرقاماً غير دقيقة عن حجم البحيرتين طبرية والحولة، فحسب القياسات التي يقدّمها لنا نرى أنّ حجم الحولة هو أكبر من حجم طبرية، مع أنّ العكس صحيح (انظر نفس المصدر، ص ٦١).

بعض معلومات صحيحة تتعلق بمدينة ديكابوليس (Décapole) أو المدن العشر، القريبة من بحيرة جنيسارت، مما يجعلنا نتأكد من أنه وقع في خطأٍ جغرافي. ومما يساعدنا على توضيح خطئه، أنه يتكلم في موضع آخر عن وجود مكانٍ قرب «البحيرة» كان المسيح يبشّر فيه الشعوب، التي تتقاطر نحوه من ديكابول ومن شواطئ صيدا وصور، وبأنّ السيّد المسيح قد قام بعجائب كثيرة قرب هذه البحيرة[١]. والأرجح والأقرب إلى المنطق هو أن يكون دانيال قد وصل في حجّه إلى منطقة بحيرة طبرية فقط، إذ يشير إلى أنه ورفاقه قد استقرّوا مدة عشرة أيام في مدينة طبرية وقد زاروا المناطق المحيطة بالبحيرة[٢]. ويتابع قوله كما يلي:

«لم أستطع أن أحثّ خطاي إلى جبل لبنان، خوفاً من الكفّار (أو غير المؤمنين). ولكن لديَّ معلومات جيّدة عنه بفضل أدلائي المسيحيين الذين يقطنون هناك والذين لم يسمحوا لنا بالذهاب إلى هناك، لأنّ عدداً كبيراً من الكفّار يسكنون في هذا الجبل، وقد رأيناه من بعيد، كذلك [استطعنا مشاهدة] محيط بحيرة جنيسارت [والأصح الحولة]. وهناك حوالى مسافة ٢ فرست تفصل ما بين بحر الحولة وبحيرة جنيسارت، التي تقع إلى الشرق من مدينة طبرية...».

«Je n'ai pu pousser mes pas jusqu'au Mont Liban, de crainte des mécréants; mais J'en ai de bonnes notions par mes guides chrétiens, qui y habitent et qui ne nous permirent pas de nous y rendre; car beaucoup de mécréants vivent dans cette montagnes; nous ne l'aperçûmes que de loin, ainsi que les environs du lac de Génésareth. Il y a environ deux verstes entre la Mer de Tibériade et le Lac de Génésareth, qui est situé à l'Orient estival de la ville de Tibériade...»[٣].

(١) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 65; voir également p. 62-63.

(٢) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 61.

(٣) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 65-66.

ولكن السؤال الذي يهمنا هو: **عن أية منطقةٍ من جبل لبنان أو لبنان يتكلّم دانيال؟**

إنّ تسمية **جبل لبنان** في نصّ دانيال تعني **جبل حرمون** حيث يقطن حتى اليوم المسيحيون والمسلمون والدروز وغالباً ما تكون هذه القرى مختلطة. وكما ورد في نصّ دانيال نفسه، أدلاؤه المسيحيون الذين يقطنون في هذا الجبل، هم الذين نصحوه بعدم الذهاب إلى هناك خوفاً عليه من غير المؤمنين أو («الكفّار»). وهذه الكلمة الأخيرة تعني، عند دانيال، المسلمين عامة: من دروز ومسلمين، **فجبل الشيخ** كان الملجأ الأول للدعوة الدرزية بعد هرب الدعاة إليه من مصر، خوفاً على حياتهم، وبعد أن وجّههم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر اللّه (٣٨٦ ـ ٤١١هـ/ ٩٩٦ ـ ١٠٢٠م)؛ إلى تلك المنطقة الجبلية لكسب المؤيدين والمناصرين. وهي حتى الآن مقرّ ديني مهم للدعوة الدرزية[(١)].

وتسمية دانيال لجبل حرمون باسم لبنان أو جبل لبنان ليست مُستغربَة، بل إنّ الكتاب المقدس نفسه يطلق عليه هذه التسمية «في غير موضع، من باب تسمية الجزء باسم الكل، ويشير لبنان أيضاً إلى سلسلة جبال لبنان الشرقية كلها...»[(٢)]. أما المؤرّخ اليهودي يوسيفوس (٣٧ ـ ١٠٠م) فقد

(١) يبدو أنّ عوض لم يفهم جيّداً التحديد الجغرافي لـ «جبل لبنان» حسب دانيال الروسي، فجعل الدروز والموارنة يسكنون الجبل عينه أو القسم نفسه من الجبل، وهذا خطأ لأنّ الموارنة الذين ساعدوا الصليبيين والذين يشير إليهم عوض كانوا يسكنون في شمالي لبنان وليس في جنوبه (أي جنوبي لبنان)، بينما كان الشيعة والدروز يقطنون في منطقة العرقوب، التي لم تكن قد سقطت تحت أيدي الصليبيين آنذاك، لأنه حسب المصادر الأوروبية سيصبح سهل حاصبيا منطقة تابعة لصاحب صيدا الصليبيّ (Renaud de Sidon) الذي سيتخذ من قلعة شقيف أرنون مقرّاً له. ولا يزال الخان في «سوق الخان» قرب مدينة حاصبيا، ماثلاً أمام أعيننا كدليل قاطع وحسّي على وقوع المنطقة تحت السيطرة الصليبية، أنظر عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ٨١.

(٢) خلف، لبنان في الكتاب المقدس، ص ٢٧١، كذلك راجع ص ٢٧٤ من المرجع نفسه.

أطلق أيضاً اسم جبل لبنان على حرمون، مشيراً إلى أنّ منابع الأردن تخرج منه[(١)].

ولكن هل باستطاعة المرء رؤية جبل حرمون من محيط بحيرة طبرية، بالرغم من المسافة التي تفصلها عنه؟

لقد أجابنا الأب Corcket على سؤالنا هذا بعد أن اختبر ذلك بنفسه، إذ يُشير إلى أنه بعد انطلاقه من مدينة القدس ومروره بوادي نهر الأردن، وبعد أن قطع سهل أريحا، ظهر أمامه بوضوح جبل حرمون المكلّل بالثلوج وكان ذلك في شهر آذار وكانت الرؤية جيّدة جدّاً[(٢)]. وقد حدث الأمر عينه باعتقادي مع دانيال الروسي، الذي رأى جبل حرمون ومحيط بحيرة الحولة، الذي يُطلق عليها خطأً اسم بحيرة جنيسارت، من محيط بحيرة طبرية. وعندما يكمّل معلوماته عن جبل لبنان، يأخذ هذا الجبل بعد ذلك، في نصه، معنىً أوسع من معنى جبل حرمون، إذ يشير إلى كون جبل لبنان منبعاً لاثني عشر نهراً، وهذا طبعاً لا ينطبق على جبل الشيخ أو حرمون، الذي هو بمثابة منبع لنهر الأردن فقط. إذن يتسع معنى جبل لبنان عند دانيال حتى يمتدّ نحو مدينة أنطاكية وبلاد ما بين النهرين وخاصة مدينة حرّان[(٣)].

= وتتناول الشواهد التي ورد فيها اسم «حرمون» في الكتاب المقدس. ومن المهم الإشارة إلى إنّ خلف يشير في دراسته إلى أسماء ستة أطلقت على جبل حرمون أو جبل الشيخ وفقاً للعصور المختلفة وهي كالتالي: ١ ـ سيئون ٢ ـ سريون ٣ ـ سنير أو شنير ـ ٤ ـ أمانة ٥ ـ لبنان ٦ ـ كبرياء الأردن. (خلف، لبنان في الكتاب المقدس، ص ٢٦٧ ـ ٢٧٢).

(١) خلف، لبنان في الكتاب المقدس، ص ٢٧١، حاشية ٩.

(٢) Corcket, Le Liban dans la Bible, p. 18 et p. 21؛ ويؤكد لنا فيليب حتّي تجربة الأب Corcket بقوله: «... ويستطيع المرء أن يرى قمة حرمون من فلسطين...». حتّي، تاريخ لبنان، ص ٢٢.

(٣) «حرّان (Carrhae) مدينة قديمة في تركيا ما بين النهرين... موطن إبراهيم الخليل بعد هجرته من أور... كان فيها مدرسة ثقافية عنيت بالفلك والرياضيات... واشتهرت بعلماء الصابئة من فلاسفة وأطباء ومترجمين وكتبة كثابت بن قرّة وابنه سنان والبتّاني وإبراهيم بن

وهذا ما نجده أيضاً في دليل تيودوسيوس للحج، الذي يشير إلى أنه بدءاً من مدينة بانياس، تبدأ سلسلة «جبال لبنان» De Banias «commencent les monts Liban». وحسب المصدر نفسه، هذه الجبال والروابي المحيطة بها لها أهميتها لقربها من نهر الأردن حيث تعمَّد السيّد المسيح[1]. كما أنّ حرمون له أهميته لأنّ على أقدامه، أعلن يسوع لأول مرّة بأنه المسيح، وذلك على أنقاض معبدٍ وثني. لذا فالأقسام الجنوبية من جبال لبنان لها أهميتها الدينية، لأنها تحفظ آثار أقدام المسيح، ولأنّ من يريد أن يقتفي تلك الآثار لا بدَّ له من أن يجتاز الممرات الضيّقة من جبال جنوب لبنان[2]. وما **جبل حرمون أو جبل الشيخ** إلاّ قسماً من سلسلة جبال كان يطلق عليها في الفترة الكلاسيكية اسم انتيليبانوس (أي لبنان المقابل) وهو المعروف اليوم باسم لبنان الشرقي. وهذه السلسلة تبدأ «جنوبي حمص وتمتد إلى جبل الشيخ (حرمون) ومن هناك تأخذ بالانحدار السريع إلى أن تندمج بنجد حوران وتتصل بشرق الأردن إلى أن تنتهي عند الطريق الجنوبي للبحر الميت. وتنتهي هذه السلسلة الشرقية جنوباً عند جبل الشيخ (حرمون)...»[3]. وقد حدّد الجغرافيون العرب في العصور الوسطى هذه المنطقة. فنجد مثلاً عند ياقوت الحموي تعريفاً خاصاً للبنان يتفق في بعض نقاطه مع ما جاء عند دانيال الروسي:

«لُبنان بالضم وآخره نون، قال رجل لآخر: لي إليك حُويجة. فقال: لا أقضيها حتى تكون لبنانية، أي مثل لبنان، وهو اسم جبل،... ولبنان جبل

= هلال وهلال بن المحسّن»، المنجد في الأعلام، جـ ٢، ص ٢١٤؛ وحول هذه المدينة، انظر أيضاً ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ٢، ص ٢٣٥_ ٢٣٦، كذلك:
«Harran Anc. Ville de Mésopotamie au S. -E. d'Urfa en Turquie...» Petit Robert des moms Propres, p. 930.

(١) Récits des premiers pèlerins, p. 187 et p. 197.

(٢) Corcket, Le Liban dans la Bible, p. 82 et p. 83.

(٣) حتّي، تاريخ لبنان، ص ٢٠.

مطل على حمص يجيء من العِرج الذي بين مكة والمدينة حتّى يتصل بالشام، فما كان بفلسطين فهو جبل الحمل، وما كان بالأردن فهو جبل الجليل، وبدمشق سنير، وبحلب وحماه وحمص لبنان، ويتصل بأنطاكية والمصيصة ويسمّى هناك اللّكام، ثم يمتدّ إلى ملطية وسُميساط وقاليقلا إلى بحر الخزر فيسمّى هناك القبق، وقيل: إنّ في هذا الجبل سبعين لساناً لا يعرف كل قوم لسان الآخرين إلا بترجمان، وفي هذا الجبل المسمّى بلبنان كورة حمص جليلة وفيه من جميع الفواكه والزرع من غير أن يزرعها أحد، وفيه يكون الأبدال من الصالحين...»[1].

إذاً لبنان أو جبل لبنان، حسب ياقوت الحموي هو جبل ممتد وشاسع، متعدّد الأقوام واللهجات ومشهور بمياهه العذبة. كما أنه موطن «الأبدال الصالحين»، و«... الأبدال قوم بهم يُقيم اللّه عزَّ وجلَّ الأرض وهم سبعون، أربعون بالشام وثلاثون بغيرها، لا يموت أحدهم إلاّ قام مكانه آخر من سائر الناس...»[2]. وجبل لبنان هو أيضاً بالنسبة إلى ابن جبير مكان المنقطعين إلى اللّه من زهّاد ونسّاك، ففي كلامه عن تصرفات عجيبة للمشارقة في استقبالهم الغرباء في ضيعهم والترحيب بهم، فالغريب «... متى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى أو يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجُودي فيلقى بها المريدين المنقطعين إلى اللّه عزَّ وجلَّ، فيقيم معهم ما شاء اللّه...»[3].

كما أنّ هذا الجبل حسب ابن جبير نفسه مكان تآخٍ بين الديانتين السماويتين المسيحية والإسلام، إذ يذكر بأنه توقّف متعجّباً أمام تصرّف

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ ٥، ص ١١.

(٢) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ٤ أجزاء، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.ت، جـ٣، ص ٣٤٤.

(٣) ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٥٩.

نصارى جبل لبنان مع المنقطعين من المسلمين:

«... ومن العجب أنّ النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم، ويقولون: هؤلاء ممن انقطع إلى اللّه عزَّ وجلَّ فتجب مشاركتهم»[١].

وربما عنت كلمة مجاورة هنا، أنّ المسيحيين كانوا يسكنون المناطق الساحلية بينما المسلمون كانوا يقطنون في المناطق الجبلية.

على أنّ ابن جبير يتفق مع دانيال الروسي في إشارته إلى الحياة في جبل لبنان حيث الثمار المتنوعة والظلال والوفيرة[٢]. ولكن السكان عند ابن جبير المسلم الآتي من المغرب هم زهّاد متبتلون بينما بالنسبة إلى الحاج دانيال الروسي هم من الكفّار. وهنا نتساءل إذا ما كان يتكلم عن نفس السكان في نفس المناطق. وعلى الأرجح، إنّ الإجابة هي لا، لأنّ دانيال كما قلنا سابقاً خصّ بالذكر سكان القسم الجنوبي من «جبل لبنان»، وليس القسم الشمالي منه أو منطقة «الغرب» حيث كان المسيحيون يسكنون في مناطق مجاورة للمسلمين؛ وهو ما نجده عن الإدريسي في إشارته إلى جبل لبنان، وعند ذكره لمدينة بيروت، التي تتصف بسورها وبمعدنها وبغابة أشجارها والتي تتصل أيضاً بجبل لبنان، الذي يعني عنده منطقة الغرب على الأرجح[٣]. بينما «جبل لبنان» يشمل: جبيل والضنية وجبّة بشرّي، وهي «مقاطعات في شمال

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢٥٩.

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢٦٠، وقد أشار يوحنا فوكاس (عام ١١٨٥م) إلى جبل لبنان ووصفه بالجمال وذكر ثراءه بأشجار الفاكهة من كافة الأنواع. كما أشار إلى أنّ الجانب الذي يطل على البحر يحوي السكان المسيحيين بينما سكن المسلمون الجانب الذي يطلّ على دمشق وبلاد العرب. كما أشار إلى الأنهار التي تخترق جبل لبنان ومنها ما يصبّ في البحر، عوض، الرحالة الأوروبيّون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ٢١٧.

(٣) Idrisi, Palaestina et Syria, edit. By Joannes Gildemeister, 1885, p. 16-17.

البلاد» عند الرحالة الألماني كارستن نيبوهر، كما أنّ معظم سكان جبل لبنان هم من الموارنة حسب الرحالة الأخير نفسه[١].

«أما لبنان الحقيقي أو لبنان الأصيل» فهو «سلسلة الجبال الغربية، فقد عرفت هذه البقعة باسم لبنان منذ العهد الروماني، بينما كان يطلق على السلسلة الشرقية اسم انتيليبانوس (Antilibanos) أي «لبنان المقابل»...»[٢].

أما بالنسبة إلى المؤرّخين البيزنطيين فقد أطلق اسم لبنان «على المنطقة المأهولة الممتدة من جبال الأمانوس حتى المدينة المقدسة بما فيها سهل البقاع...»[٣]، وهو باعتقادي ما اعتمده دانيال الروسي في تحديده الواسع للبنان أو لجبل لبنان.

وهذا الجبل له أهميته الخاصة عند دانيال لأنه مصدر مياه مقدسة تعمّد فيها السيّد المسيح. لذا يشير دانيال إلى مياه جبل لبنان تلك المياه المقدسة وكيف لا يفكّر في ذلك وهو راهب متواضع، منزّه عن التفكير بالحياة المادية التي لا تلفت انتباهه في رحلته، بل جلّ ما يستدعي اهتمامه هو قيمة الموقع الذي مشى عليه المسيح أو قام هو أو أحد رسله بعجيبة ما فيه، أو طبعاً اعتمد فيه، كما جاء في وصف دانيال لنهر الأردن «طبعاً المقدس» والذي يروي العطش كما هي عليه الحال في نهر Snow الروسي.

«... Le Jourdain est un fleuve rapide...; l'eau est très trouble mais agréable au goût; on ne peut se rassasier de boire cette eau sainte, car

(١) كارستن نيبوهر، رحلة إلى بلاد العرب وسائر البلدان المجاورة، مشاهدات في سوريا وبخاصة في جبل لبنان، ترجمة وتعليق ناصر الجميل ومارون الخوري، دار الفجر، بيروت، ١٩٩١، ص ٢٤ وص ٨٣ ـ ٨٦، انظر أيضاً حاشية سابقة ص٨٠، رقم٢، حيث يشير فوكاس إلى عناصر السكان في جبل لبنان بشكلٍ دقيق: فالسكان المسلمون في المناطق الداخلية، والمسيحيون في المناطق المطلة على البحر.

(٢) حتّي، تاريخ لبنان، ص ١٤.

(٣) إلياس القطار، لبنان في القرون الوسطى، مطبعة Murex، بيروت، ٢٠٠٣، ص ١٦.

elle ne fait aucun mal et n'est pas nuisible à l'estomac. Le Jourdain est en tout semblable à la rivière de Snow, par la largeur, et par la profondeur et par son cours sinueux et très rapide, tout comme celui de la rivière de Snow.

Il a quatre sagènes[١] de profondeur à l'endroit aù l'on se baigne; c'est moi-même qui l'ai mesuré et exploré, car j'ai passé de l'autre côté du Jourdain et ai beaucoup erré sur ses bords. La Largeur du Jourdain est comme celle de la Snow à son embouchure...»[٢].

ودانيال لم يقم فقط بزيارة نهر الأردن ثلاث مرات[٣]. بل إنه قام بقياسه وبمقارنته مع نهر «سنو» في بلاده روسية. وذكر لنا أنّ يوحنا المعمدان قد شرب منه، كما ذكر لنا أسماء رافديّ الأردن اللّذين هما: جور ودان[٤].

أما منابع نهر الأردن، فأهمها ثلاثة: نبع في حاصبيا في لبنان ونبع دان Dan في فلسطين ونبع بانياس في سورية، وبفضل هذا النهر يعمّ الخير على جانبيه، ومن هنا يصحّ القول «أليست أرض الميعاد إلاّ هبة من لبنان، كما إنّ مصر هي هبة من النيل، على حدّ قول المؤرّخ هيرودوت، . . . ؟»:

«... Toute la Terre Promise d'ailleurs, n'est-elle pas un don du Liban, comme l'Egypte est un don du Nil, selon Hérodote...»[٥].

وما حرمون أو لبنان الذي تكلّم عنه دانيال الروسي إلاّ «والد الأردن» (le père de Jourdain) حسب المؤرّخ Tacite[٦].

---

(١) وحدة قياس، لم أجد لها تفسيراً دقيقاً.

(٢) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 28-29.

(٣) «... Dieu a daigné me permettre de visiter trois fois le Saint Jourdain; nous y avons même été à la fête de l'Epiphanie...», Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 30-31.

(٤) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 29 et p. 59-60.

(٥) Corcket, Le Liban dans La Bible, p. 19.

(٦) Corcket, Le Liban dans La Bible, p. 19.

٧ ـ مميزات الرحلة:

بما أنّ رحلة دانيال الروسي إلى الأراضي المقدسة كانت للحج، لذلك نستشف من خلالها مميزات خاصة تختلف عمّا سبقها وما لحقها من رحلات إلى الشرق وخاصة إلى الأراضي المقدسة. كما أنّ شخصية دانيال لها دور أساسي في إعطاء الرحلة صفة خاصة جعلتها تتميّز بما يلي:

١ ـ التركيز على المعالم الدينية المذكورة في العهد القديم كما في العهد الجديد ومحاولته رؤية ذلك بنفسه قدر المستطاع وبمساعدة دليله المشرقي الذي ساعده كثيراً في رحلته، دون إعطاء أهمية تُذكر للمعالم الماديّة في المناطق التي زارها دانيال مثل التركيز مثلاً على حالة السكان الاقتصادية والاجتماعية وغيرها من المناطق التي زارها كما قام به مثلاً غيره من الرحالة[١].

٢ ـ إعطاء دانيال معلومات وافية عن المياه وتواجدها إن في فلسطين وإن في لبنان أو جبل لبنان. وليست إشارته إلى تلك المياه إلاّ لسبب ديني محض، لأنّ الأردن الذي ينبع من لبنان له معناه الديني عند كلّ مسيحي فهو النهر الذي تعمّد فيه المسيح، كما شرب منه يوحنا المعمدان. أما بحيرة طبرية فهي المكان الذي قام المسيح بتبشيره فيه إلى جانب شفاءاته الكثيرة.

٣ ـ ذكر دانيال لبعض الحوادث التاريخية عرضاً وليس عن قصد، فهو التقى في طريقه إلى طبرية بالملك بودوان الذي كان يستعدّ للتوجه في حملة

---

(١) مثلاً يوحنا فوكاس ركّز في رحلته على المظاهر العمرانية والاقتصادية والاجتماعية للمدن اللبنانية التي زارها بنفسه، عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ٢١٧ـ٢١٨.

ضد دمشق[١]، وطلب من الملك أن يسمح له بمرافقته خاصة وأنّ المنطقة التي قطعوها كانت خطرة جدّاً. كما أنه التقى بالملك نفسه في احتفال في بيت المقدس، يوم سبت النور. وطلب منه خدمةً تنمّ عن شعور وطنيّ، ألا وهي أن يضيء سراجاً في كنيسة القيامة باسم الأرض الروسيّة. ودانيال يطلعنا في ملاحظته هذه عن نفسية الملك بودوان المتواضعة وعن احترامه لشخص دانيال وكرمه تجاهه[٢]. كما أنه في ذكره لكفرناحوم يطلعنا على أنّ الفرنجة قد تخلوا عنها[٣].

٤ ـ شعور دانيال الوطني الذي شبّه نهر الأردن المقدّس بنهر Snow في بلده الأم، كما أنه قدّم خدمة لذلك البلد بتدوين أسماء الأمراء الروس في كنيسة القيامة وفي غيرها من الأماكن المقدسة كدير القديس سابا وأقام الصلوات لهم. كما أنه يطلعنا أيضاً على أسماء مرافقيه الروس في رحلته كضمانة لصدق أقواله، مما يعني ثقته الكبيرة بمصداقية مواطنيه، ومحبته لأمراء بلده. وقد عرّفنا على أسماء أولئك الأمراء الذين كانوا يحكمون

---

(١) وحول أخبار هذه المواجهة بين الملك الصليبي بودوان الذي كان قد ترك إمارة الرّها ووفد إلى بيت المقدس في أواخر سنة ١١٠٠م بعد وفاة صاحبها وهو أخيه غودفروا والذي كان قد أُعلن ملكاً عليها في ١١ تشرين الثاني سنة ١١٠٠م، وهذه المواجهة من المحتمل أن تكون قد حدثت قرب طبرية واستولى فيها طغتكين على حصن مهم سنة ١١٠٦م أو ١١٠٨م، عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ٨٠ ـ ٨١؛
Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 55-57.

(٢) «... Je lui dis: «Mon prince et mon Seigneur! Je te supplie pour Dieu et pour les princes russes, permets moi de placer aussi ma lampe sur le Saint Sépulcre au nom de toute la terre russe. Alors avec une bonté et une attention particulières, il m'accorda de placer ma lampe dur le Saint Sépulcre du Seigneur...», Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 75-83.
وتجدر الإشارة إلى أنّ الملك بودوان كان قد ورث المُلك كما قلنا عن أخيه الملك غودفروا كذلك ورث لقبه كـ «وكيل كنيسة القيامة»،
Jean Richard, Vie et mort des Etats Croisés, dans Robert Delort, Les Croisades, Editions du seuil, Paris 1988, p. 157-166, ici p. 160-161.

(٣) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 53-54.

بلده في القرن الثاني عشر[١].

٥ ـ وقوع دانيال بأخطاء في رحلته خاصة في بعض تحديداته الجغرافية، مثلاً بالنسبة إلى بحيرة جنيسارت التي اعتقد خطأً بأنها بحيرة الحولة. وربما الخطأ في ذلك يعود إلى أنّ دانيال كتب رحلته بعد عودته إلى بلاده مما أدى إلى هذه الهفوة التي ربما عادت إلى نسيانه للاسم الصحيح للبحيرة وإلى تحديده الدقيق لها[٢].

٦ ـ مصداقية دانيال في رحلته إذ إنه دوّن الأخبار كما عاينها[٣]، أو كما تعرّف على أخبار صحيحة عنها كما هو الحال عليه بالنسبة إلى مدينة بيروت وجبل لبنان. إذ إنّ هدفه من رحلته كان زيارة الأراضي المقدسة التي تمّت دون عائق، بل على العكس أحسّ بقوة كبيرة في نفسه وفي جسده. وقد شكر الربّ على هذه النعمة وهو يعتذر من قرّاء رحلته التي اتصفت بالعفوية والبساطة.

---

(١) «... Grâce soit rendue à la bonté de Dieu qui m'a permis, à moi indigne, d'inscrire les noms des princes russes dans la Laure de Saint-Sabbas, où l'on prie actuellement pour eux pendant les offices, ainsi que pour leurs femmes et enfants. Voici leurs noms: Michel Sviatopolk, Vassili Vladimir, David Sviatoslavitsch, Michel-Oleg - Pancrace Sviatoslavitsch, Glèbe de Mensk; je n'ai pas retenu que ces noms et les ai inscrits au Saint Sépulcre et dans tous les Saints Lieux, Sans compter tous les autres princes russes et boyards. J'ai célébré cinquante messes pour les princes russes et tous les chrétiens et quarante messes pour les morts...», Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 82-82.

(٢) حول بعض أوجه القصور في رحلة دانيال الروسي، انظر عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ٨٤ ـ ٨٥؛ كذلك انظر بوغوليوبسكي الذي يقول عن دانيال أنه ينقل الأخبار «دون تمييز بين غثّها وسمينها»، بوغوليوبسكي، رحلة السائح الروسي دانيال، ص ٦٤٤ ـ ٦٤٥.

(٣) «Pardonnez-moi, mes frères, mes pères et mes seigneurs! et ne m'en veuillez pas de mon ignorance m'a fait décrire sans artifice, mais simplement, ces Saint Lieux ainsi que Jérusalem et toute la Terre Promise si j'ai décrit sans érudition rien n'est mensonger au moins, et je n'ai décrit, que ce que j'ai vu de mes propres yeux», Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 74.

خاتمة:

رحلة دانيال الروسي إلى مملكة بيت المقدس أثر دينيّ وجغرافيّ وتاريخيّ مهمّ، لا بدَّ لمن يطّلع على مؤلفات الحجّ إلى الأراضي المقدسة من أن يطالعه، خاصة أنّ مؤلف هذه الرحلة هو رجل دين مسيحيّ بسيط ومتواضع، انعكست شخصيّته هذه على كتابه الذي اتصف ببساطة الأسلوب وصدق المعلومات والاعتماد على شهادات عينيّة.

أما معلوماته عن بيروت وعن جبل لبنان في بداية القرن الثاني عشر فهي مفيدة ولو كانت محدودة، وتحثّنا أكثر فأكثر على الاطلاع على تاريخ بلادنا التي هي قسمٌ من الأراضي المقدسة حسب الحاج الروسيّ، الذي كخاتمة لرحلته يطلب من الربّ البركة لمن يقرأ كتابه ويطلب العذر من قرّائه لجهله وبساطته كما يطلب من اللّه أن يعمّ السلام على كلّ المؤمنين.

«... Au nom de Dieu, mes frères et seigneurs! n'accusez pas mon ignorance ni ma simplicité, en considération de Saint-Sépulcre de Notre Seigneur et de tous ces Saint Lieux, ne blâmez pas ce récit. Que celui qui le lira avec amour reçoive sa récompense de Jésus-Christ, notre Dieu et Sauveur! et que le Dieu de la paix soit avec vous jusqu'à la fin des fidèles! Amen»[(١)].

ونحن نجيب على دانيال الروسي الذي يطلب منا عدم انتقاده على هفوات وقعت في سياق كتابته لرحلته، ونقول له بأننا نشكره على ما قدّم لنا من معلومات قيّمة في مؤلّفه هذا وعلى نفحة الإيمان التي زيّن بها تلك الرسالة والتي تجعلنا نتلمّس وبصدق الإيمان المسيحي المتجذّر عنده وترفّعه عن الماديات التي نصح السيّد المسيح بالابتعاد عنها. وهو بذلك، أي دانيال، يمشي على خطى السيد المسيح قولاً وفعلاً.

---

(١) Vie et pèlerinage de Daniel, Hégoumène russe, p. 83؛ وعن أهمية الرحلات بشكل عام انظر عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٨.

بيبليوغرافيا

أولاً: المصادر العربية:

١ ـ ابن جبير (٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، رحلة ابن جبير (قام بها ما بين سنتي ٥٧٨ ـ ٥٨١هـ/ ١١٨٢ ـ ١١٨٥م)، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠.

٢ ـ البطريرك مكاريوس ابن الزعيم، الدرّ المنظوم في أخبار ملوك الروم، مخطوطة دير الشير رقم ٨٠٤، القرن الثامن عشر، ٤١٧ ص.

٣ ـ اجتماع الأهل بعد شتات الشمل، وهو أثر نصراني قديم فيه ترجمة أكسنوفن وامرأته مريم وولديهما يحنا وأرقاديس القدّيسين، وهذه السيرة مأخذوة من النسخة العربية رقم ٧١ في خزانة الفاتيكان، ويعود تاريخها إلى سنة ٨٨٥م، نشره الخوري جرجس كراف، في المشرق السنة ١٢ (١٩٠٩)، ص. ٦٩٥ ـ ٧٠٦.

٤ ـ الإدريسي (٦٤٩هـ/ ١٢٥١م) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر قسماً منه Gildmeister تحت عنوان Palestine et Syria, edit. By Gildmeister, 1885.

٥ ـ ايجيريا يوميات رحلة، نقلها إلى العربية الأب نعمة اللّه الحلو الراهب اللبناني ودقّق وعلّق عليها الأب جورج باليكي البولسي، منشورات مجلس كنائس الشرق الأوسط، الطبعة الأولى، ١٩٩٤.

٦ ـ كارستن نيبوهر، رحلة إلى بلاد العرب وسائر البلدان المجاورة، مشاهدات في سوريا وبخاصة في جبل لبنان، ترجمة وتعليق ناصر الجميل ومارون الخوري، دار الفجر، بيروت، ١٩٩١.

٧ ـ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٥ أجزاء، دار صادر، بيروت بدون تاريخ، الجزءان ١ و٥.

ثانياً: المراجع العربية:

١ ـ أطلس الدارسين للكتاب المقدس، صدر عن دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، ١٩٩٤.

٢ ـ الكسيس بوغوليوبسكي، رحلة السائح الروسي دانيال إلى الأراضي المقدّسة في أول عهد الصليبيين، مترجمة عن اللغة الروسية، المشرق، السنة ٢٤ (١٩٢٦)، ٦٤١ ـ ٦٤٨.

٣ ـ فيليب حتّي، تاريخ لبنان، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٧٢.

٤ ـ القس غسان إيليا خلف، لبنان في الكتاب المقدّس، دراسة لاهوتية وتاريخية، دار منهل الحياة، منصورية المتن، ١٩٨٥.

٥ ـ مارتينيانو باللغرينو رونكاليا، وسميرة باسيل رونكاليا، قانا جنوب لبنان، دليل تاريخي، بيروت، ١٩٩٥.

٦ ـ لولو صبيعة، دير القديس سابا، القدس ـ وادي قدّرون، في النور، عدد ٨، السنة ٦٠ (٢٠٠٤)، ص ٤١٣ ـ ٤٢٠.

٧ ـ محمد مؤنس أحمد عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩ ـ ١١٨٧ ميلادية) مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٢.

٨ ـ المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، ط ٣٩، ٢٠٠٢.

Sources:

1 - Mme B. De Khitrowo, Itinéraires russes en Orient, traduits pour

la Société de l'Orient Latin par Mme B. De Khitrowo, I, l, Genève, Imprimerie Jules-Guillaume Fick, 1889, (vie et pèlerinage de Daniek, Hégoumène Russe (1106-1107), p. 1-83).

2 - Récits des premiers pèlerins chrétiens au Proche-Orient (4eme-7eme siècle), textes choisis, présentés, traduits et annotés par Pierre Maraval, Cerf, Paris, 1996.

Références:

1 - Michel Balard, Croisades et Orient Latin (11e-14e siècles), Armand Colin, Paris, 2004

2 - Fernand Comté, Dictionnaire de la civilisation chrétienne, Larousse, Bordas, Paris, 1999.

3 - P. Corcket, Le Liban dans la Bible, Franciscan Printing Press, Jérusalem, 1978.

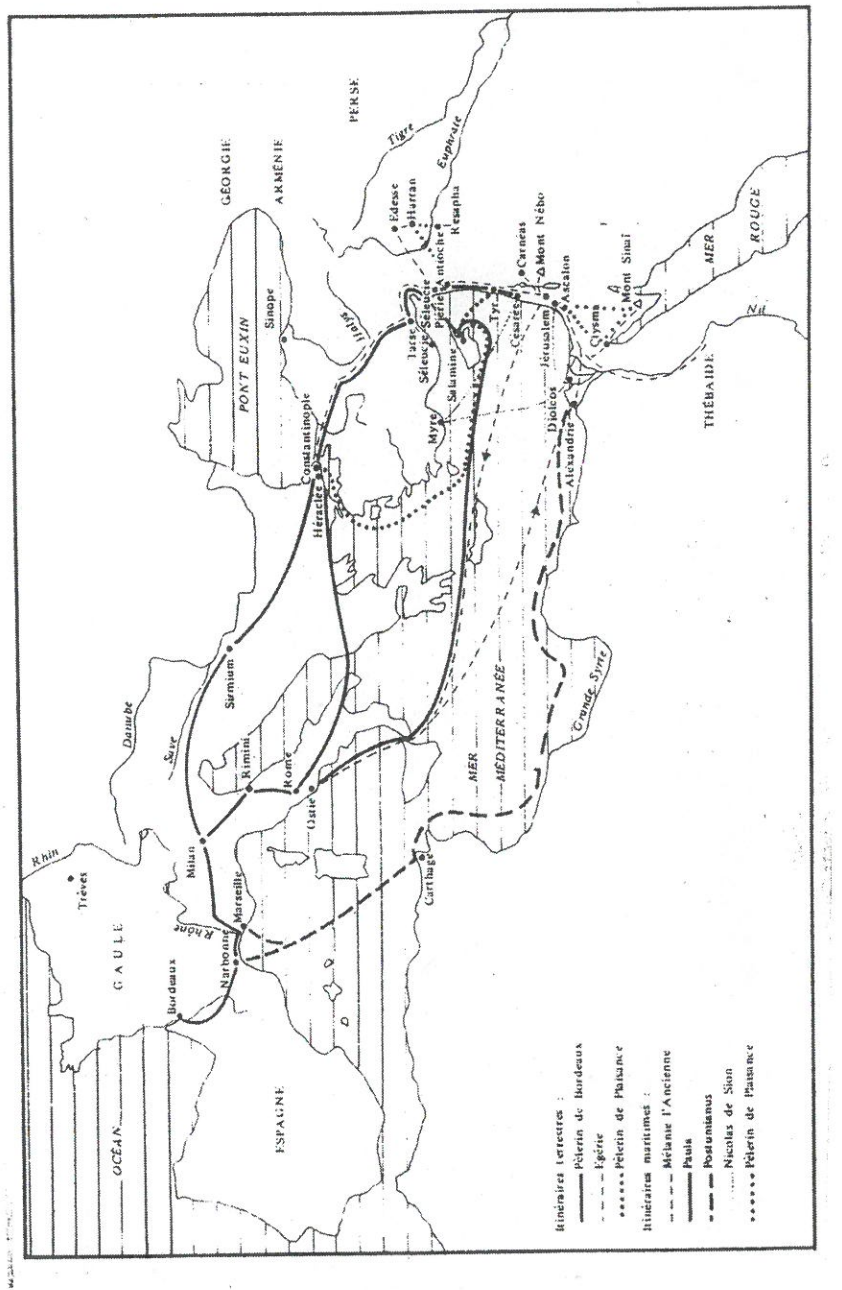
4 - Robert Delort, Les Croisades, Editions du Seuil, Paris, 1988.

5 - Pierre Maraval, Lieux saints et pèlerinages d'Orient, Histoire et géographie des origines à la conquête arabe, les Editions du Cerf, Paris, 1985.

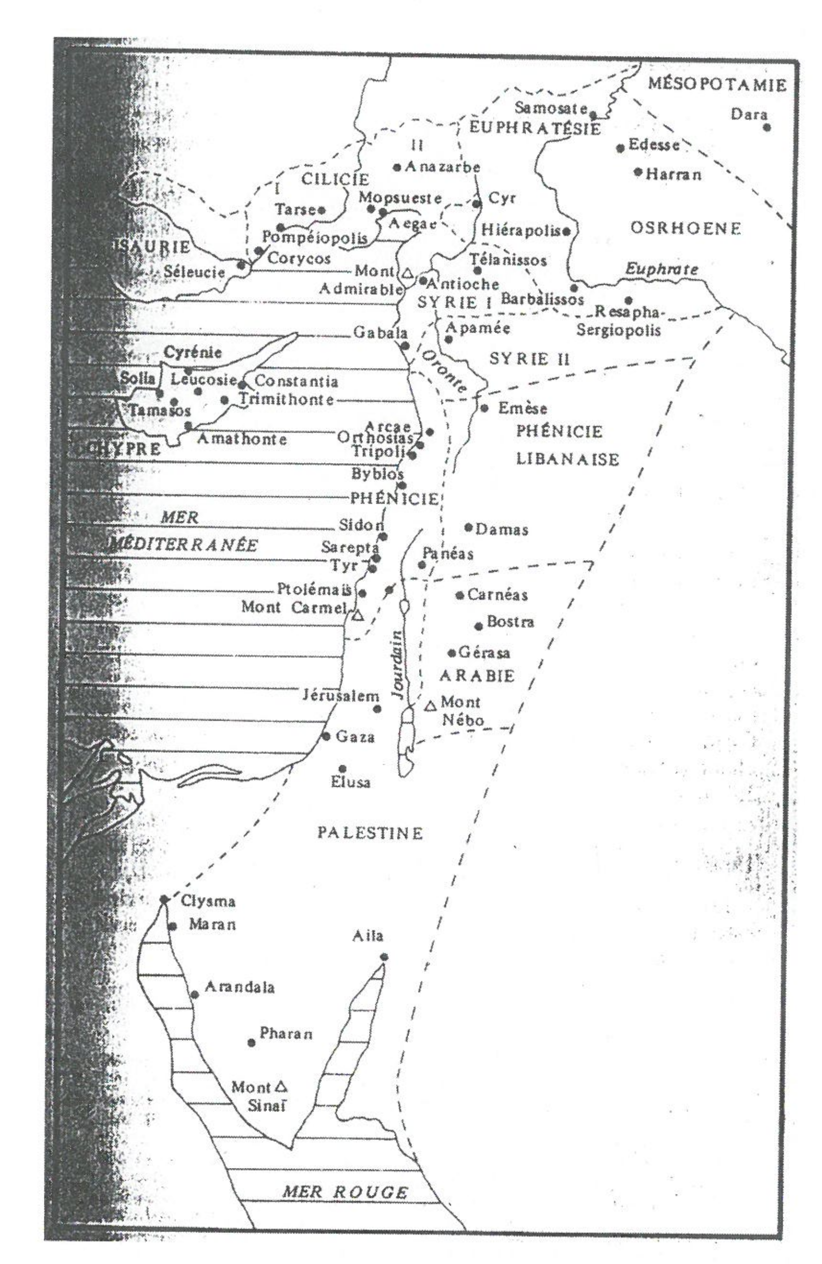
6 - Mgr. Mislin, Les Saints Lieux, pèlerinage à Jérusalem, 3 t., Lecoffre Fils et Cie Librairies-Editeurs, Paris-Lyon, 3eme edition, 1876.

7 - Le Petit Robert des noms propres, nouvelle édition, Paris, 1994.

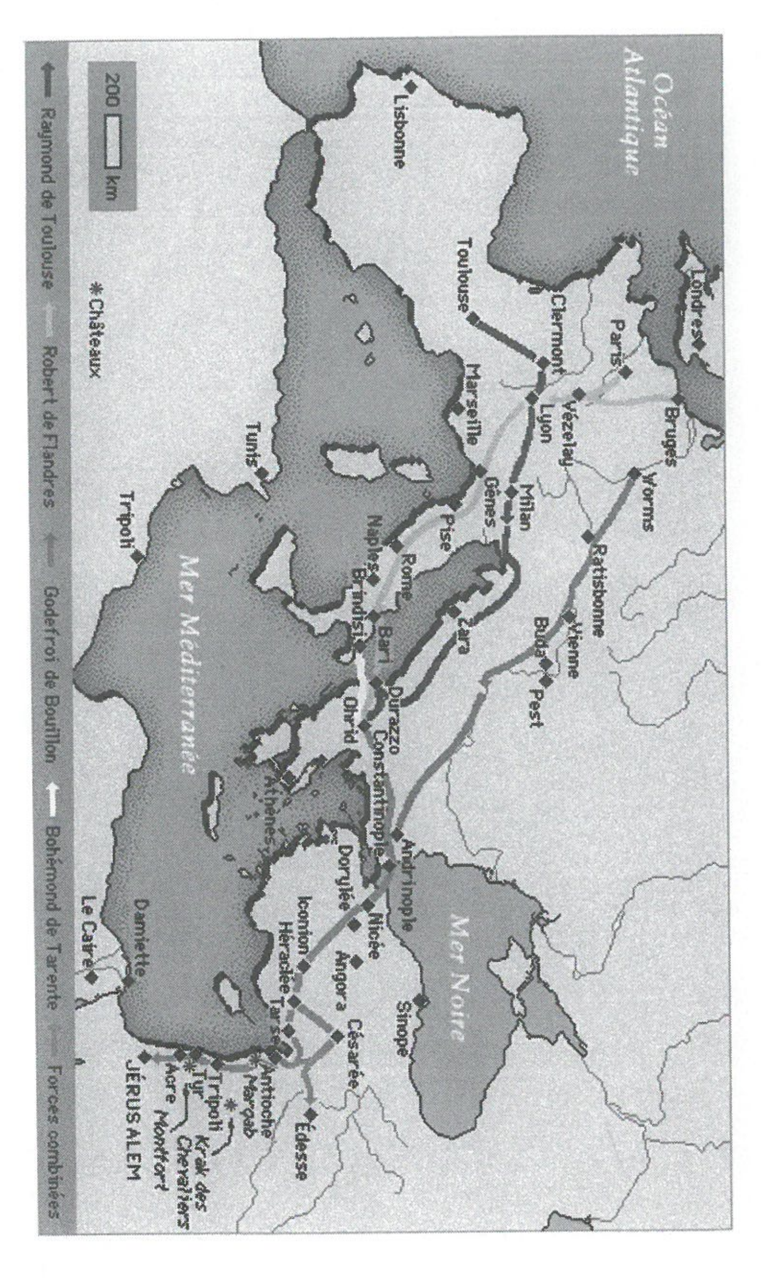
خرائط وصور



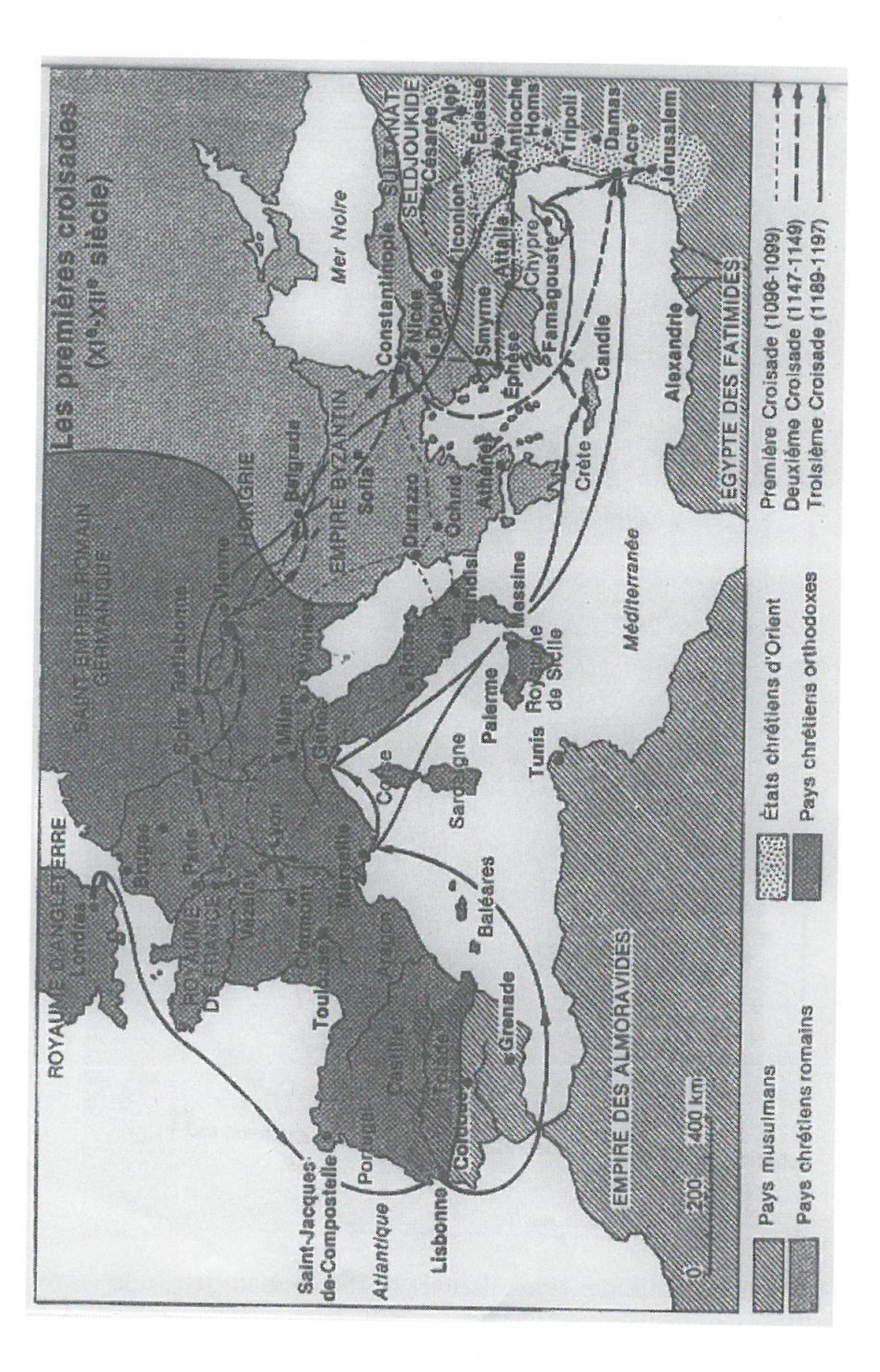
1 - Carte des itinéraires, tirée de Maraval, Lieux Saints et pèlerinages d'Orient, p. 165.



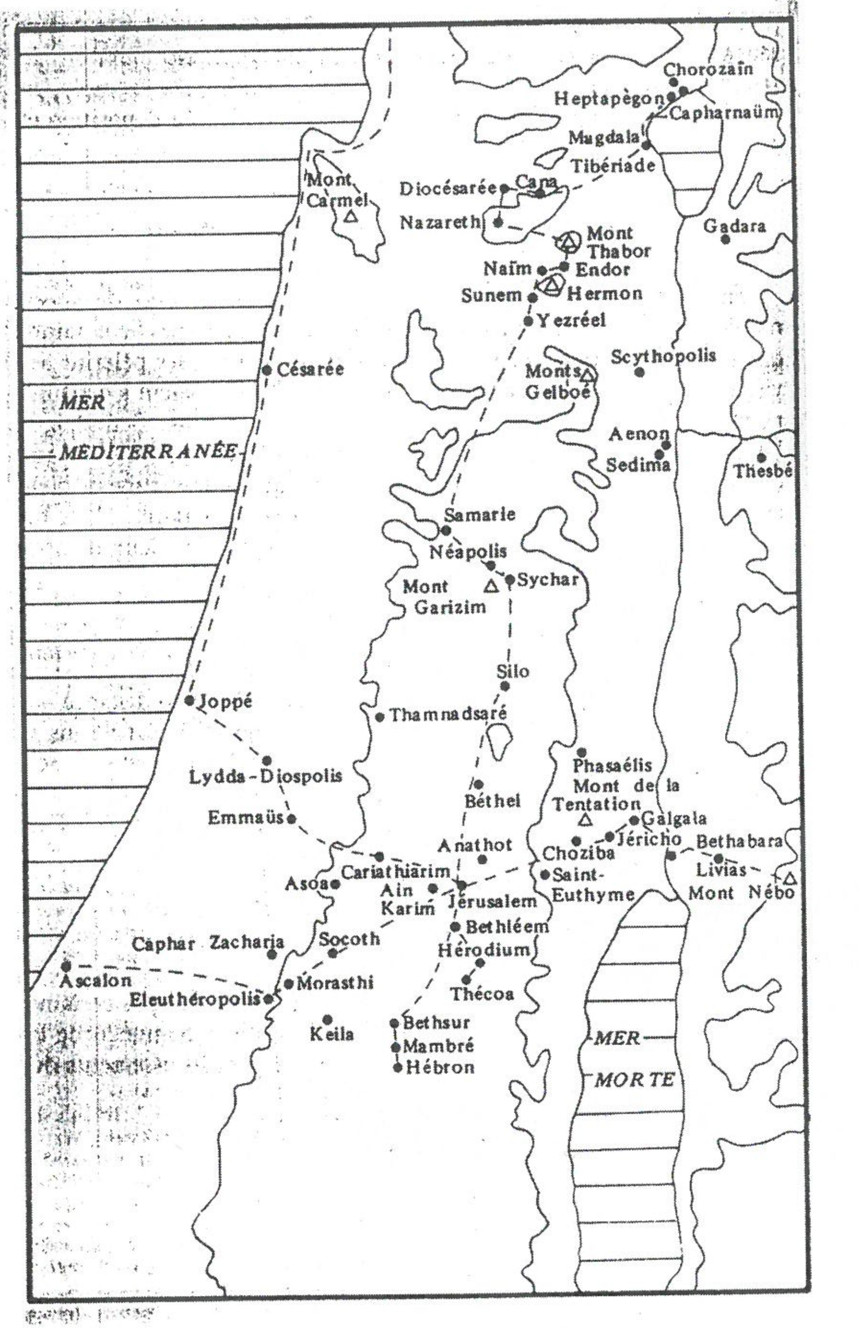
2 - Syrie et Mésopotamie, carte tirée de Maraval, Lieux Saints et pèlerinages d'Orient, p. 331.



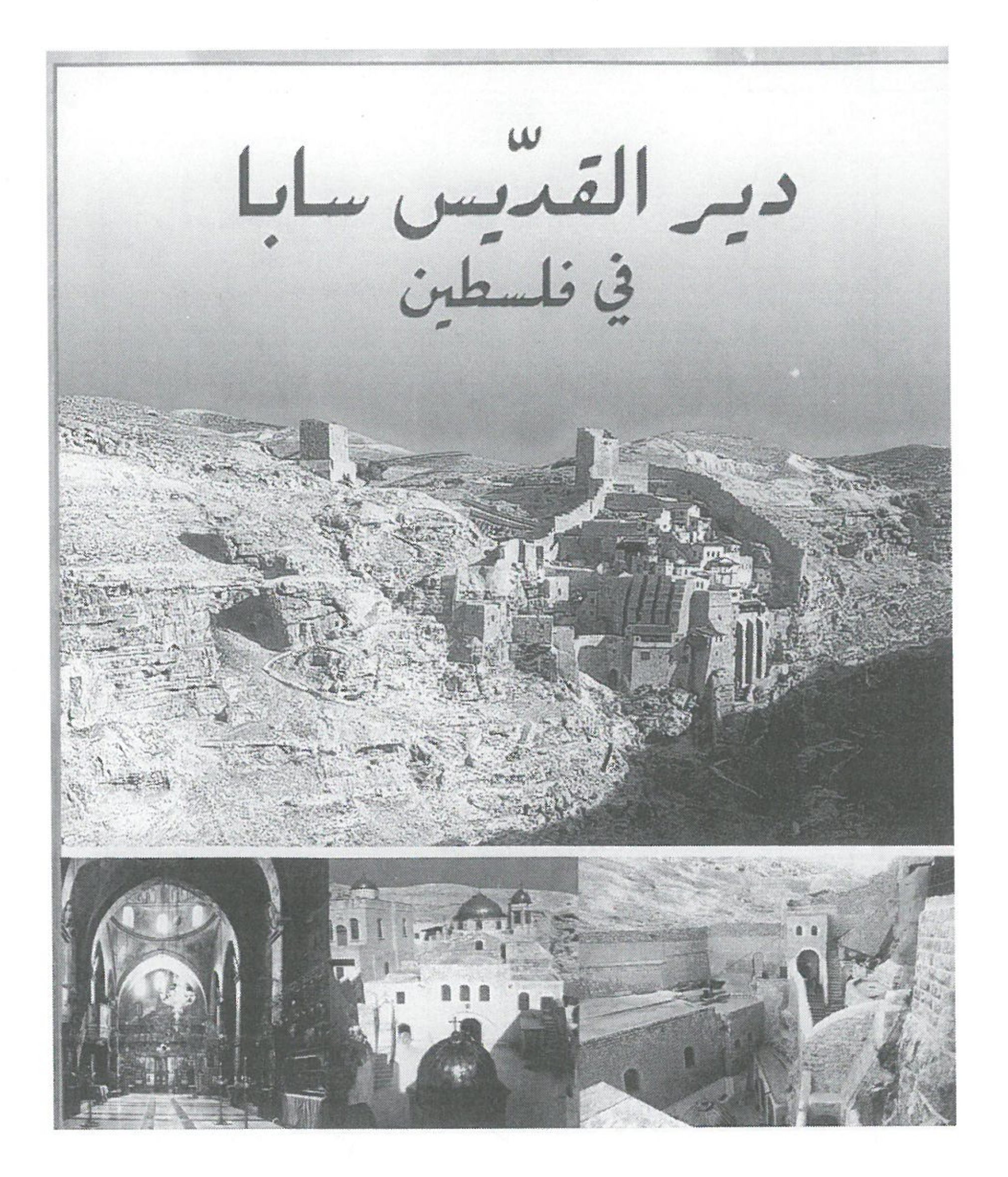
3 - Première Croisade: Itinéraires de la 1ere croisade, tirée de l'Encarta, collection 2003.



4 - Les premières croisades (XI^e^ - XII^e^ siècles), Delort, Les Croisades.



5 - Carte des lieux Saints en Palestine, tirée de Maraval, lieux Saints et pèlerinages, P. 270.



٦ ـ دير القديس سابا، حيث أقام دانيال الروسي، صورة مأخوذة من مجلة النور، عدد ٨ السنة ٦٠ (٢٠٠٤).

G. T. MINADOÏ

نهاية حرب الشوف في القرن السادس عشر

د. جان شرف(*)

شكّلت بلاد الشوف حالة مجتمعية ـ سياسية سرعان ما تحوّلت مع بداية الحكم العثماني إلى «العصيان والطغيان». فكانت حرب الشوف بقيادة الأمراء المعنيين مع ولاة الشام منذ العام ١٥٢٣ وحتى حملة إبراهيم باشا في العام ١٥٨٥.

تطرح أسباب تلك الحرب وتطوراتها كل مشكلية تاريخ الجبل في القرن السادس عشر[١]. وإذا كان التقليد التأريخي قد تغاضى عن تلك المشكلية أو أنه لم يتعرّض لها في الأساس، فإنّه يترتّب على البحث نقد التقليد إستناداً إلى أصول جديدة، وتجاوزه باتجاه تاريخ الجبل الاجتماعي الذي يكشف عن العوامل المجتمعية ـ السياسية التي دفعت إلى تلك الحرب المتقطعة طوال القرن السادس عشر[٢].

(*) أستاذ سابق في قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الفرع الثاني، الجامعة اللبنانية.

(١) حول بداية الحرب في العام ١٥٢٣ ومراحلها حتى العام ١٥٨٥، انظر جان شرف، **الأيديولوجيا المجتمعية. مدخل إلى تاريخ لبنان الاجتماعي**، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٩٦، ص ١٧٣ ـ ١٨٤.

(٢) حول مشكلية تاريخ القرن السادس عشر ونقد التأريخ التقليدي، انظر جان شرف، **المرجع السابق**، ص ٣٧ ـ ٤٠ و١٧٣ ـ ١٧٤.

Jean CHARAF, «Introduction à l'histoire sociale du Mont-Liban au XVI^ème^ siècle», in **Histoire, Sociétés et Pouvoir aux Proche et Moyen-Orient,** I, Paris, 2001, pp. 11-26.

ليس هدفنا أن نتناول تاريخ تلك الحرب وقد تجاهلها التقليد التأريخي، إنّما ما نسعى إليه هو الكشف عن أحداث حملة إبراهيم باشا بالذات وإنهاء حالة الحرب بعد اجتياح بلاد الشوف والقضاء على الأمير قرقماز المعني.

لقد جعل التقليد التأريخي من حادثة جون عكار سبباً للقضاء ظلماً على الأمير المعني. والرواية كما دوّنها الدويهي في أواخر القرن السابع عشر متأخّرة، وقد تبنّاها لاحقاً الكتبة والمؤرخون، حتى المعاصرون، دون أي تحليل أو نقد[١]. وإذ تتضمّن الرواية العناصر الأساسية التي أسهمت في نجاح الحملة على بلاد الشوف، فإنّها تغاضت عن السبب الحقيقي لها، وجعلت من الأمير قرقماز ضحية لِفِعلة ارتكبها «قوم أردياء». «ففي السنة ١٥٨٥، كما يروي الدويهي[٢]، وثب قوم أردياء على خزنة السلطان وهي سايرة إلى اسطنبول فنهبوها في جون عكار، لموضع ذلك خرج الأمر بأن جعفر الطواشي يجمع العساكر من سواحل البحر، من صيدا لحمص، على يوسف باشا ابن سيفا. فحرقوا بلاد عكار. فعظمت به المشتكية أنّه ظلم البلاد إلى إبراهيم باشة مصر الذي تولّى الوزارة العظما: فجمع العساكر من

(١) قد يكون البطريرك اسطفان الدويهي، **تاريخ الأزمنة**، طبعة الأباني فهد، ص ٤٤٧ ـ ٤٤٨، هو مدوّن الرواية كما وصلته، وعنه أخذ الأمير حيدر في **كتاب الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان**، نشره نعوم مغبغب تحت عنوان **تاريخ الأمير حيدر الشهابي**، مصر، ١٨٠٠، بيروت ١٩٨٠، ص ٦١٨ ـ ٦١٩؛ والشيخ طنوس الشدياق، **كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان**، نشره فؤاد أ. البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٧٠، ج١، ص ٢٣٨، وبعدهما الكتبة والمؤرخون اللبنانيون المعاصرون، نذكر منهم على سبيل المثال:

عباس أبو صالح، **تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي**، منشورات المجلس الدرزي للبحوث والإنماء، بيروت، ب.ت.، ص ١٣١ ـ ١٣٢؛

Michel CHEBLI, **Fakhreddine II Maan, prince du Liban (1572-1635)**, Publ. UL., 1984, p. 14; Yassine SOUEID, **Histoire militaire des Muqâta'as libanais à l'époque des deux émirats, T.I., l'émirat Ma'anite (1516-1697)**, Publ. UL., Beyrouth, 1985, pp. 83-84; A. ISMAÏL, **Histoire du Liban du XVIII^{ème} siècle à nos jours, T.I., Le Liban au temps de Fakhr-ed-Din II (1590 - 1633)**, Paris, 1955, pp. 4-5.

(٢) الدويهي، **المرجع السابق نفسه**.

حلب وشام ومصر وقبرص وفي مرج عرموش في زمور وطبول وملاعب وسناجق ملوكية حتى ارتعب منه كل بلاد العرب، وقدمت الشكايات في الأمير محمد بن عساف وفي الدروز وأولاد حبيش أنهم شلحوا الخزنة. فبعث طلب القرماء من الأمير قرقماس بن معن، ومسكوا دروب البحر والبقاع على الدروز وقتلوا خلقاً كثيراً.

«فحضر عليه الأمير محمد ابن جمال الدين من عرامون الغرب، وابن عمه الأمير مندر من عبيه، والأمير محمد ابن عساف من الخزير، وأما الأمير قرقماس (فإنه) هرب إلى مغارة من بلاد الشوف، فمات فيها عن ولدين وهما الأمير فخر الدين وأخوه يونس، بل حضر عليه (أي الوزير) عقال الدروز عند عين صوفر، فباق فيهم وقتل منهم نحو خمسماية نفس. وأما الأمراء الذين أعطاهم الأمان وحضروا عليه أخذهم صحبته إلى نصف اسطنبول...».

أن يتمكّن «قوم أردياء» من سرقة الخزنة السلطانية لأَمرٌ مستغرب مستبعد لا يقرّه المنطق نظراً لأهمية القافلة التي كانت تنقل مال الميري من مصر إلى اسطنبول، بالإضافة إلى مال الشام. وإذا ما سقطت حادثة جون عكار[١]، فإن أسباباً أخرى دعت من ناحية، إلى حملة الطواشي على بلاد عكار و«بلد ماران»[٢]؛ وأن «الشكايات في الأمير محمد بن عساف وفي الدروز وأولاد حبيش أنهم شلحوا الخزانة» لا تعدو كونها من ناحية ثانية، ذريعة مختلقة

(١) جان شرف، «موجز الدراسات المعنية: الأيديولوجيا والتأريخ»، في **وثائق وأبحاث** ٣(١٩٨٤) ص ١٦ـ١٧؛

A-R. ABU-HUSAYN, «The Ottoman Invasion of the Shûf in 1585, A Reconsideralion», in **al. ABHATH,** 33 (1989) pp. 13-21.

(٢) بات من المؤكد التمييز بين حملة الطواشي وحملة إبراهيم باشا. فالأولى وصفها المعاصر سركيس السمار جبيلي في زجليته «مديحة على مدينة طرابلس»، ونشرها الأب إبراهيم حرفوش في مجلة **المنارة**، ٢(١٩٣١) ٦، ص ٤٣٤ـ٤٤٢، تحت عنوان «مقدمات استقلال الأمير فخر الدين المعني»، راجع جان شرف، **المرجع السابق نفسه**.

تجعل من الأمير قرقماز ضحية[1]، وتخفي وراءها الأسباب الحقيقية لحملة إبراهيم باشا على بلاد الدروز وكسروان. وللوقوف على تلك الأسباب لا بدَّ من مصادر جديدة.

إنّ ما نُشر حتى الآن من وثائق «دفاتر الأمور المهمة» يشرح بوضوح من ناحية، «عصيان طائفة الدروز» بقيادة الأمراء المعنيين؛ ويبين من ناحية ثانية، تطوّر هذا العصيان إلى «الطغيان» في ولاية الأمير قرقماز بعد انتشار الأسلحة بكميات في الشوف وكسروان والبقاع وفلسطين. وقد استتبع ذلك فوضى أمنية كان التركيز فيها على تعدّيات «المقدّم العاصي» ابن معن على مجاوريه[2]. أما بالنسبة إلى حملة إبراهيم باشا بالذات، فإن الأصول العثمانية غير كافية، لا بل إنها لا تأتي على ذكر الحملة مباشرة. وما نشره مؤخراً الأستاذ عبد الرحيم أبو حسين من أوامر الديوان الهمايوني المسجّلة في «دفاتر الأمور المهمة» يتعلق باستنفار بعض الولاة والصناجك بك المجاورين للجبل للمساعدة عسكرياً عند الحاجة، وبالمكافآت التي وُزعت على الذين قدّموا خدمات أثناء الحملة. لكن كل ذلك لا يفي بالغرض المطلوب. وإذا كانت «أوامر» الديوان الهمايوني توقفنا منذ العام ١٥٤٦، على الكثير من التفاصيل عن حرب الشوف، وبالتالي على مقدّمات حملة إبراهيم باشا، فإنه من

(١) Cf. A. ABU-HUSAYN, «The Korkomaz Question, A Maronite Historian's Plea for Ma'nid Legitimacy», in **al-ABHATH,** 34 (1986) pp. 3-11.

(٢) حول مختلف هذه المواضيع راجع:
U. HEYD, **Ottoman Documents on Palestine (1552-1615). A study of the Firman according to the Mühimme Defteri,** Oxford, 1960; A-R. ABU-HUSAYN, **the View from Istanbul, Lebanon and the Druze Emirate in the ottoman Chancery Documents, 1546-1711,** London, 2004.

وله أيضاً «وثائق دفاتر الأمور المهمة والتاريخ اللبناني»، **مجلة دراسات**، ١١ (١٩٨٤) ١٣ - ١٤، ص ٢٦٣ - ٢٧٦. وتعكف دائرة المحفوظات العثمانية في اسطنبول على نشر صور طبق الأصل عن «دفاتر الأمور المهمة» مع نقل نصوصها إلى التركية، نذكر منها:

6 Numerali Mühimme Defteri (972/1564-1565), Tipkibassim, Ankara, 1995.

الطبيعي ألاّ تأتي هذه «الأوامر» على أحداث الحملة بالذات. والمصدر الوحيد عندئذ هو ما دوّنه الطبيب الرحالة الإيطالي ميناذُوْي (١٥٤٥ - ١٦١٨) في الكتاب السابع من تأريخه لحروب الترك والفرس[1].

مارس ميناذُوْي[2] الطب في القسطنطينية، ثم تجوّل في منطقة الشرق الأوسط مدة سبع سنوات متتالية (١٥٨٠ - ١٥٨٦)، اتصل خلالها بالعديد من الأشخاص في أمكنة مختلفة محاولاً تجاوز صعوبات اللغة؛ كما أن ممارسة الطب أتاحت له التعرّف على علية القوم، وبخاصة بعض الذين «كانوا حاضرين في العديد من مراحل الحرب»، وقد زوّده هؤلاء بالمعلومات. إلاّ أنّ ميناذُوْي، ليقارب حقيقة ما حدث خاصة بين الترك والفرس، لم يكتفِ برواية شاهد واحد، إنما كشف اتصالاته وقارن الروايات فوجدها متقاربة.

أما بالنسبة إلى حملة إبراهيم باشا فقد اعتمد على مصادره الخاصة وهي ثلاثة[3]:

الأول، هو تيودورو بالبي THEODORO BALBJ وجيوفاني ميكايللي GIOVANNI MICHAELE اللذين كانا قنصلَيْ البندقية في «سوريا».

والثاني، هو كريستوفورو دي بوني CHRISTOFORO DE BUONI ترجمان القناصل، وهو معتبر عند «شعوب» المنطقة. وقد انتدبه القنصلان للترحيب بإبراهيم باشا عند وصوله إلى البقاع. فتعارف الرجلان وتصادقا

(١) GIOVANNI THOMASO MINADOÏ, **Historia della guerra fra Turchi et Persiani,** Venice, 1587, 2è édit. 1588, Traduit en anglais par ABRAHAM HARTWELL, **The History of the Warres betweene the Turks and the Persians,** London, 1595, Trad. allemande publiée à Francfürt, 1592. Nous avons utilisé la traduction anglaise.

(٢) انظر لمحة عن سيرته في وستنفلد، **فخر الدين أمير الدروز ومعاصروه**، بيروت ١٩٨١، ص ١٥ - ١٦.

(٣) MINADOÏ, **The Warres,** The Authors Epistle to the Reader, حيث يشرح ميناذُوْي منهجيته في تدوين الأحداث؛ وص ٢٩٦، حيث يذكر مصادر معلوماته.

كونهما من مدينة RAGUSI[1] ويتكلمان اللغة نفسها؛ لذلك استبقاه إبراهيم باشا بمعيّته طوال الحملة على بلاد الشوف. وفي أحاديث خاصة، أطلع كريستوفورو ميناذُوْي على أخبار الحرب وزوّده بما لديه من وثائق.

والمصدر الثالث هو علمه كطبيب وقد أتاح له دخول العديد من منازل كبار المسؤولين والإطلاع على بعض أسرارها من ناحية؛ والذي مكّنه من ناحية ثانية، من تمحيص الروايات والربط بين عناصرها «للوصول إلى الأفضل» دون أي مواقف مسبقة أو غايات.

استناداً إلى هذه المصادر، وبالإضافة إلى ما قام به من استقصاءات، دوّن ميناذُوْي أخبار حملة إبراهيم باشا على بلاد الشوف في العام ١٥٨٥. وعنه أخذ المستشرقون:

كان الأولان كولز وريكو[2]. وفي القرن التاسع عشر اعتبر فون هامر[3] أن ما دوّنه ميناذُوْي عن العام ١٥٨٥ هو الأفضل ولا نجد ما يقابله في الأصول العثمانية؛ أما ڤوستنفلد[4] فقد وجد فيه «حدثاً استثنائياً لمرحلة ما قبل فخر الدين الثاني»، لذلك أخذ عنه مطوّلاً وأضاف إليه من حيث أسباب حملة إبراهيم باشا في العام ١٥٨٥. فالفوضى الأمنية التي كانت سائدة بين أمراء البقاع وفلسطين والشوف لم تمنع هؤلاء، حسب ڤوستنفلد، من أن يتفقوا «على أن يعملوا دائماً للتخلّص من سلطة الأتراك، وألاّ يدفعوا الضريبة

(١) كانت جمهورية على شاطئ الأدرياتيك. دخلت في العام ١٥٢٦ تحت حماية السلطان سليمان القانوني. وهي اليوم مرفأ باسم DUBROUNIK.

(٢) R. KNOLLES and P. RYCAULT, **The Turkish History from the original of that Nation to the Growth of the Ottoman Empire...,** London 1603, with a Continuation to the Present Year 1687, by Paul Rycault, 6th édit, London, 1687.

(٣) J.von HAMMER, **Histoire de l'empire Ottoman,** T. VII, Paris, 1837, pp. 166-171.

(٤) F. WÜSTENFELD, **Fachre ed-Din der Drusenfürst and Seine Zeitgenossen,** Göttingen, 1886.

نقله إلى العربية الأب بطرس شلفون، **فخر الدين أمير الدروز ومعاصروه**، بيروت، ١٩٨١، ص ١٥، ٩٩ ـ ١٠٦.

المفروضة للسلطان الذي ليس له أي حق على مناطقهم»؛ ناهيك عن «بغض الشعب لهم بسبب ابتزازاتهم المتواصلة...». لذلك «كانت الشكاوى ضدهم تتكاثر يوماً بعد يوم في القسطنطينية، ولم تكن أقل من ذلك تطاولات الأمير قرقماز المتكررة على أرزاقهم. أضف إلى ذلك إقدام اللصوص بالسطو على الأموال السلطانية الكثيرة على الطريق المؤدية إلى جون عكار، في شمال لبنان. عندئذ جزم السلطان على محاربة الأمراء كلهم برغم الشكاوى التي قدّمها الأمراء، ولا سيما ابن الفريخ، ضد الأمير قرقماز».

تستوقفنا هذه الأسباب عند ظاهرة «العصيان» التي جمعت بين الأمراء، وفي مقدّمهم الأمير قرقماز «الذي فاق فساده وشناعته الآخرين»[1]، فاستقطب جهود والي الشام واهتمام الديوان الهمايوني.

وكشفت الأصول العثمانية أن الوالي أبلغ الديوان في العام ١٥٧٦، أنّ عصيان «طائفة الدروز» بلغ حداً بات معه من غير الممكن جمع الضرائب وحماية الرعايا، وأنه إذا «لم يُتدارك هذا الأمر ويؤدبوا فسوف يفلت الأمر منا ويصبح بعد ذلك من العسير ضبطهم»[2].

لقد أدرك الديوان الهمايوني خطورة الوضع، فأصدر السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ ـ ١٥٩٥) الأمر إلى إبراهيم باشا[3]، وهو يهمّ بالعودة من مصر إلى

(١) A.R. ABU-HUSAYN, **The View from Istanbul,** p. 30: Order to the Beylerbeyi and Kadi of Damascus, Mid-Rajab 989- Mid-Safar 990/1581-1582.

(٢) عبد الرحيم أبو حسين، «وثائق دفاتر الأمور المهمة والتاريخ اللبناني» في **دراسات** ١١ (١٩٨٤) ١٣ ـ ١٤، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥؛ أمر إلى ببكلربيكي الشام، والنص الإنكليزي في المرجع السابق، ص ٢٩ ـ ٣٠. وحول تطور عصيان الدروز إلى الطغيان بين العامين ١٥٧٤ و١٥٨٥، انظر جان شرف، **الأيديولوجيا المجتمعية**، ص ١٧٩ ـ ١٨٠.

(٣) يبدأ ميناذُوْي، ص ٢٨١ ـ ٢٨٧، تاريخه بغضب السلطان مراد الثالث على الخصي حسن باشا والي مصر الذي تخلّف عن تأدية الأموال الميرية، ناهيك عن ظلم الرعية. ولما استدعاه السلطان للمحاسبة تمرّد، فقرر قصاصه. وكان إبراهيم الشاب قد دخل في خدمة البلاط وأظهر من الكفاءة والإخلاص والذكاء ما قرّبه من السلطان ومن والدته. وأراد مراد أن =

القسطنطينية، بالمرور «على بلاد الدروز، فإذا وجدهم فعلاً خاضعين، عليه أن يثبتهم بواجب الطاعة، وأن يجبرهم على تأدية المتأخر عليهم من أموال؛ وإذا كانوا على عكس ذلك، فعليه أن يؤدبهم وأن يدمرهم ويجردهم من سلاحهم، أصدقاء كانوا أم أعداء»[١].

لم يتأخر إبراهيم باشا عن تنفيذ الأوامر: وضع كل ما جمعه من كنوز وأموال من مصر بحماية مائتين من الإنكشارية الذين كانوا قد رافقوه من القسطنطينية، وأضاف إليهم عدداً من عساكر مصر، وسار على رأسهم براً حتى بلغ غزة، ومنها إلى القدس فصفد واللجون ونابلس، بعد أن انضم إليه صناجق هذه المدن مع عساكرهم؛ ثم التحق به إنكشارية دمشق؛ ومن حلب وافاه علي باشا على رأس عساكره؛ وإلى صيدا وصلت بحراً إنكشارية قبرص. أما جعفر الطواشي آغا طرابلس، فرفض الالتحاق بإبراهيم باشا[٢].

= يزوّجه ابنته، لكنه رأى أنّ على إبراهيم أن يرتقي في مراتب الدولة وأن يجمع المال الكافي ليستحق هذا الإنعام. ونظراً لثقته به، قرّر السلطان تكليفه بولاية مصر بدلاً من حسن باشا. نفّذ إبراهيم المهمة بأفضل ما يكون «ثم خرج من مصر بأموال عظيمة وتحف كثيرة» كما روى المحبّي، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، طبعة صادر، بيروت، ب.ت.، ج١، ص ٥٩ ـ ٦٠. إلاّ أن الأبحاث التاريخية كشفت عن أسباب أخرى لمهمة إبراهيم باشا. فتركيز الأخير على جمع أكبر قدر ممكن من ثروات مصر والعودة بها إلى القسطنطينية يردّنا تاريخياً، إلى وضع السلطنة المالي. فالحرب مع فارس (١٥٧٦ ـ ١٥٨٨م) أرهقت مالية الدولة التي اضطُرت إلى إصدارات جديدة وإلى تخفيض قيمة العملة في العام ١٥٨٤، وإلى زيادة الضرائب دون أن تتمكّن من تغطية عجز الموازنة ودفع علوف الجيش. لذلك عمد السلطان مراد إلى جمع الأموال عن طريق الحملات العسكرية: فوجّه سنان بابا ومحمود باشا إلى الجزيرة العربية؛ وفي العام ١٥٨٣، إبراهيم باشا إلى مصر حيث أمضى زهاء ثمانية عشر شهراً جمع خلالها أموالاً طائلة. راجع حول عجز الموازنة وأسبابه:

Halil SAHILLIOĞLU, Studies on Ottoman Economic and Social History, Istanbul, 1999, pp. 193-221: «Années Sivis et crises monétaires dans l'empire ottoman».

(١) MINADOÏ, The Warres, p. 287; J.von Hammer, VII, p. 166;

وهو يحصر الحملة بإخضاع ابن معن أمير الدروز المتمرد.

(٢) بدأت الحملة فعلياً، حسب ميناذُوْي في شهر تموز من العام ١٥٨٥. إلا أن الإعداد لها بدأ =

وهكذا، بعدما تقوّى الباشا بكل هذه العساكر، قرّر مواجهة الدروز وإخضاعهم. وهنا يتوقف ميناذُوْي ليتساءل من هم هؤلاء الدروز الذين أُعدّت ضدهم كل هذه الحملة؟ ولماذا يظن بهم السلطان ويشكك[١]؟

يعرّف ميناذُوْي الدروز بأنهم من أصل فرنسي[٢]. لكنهم، تبعاً للظروف التي تعرّضوا لها، تحوّلوا عن معتقدهم الأول...، وهم يسعون إلى الانفصال عن الترك والتمايز عنهم بمختلف الوسائل. ولهذه الغاية هم خاضعون «لأمرائهم الطبيعيين» الذين يحكمونهم منذ أمد بعيد؛ وهم يرفضون أي حاكم عثماني على البلاد التي يقطنون، «وهي تمتد من حدود يافا فوق قيصرية فلسطين حتى نهري العاصي والأردن، وصولاً إلى سهل دمشق الذي تشرف عليه التلال الرابضة فوق شاطئ جبل لبنان»[٣].

= منذ شهر أيار، إذ صدرت الأوامر إلى آغا إنكشارية دمشق وواليها بالجهوز للمساعدة إذا طلب إبراهيم باشا ذلك. ويستفاد من سجل المكافآت أن المساهمين في إنجاح الحملة كثر، بما فيهم زعامات قبرص.

A.ABU-HUSAYN, **The View of Istanbul,** pp. 35, 147, 177-178.

أما رفض جعفر الطواشي فيردّه ميناذُوْي (ص ٢٨٩) إلى صداقته مع عثمان باشا الوالي، وإلى كونه «محتالاً وقاسٍ بطبيعته». وقد تكون الحملة على «بلد ماران» وبلاد عكار وما ارتكبه فيها من «شناعات» هي التعبير عن تصرّفه القاسي، انظر زجلية سركيس السمارجبيلي في **المرجع المذكور سابقاً**، حاشية ٦.

(١) MINADOÏ, **The Warres,** p. 289.

(٢) MINADOÏ, **The Warres,** p. 289; Laurent d'Arvieux, **Mémoires,** Beyrouth, 1982, 80: «La tradition constante parmi eux et dans le pays, est, qu'après les Sarrasins eurent pris la terre Sainte sur les chrétiens, un corps de français commandé par un Comte de Dreux, se retira dans les montagnes...»; quant à J.von Hammer IV, pp. 166-167, «les druzes... sont les descendants de l'ancien et belliqueux peuple montagnard des Mardes ou Mardaïtes, qui habitaient primitivement les pays au nord de la mer Caspienne...».

أنظر مناقشة هذا الموضوع في عباس أبو صالح وسامي مكارم، **تاريخ الموحدين الدروز في المشرق العربي**، ص ١٥ ـ ١٨. وحديثاً:

FUAD I. KHOURI, **Being a Druze,** Beirut, 2004, pp. 18-23.

(٣) MINADOÏ, **The Warres,** p. 291.

مهما تكن الدقة في هذا التعريف، فإنّ سكان هذه المناطق لم يقتصروا على الدروز، إنما شاركتهم فيها، وبالعصيان، القبائل العربية المنتشرة في فلسطين ووادي التيم (الشهابيون) والبقاع. وقد انقسمت هذه القبائل بشكل عام بين حزبيتين: القيسية واليمنية. ومن المرجّح أن هذا الإنقسام الذي شمل الدروز أيضاً في الجليل الأعلى وبلاد الشوف، أوقع ميناذُوْي في إشكال حَمَله على إطلاق تسمية الدروز على سكان المنطقة التي حددها، وعلى أمرائهم الذين صنّفهم بين حزبيتين[1]:

الأولى اليمنية، وتضمّ ابن معن (قرقماز) وهو الأقوى بالرجال والسلاح، مقره في عين دارا[2]، ويهيمن على المناطق الساحلية الممتدة من صيدا إلى صور وعكا حتى قيصرية فلسطين. وبعد مقتل والده الأمير فخر الدين الأول في العام ١٥٤٥، بمكيدة مصطفى باشا والي الشام، أصبح قرقماز العدو اللدود للأتراك؛ والثاني هو شرف الدين أمير الغرب بين بيروت وصيدا، وهو الأضعف بين الأمراء وحليف ابن معن.

والحزبية الثانية هي القيسية، وتضم ابن منصور العسافي المقيم في غزير (كسروان)، ويتولّى المنطقة الممتدة من بيروت حتى أنفه. وكونه ساند

(١) MINADOÏ, **The Warres,** pp. 291-294.
وتجدر الملاحظة أن بعض الوثائق العثمانية الرسمية تقع أحياناً في مثل هذا الإشكال بين الدروز وغيرهم من «الطوائف المتمردة»، انظر على سبيل المثال:
A-R. ABU-HUSAYN, **The View from Istanbul,** pp. 114-115.

(٢) عين دارا بلدة تقع على ارتفاع ١٢٥٠م. عن سطح البحر، في ناحية الجرد. وهي من أكبر بلدات الناحية، وتظهر ديمغرافيتها في دفاتر الطابو العثمانية على الشكل الآتي: من ١٢٤ نفراً في العام ١٥٢٣، ارتفع سكانها إلى ٢١٦ نفراً في العام ١٥٣٠، ثم تراجع في العام ١٥٤٣، إلى ١٦٣، ليعود فيرتفع عند نهاية القرن السادس عشر (١٥٩٦) إلى ٢٥٣ نفراً، استناداً إلى الدفاتر العثمانية:
Tapu Defter N°. 430, pp. 267-268; N°. 382, pp. 354-557; N°. 401, p. 421; N°. 177, pp. 121-123.

العثمانيين ضد ابن شعيب في عكار، امتدّ نفوذه حتى اللاذقية وتسلّم كرك طرابلس[1]. والأمير الثاني هو ابن فريخ[2] المقيم في السهول عند أقدام جبل لبنان، ومقامه في بعلبك؛ أما الثالث فهو ابن حرفوش الذي يهيمن على «الوادي» بين جبل لبنان وأنتلبنان.

إلى جانب هؤلاء الذين يسمّون أنفسهم أمراء، يضيف ميناذُوْي، لدى «الدروز» مقدمون تابعون لهم بوظيفة النائب أو الوكيل كغميدا وليل ابن منصور في بيروت وماندل MENDEL وكيله الآخر في كرك طرابلس.

كان هؤلاء الأمراء في الماضي متحالفين، لذلك كانوا مهابين. إلا أنهم في الوقت الحاضر هم منقسمون على بعضهم البعض، متخاصمون أعداء، لا يستطيعون الوقوف بوجه العثمانيين بأية وسيلة. لذلك، عند قدوم إبراهيم باشا تفاهم ابن فريخ وابن حرفوش وابن منصور فيما بينهم ليتجنّبوا الخطر الداهم من ناحية، وليبرؤا أنفسهم من الفوضى الأمنية التي كانت سائدة يومذاك في البقاع والجبل من ناحية ثانية، متهمين ابن معن وحليفه شرف الدين بالعصيان وبالخروج على طاعة السلطان. فحملوا إلى الباشا، وهو لم يزل في القدس، الكثير من المال والألبسة الحريرية والصوفية المرصّعة بالذهب، وأحمالاً من الحرير والهدايا القيمة مع رجالهم.

(١) Cf. Kamal SALIBI, «Northern Lebanon under the Dominance of Ĝazir (1517-1591)», in **ARABICA,** XIV (1967) pp. 144-166.

(٢) يخلط ميناذُوْي، ص ٢٩٢، بين إبن فريخ (الذي يسميه العرب الأقرع) وإبن حرفوش، راجع:
A-R. ABU-HUSAYN, **Provincial Leaderships in Syria, 1575-1650,** A.U.B. 1985, pp. 131-132; Du même, «The Iltizam of Mansour Furaykh: A Case Study of Iltizam in Sixteenth Century Syria», in **Land Tenure and Social Transformation in the Middle East,** Edit, by Taüf Khalidi, A.U.B., 1984, pp. 249-256.
وعند المحبّي، **خلاصة الأثر**، ج٤، ص ٤٢٦ـ٤٢٧، ابن فريخ هو أمير البقاع العزيزي بعد أولاد الحنش... «انتهى أمره إلى أن حاز الإمارة...تولى حكومة البقاع ثم اعطي حكومة نابلس وانحاز إليه جماعة من جند دمشق، وأخاف الدروز، ثم شنّ الغارات عليهم وكان هو السبب في أخذ إبراهيم باشا.. إليهم.»

استقبل إبراهيم باشا الأمراء بالترحاب وقبل هداياهم كتعبير عن إخلاصهم وخضوعهم؛ وكذلك، أخذ باتهامهم للأميرين أخصامهما، وأوعدهم بالانتقام منهما، لا بل ألمح إليهم أنهم سيكونون هم وسيلة الانتقام. إلاّ أن الباشا بأحاديثه المنمّقة ترك في نفوس هؤلاء الأمراء الأمل بالحصول على الإنعامات وبتوسيع إقطاعاتهم[1].

بعد هذا الاستقبال، قام الباشا من القدس على رأس جيش من حوالي عشرين ألف فارس وجندي، بما فيهم رجال الأمراء الثلاثة، حتى وصل سهل البقاع[2]. كان ذلك في شهر تموز من العام ١٥٨٥. وهناك جاءت إبراهيم باشا جموع ترحّب به بالهدايا على أمل الحصول منه على إنعامات وإعفاءات. أما الباشا فكتب إلى شرف الدين وابن معن يدعوهما لملاقاته وإعلان خضوعهما للسلطان. فإذا فعلا يحصلان على الانعامات التي يرغبون بها، وإلا فإنهما سيفقدان إقطاعاتهما وحياتهما في آن معاً.

استجاب شرف الدين للدعوة كونه الأضعف علّه يُجنّب نفسه المتاعب ويعامَل كالأمراء الآخرين. لذلك، جمع أحمالاً من الحرير والكثير من المال والعديد من الألبسة المزركشة، حملها جميعها مع بعض رجاله إلى الباشا الذي استقبله بحضور الأمراء الثلاثة أخصامه، واستمع إليه بصمت.

هدف شرف الدين من حديثه مع الباشا إلى تأكيد خضوعه وتبعيته للسلطان مراد، وإلى رغبته الدائمة في خدمته. لكن الباشا لم يخرج عن صمته إلا ليسأل شرف الدين عن سبب خصومته الدائمة مع الأمراء الثلاثة

(١) MINADOÏ, **The Warres,** p. 295.

(٢) وحسب الدويهي، **تاريخ الأزمنة**، ص ٤٤٨، «فجمع العساكر... في مرج عرموش...»، الذي لم نتمكن من التعريف به. أما عند الشدياق، **أخبار الأعيان**، ج١، ص ٢٣٨ فهو «مرج عرجموش تحت زحله».

الذين كانوا حاضرين، وقد وجّهوا إلى شرف الدين تهمة تعطيل التجارة بين السهل والجبال التي باتت عرضة «للصوص العربية»، وبين المرافئ إذ لم ترسو في بيروت وصيدا وصور أي مراكب أجنبية مضيّعين بذلك رسوم الجمارك العائدة إلى السلطان[3].

دافع شرف الدين عن نفسه بالإصرار على أنه لم يصدر عنه أي فعل يدعو إلى الخلاف، إنما الأمراء الثلاثة وهم الأقوى، كانوا يضايقونه ظلماً ويتعدّون عليه؛ وإذا ما حمل السلاح ضدهم، فلأجل الدفاع عن نفسه وردّ تطاولهم عليه، وليس إطلاقاً رغبة منه في الحرب. أما بشأن تعطيل التجارة في المرافئ، فأوضح شرف الدين أن صيدا وصور كانتا بعهدة ابن معن، وأن بيروت كانت تحت التزام ابن منصور.

لم يأخذ إبراهيم باشا بدفاع شرف الدين وتوضيحاته، بل واجهه «بالتعابير المهينة» وأمر آغا الإنكشارية بالحجز عليه ومراقبته نهاراً، وتقييده بالسلاسل ليلاً[4]. في هذه الأثناء كان قد وصل جواب الأمير قرقماز إلى إبراهيم باشا وقد عرض فيه الآتي[5]:

١ - كان بودّ الأمير أن يلتحق بالباشا وأن يخدمه بكل ما يطلبه من مساعدة، وعلى سعادته أن يتأكد من الاحترام الذي يكنّه للسلطان ومن رغبته الدائمة لخدمته ما دام الأمير حياً، مضحياً بحياته وإمكاناته في خدمته. وإظهاراً لذلك، فقد سدّد ما هو متوجب عليه من رسوم، وبالتالي هو

(٣) MINADOÏ, **The Warres,** pp. 296-298.

(٤) MINADOÏ, **The Warres,** p. 299.

(٥) MINADOÏ, **The Warres,** pp. 299-301;.
كان كولز وريكو أول من نشرا نص جواب الأمير قرقماز إلى إبراهيم باشا. وعنهما أخذ عبد الرحيم أبو حسين وأعاد نشر الجواب في ملحق بحثه المعنون:
«The KORKOMAZ Question. A Maronite Historian's Plea for Ma'nid Legitimacy», in **al ABHATH,** XXXIV (1986) pp. 10-11.

ليس مديناً له بأقجة واحدة[1]. في حين أن ابن منصور لم يفعل. وليس لقاءه الباشا في القدس لإظهار الإخلاص له، إنما لتغطية ما يحتفظ به بغير حقّ، من أموال سلطانية وقد بلغت المائتي ألف دوكا.

٢ ـ لم يُسعد الحظ الأمير للترحيب بالباشا، وذلك لأن الثلاثة من أخصامه الذين يعرفهم جيداً، وقد كانوا في السابق يتطاولون على أملاكه، لن يكتفوا بوضعه في موقف حرج، إنما سيسعون للقضاء عليه شخصياً.

٣ ـ يضاف إلى ذلك، أن ما منع الأمير قرقماز عن ملاقاة الباشا هو قَسَمه ألا يلتقي أحداً من كبار الأتراك ما دام حياً. والسبب يعود إلى أنه منذ صغره عَلِمَ بالمكيدة التي قطع فيها مصطفى باشا والي الشام، رأس والده ظلماً وخيانة. والمشهد لم يبارح مخيلته، ووالده بالذات لم يزل يذكّره، في ظلام الليل كما في وضح النهار، بتلك المؤامرة، ويحثّه بألاّ يقع بين أيدي الأقوياء من الأتراك.

٤ ـ لذلك، يجد الأمير نفسه غير قادر على الاستجابة لطلب الباشا. وإنْ فُسِّر ذلك بعدم الطاعة له، فإنه يظل مستعداً لخدمته، وأنه يعتبر نفسه آخر عبيد السلطان مراد[2].

---

(١) جاء في الأمر الهمايوني الصادر بتاريخ ١٦ ك' ١٥٧٦، إلى دفتردار ووالي دمشق، أن «الدروز» يرفضون دفع المتوجب عليهم، وأنهم أيضاً يلحقون الضرر بكثير من المسلمين. «ومنذ سنة ٩٧٠/ ١٥٦٢ كانت قد بقيت في ذمتهم ٤٢ كرة من المال (١٠٠٧٢٤ أقجة) وكل سنة لا يخلون من أن يبقى في ذمتهم مثل ذلك...»:
أبو حسين، «وثائق دفتر الأمور المهمة والتاريخ اللبناني» في **دراسات** ١١ (١٩٨٤) ١٣ـ١٤، ص ٢٧٤ـ٢٧٥.
A-R. ABU-HUSAYN, **The View from Istanbul,** pp. 29-30.
وتجدر الملاحظة أن التخلف عن دفع الضرائب لم يقتصر على إبن معن، إنما شمل أيضاً إبن منصور في كسروان وغيرهما من المقدمين.

(٢) MINADOÏ, **The Warres,** pp. 300-301.

أدرك إبراهيم باشا أن ابن معن لن يستسلم، لذا قرر الذهاب إليه على رأس جيشه لإخضاعه بشتى الطرق والقبض عليه إذا أمكن.

بدأت الحملة بالزحف على ابن معن. فدمّر الجيش وأحرق بطريقه أربعة وعشرين قرية، حتى وصل إلى التلال المشرفة على عين دارا حيث أقيم معسكر الباشا[1].

وبينما كانت مؤخَّرة الجيش منهمكة في السهل برفع المعسكر إستعداداً للصعود إلى الجبل، فاجأت جماعة من الدروز العسكر وقتلت منهم حوالي الخمسماية. أما أُويس باشا والي الشام، فنجا والتحق بالباشا عند تلال عين دارا حيث كان الباشا قد أمضى أربعة وعشرين يوماً يجمع لجيشه ما تيسّر من المؤن الضرورية، وهمّه الأساسي ابتزاز ابن معن واستدراجه إليه[2]: ولهذه الغاية أرسل إليه غوميدا وكيل ابن منصور في كرك بيروت ليعرض على الأمير إرسال كل ما لديه من الأسلحة في حال عدم ثقته بوعود الباشا، إذ أن رضى السلطان يقضي بأن رعاياه الذين لا يشاركون في الحرب ليسوا بحاجة إلى الأسلحة لطمأنينة جيرانهم وسلامة أنفسهم بالذات.

اعتذر الأمير قرقماز عن إجابة الطلب كون غوميدا هو عميل عدوه ابن منصور من ناحية؛ ومتذرعاً من ناحية ثانية، بأنّ الأسلحة موزّعة في كل البلاد، وبالتالي، لا يستطيع جمعها. فعاد غوميدا خائباً. عندئذ عرض علي باشا والي حلب القيام بمحاولة لإقناع الأمير بتقديم الطاعة للباشا دون أن يلحق به أي أذى، واعداً إياه الحصول على إنعامات.

لم يثق قرقماز بعرض علي باشا الذي تمكّن أخيراً من الحصول كهدية

---

(١) وحسب الشدياق، **أخبار الأعيان**، ج٢، ص ٢٣٨، أن إبراهيم باشا «حين بلغه قرار الأمير قرقماس نهض بعسكره إلى عين صوفر فقدم إليه عقال دروز الشوف وقدموا له تقادم يرضى عنهم. ولما أراد النهوض من هناك غدر بهم وقتل منهم نحو ستماية رجل. ثم اعتقل الأمراء الذين قدموا إليه أولاً».

(٢) MINADOÏ, **The Warres,** pp. 301-304.

للباشا، على ٣٢٠ بندقية، وعشرين حملاً من حرير عين دارا وخمسين ألف دوكا. وتعبيراً عن رغبته في التفاهم مع الباشا، أرسل قرقماز في اليوم التالي والدته لتطلب الصفح عن إبنها شارحة قَسَمه بعد اغتيال زوجها على يد مصطفى باشا.

أخذ إبراهيم بعرض والدة الأمير شاجباً كل ما أتاه مصطفى باشا بحقّ زوجها وأقسم لها أنه على إبنها ألاّ يخشى أي خطر بمثوله بين يديه. وتأكيداً على وعده، ربط حول عنقها منديلاً وآخر حول عنقه وأرسل الثالث معها إلى ابنها[١].

لم تنجح الوالدة، لا بل لم تسعَ إلى إقناع ابنها بالمثول أمام الباشا، وقد عادت إليه حاملة جواباً لم يُسرّ به. فجدّد عزمه على القبض على الأمير المتمرد، ولكن بعد أن يستدرّ منه المزيد من الهدايا والأسلحة بمختلف الوسائل التي يعتبرها شرعية وإن كانت مهينة له. ولهذه الغاية انتدب ثانية غوميدا ليحثّ الأمير على المثول أمام الباشا. إلا أن تصلّب قرقماز حمل غوميدا على اللجوء إلى «الحيلة والكذب» كي لا يعود من مهمته فارغ اليدين إذ أبلغ الأمير الذي طالما أصرّ على موقفه الرافض، أن الباشا قد يكتفي أخيراً بتسديد المال المتوجّب على الأمير فيبرّئ ذمته تجاه السلطان ويتركه آمناً في جباله.

لقد فهم إبن معن من عرض غوميدا أن المسألة مع إبراهيم باشا قد تُحلّ ببعض المال والهدايا فقبل، شرط موافقة إبراهيم باشا على الانسحاب من الجبل وعدم عودته إليه مجدداً لطلب المزيد[٢]. لذلك، حمل غوميدا

(١) MINADOÏ, **The Warres,** p. 304;
في العثماني **aman mendili** هو علامة الرضى والاطمئنان. وأحياناً أوصى باستعماله الديوان الهمايوني لحل بعض المشاكل الإدارية والأمنية العالقة مع بعض الولاة أو المتمردين، راجع:
U. HEYD, **Ottoman Documents on Palestine, 1552-1615,**pp. 95-96.

(٢) MINADOÏ, **The Warres,** pp. 305-306.

خمسين ألف دوكا جديدة وأربعماية بندقية وما مجموعه ألفان وخمسماية من أنواع الماشية المختلفة.

عاد غوميدا إلى الباشا ليسلّمه ما حصل عليه وليبلغه شروط الأمير قرقماز. لم يُسرّ الباشا بهذا الأمر، فأنّب غوميدا وأنذره بواجب التقيّد بأوامره، وطلب منه العودة مجدداً إلى الأمير لإبلاغه واجب التجاوب مع رغبته والمثول أمامه؛ وكذلك بتهديده أنّ باستطاعة الباشا إذلاله والقضاء عليه.

نفّذ غوميدا الأمر مجدداً. وعاد من عند الأمير حاملاً المزيد من الهدايا التي توحي باستنفاد ثروة ابن معن وسلاحه. سُرَّ الباشا بما حصل عليه غوميدا أخيراً من الأمير، واعتبر أنّ «الغنيمة» باتت كافية ليستكمل قصاص إبن معن والانتقام منه على مرحلتين:

قضت الأولى بتدمير ما تبقّى من بلاد إبن معن. فاجتاح الجيش البلاد، وطوال يومين أحرق ودمّر تسعة عشر قرية بعد ما نهب الجيش وارتكب بحقّ النساء والأطفال من «الشناعات ما لا يوصف»[١].

وهدفت المرحلة الثانية إلى إلقاء القبض على الأمير قرقماز. وإذ علم الباشا من أحد جواسيسه أنّ قائد عين دارا قد تحصّن مع ثلاثماية وخمسين من رجاله على مرتفع آمن، أرسل إليه ابن فريخ ليبلغه إصرار الباشا على ملاحقة الأمير، وليوعده بإعطائه حاكمية بعض المناطق التي يرغب بها. وسرعان ما صدّق قائد عين دارا «كذب» الباشا، فنزل إليه مع رجاله[٢]. إلاّ أنّ مكيدة كانت قد دُبّرت للإيقاع بهم دون المقدّم.

(١) MINADOÏ, **The Warres,** pp. 307-308.

(٢) MINADOÏ, **The Warres,** pp. 308-309.
جاء في **الطابو دفتري** رقم ٤٠١، تاريخ ١٥٤٣، أن عين دارا كان فيها عدداً كبيراً من المسلمين وعلى رأسهم إمام. وذكرت وثائق دفاتر الأمور المهمة أسماء العديد من الأفراد الذين

شارك في المكيدة والي حلب علي باشا وإبن فريخ وإبن حرفوش. فكانت مجزرة أودت بحياة حوالي ثلاثماية وخمسين من رجال المقدّم. أما الأخير فَسيقَ أمام الباشا؛ دافع عن نفسه وانتقد بعنف الباشا الذي لم يأبه لكلامه، إنما أمر بتعذيبه حتى الموت[١]. وكذلك قُضي «بأبشع وسائل التعذيب»، على عسكر شرف الدين الذين كانوا قد أُسروا عند بداية الحملة، وعددهم حوالي المائة والخمسين. أما شرف الدين فأُعيد إلى سلاسله ومعه كل ما غنمه الجند من نهب وخراب بلاده، بالإضافة إلى حوالي ماية رأس من أتباعه[٢].

لم يأتِ ميناڈوْي على خبر إبن معن بعد هذه المجزرة. أما التقليد التأريخي فأخذ برواية الدويهي التي أوجزت بالقول أنّ «الأمير قرقماس هرب إلى مغارة من بلاد الشوف فمات فيها عن ولدين وهما الأمير فخر الدين وأخوه يونس»[٣]. لكن المستشرق ڤوستنفلد[٤]، بعد أن أخذ على ميناڈوْي

= أعطوا مكافآت لإسهامهم الفعلي في الحملة. وكان بين هؤلاء من الدروز «أتباع إبن معن» وربما من مناوئيه الذين خرجوا على طاعة الأمير ووحدة الجماعة، كعلم الدين مقدم المتن ومحمد بن علاء الدين الذي «قطع رؤوس الدروز»، وغيرهم. فهل أن المقدم كان على رأس جماعته من المسلمين؟ أم أن الخلافات الحزبية الدرزية كانت قد وصلت إلى درجة من الحدة دفعت إلى تفكك الجماعة؟ انظر أسماء الأفراد الذين أعطوا مكافآت في:
A-R. ABU-HUSAYN, **The View from Istanbul,**pp. 175-185.

(١) MINADOÏ, **The Warres,** p. 311.

(٢) جاء في الأمر الصادر إلى والي دمشق أن العسكر السلطاني بقيادة الوزير إبراهيم باشا قطع مئات الرؤوس من الدروز وأرسل بعضها إلى اسطنبول. انظر عبد الرحيم أبو حسين، **المرجع السابق**، ص ٣٥. وعن المجزرة، انظر **ميناڈوْي**، ص ٣٠٩ـ٣١٢.

(٣) الدويهي، **تاريخ الأزمنة**، ص ٤٤٨، وعنه أخذ الشدياق، **أخبار الأعيان**، ج١، ص ٢٣٨، فأضاف أن الأمير قرقماس «فرَّ إلى مغارة نيرون التي تحت جزين وتوفي فيها...»؛
Michel CHEBLI, **Fakhreddine II Maan, prince du Liban, 1572-1635,** Beyrouth, 1984, p. 14; P. DIB, **L'Eglise maronite, T. II, les maronites sous les ottomans. Histoire civile,** Beyrouth, 1962, p. 57.
أما المحبّي، **خلاصة الأثر**، ج٤، ص ٤٢٦، فيقول: إن إبراهيم باشا قتل من الدروز مقتلة عظيمة «واختفى منه أميرهم الأمير قرقماس بن معن حتى مات في اختفائه..».

(٤) ڤوستنفلد، **فخر الدين أمير الدروز ومعاصروه**، ص ١٦ و١٠٦.

إغفاله خبر الأمير قرقماز، خالف التقليد إذ قال: «وما أن ترك إبراهيم باشا سورية حتى نزل الأمير قرقماز من جديد من جباله. واستولى بسرعة على قسم كبير من الأملاك، إذ إنه لم يسترجع فقط الأراضي التي كان يملكها، بل زاد عليها أملاك الأمراء الذين أُبعدوا عنها». وبعد أن أُطلق سراح الأمراء في القسطنطينية، وهم إبن منصور وإبن الفريخ وشرف الدين، دخل الأخير «من جديد في صداقة الأمير قرقماز». وأما الآخرون المتحالفون من جديد، «فلم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً ضد الأمير قرقماز حتى الوقت الذي استطاعوا فيه أن يشتروا أحد خدّامه الذي قتله سنة ٩٩٤ (١٥٨٦)، بأن أقدمَ على دس السم له في فنجان قهوة».

هكذا تظل نهاية قرقماز عالقة بين التقليد والبحث إلى أن تتوفّر أصول جديدة. ومهما يكن الأمر، فإن حملة إبراهيم باشا لم تنتهِ فصولاً عند مجازر عين دارا. فالباشا أرسل بعدها الأمر إلى الأسطول الراسي في ميناء صيدا لإنزال أربعة من الجند لنهب الساحل حتى قيصرية فلسطين غير آبهين بالنساء والأطفال والعجّز. فكانت حصيلة الاجتياح أسر ثلاثة آلاف رجل ومصادرة كل ما يملكون من أمتعة، وأُحرقت قرى جديدة ودُمّرت القلاع في بلاد شرف الدين وإبن معن[١]. ولإبقاء البلدان التي دُمّرت تحت طاعة السلطان، رفّع الوزير علي بن حرفوش إلى رتبة باشا وسلّمه الأمر السلطاني بولاية الشام لقاء مبلغ مائة ألف سكيني[٢]. بعدها انتقل الباشا إلى دمشق حيث قضى حوالى اثنتي عشر يوماً جمع خلالها، وبشتّى الذرائع، ما أمكنه من غنائم. ثم عاد إلى بيروت حيث كان قد وصل الأسطول، فأقام خيمته على تلة مطلّة

(١) MINADOÏ, **The Warres,** p. 312.

(٢) MINADOÏ, **The Warres,** p. 313;.
أما تولية علي بن حرفوش فكانت بتاريخ ١٨ ت١ ١٥٨٥. أما الأمر السلطاني بتثبيت علي بن حرفوش في ولاية الشام فكان بتاريخ ١٨ ت١ ١٥٨٥؛
A-R. ABU-HUSAYN, **The View from Istanbul,** p. 36.

على البحر تدعى San Boto، وأمرَ بنقل كل ما جمعه إلى المراكب. وإليه استدعى إبن منصور لتسديد ما عليه من متوجبات عن كرك بيروت وطرابلس. ماطل إبن منصور، فلجأ الباشا إلى الحيلة وقرّر اعتقاله. فطلب إليه أن يوافيه ليكون دليله في جولة يرغب القيام بها في بلاد إبن معن. وعند وصوله، أمر بتقييده بالسلاسل ونقله إلى أحد المراكب أسيراً. ثم لاحق الباشا منديل Mendel وكيل ابن منصور في كرك بيروت واعتقله «وصادر كل ما كان يملكه الأمير العسافي من أمتعة حريرية وذهب، يليق جميعاً بأمير كبير وليس بمقدّم جبلي كما كان ابن منصور»[١].

ومن بيروت ركب الوزير البحر باتجاه طرابلس حيث أمضى بضعة أيام قام خلالها «بأبشع التعديات»[٢]. بعدها أمر بنقل شرف الدين وسائر الأمراء المحتجزين إلى المراكب ليُقلع بأسطوله المؤلف من أربعة وعشرين مركباً باتجاه اسطنبول التي وصلها في ٢٤ أيلول سنة ١٥٨٥. وعند وصوله استقبلته الجموع الغفيرة وطلقات المدفعية. وكان مينادُوْي يومئذ هناك، وقد تمكّن من معاينة الغنائم[٣] التي حملها إبراهيم باشا إلى السلطان مراد.

أمّا الأمراء المحتجزون «فبرروا ذواتهم فأمر السلطان بإطلاقهم فرجعوا إلى بلادهم»، لتبدأ بعد فترة انتقالية (١٥٨٥ ـ ١٥٩١)، مرحلة جديدة من تاريخ الشوف مع الأمير فخر الدين الثاني.

(١) MINADOÏ, **The Warres,** pp. 313-314.

(٢) MINADOÏ, **The Warres,** p. 315.

(٣) MINADOÏ, **The Warres,** p. 316.

لبنان في نصوص الرحالة الأجانب في القرنين الخامس عشر والسادس عشر

د. إلياس القطّار[*]

تتوقف هذه الدراسة عند ثمانية رحالة زاروا الشرق، ومن ضمنه لبنان الحالي. أربعة منهم من العهد المملوكي، في القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر، وأربعة آخرون من القرن السادس عشر، في مطلع الحكم العثماني. وغالبية معلومات هؤلاء لا تطال سوى بعض المدن الساحلية: صور، صيدا، بيروت، طرابلس، كما تطال الموارنة، مع التفاتة بسيطة إلى سهل البقاع ورمشة عين مع جسر الدامور.

هؤلاء الرحالة هم:

١ ـ جيلبر دو لانوي Ghillebert de Lannoy، الذي قام برحلتين إلى الشرق، الأولى بين ١٤٠٣ و١٤٠٨، والثانية في ١٤٢١. وكان في الثانية مكلّفاً بالاستخبار عن واقع المماليك العسكري في سوريا[١].

٢ ـ دو لا برونكيار De la Bronquière الذي زار المنطقة بين ١٤٣٢ و١٤٣٣، في ظلّ حكم السلطان برسباي لمشروع عسكري، يبرزه في مطلع كتابه، الغاية منه إعادة احتلال أورشليم[٢]،

(*) أستاذ في قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الفرع الثاني، الجامعة اللبنانية.

(١) Ghillebert de Lanoy, **œuvres de Ghillebert de Lanoy,** receuillies et publiees par Ch. Potovin, Louvain 1878.

(٢) De la Bronquière, **Le voyage d'outre Mer,** publié et annoté par Ch.Scheffer, Paris 1992. p. 2.

٣ ـ لو دوفيكو دو فارتيما Ludovico de Wartema الذي زار المنطقة بين ١٥٠٠ ـ ١٥١٠، في آخر الحكم المملوكي[١].

٤ ـ جان تينو Jean Thenaud الذي تمّت رحلته في آخر العهد المملوكي ١٥١٢[٢].

٥ ـ دارامون D'Aramon الذي جرت رحلته في ١٥٤٧. والمؤلف شغل مركز سفير في زمن السلطان سليمان القانوني[٣].

٦ ـ بيار بولون Pierre Belon الذي جرت حلته في ١٥٤٧[٤].

٧ ـ أندره تيفيه André Thévet الذي جرت في أواسط القرن السادس عشر وأمضى فيها تسعة أشهر في جبل لبنان[٥].

٨ ـ فيامون Jacques de Villamont الذي جرت رحلته في عهد خليفة سليمان القانوني، وبدأت بالضبط في شهر حزيران ١٥٨٨[٦]،

وأبرز المعلومات التي يقدّمها هؤلاء الرحالة هي الآتية:

---

(١) Ludovico de Warthema, **Les voyages de Ludovico de Warthema en la plus grande partie de l'Orient,** publiés par Ch.Scheffer, Paris 1888.

(٢) J. Thenaud, **Le voyage d'outre mer (Egypte, Mont Sinai, Palestine)** de J. Thenaud, publié par Ch.Scheffer, Paris 1884.

(٣) D'Aramon, **Le voyage de Monsieur d'Aramon escript par Jean Chesneau,** publié et annoté par Ch.Scheffer, Paris M.D.CCCLXXXVII, p.140.

(٤) Pierre Belon, **Les observations de plusieurs singularités et choses mémorables, trouvées en Grèce, Asie, Judée, Egypte, Arabie et autres pays étrangers,** rédigées en trois livres, par Pierre Belon du Mans, Paris 1588. Le livre paru pour la première fais en 1553 puis 54 et 55 etc...

(٥) André Thevet, **La cosmographie universelle d'André Thevet,** cosmograhe du Roy, 2 tomes, éd. Guillaume Chudière, Paris 1575. t.I, p. 184.

(٦) Jacques de Villamont, **Les voyages du Seigneur de Villamont,** 3ème éd. Paris 1598.

أولاً ـ صور:

أ ـ في عهد المماليك:

يشير جيلبر دو لاوني، إلى أنّ صور، التي كان قد وصفها القلقشندي في مطلع القرن الخامس عشر بأنها كانت لا تزال خربة ويسكنها قوم من الرافضة الذين لا يصلّون نهار الجمعة ولا الصلاة الجماعية[١]، قد أصبحت مدينة مأهولة في ١٤٢١. ولكنّها كانت مجرد قرية صغيرة تحيط بها البساتين المزروعة قمحاً وقطناً وكرمة. والجبل الذي يحيط بها فيه عدّة قُرى وعدّة قلاع[٢].

ويذكر دو لا برونكيار بأنّ صور كانت غير مأهولة منذ سقوطها بيد المماليك حتى ١٤٢١ عندما سكنها أمير كبير يدعى Eboe لربما يلبغا. وهو مسلم جيد عمل على إعادة إسكان الناس فيها؛ وعند مرور دو لا برونكيار فيها كان فيها ٣٠٠ عائلة[٣].

ويضيف على ذلك أنّ صور مدينة محصّنة بأسوار ولها مرفأ جميل. وهي مدينة ضعيفة عسكرياً وأسوارها لا تزال مهدّمة...[٤].

ب ـ في مطلع العهد العثماني:

في أواخر القرن السادس عشر كانت مأهولة بالأتراك والمسلمين واليهود والعرب[٥].

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج٤/١٥٣.

(٢) Ghillebert de Lanoy, op. cit., pp. 150-151.

(٣) B. de la Bronquière, op. cit. pp. 28-29.

(٤) Ibid, p. 2, 28, 43.

(٥) Villamont, op. cit, p. 8.

وعلى هامش رحلة بيلون يستوقفنا قوله عن اليهود: لا يوجد يهودي عائش حتى اليوم، ليس عنده الأمل بأن تعود صور إلى اليهود[١].

ثانياً ـ صيدا:

أ ـ في العهد المملوكي:

في مروره في صيدا في الربع الأول من القرن الخامس عشر وصف دو لانوي صيدا بأنها مدينة مقفلة، صغيرة جداً، مبنية جداً بمساكن واطئة، من الحجارة الغبراء. وهي واطئة تقع على مرفئين deux pors وليس لها سوى حائط واطئ يقفلها فقط من جهة البحر[٢].

ب ـ في مطلع العهد العثماني:

في أواخر القرن السادس عشر كان يسكن صيدا مسلمون وأتراك ويهود يصفهم فيامون بالأكثر جبناً في كلّ البلاد، ولم تكن السفن تحطّ فيها بسبب نفاق أهلها[٣].

ثالثاً ـ جسر الدامور:

يرد ذكر الجسر عند دو لا بونكيار الذي وجد أنّه من حجر وتحته ساقية عميقة[٤].

---

(١) Belon, op. cit., p. 335.

(٢) De Lannoy, op. cit., p. 153.

(٣) Villamont, op. cit., p. 8.

(٤) De la Bronquière, op. cit., p. 42.

رابعاً ـ بيروت:

أ ـ في العهد المملوكي:

كانت مدينة بيروت في النصف الأول من القرن الخامس عشر مبنيّة من حجارة مصقولة جميلة[١].

التنقل بين بيروت والمدن يتمّ بصحبة مكاري الذي يؤجر الحمير أو البغال ويقود الحجاج في أرجاء سوريا[٢].

وفي مطلع القرن السادس عشر، في آخر العهد المملوكي، كانت بيروت مأهولة جداً بالمسلمين Mores وفيها الخيرات بكثرة[٣].

وكان للرهبان الفرنسيسكان كنيسة ودير[٤]. وهو يخضع لدير جبل صهيون. والكنيسة كانت في الماضي كنيساً لليهود، وهي تحمل اسم المخلص. وقد أقامها الفرنسيسكان لخدمة التجار المسيحيين المقيمين في هذه الأحياء[٥]. ويؤكد جان تينو على ذلك بأنّه كان للفرنسيسكان دير يستقبل المؤن والمأكولات التي تحمل من قبرص ثم تنقل إلى أورشليم وبيت لحم[٦].

كانت المدينة محمية عسكرياً في القرن الخامس عشر بأسوار من جهة البحر، وبالقلعة في الشرق، وقصر المراقبة من الغرب، وببرج من جهة البحر يكشف على السهل[٧]. ويزيد على وصف هذه الحماية فارتيما بأنّه كان لها

---

(١) De Lannoy, op. cit., pp. 155-156.

(٢) De la Bronquière, op. cit., p. 31.

(٣) Ludovico de Warthema, op. cit., p. 9.

(٤) J. Thenaud, op. cit., p. 115.

(٥) De la Bronquière, op. cit., p. 40.

(٦) Thenaud, op. cit., p. 115.

(٧) Delannoy, op. cit., pp. 155-167.

سور من جهة الغرب، كما لفت نظره حائط قديم يُقال بأنّه كان يخصّ المنزل الذي كان تقيم فيه ابنة الملك، عندما أراد التنين افتراسها، وكلّ ذلك خرائب[١]. وعلى الطريق بين بيروت وصيدا، على بعد ميل تقريباً، وجد دو لا برونكيار، حرشاً صغيراً جميلاً من الصنوبر البري العالي. وهو لا يقطع ويحافظ عليه[٢].

يذكر دو لانوي، في الربع الأول من القرن الخامس عشر، أنّها كانت مدينة تزدهر فيها التجارة، وغير مغلقة، بمنية بالحجارة الجميلة المصقولة وتخضع للسلطان. كانت كبيرة ومغلقة في عهد المسيحيين (الصليبيين). وهي اليوم قد صغرت ويسكنها المسلمون، وفيها عدد كبير من البنادقة والجنويين واليونان[٣]. وهي مدينة مملوءة بالمسلمين وفيها الخيرات بكثرة[٤].

ب ـ في مطلع العهد العثماني:

يصف دارمون، في أواسط القرن السادس عشر، في ١٥٥٧، الطريق بين دمشق وبيروت فيذكر بأنّ القوافل تتوقف في Meziddlu، لربما مجدل عنجر، ثم في Osam، لربما خان الحسين بعد بيروت[٥]. ويذكر، أيضاً، بأنّ بيروت مدينة صغيرة، وفيها مرفأ تجاري ودير لـ cordeliers، يخضع لدير القدس، وفيها كنيسة صغيرة على اسم القديس جاورجيوس يديرها كهنة يونان (أرثودوكس)[٦]. ويبدو أنّ الأقلية الأرثودوكسية كانت لا تزال في بيروت، لأنّه منذ عهد المماليك كانت السلطة لا تشجع الطوائف المسيحية التي كان

(١) Wartema, op. cit., p. 9.

(٢) De la Bronquière, op. cit., p. 41.

(٣) De Lannoy, p. 155-156. Voir le texte in Wartema, p. 8.

(٤) Wartema, op. cit., p. 9.

(٥) D'Aramon, op. cit., p. 140.

(٦) Ibid, p. 140.

لها علاقات مع الغرب[١].

واستوقفت بيروت أندريه تيفيه، في أواسط القرن السادس عشر، من حيث أنّها أكثر مدينة تجارية في الشرق. وللبنادقة فيها فندق ولهم تجارة رائجة. وفيها كنيسة جميلة بناها المسيحيون اللاتين وهم لا يزالون يديرونها حتى زمن الرحالة المذكور[٢].

في أواخر القرن السادس عشر كانت بيروت كما وصفها الرحالة السابقون من حيث الأهمية التجارية، تتي إليها تجارة الفرس والهند وحلب ودمشق وإيطاليا ومرسيليا وغيرها، أو إلى طرابلس، ولذلك وضع فيها الأتراك حامية كبيرة، ويأتيهم منها مدخول كبير من بيع البضائع، أكثر مما يصلهم من طرابلس، التي كانت مضمّنة بقيمة ٤٠٠٠ دوكا. وعلى التلاك المحيطة بها تزرع أشجار الزيتون الخصبة وأشجار مثمرة. ويسكنها الأتراك والمسلمون والمسيحيون من طوائف عدّة ويهود. وقد أضاع الفرنسيسكان الدير، الذي تكلمنا عنه، بغلطة منهم، فأخذه الأتراك وحوّلوه جامعاً[٣]..

خامساً ـ طرابلس:

أ ـ في العهد المملوكي:

في نهاية العهد المملوكي، بين عامي ١٥٠٠ و١٥٠٨، يذكر فارتيما أنّها كانت تحت حكم السلطان وسكانها مسلمون وهي غنية بكل الخيرات[٤].

أمّا في أواسط القرن السادس عشر، فيصفها دارامون قائلاً: إنّها مبنية

(١) F. Hours, «Beyrouth au Moyen-Age» in **Beirut crossroads of cultures**, 1970, p. 61.

(٢) Thévet, op. cit. t. I, p. 189.

(٣) Villamont, op. cit. livre III, p. 9.

(٤) Wartema, op. cit., p. 9.

بطريقة حسنة، تحطّ فيها رحال كلّ التجار المسيحيين الذين يتاجرون مع سوريا، وفيها قنصل للفرنسيين[١]. ولا كنيسة للمسيحيين في طرابلس ولا للفرنسيين والبنادقة، بل يحتفلوا بالصلاة في فندقهم تحت حماية قنصل فرنسا[٢]. وفي المدينة حمامات كبيرة وواسعة من الرخام، يذهب إليها الأتراك والمسلمون والمسيحيون بحريّة[٣]. وفي مرفئها توجد الجمارك حيث الملتزمون من قبل السيد السلطان يحصّلوا الضرائب[٤]. وفي طرابلس، وهي المدينة الأكثر تجارة، حسبما عرّف بذلك تيفيه، تتم كلّ تجارة المشرق، على الأقل تلك التي تجري مع أوروبا، كالحرير والأدوية المختلفة التي تستورد من حلب، أكبر مخزن في سوريا[٥].

في الربع الأخير من القرن السادس عشر أطيبت طرابلس بالطاعون الذي لم ينج منه سوى القلائل. كان في طرابلس قنصل فرنسي، وكان يستعمل دير مار يعقوب مقبرة للمسيحيين[٦].

ومن الأمور التي لفتت نظر فيامون حروب الثأر التي تشتعل بين طرابلس والجبال القائمة بينها وبين دمشق. فهذه عادة عند أهل الجبال بالبحث عن كلّ المناسبات الممكنة للثأر[٧].

ويقدّر فيامون مدخول سهل طرابلس بـ مليون ذهباً من إنتاج الحرير، بمعدّل ٨ عن كل شجرة والعشر عن الثمار. وبيوت طرابلس من ٢ إلى ٣

(١) D'Aramon, op, cit., p. 141.

(٢) Thévet, o. cit., t. I, p. 192.

(٣) Ibid., T. I. p. 192.

(٤) Ibid., t. I, p. 192.

(٥) Ibid., t. I, p. 191.

(٦) Villamont, op. cit., p. 9.

(٧) Ibid., p. 11.

طوابق. الشوارع ضيقة وبعضها مغطّى وله قناطر. وتبلغ كلفة النقل من طرابلس إلى مرسيليا عشر أكيو Ecus ذهباً ومن مرسيليا إلى طرابلس ٥ إلى ٦ أكيو[١]. ويدفع مرفأ طرابلس بدل ضمان ٤٠٠٠ أكيو ذهباً للسلطان. ويحرس مدخل الميناء برج مربّع، وعلى بعد ربع ميل منه نجد برجاً آخر شبيه به يجمع الجمرك بالمخازن، ونجد مخازن تبيع كل شيء ما عدا النبيذ. وعلى طول الميناء نجد خمسة أبراج أخرى ولها الشكل نفسه. وتأتي إلى موانئ الشاطئ، ومنها طرابلس، طبعاً، سفن من مصر محمّلة بالأرز وسلع أخرى[٢].

سادساً ـ البقاع:

يلاحظ بيلون الزراعة في سهل البقاع وقلّة المنازل فيه، وتكثر فيه أشجار التوت الأبيض لتربية الحرير[٣].

سابعاً ـ الموارنة:

يسلط الضوء جان تينو في مطلق القرن السادس على طبعهم المحارب. وفي نهايته يذكر فيامون بأنّهم أمّة محاربة وتحسن استعمال السلاح، وإطلاق النشّاب، وبإمكانهم تأمين ١٢ ألف محارب[٤]. وأثناء مروره بينهم، في ١٥٨٨، يذكر فيامون في معرض وصفه لدير قنوبين، بأنّه رأى جنائن يعمل فيها، بيدهم، الكهنة والأساقفة وحتى البطريرك أحياناً. فهم، ما إن ينهون واجبهم الديني يفلحون الأرض والكرمة، أو يمارسوا أعمال أخرى أرضية،

(١) Ibid, livre III, p. 42.

(٢) Ibid, livre III, p. 45.

(٣) Belon, p. 342.

(٤) Thenaud, op. cit., p. 98-99. Villamont, op. cit., p. 187.

ويقولوا بأنّهم في ذلك يتبعون أوامر اللّه. وبهذه الطريقة طوّعوا كلّ المنحدرات للجبال المذكورة، وحوّلوها إلى جنائن صغيرة، تزرع فيها أشجار متنوّعة، بعضها لتربية الحرير، وحفروا القنوات لتجميع مياه الينابيع لري الحدائق، وفي أسفل الجبل لتدوير مطحنة[١]. وجبال لبنان غنية جداً بالنبيذ الطيب والقمح، والخشب، والأشجار والمراعي[٢].

وكان للأمة المارونية، حسب قول دارامون، مذبح في كنيسة القيامة في أورشليم[٣].

ويذكر أندريه تيفيه، من النصف الثاني من القرن السادس عشر، أنّ الروايات المارونية تزعم أنّ الروايات المارونية تزعم أنّ أول مدينة بناها نوح في العالم كانت في جبل لبنان، ويشير إلى أنّ الموارنة يتكلّمون العربية في غالبيتهم، ويقيمون قداديسهم بالعبرية (السريانية)[٤]. وهم يسكنوا بين بيبلوس وطرابلس السورية في جبل لبنان، حيث بلاد الموارنة[٥]. ويذكر، أيضاً، أندريه تيفيه، بأنّه في جبل لبنان بين فينيقيا ويهوذا، رأى ديراً للموارنة، وهؤلاء كانوا سابقاً مونوتيليين ويحملون اسم شخص يدعى مارون، وهو لم يكن مخترعاً لهذه الشيعة بل مكاريوس الذي كان قد حرمه معه المجمع السادس، حسبما ذكر له ذلك بعض الأساقفة اليونان (الأرثوذوكس)، وهذا ما كتبوه في تواريخهم. ثم بعد خمسماية سنة من خطائهم عادوا إلى الوحدة، وجاء بطريركهم إلى المجمع اللاتراني في عام ١٥١٥ في عهد البابا أينشنتوس الثالث. والكاتب المذكور يصرّ على اتّهامهم بأنهم لا يزالون ضائعين عن

(١) Villamont, op. cit., p. 250.

(٢) Ibid, p. 251.

(٣) Thenaud, op. cit., pp. 98-99. D'Aramon, op. cit., pp. 121-122.

(٤) Thevet, op. cit., t. I, p. 184.

(٥) Ibid, t. I, p. 190.

الكنيسة، ويعيشون في الجبال، كما رأى ذلك شخصياً، ولا يعرفون إلاّ رؤسائهم ووزرائهم (الدينيون)، وهم لا يتبعون إلاّ قليلاً في احتفالاتهم الطقوس اللاتينية. ويدّعون في تواريخهم بأنّ آباءهم من دم فرنسي[١]. ويشارك جان تينو، أندريه تيفيه في أصل الموارنة ونسبتهم إلى بدعة المونوتيلية[٢]. ويضيف على ذلك أنّهم يسكنون جبال لبنان والانتي ليبان، ويتميّزوا بأنّهم يحسنوا إطلاق النشّاب، وبأنه في زمن البابا أينوشنتس الثامن ذهب إليهم أحد رهبان الفرنسيسكان، من الذين يعرفون لغتهم لتعليمهم، وعند وفاة بطريركهم انتخبوه مكانه، فلم يقبل إلاّ بشرط إعلانهم الطاعة للبابا وللكنيسة الكاثوليكية، وألزمهم بالحصول على تثبيت البابا لبطاركتهم. وكان بطريركهم زمن الكاتب في قبرس. وإكليروسهم يستعمل الأحرف الكلدانية واللغة العربية الدارجة[٣].

هذه المعلومات، طبعاً فيها الكثير من المغالاطات التي نجد جواباً عليها في العديد من الدراسات العلمية الحالية.

في أواخر القرن السادس عشر، كان للموارنة في دير بطريركهم الفقير، ثلاثة أجراس هي الوحيدة في السلطنة، وساعة واحدة، والموارنة يعيشون حسب عاداتهم القديمة بانتظار أن يأخذوا العادات الغربية رويداً رويداً[٤].

هذ جلّ ما تقدّمه هذه المصادر عن لبنان، وهي على ندرة معلوماتها، وعلى رغم أن العديد من معلوماتها قابل للنقد وأحياناً للرفض، تساهم في تقديم مداميك أساسية في عملية إعادة بناء صورة لبنان في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

(١) Ibid, t. I, p. 184.

(٢) Thenaud, op. cit., p. 98-99.

(٣) Ibid, p. 89-99.

(٤) Villamont, op. cit, livre III, p. 33.

ملامح من الحياة الاجتماعية اللبنانية في القرن الثامن عشر من خلال مذكرات الرَّحالة فرنسوا دو باجيس

د. أحمد حطيط(*)

مدخل:

شهدت أوروبا، خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، اهتماماً متزايداً بالنصف الجنوبي من الكرة الأرضية، فجال العديد من الرحالين الأوروبيين لاكتشاف مناطق جديدة، من أرخبيلات، وطرق أسهل لبلوغ مصادر السلع التي يحتاج إليها الغرب الأوروبي. كما كلفت الحكومات الأوروبية أشخاصاً متمرسين لتأدية هذه المهمة، نذكر منهم: كارتيريه Carteret وبوغانفيل Bougainville وسورفيل Surville وكوك Cook.

اتبع الرحالون طرائق ممتعة في وصف العوالم التي زاروها، وعنوا بالحديث عن عادات الأمم والشعوب وطبائعها وما في ديارها من آثار وعجائب، وقصُّوا ما عندها من أساطير وخرافات. وبذلك، أصبحت مذكراتهم عن رحلاتهم كتباً أدبية وتاريخية تعتمد، أساساً، على المشاهدة وحكاية ما رآه الرَّحالة تحت سمعه وبصره، وتعرَّض لخاصة الناس وعامتهم بقالب قصصي جذاب، يتنوع بين أخبار جغرافية، وتاريخية، وأدبية، واجتماعية، فضلاً عن المشاهدات التي يرويها الرَّحالون عن أنفسهم، وما أبصروه، وما عانوه في الأقطار القريبة والبعيدة.

(*) عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجامعة اللبنانية.

أما الرَّحالة الفرنسي دو باجيس François de Pagès (١٧٤٠ ـ ١٧٩٢م) فقام بدورة حول العالم، وهو في السابعة والعشرين من عمره، بمبادرة شخصية منه، دون تكليف من حكومة بلاده، ودون هدف محدد. تركزت رحلة دو باجيس في وسط الكرة الأرضية، ووافانا بمذكرات يومية عما شاهده في خلال رحلته، تحت عنوان «**رحلات حول العالم**»، صدرت، بعد ما يزيد على قرن من الزمن، في كتاب من منشورات المطبعة الوطنية الباريسية، عام ١٩٩١م.(١)

كان فرنسوا دو باجيس ضابطاً في البحرية الفرنسية حين قرر، في ٣٠ حزيران ١٧٦٧م، أن يغادر سفينته «لاديدانيوز الراسية على مقربة من سواحل جزيرة دومنيك، بعد أن ضجر من طول انتظار جواب على طلب تقدم به إلى قيادته طالباً منحه إجازة لتمضية عام خارج الخدمة. فاتجه غرباً، ليقوم برحلة دامت حوالى أربعة أعوام، وذلك لتحقيق غرضين اثنين: أولهما: اكتشاف طرق بحرية جديدة إلى الشرق الأقصى أمام التجارة البحرية الفرنسية، وثانيهما: البحث عن طبيعة بكر، والتعرف إلى طبائع سكانها وعاداتهم وتقاليدهم.

طوّف دو باجيس بعيداً في وسط الكرة الأرضية، فعبر نهر المسيسيبي، واجتاز تكساس، ومانيلا وبومباي ووصل إلى مسقط، وانتقل منها مبحراً في الخليج العربي حتى بلغ البصرة، وهناك رافق قافلة عربية إلى دمشق، ثم انطلق إلى بيروت عبر سهل البقاع، سالكاً طرقاً جبلية وعرة المسالك، فأقام في لبنان، متنقلاً بين جبل لبنان ومنطقة الشوف، مروراً ببيروت وصيدا.

سكن الرحالة الفرنسي ونام حيثما حل، مصرحاً بأن ذلك كان أفضل وسيلة للتعرف على الشعوب، كما ارتدى أزياء هذه الشعوب تماهياً معها.

(١) François de Pagès, Voyage autour du monde, (1767-1771), epupliée et annotée par Numa Broc, Imprimerie nationale, Paris, 1991.

فوجد في العباءة التي لبسها في البصرة خير وسيلة لاتقاء الصقيع، وشدة قيظ الصحراء التي عبرها مع القافلة التي أقلته إلى دمشق، وشعر بلذة وهو يتخلى عن عقدة تفوق الأوروبي السائدة آنذاك، وانخرط ببساطة في حياة الشعوب التي زارها.

تعلم الرحالة، خلال إقامته في لبنان، اللغة العربية، فوجدها «جميلة ومن أكثر اللغات التي سمعها بلاغة وبساطة»[1]، وعشق مناخ لبنان وطبيعته «وهذا أفضل ما يمكن أن يحصل عليه شخص يود التقرب من الطبيعة»[2]، لافتاً إلى وحدة التقاليد والعادات بين اللبنانيين، من مسيحيين ومسلمين ودروز، وإلى علاقة اللبنانيين بالعثمانيين، وقتذاك، وبالدول الأوروبية، فضلاً عن دور الإرساليات التبشيري والتعليمي في جبل لبنان، ليعود أدراجه إلى بلاده بحراً، بعد أن أمضى في لبنان حوالى عام من الزمن، منطلقاً من ميناء عكا، وذلك في الخامس من كانون الأول عام ١٧٧١م.

ومن سخرية القدر أن دو باجيس، الذي زار الشعوب البدائية، وأحب بساطة عيشها، مات مقتولاً في مزرعته في جزيرة الدومنيك، أثناء تمرد العبيد فيها، عام ١٧٩٢م، أي بعد مضي ثلاث سنوات على اندلاع الثورة الفرنسية.

يعنينا من مذكرات دو باجيس، على وجه الخصوص، ما تضمنه الفصل الخامس من كتابه من وصف دقيق لجوانب من الحياة الاجتماعية للمسيحيين والدروز، في مناطق جبل لبنان وبلاد الشوف التي زارها، . فسجل الرَّحالة انطباعاته عن سحر الطبيعة اللبنانية وطيب مناخها، وواقعها الديمغرافي وفئاتها الاجتماعية، ونمط عيش أسرها وعلاقاتهم الاجتماعية، وعادات السكان وتقاليدهم، وكرم الضيافة اللبنانية، والكنائس والأديرة في جبل لبنان، وانتشار

(١) De Pagès, Voyage, p. 241.

(٢) Ibid., p. 242.

الكثلكة ودور الإرساليات في ذلك، بالإضافة إلى العلاقات الإقطاعية، ونظام القِيَم الأخلاقي، ومختلف السياقات العلائقية داخل الجماعة وخارجها.

من تلك الموضوعات، آنفة الذكر، سنقصر حديثنا عن الأمور الآتية: مسار الرحلة في لبنان، والطبيعة اللبنانية، والسكان والعلاقات الأسرية، والعلاقات الإقطاعية، فضلاً عن مشهد من العادات المشتركة بين الدروز والموارنة، وذلك في حدود ما نطقت به مذكرات الرَّحالة دو باجيس.

أولاً ـ مسار رحلة دو باجيس في لبنان:

انطلقت رحلة دو باجيس من دمشق إلى بيروت، وسار ومرافقوه بمحاذاة جبل متسلقين طريقاً وعرة، ثم توقفوا لساعات في قرية صغيرة حيث أكلوا فاكهة ولبناً وخضاراً طازجة، ليعاودوا المسير في واد ضيق طويل وعر يلج إلى سهل البقاع، فوصفه بأنه «سهل عريض شاسع، . . . ، تربته سوداء خصبة، يجري في وسطه نهر صغير»[1]، ثم تسلقوا جبالاً عالية صعبة المسالك، سيراً على الأقدام، فشاهدوا أشجاراً مثمرة متنوعة من كروم العنب وأشجار التوت وغيرها. وبعد استراحة قصيرة لتناول الطعام الذي تألف من الألبان الجيدة والخبز المرقوق، تابع دو باجيس وصحبه المسير باتجاه بيروت، وتسلقوا قمة الجبل، وهبطوا رويداً رويداً، فانبسط أمامهم سهل «ساحر بنضارته»[2] فيه حصن يشرف على منبسط عريض زُرع بأشجار التوت، وعبروا غابة التوت هذه إلى أن بلغوا بيروت، فدخلوها بعد أن جرت مراقبة أمتعتهم في مركز مخصص للجمارك في أحد مداخل المدينة[3].

يصف الرحالة الفرنسي بيروت، فيقول: «هي مدينة صغيرة تخطيطها

(١) De Pagès, Voyage, p. 225.

(٢) Ibid., p. 226.

(٣) Ibid., p. 226.

المدني على غير انتظام، وسكانها مسلمون ومسيحيون «متفقون بشكل ذكي»، ويدبر شؤونها أمير يؤدي الجزية للعثمانيين كي ينجو بنفسه وسلطته من مضايقاتهم[١]،

وبعد أن مكث دو باجيس في بيروت مدة يومين في دير للكبوشيين يُستقبل فيه الأجانب، توجه إلى منطقة كسروان، الآهلة بسكانها الموارنة «وقد سمعت الكثير عن دفاعاتها الطبيعية بفضل جبالها المنيعة، كما سمعت عن عدد سكانها وعن قيمهم، وعن كثرة أديرة الرهبان والراهبات فيها»[٢]، حاملاً رسالة توصية إلى رئيس أحد أديرة اليسوعيين فيها. اجتاز الرَّحالة قسماً من سهل بيروت، وسار بحذاء الساحل شمالاً، إلى نهر الكلب، فلفته منظر بساتين التوت المحاذية للشاطئ ، والمروية بمياه النهر التي تُجر إليها بواسطة الأقنية، ثم انعطف يميناً، فاجتاز جسراً فوق النهر متوسط العرض صعوداً، وبلغ ديراً للرهبان الموارنة يدعى دير اللويزة، وإلى جواره دير لليسوعيين في عينطورة، فهبط نحو الدير نزولاً، ومرّ في واد ضيق مزروع بأشجار التوت والتين والكرمة.

ولما وصل الرَّحالة إلى عينطورة، أحسن رئيس دير القرية وفادته، واستضافه عنده مدة يومين، لينتقل، بعد ذلك، من عينطور في قرية عجلتون المستقرة على قمة أحد جبال كسروان، وسكانها مسيحيون، «متحدون فيما بينهم»[٣].

غادر دو باجيس عجلون، بعد أن أمضى فيها يومين ضيفاً على شيخها، واتجه نحو قرية المفرا (Mafra) المتناثرة منازلها على سفح هضبة عالية، تكسوها الثلوج مدة ستة أشهر في السنة، حاملاً رسالة تعريف وتوصية من

(١) De Pagès, Voyage, p. 227.
(٢) Ibid., p. 227.
(٣) Ibid., p. 289.

شيخ عجلتون إلى كاهن القرية. وبعد أن بات ليلته في المفرا، محاطاً بالرعاية والحفاوة، واصل الرَّحالة طريقه في بساتين التوت، وحقول في أعالي الهضاب زُرعت سفوحها بمختلف أنواع الحبوب، فصادف في طريقه آثار برج مربع يعود إلى زمن السلوقيين، شُيِّد بحجارة ضخمة، وفي أعلى مدخله كتابات باللغة اليونانية تشير إلى تاريخ بنائه. ويشير دو باجيس إلى أن هذا البرج كان معبداً لأم الآلهة في عصر أحد البطالسة، وأن سكان البلاد يطلقون عليه اسم «الفقرا»، ويزعمون أن سليمان الحكيم اقتطع شجر الأرز من هذا المكان، واستخدها في تشييد جزء من الهيكل[١].

انعطف الرَّحالة بعد ذلك شرقاً، فاجتاز جبالاً مختلفة الارتفاعات تتدفق منها شلالات غزيرة، وتخترقها أودية وسهول وأقنية لجر المياه وقناطر وجسور، وبات ليلة في ضيافة رئيس دير قرية حراجل الجميلة المشهورة بوفرة أشجار التوت.

وفي صبيحة اليوم التالي، غادر الرَّحالة حراجل، وعبر أراضي رملية وأخرى صخرية، فوصل إلى قرية بزمّار حيث يقيم بطريرك الأرمن، وفيها كنيسة حسنة البناء، ثم سار في أرض صعبة المسالك، وصعد جبلاً يطل على البحر، في أسفله قرية أغوسطا، وعلى يمينها قرية غزير، يقيم في القرية الأولى بعض المشايخ الإقطاعيين وبطريرك الموارنة[٢].

وبخروجه من غزير، عبر دو باجيس جبلاً آخر متوجهاً صوب دير حريصا، الواقع على قمة جبل على مقربة من البحر، وهبط منه بمحاذاة الجبل إلى عينطورة، ومنها إلى الساحل، فوصل بيروت بعد أن أمضى عشرة أيام في كسروان[٣].

(١) De Pagès, Voyage, p. 232-236.
(٢) Ibid., p. 237-239.
(٣) Ibid., p. 239.

ومن بيروت انتقل دو باجيس إلى صيدا، حيث أحاطه القنصل الفرنسي بالترحاب واستضافه في منزله، فأعجب بجمال طبيعة مدينة صيدا ومنطقتها: فأراضيها كثيرة الخضرة، وحقولها شاسعة، وبساتينها على شاكلة غابات كثيفة من مختلف أنواع الأشجار المثمرة، ولا سيما الكروم الممتدة وسع النظر. شاهد دو لاجيس، في مدينة صيدا، قلعة سان لويس الصليبية، ومسجداً كبيراً في آخره شباك يمكن من خلاله مشاهدة تمثال مبنى يمثِّل حرم النبي إبراهيم القائم في مكة، كما لفتته مغاور محفورة في الصخور على التلال المجاورة للمدينة، كانت مقابر سكان صيدون القديمة[١].

من صيدا، عاد الرحالة إلى بيروت، ليتوجه منها جنوباً بشرق إلى عبيه، فعبر سهل بيروت المزروع بأشجار التوت، واجتاز غابة صنوبر فيها مخيم للعرب، ثم قرية الشويفات المزروعة بأشجار الزيتون، ليبلغ قرية تدعى عرمون فيها قصر الأمير الحاكم، ومنها وصل إلى قرية عبيه.

يشيد دو باجيس بطبيعة عبية، فموقعها «من أجمل المواقع التي رأيتها، تبعد عن البحر حوالى ثلاثة عقود، وعن نهر الدامور عقد واحد، وهي على عقدين من قرية دير القمر، مركز منطقة الدروز. شُيِّدت عبية على هضبة تألفت من قمم جبال ثلاث، وهي تشرف من موقعها على صيدا وبيروت»[٢].

غادر الرحالة عبية إلى دير القذمر، الواقعة على سفح الجبل المطل على نهر الدامور، فوجد فيها قصراً للأمير الحاكم، وكنائس جميلة وأبنية متناسقة، أما سكان عبية، فنصفهم من الدروز، ونصفهم الآخر من الموارنة والكاثوليك الشرقيين وعدد قليل من الطوائف الشرقية الأخرى، «ويعود ذلك إلى الآباء الكبوشيين الذين عملوا على ضم ثلاثة أرباع سكان هذه المنطقة إلى [كنيسة روما»[٣].

---

(١) De Pagès, Voyage, p. 239-241.

(٢) Ibid., p. 248.

(٣) Ibid., p. 249.

ويذكر دو باجيس أنه زار، أثناء رحلته إلى الجبل، اثنتي عشرة قرية، منها قرية رشميَّة الواقعة على سفح جبل مطل على نهر الدامور، وقرية كفرذبيان، ورجع إلى بيروت. ثم ما لبث أن قصد الجبل، مجدداً، لإلقاء تحية الوداع على معارفه في المفرا وعجلتون، وزار قرية بسكنتا، ثم قرية بقاع طوطا الواقعة على مقربة من فقرا حيث شاهد ديراً للراهبات الكاثوليك الشرقيين، ثم عاد أدراجه إلى بيروت، ومنها إلى عكا ليبحر على متن إحدى بوارج مرسيليا إلى بلاده.

ثانياً ـ الطبيعة والمناخ:

ومما لفت الرَّحالة دو باجيس جبال لبنان الشامخة. فقد انتصب الجبل أمامه، مذ وطأت قدماه الأراضي اللبنانية، وهو قادم من دمشق، ورأى أن الجبال العالية ترسم أفق كل منظر من المناظر. فهناك قرية على كل مرتفع يخترقها سيل يهبط من الأعالي على صورة شلال. وهناك عرائش الكرمة، وغابات التوت الكثيفة التي تصل القرى الجبلية بالبحر. ومع ذلك، فإن الأودية الموحشة العارية المكوّنة من صخور، أو أحجار متدلية، الواحدة تلو الأخرى، أثارت دهشة الرَّحالة، وألهبت أحاسيسه جراء هذه المناظر الغريبة غير المألوفة.

لقد كان دو باجيس، منذ وصوله إلى لبنان، مشدوداً إلى الجبال. كان يبحث عنها من بعيد، وإذا كان قد تسلقها، فإنما كان يدفعه الشوق للوصول إلى قممها. كما أثارت اهتمامه وفرة المياه، فأنّى اتجه في الجبل، أو في المدينة، فإن منظر الماء كان يثير فيه ألف دهشة ودهشة، فوصف الماء كما وصفها نرفال Nérval في امتزاجها في الطبيعة[١].

---

(١) Nérval, voyage en Orient, vol. I, p. 324, vol. 2, p. 9, 14.

ويذكر الرَّحالة أنه سُحر بطيب مناخ لبنان، فيقول: «لقد جلت بلداناً ومناخات متنوعة، لكنني لم أقع على أفضل من مناخ هذه البلاد». ففي لبنان يتنوع المناخ، ويختلف صيفاً وشتاء، وساحلاً وجبلاً، فتتنوع المزروعات؛ فهناك القمح، والشعير، والبامية، وشجر السنديان، والصنوبر، والجميز، والكرمة، والتين، والتوت، والتفاح، والعناب، والتين، والصبار، والليمون، وقصب السكر، وبعض أشجار أوروبا، وكذلك مزروعات الجنائن من الخضار المتنوعة.

وينعكس تنوع المناخ على عطاء الطبيعة؛ فهناك الكثير من الحبوب تنبت خلال الشتاء، فيما بعض الشجر عار من الورق. ومع ذلك، فإن الحدائق تعج بالزهور والخضرة المزروعة حديثاً، والتي يُجنى نتاجها من تشرين الثاني حتى بداية فصل الصيف[(١)].

ثالثاً ـ سكان جبل لبنان وبلاد الشوف:

في مذكرات الرَّحالة دو باجيس معلومات قيمة حول تركيبة السكان في جبل لبنان وانتماءاتهم الدينية وتوزعهم الجغرافي، وعاداتهم وتقاليدهم. فيذكر أن الموارنة والدروز سكنوا المناطق الجبلية: سكن الموارنة الأودية الوسطى والسلاسل الجبلية الأكثر ارتفاعاً من جبل لبنان، فيما التجأ الدروز إلى المناطق المنعزلة في أعالي الجبال[(٢)].

ويلمح دو باجيس إلى أن الموارنة كانوا يشكلون، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، نصف مجمل سكان منطقة كسروان والمناطق الجبلية

(١) De Pagès, Voyage, p. 242.

(٢) جاراه في ذلك الرَّحالة لامارتين.

Lamartin. Voyage en Orient, Librairie Hachette, Paris, 1855, Vol. 2, p. 345, 355.

المجاورة لها، ويؤكد على ذلك ما نقله لامارتين عن الرَّحالة فولني الذي زار سوريا ولبنان في الفترة ذاتها، فأشار إلى أن عدد السكان الموارنة، في عام ١٧٨٤م، قارب مابة وعشرين ألف نسمة، بينما ذكر لامارتين، حين زار لبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، أن عدد الموارنة زاد على مايتي ألف نسمة[(١)]. أما النصف الثاني من سكان هذه المناطق، فيتوزعون على مختلف الطوائف المسيحية من غير الموارنة، ويُضاف إلى هؤلاء بعض الدروز وعدد قليل من أبناء الطوائف الإسلامية الأخرى.

في بلاد الشوف ـ وتطلق على الجبال الواقعة جنوب نهر الدامور، رغم أن دير القمر تقع في الجهة الشمالية من النهر ـ يتقاسم المسيحيون والدروز المساحة السكانية مناصفة فيما بينهم. وقلما توجد قرية شوفية ينتمي سكانها حصراً إلى إحدى هاتين الطائفتين، باستثناء وجود إسلامي في دير القمر[(٢)].

يشكل الموارنة أكثرية مسيحيي جبل الشوف، ويليهم عدداً الكاثوليك الشرقيون، بما يوازي ثلث عدد المسيحيين، فيما الطوائف المسيحية الأخرى لا أهمية لها، أو تأثير في ديمغرافية جبل الشوف[(٣)].

أما الدروز، أو النصف الآخر من سكان جبل الشوف، وعددهم، كما أشار الرَّحالة دو جيرامب، مابة ألف نسمة، فينقسمون، حسب مستوى معارفهم الدينية، إلى عامَّة يجهلون المعرفة (الجهَّال)، وإلى خاصَّة يمتلكون

(١) Ibid., p. 344، كما توافقت المعلومات التي تضمنتها مذكرات الرَّحالة دو جيرامب، الذي زار لبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، مع ما ذكره لامارتين حول عدد موارنة جبل لبنان.

Marie Joseph de Géramb, Pélerinage à et au mont Sinai en 1831, 1832, Librairie d'Adrien Leclerc, Paris, 1858, tome 2, p. 340, 245.

(٢) De Pagès, Voyage, p. 249؛ طنوس الشدياق، كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٧٠م، م١، ١٠.

(٣) De Pagès, Voyage, p. 252.

المعرفة ويُعرفون بالعقَّال، وهم من الرجال والنساء، ويعنون بنشر تعاليم الدين، وشيخ العقل هو السيّد المطلق عند الدروز[١].

يخصص دو باجيس جانباً من حديثه عن الدروز لإبراز صورة رجل العقل، فيذكر أن هذا اللقب لا ينتقل بالوراثة، بل يكتسب بعد حياة بسيطة ونزيهة ومتعبدة، قوامها الورع والزهد والتواضع. فرجل العقل يرتدي ثوباً أسود، أو أبيض وأسود، ويضع عقالاً أبيض معقوداً بشكل بسيط، وهو مسالم لا يستخدم السلاح إلا للذود عن الدين. ويتابع دو باجيس حديثه عن مناقب رجل العقل، فيقول بأنه لا يأكل في منازل يُشك في سمعة أصحابها، ولا يقبل هدية إلا ممن ثبُتت نزاهته. أما عامة الدروز فيتصفون باللطافة والشجاعة.

يجتمع العقال للصلاة في دُور مخصصة للعبادة، تعرف بالخلوات، تُشاد، عادة، على المرتفعات القريبة من القرى، وتُقام الصلاة فيها لأسابيع عدة، ويُمنع المتطفلون من الاقتراب من الخلوات خلال أيام التعبد[٢].

تكثر أديرة الرهبان والراهبات في المناطق المسيحية. والسكان، بالرغم من كونهم كاثوليك، فإن طقوسهم الدينية تختلف عن طقوس اللاتين، فيُرتل القداس بالسريانية، وتُقدَّم الموعظة، ويُقرأ الإنجيل بصوت عال باللغة العربية. كما يمكن للسكان الكاثوليك الترسُّم بعد الزواج، لكن للرجل الواحد منهم زوجة واحدة، وقليلهم عازب[٣].

يمارس المسيحيون شعائرهم الدينية بحرية تامة، وخصوصاً في منطقة كسروان وجوارها، لأن طبيعتها الجغرافية الصعبة المسالك تجعل منها الملجأ

(١) De Pagès, Voyage, p. 252.
(٢) Ibid., p. 252.
(٣) Ibid., p. 231.

الوحيد والآمن للمسيحيين في بلاد السلطنة. لذا، استقر فيها رؤساء الطوائف المسيحيون، فأقام بطريرك الموارنة في غزير، وبطريرك الأرمن في بزمَّار، فضلاً عن بطريرك الكاثوليك الشرقيين. وقد أسهم ذلك، حسب الرَّحالة، في جعل الكسروانيين متدينين، والرذائل في بلادهم نادرة الوجود[١].

وسكان كسروان بسطاء طيبون، لا يقيمون في تجمعات سكانية بل في منازل متناثرة في أعالي الجبال وفي منحدراتها. وهم متَّحدون فيما بينهم، شجعان متشبِّثون بحريتهم واستقلالهم، لبعدهم عن متناول السلطة. ومع ذلك، فإنهم يؤدون الضرائب للأمير الكبير، دون تردّد، بالرغم من مناعة تحصيناتهم الطبيعية التي تمكنهم من التمرد والعصيان إذا ما أرادوا.

ورجال الدين المسيحيون في كسروان فقراء عموماً، وهم يعملون في الأرض لتأمين معيشتهم ومعيشة أسرهم. ومع أن هؤلاء الكهنة، بأكثريتهم، لا يفقهون اللاهوت، وليس في حوزتهم سوى الكتاب المقدس وبعض دروس الدين، فإنهم صادقون في إيمانهم ويُوحون بالاحترام والتقدير[٢].

ويخلص دو باجيس إلى أنه في تجواله الطويل تعرف إلى جماعات وأقوام كثيرة، ولكنه لم يجد عند هؤلاء جميعاً ما يماثل نقاوة عادات العرب، ولا طيبة العربي وسلامة طويته «وهذا ما يجعلني مسانداً لحرية وقوة وعادات هنود أميركا، أو العرب. لقد بدت لي مبادئ هؤلاء أفضل من جميع مبادئ الآخرين، كما بدت لي طراوة طباع سكان الهند وطيبة قلوب هذه الشعوب التي تعيش في مناخ جميل، وعلى تربة خصبة، تستحق بعض التمييز عن عادات الأوروبيين وطباعهم»[٣].

(١) De Pagès, Voyage, p. 232.
(٢) Ibid., p. 231.
(٣) Ibid., p. 255.

رابعاً ـ العلاقات الأسرية:

لاحظ دو باجيس أن القرى اللبنانية خلايا حية، مؤلفة من أسر مستقلة معروفة الواحدة من الأخرى، وتجمعها صلة القربى في أغلب الأحيان. فالأسرة اللبنانية، بما هي إطار اجتماعي شبه مغلق، تعيش حالة اكتفاء ذاتي اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً. فهي تمتلك بيتاً، عادة ما يتكوَّن من شبه رواق نظيف يُستعمل للجلوس وغرفة للنوم. أما أثاث البيت فبسيط، سهل اللف والنقل، وإلى جانب البيت حديقة تنتج قليلاً من كل شيء، فضلاً عن مكان متواضع لتربية الحيوانات الأليفة.

يقوم الأب، رب الأسرة، بتنظيم العمل العائلي، وبه يتعلق صون اقتصاد العائلة ومؤونتها، يعاونه في ذلك أولاده الذكور الذين يكرسون أنفسهم وقدراتهم لذلك، فيما تعنى الأم بتدبير شؤون المنزل، وتدرِّب فتياتها على هذه «الوظيفة الأنثوية»، بالإضافة إلى رعاية الحيوانات الداجنة. ففي مؤسسة المنزل تتكامل مهام أفراد العائلة، بحيث يؤدي كل واحد منهم الواجبات المنوطة به بإخلاص واندفاع تامَّين.

في حال غياب الرجل عن المنزل، تحل المرأة مكانه بتدبر الأمور ومواجهة مقتضيات الواجبات الاجتماعية العادية والطارئة، فيذكر دو باجيس[1] أنه قصد دار كاهن قرية المفرا الكسروانية، حاملاً رسالة توصية إلى الكاهن من شيخ قرية عجلتون، فلم يجد في المنزل سوى امرأة حاملاً في أشهرها الأخيرة. ويردف الرَّحالة بأنه على الرغم من أن هذه السيدة كانت منهمكة برعاية أطفالها الثلاثة، وعيناها، في الوقت نفسه، ترقب الموقد حيث تقوم بتحضير بعض قطع اليقطين، فقد استقبلته بحفاوة وقدمت له ما تيسر من طعام قوامه البيض واللبن والخبز المرقوق، ثم استأذنته لمتابعة العناية بأطفالها وتدبير شؤون المنزل، بانتظار عودة زوجها من الحقل.

(١) De Pagès, Voyage, p. 231-233.

تحكم العلاقات بين الأسر الريفية مجموعة قيم وقواعد سلوكية مشتركة موروثة، تفسر نمط عيش الأسرة وعلاقاتها داخل الجماعة في القرية. فالقرية في لبنان القرن الثامن عشر، بما هي مجموعة مغلقة مؤلفة من عائلة واحدة أو عدة عائلات ـ وربما لا تزال كذلك في كثير من الأرياف اللبنانية ـ هي كيان اجتماعي أكثر من كونها كياناً اقتصادياً. فليس ثمة تمايز أساسي في التربية بين فئات المجتمع الريفي المختلفة. فأنماط العيش هي نفسها لدى عامة الناس وخاصتهم، وإن كانت العائلة المنتمية إلى العامة تكتفي بالقليل، وتأكل مما تجود به أرضها، خلافاً للعائلات الأرستقراطية التي تعيش حياة بذخ وسخاء.

في لبنان، كما في غالبية المناطق الآسيوية، ولا سيما في الأرياف، تعيش المرأة من أجل رجل واحد، ويخضع الزواج لركام متوارث من العادات والتقاليد التي تحتِّم على الزوجين الرضوخ لها.

يتزوج الرجال من ضمن العائلة عموماً بالاستنساب ودون رؤية زوجاتهم، ويندر أن تتزوج بنت من غير الأقارب. ومع ذلك، لم يقع الرَّحالة في الأرياف التي زارها، أو أقام فيها، على حالات خلاف بين الأزواج تتجاوز ما هو مألوف في أوروبا. ويحيل السبب في ذلك إلى أن الوعد بالزواج يتعاهد عليه أولياء الطرفين في سن مبكر من عمر زوجي المستقبل، قد يعود إلى سن الثالثة أو الرابعة، وربما قبل ذلك أيضاً، مما يوفر للزوجين «العتيدين» الفرصة كي يتعارفان عن كثب، ويطَّلع كل منهما على مزاج الآخر، فيألفه مع تقدم الزمن. ومنذ البداية، يفرض الرجل سيطرته على المنزل الزوجي، بما تمنحه الطبيعة من قوة، وذهنية المجتمع من امتياز، فيما تتسلح المرأة بما منَّت عليها الطبيعة من رقة ودهاء[1].

لا يمضي الرجل وقتاً طويلاً في غرفة زوجته، ويتناول طعامه منفرداً دون

(١) De Pagès, Voyage, p. 243.

مشاركة أي من أفراد الأسرة، بما فيهم الزوجة التي تكون، وقتذاك، منهمكة بتحضير متطلبات السفرة لزوجها. ومع ذلك، فإن للأطفال اعتباراً كبيراً عند الأبوين اللذين يتخليان عن اسميهما، بعد الزواج، ويفاخران بحمل اسم البكر من أولادهما الذكور[١].

وبسبب هذا التعارف المحصور بالأقارب المباشرين، يعيش اللبنانيين حياة حميمة، في دوائر بيئية مغلقة بعيدة عن النشاطات الاجتماعية المنفتحة، وهذا ما يترك أثراً على فضولهم، بحيث تبهرهم أقل الأشياء، وتشكل لديهم مادة للحديث. ففي مجتمع مغلق كهذا، تنتقل الأخبار من فم إلى فم وتُروَّج بسرعة. ولهذا، ترى اللبنانيين، ولا سيما الجبليين منهم، متعلقين بقضية العرض، فهو مقدس عندهم، لا يجوز المساس به من قريب أو بعيد. ومن العادات أن يُعاب على أُم العروس إن لم يحمل إليها صهرها صبيحة ليلة الدخلة علامة فضيلة ابنتها، كما أن البنت التي تحمل سفاحاً تدفع حياتها ثمناً على يد أحد أفراد أسرتها. لذلك، يبدي القرويون اهتماماً خاصاً في المحافظة على النساء، ومراقبة سلوكهن ناتجة عن ذلك.

ويشيد الرَّحالة دو باجيس بحسن الضيافة التي لقيها من السكان. فالتحيات والخدمات وعلاقات الأدب شواهد على الحفاوة التي استقبل بها. فلقد بادره المارة بالتحية، أو تسارعوا ليدلوه على الطريق، أو لتقديم المأكل أو المشرب إليه. من ذلك ما يرويه الرَّحالة حين بدأ بتسلق جبال لبنان، فيقول: «لقيت الترحاب في هذه الناحية، وأكلت من أطعمتها المتمثلة بالألبان والخبز المرقوق على الصاج»، و«أمضيت وقتي في منازل عدد من المشايخ الذين كانوا يحيونني معانقين».

في المجالس العامة، كما في الحياة الاجتماعية، يتم فصل النساء عن

(١) De Pagès, Voyage, p. 245.

الرجال مراعاة للحشمة، ووقاية لكلا الجنسين. كما يُمنع على الصبيان، بعد سن الرابعة عشرة، الاختلاط بالإناث من أفراد أسرهم، وهذا ما يفسر، في نظر الرَّحالة الفرنسي، غياب البشاشة عن وجوه الشبان التي تولدها الرغبة في إثارة إعجاب الآخر، وطغيان ملامح الوقار في هيئات الشبيبة بالعفّ عن اللحى والشوارب[١]، وفي أحاديثهم، وتزايد هذه الملامح مع تقدم العمر.

وفي ذلك، يقول دو باجيس[٢]: «**من مظاهر وقار القروي اللبناني، عادة، الإقلال من الكلام، إذ تمنحه لحظات التدخين، وتمرير اليد على اللحية، وقتاً لتحضير السؤال أو الجواب بإيجاز وبلاغة، تساعده في ذلك لغته العربية، بما تمتلك من قدرة على التعبير الأبسط والأفصح بين اللغات التي سمعتها في تجوالي**». ويتوافق كلام دو باجيس في وقار الرجل الشرقي، إلى حد بعيد، مع ما ذكره كل من معاصره **فولني**، الذي زار المنطقة في الفترة عينها، **ونرفال** المتأخر عنه[٣].

ويضيف دو باجيس: ومن مظاهر وقار الرجال واحترامهم للمرأة، ندرة الحديث عن النساء في مجالسهم، كما لا يرنوا الرجال بأنظارهم إلى النساء في دروب القرية وأزقتها، أو عند مرورهم على مقربة من أماكن تواجدهن التي تعتبر محرمة عليهم. ويُعاب على الرجل إلقاء التحية على المرأة، لا على سبيل الاحتقار، كما يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى، بل تعبيراً عن تقديره لها[٤].

(١) وصف لامارتين عادة إطالة اللحى في لبنان، متخذاً نموذجاً لها لحية الأمير بشير الشهابي، فقال عنها، أنها: «رمادية ومتموجة»، كما ذكر بأن لأكثر اللبنانيين شوارب «تغطي شفاههم وتنزل من كل جانب من أفواهم». Lamartin, Voyage en Orient, vol. I, p. 283, 323.

(٢) De Pagès, Voyage, p. 246.

(٣) Nérval, Voyage en Orient, vol. 2, p. 38.

(٤) De Pagès, op. dit., p. 246.

خامساً ـ العلاقات الإقطاعية:

يتألف مجتمع جبل لبنان ـ حسب ما ذكره دو باجيس ـ من الفئات التالية: الأمراء والمشايخ، ويليهم كبار الفلاحين. وفقراء الفلاحين، وتقديم الطاعة للأمير، أو للمشايخ الإقطاعيين، أمر واجب. ففي كل قرية سيد إقطاعي يتم اختياره ـ حسب التقاليد ـ من بين أبناء العائلات العريقة، يتولى السلطة العليا في القرية، مثل القضاء وفرض الضرائب والرسوم الأميرية على الأراضي، وجبايتها يدفعها أتاوات للأمير الذي يترك له قسماً منها كي يتمكّن من توفير حياة كريمة له ولأفراد أسرته[١].

ومن المألوف أن يتبادل الفلاح مع الشيخ الإقطاعي أطراف الحديث، وقد يشترك معه في المأكل والعمل والتدخين. لذلك اختلط الأمر على الرَّحالة أحياناً، ووجد صعوبة في التمييز بين الشيخ الإقطاعي والفلاح، إذ لم يكن ثمة فرق في الظاهر بين الرجلين إلا في جمال السلاح وأصالة الخيل.

وللمشايخ الإقطاعيين حيازة الأرض التي يعمل فيها الفلاحون لصالح أسيادهم، لقاء أجور لا تتلاءم عادة مع طبيعة العمل وما يبذلونه من كد وتعب. على أنه لا يجوز للمقاطعجيين، أو للأمراء من غير الحكام، أن يكلفوا الفلاحين بمهام تختلف نوعاً عن طبيعة العمل في الأرض.

وقلما عرفت العلاقات بين المقاطعجية حالة من الود والصفاء، ومرد ذلك، أساساً، إلى التنافس الشديد فيما بينهم على كسب ود الأمير الكبير، الذي يعمل بدوره حيناً، وبإيعاز من الوالي العثماني أحياناً، على إشعال الفتن بين المشايخ الإقطاعيين على قاعدة سياسة فرق تسد، كي لا يتَّحدوا ضده، أو يشكلوا خطراً على سلطته ونفوذه. ويمثل الرَّحالة على ذلك بحالة مشايخ آل الخازن، حكام كسروان، الذين يملكون أراض شاسعة وآهلة بالسكان،

(١) Ibid., p. 241.

لكنهم منقسمون على بعضهم، «وهذا ما يمنعهم من القيام بأي عمل معاد للحكومة»[١].

يفصل الشيخ الإقطاعي في الخلافات والنزاعات بالتراضي والتوافق، كي لا تواجه القوة بالقوة، وكي لا يعمد أحدهم إلى أن يأخذ ما يعتبره حقاً له بطعنة خنجر، أو سكين، أو برصاصة بندقية أو مسدس، إذ قلما يبتعد الريفي عن قريته دون أن يتمنطق بسلاح[٢]؛ فالسلاح مظهر وقار وشجاعة وثقة بالنفس، عدا عن كونه وسيلة للدفاع والهجوم. والجبليون أشداء، مسكونون بروح البطولة والحرب. ولعل قساوة الطقس أكسبت أهل الجبال مناعة وقدرة على المقاومة، كما أن القوة وعزة النفس تبثان فيهم روح البطولة والحرب. ولذلك، نراهم جريئين مقدامين من أكبرهم إلى أصغرهم، فهم ينتظرون أول مناسبة لعرض شجاعتهم، وشعارهم أن يكونوا دائماً مستعدين لتلبية نداء الجيران، أو الإخوان في الدين، لكنهم لا يتورعون عن الإقتتال لأتفه الأسباب.

وفي حال عدم اتفاق المتقاضين، فمن حقهم أن يحتكموا إلى الأمير الكبير الذي تغطي سلطته جميع مناطق الجبل، باستثناء ممتلكات آل الخازن في كسروان، وممتلكات المقاطعجيين التابعين لهم.

تتصف الأحكام، عموماً، بأنها ليست قاسية، إذا يُكتفى، أحياناً، بإرسال الجند إلى منزل الشخص المُدان لنهبه أو حرقه، أو إتلاف قسم من مزروعاته، ولا سيما عندما يصعب إلقاء القبض عليه بسبب لجوئه مستجيراً بحمى أمير، أو شيخ إقطاعي مجاور، خشية وقوعه في قبضة الأمير الكبير، أو تعرضه للقتل ثأراً على يد أحد أفراد عائلة الضحية[٣].

(١) De Pagès, Voyage, p. 249-250.

(٢) Ibid., p. 231. ولمزيد من المعلومات عن أنواع أسلحة أهل الجبل في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، راجع ما ذكره لامارتين. Lamartin, Voyage, vol. I, p. 284, 324.

(٣) De Pagès, op. cit., p. 250-251.

سادساً ـ مشهد من العادات المشتركة بين الدروز والموارنة:

وثمة مشهد يؤشر على حالة العيش المشترك بين الدروز والموارنة، ألمع إليه دو باجيس في مذكراته. ففي أثناء إقامته في بلدة عبيه، وسكانها من الدروز والمسيحيين، يذكر الرَّحالة أنه حضر مراسم مأتمين: أحدهما لدرزي والآخر لماروني، شارك فيهما جميع أبناء البلدة من دروز ومسيحيين، فوصف المأتمين وصفاً دقيقاً، وصرَّح بأنه لولا الفارق الطقوسي الظاهر في الصلاة على الميت بين الدروز والموارنة لما استطاع أن يميّز بين عادات الموارنة والدروز وسلوكاتهم الاجتماعية في مثل هذه المناسبات. ويضيف دو باجيس، إلى انطباعاته الإيجابية عن مظاهر العيش المشترك في الجبل، ما لاحظه من احترام كل جماعة لدُور عبادة الجماعات الأخرى. من ذلك: حرص الدروز على زيارة الكنائس في الأعياد والمناسبات الاجتماعية الأخرى، مبدياً إعجابه بعلاقات حسن الجوار والتعايش الدرزي ـ المسيحي[(١)].

خاتمة:

إن ما وقعنا عليه في مذكرات الرَّحالة دو باجيس من ملامح الحياة الاجتماعية في جبل لبنان تروي جانباً من سيرة أهل الجبل اللبنانيين، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر؛ فقد سلّط الضوء على أنماط عيش أهل الجبل وعلى اهتماماتهم، منوهاً بتعلق اللبناني بأرضه وعمله الدؤوب لاستثمارها وتجميلها، وعلى أثر الأرض، بموقعها وتضاريسها وخصبها وجدبها، في طرائق المعاش وعقد العلاقات الاجتماعية.

ولم تغب الحياة الدينية في لبنان عن بال دو باجيس، فعرض للعقائد

(١) De Pagès, p. 249.

والطقوس والعبادات، محاولاً النفاذ منها إلى صلب المعتقدات والمقارنة بينها والتأكيد على ما هو مشترك فيها، وبخاصة بين الدروز والمسيحيين، ما يجعل من هذه المذكرات مصدراً رئيساً لدراسة التاريخ الاجتماعي لجبل لبنان في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

ومما يزيد من القيمة التاريخية لمذكرات دو باجيس أنها تلفت إلى ضرورة الاعتماد في كتابة تاريخ لبنان على النص غير المكتوب للجماعات اللبنانية، بما هو تاريخ صادق وأمين عن واقع حضاري معاش ـ أي العودة إلى التقاليد والعادات والأعراف والمعتقدات والطقوس وإلى نظام القِيم الذي يختزنه اللاوعي الجمعي للذاكرة الشعبية ـ تعكسها مجمل القِيم الأخلاقية والاجتماعية، وتظهرها جلية البيئة الاجتماعية، والتربية الأسرية، ومناسبات الزواج والأعياد والوفيات، ونظام السكن، والأزياء، وغير ذلك، بحيث يعجز المرء عن التمييز بين سلوكات الناس، أفراداً وجماعات، على اختلاف معتقداتهم، من هنا جاءت فرادة رحلة دو باجيس.

كارستن نيبوهر، أمير الرحّالين المحقّقين ١٧٣٣ ـ ١٨١٥
«مشاهدات في سوريا وبخاصّة في جبل لبنان»

الخوري ناصر الجميّل (*)

مقدّمة

كارستن نيبوهر اسمٌ كبير في عالم الاستشراق؛ نعود إليه لأنّ البعثة التي قادها أطلقت سيل البعثات العلميّة في بلاد العرب؛ وإنّ الكمّ من الكتابات التي أتى بها في خلال رحلته، وبخاصّة في برسيبوليس، ستهيّء الطريق أمام الكتابة المسماريّة. أسماء كبيرة في عالم الرحّالين سارت بعده واستوحت من خبرته، نذكر منهم: السويسري جوهان لودفيغ **بور كهاردت** (١٧٨٤ ـ ١٨١٧) Johann Ludwig BURCKHARDT، الذي مات في القاهرة في العام ١٨١٧، وتبقى مؤلفاته التي صدرت منذ العام ١٨٢٢، الدراسات الموضوعيّة الأولى لعادات عرب الصحراء وتقاليدهم وأمثالهم الشعبيّة. وبعده كرّت السبحة: الفرنسيّان ليون **دي لابورد** (١٨٠٧ ـ ١٨٦٩) Léon de LABORDE ولويس لينان **دي بلّفون** (١٧٩٩ـ١٨٨٣) Louis Linant de BELLEFONDS فيليسيان **دي سولسي** (١٨٠٧ـ١٨٨٠) Félicien de SAULCY، أوغست **سالزمان** (١٨٢٤ ـ ١٨٧٢) Auguste SALZMANN،

(*) أستاذ في كلية التربية، الجامعة اللبنانية.

ميلكيور دي فوغوي (١٨٢٩ ـ ١٩١٦) Melchior de VOGÜE، أرنست رينان Ernest RENAN، **كليرمون غانّو** (١٨٤٦ ـ ١٩٢٣) -CLERMONT GANNEAU، الذين تميّزوا في مجال دراسات اللغات الساميّة وعلم المسكوكات.

١ ـ الإطار العام للرحلة:

تندرج، إذاً، **رحلة** كارستن نيبوهر **إلى بلاد العرب وسائر البلدان المجاورة**، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، في إطار علم الاستشراق الذي نشأ ونما في أوروبا. وإنْ دلَّ هذا العلم على شيء فعلى اهتمام الغرب بلغات الشعوب المشرقيّة وبدياناته وبعاداته وبتراثه. وإذا كان الدافع الأساسي إلى علم الاستشراق دينيّاً في بداياته، من أجل التبحّر بلغات الكتاب المقدَّس والإفادة منها، فلم يطل الوقت حتى أخذ منحًى علميّاً وثقافيّاً وسياسيّاً. ولو بدا أحياناً أنّه غير بعيد عن الهوى والعداء للشعوب المشرقيّة ومقدّساتها فقد كان يفيض بمجمله بالإعجاب والحبّ تجاه المصريّين والفينيقيّين والعرب والفرس والأتراك وسائر الشعوب المشرقيّة. ومهما يكن من أمر، فإنَّ للاستشراق فضلاً كبيراً في التفاعل بين الحضارات وفي نشر النصوص القديمة والمحافظة عليها وفي إبراز فهارس المخطوطات والمعاجم إلى الوجود وفي جلاء دراسات جمّة في فقه اللغة والجغرافية والتاريخ وعادات الشعوب وفي تفعيل التبادل الثقافي والاقتصادي.

كان فرنسوا الأوّل قد أسّس المعهد الملكي لتدريس اللغات الشرقيّة: اليونانيّة، والعبريّة، والكلدانيّة والعربيّة، في العام ١٥٣٠. وتجلّى اهتمامه بالشرق بتوقيع نظام الامتيازات بينه وبين السلطان العثمانيّ سليمان القانوني، في العام ١٥٣٥. وما إن وعت فرنسا أهمّيّة الشرق حتى استفاقت أوروبا كلها على أهمّيّة الآداب الشرقيّة. ومنذ بداية القرن السابع عشر، أثارت حشريّةَ علماءِ الغرب مؤلفاتُ **جبرائيل الصهيوني الاهدني** في ترجمته للإدريسي إلى

اللاتينيّة، أوّلاً، ثمّ استتبعها بكتاب وصف فيه مدن المشرق (بلاد العرب، بغداد، البصرة، حلب، الشام، لبنان، مكّة، المدينة، القاهرة، طرابلس، عادات المشرق وتقاليده، لغاته، ودياناته). وأتى بعده مَن نشر فهارس مخطوطات المكتبة الفاتيكانيّة **كإبراهيم الحاقلاني، ويوسف شمعون السمعاني، وميخائيل الغزيري** في الأسكوريال... ومنذ ذلك الحين كرّت سبحة قواعد اللغات الشرقيّة وتربّى أجيال أوروبيّة منفتحة ومتحرّرة، همّها العلم والعلم وحده.

في هذا الجوّ الثقافي والنهضوي والموسوعي، المتعطّش إلى المعرفة، الذي كان يسود أوروبّا في عصر الأنوار، تأخذ رحلة كارستن نيبوهر كلّ أبعادها. **أمّا ملابستها فمرتبطة أساساً بما شهدته الدانمرك من تأسيس جمعيّات علميّة في خلال القرن الثامن عشر**، منها: **«الجمعيّة الآسيويّة الدانمركيّة»** (١٧٣٦)، و**«الجمعيّة العامّة للتجارة»** (١٧٤٧). **وفي هذا المجال أعدّ، يوحنا داود ميكايليس** (١٧١٧ـ١٧٩٠)، صاحب **«المكتبة الشرقيّة» وأستاذ اللغة السريانيّة والكلدانيّة، مجموعة أسئلة كان على العلماء الإجابة عليها في رحلاتهم والتنبّه لمدلولاتها، الأمر الذين ستتقيّد به «رحلة كارستن نيبوهر إلى بلاد العرب وسائر البلدان المجاورة»** Reisebeschreibung nach Arabien und anderen umliegenden Laedern، **التي ظهرت بطبعة أولى ألمانية في العام ١٧٧٢، في كوبنهاغن، تلتها طبعات عديدة في العام ١٧٧٤، ١٧٧٨، وباللغة الفرنسيّة في العام ١٧٨٠.**

٢ ـ هويّة الرحّالة:

هو ابن قس بروتستانتي، من ألمانيا الشرقيّة، ووالد المؤرّخ الشهير بارتولد نيبوهر. قُدِّر له أن يقود بعثة علميّة إلى الشرق الأوسط، تحت إشراف ملك الدانمرك فريدريك الخامس، قوامها خمسة علماء: **كريستيان**

دي هافن Christian de HAVEN، مستشرق (+ ١٧٦٣)، **بيتر فورسكول**، Peter FORSSKAL، اختصاصي في العلوم الطبيعيّة (+١٧٦٣)، **جورج باورنفايد** BAURENFEID، رسّام (+١٧٦٣)، **كرامر** KRAMER، طبيب (+١٧٦٤). يوم أبحر كارستن نيبوهر مع البعثة، من مرسيليا في الرابع من كانون الثاني ١٧٦١، كان له من العمر ٢٨ سنة. وحده سيعود حيّاً من هذه الرحلة التي ستدوم سبع سنوات ملأى بالخبرات القيّمة.

٣ ـ المحطات الرئيسيّة للرحلة:

كانت وجهةُ البعثة عاصمةَ السلطنة، **إستنبول** الجميلة، التي تمّ الوصول إليها في تموز؛ ومنها انتقل وفد العلماء إلى **الإسكندريّة**، في أيلول، فإلى **جدّة** في تشرين الأوّل ١٧٦٢. وبعد وفاة أعضاء البعثة، الواحد تلو الآخر، بوقت قصير من وصولهم إلى البلاد العربيّة، تابع نيبوهر الرحلة وحده: ها هو في **مسقط وشيراز**، **وبرسيبوليس**، **والبصرة**، **وبغداد**، **وحلب**. هو الذي سيضع أوّل خريطة لبلاد **اليمن**، راوياً زيارته **لقصر الإمام في صنعاء**، وهو الذي أرسل إلى أوروبا **نتائج أبحاث العالِم فورسكال**، وهو الذي سيصل إلى **بومباي في الهند** قبل أن يعود إلى بلاده مروراً بالخليج العربي والعراق وسوريّا وتركيّا...

فور وصول نيبوهر إلى **حلب**، في العام ١٧٦٦، انتقل إلى دار القنصل الهولندي DE MASSEYK، حيث التقى عنده القنصل الإنكليزي السيّد برستون PRESTON، وشخصيّات أوروبيّة موجودة هناك بحكم تعاطيها التجارة والسياسة أو الطب. وفي حلب تلقى أمراً من جلالة ملك الدانمرك بالإبحار إلى جزيرة قبرص للتفتيش عن كتابات فينيقيّة كان قد أشار إلى وجودها المستشرق ريتشارد بوكوك POCOCKE (١٧٠٤ ـ ١٧٦٥). وبعد انتهاء مهمّته في **لارنكا**، حيث الكتابات المذكورة توجّه إلى **يافا**، **فالقدس**،

فعكّا، فصيدا، فالشام، فطرابلس، فاللاذقيّة. ثمّ رجع إلى **حلب** من جديد، قبل أن يعود إلى بلاده حوالي العام ١٧٦٧، مروراً **بأضنة وكوجي، وكتاهية وبورصة فالقسطنطينيّة**.

٤ ـ بعض ملاحظات حول مشاهدات كارستن نيبوهر:

ظهرت الترجمة الفرنسيّة **لرحلة** نيبوهر إلى **بلاد العرب وإلى سائر البلدان المجاورة**، بمجلّدين، في العام ١٧٨٠. وفي الجزء الثاني يكرّس فصلاً يحمل العنوان التالي: «**مشاهدات في سوريا وبخاصّة في جبل لبنان**»، وهو يقع في الصفحات ٣٤٤ ـ ٣٨٩.

يبدو أنّ كارستن نيبوهر قد أطّلع على ما كتبه بعض الرحّالة الذين سبقوه إلى جبل لبنان، ونخصّ منهم: إيرونيموس دنديني، ودي لاروك، ودارفيو، وموندرل، وشولتز، وكورت، وبنيمين دي توديلا، وريكو. جميعهم أتوا على ذكر الموارنة والدروز. أمّا اللافت في رحلة نيبوهر فهو أنّه ضمّن هذا الفصل كلّ ما شهده هو وتوصّل إلى معرفته من مصادر عدّة أهمّها من المارونيّين **أنطون البيطار** الماروني، كاتم أسرار قنصل هولندا في حلب، السيّد **دو مسايك**، ومن عبّود بن شديد حبيش الذي التقاه في كوبنهاغن، في العام ١٧٧١، أي بعد عودته من جولته في بلاد المشرق.

٥ ـ أهمّ مواضيع رحلته في جبل لبنان:

تقسيم سوريا السياسي؛ لغاتها؛ دياناتها: المحمّديّة، واليهوديّة، والمسيحيّة (الموارنة، والملكيّون، والأرمن والأرثوذكس)؛ **والمتاولة؛ والدروز**: أمراؤهم، أصلهم، ديانتهم، مزاياهم (المروءة، الحذر، الضيافة، الجسارة، علاقتهم مع المحمّديّين والمسيحيّين، تقاليد الزواج، تقاليد المآتم، مضمون الديانة الدرزيّة، فرائض الدروز)، الحياة اليوميّة عند الدروز، نظام

الحكم، الدروز والأتراك، الأمير فخر الدين المعني، الشهابيّون، حكّامهم، أعيان الدروز، أمراء بيت أبي اللمع وبيت الشويفات، المناخ في بلاد الدروز والمنتوجات الزراعيّة؛ **دليل المقاطعات والقرى الدرزيّة؛ والموارنة**، علاقتهم بالدروز، المدرسة المارونيّة في روما، تفاعلهم مع الحضارة الغربيّة؛ **عائلاتهم**: آل حبيش، العواقرة، آل الخازن، الأمراء الموارنة الذين يتجوّلون في أوروبا، أمراء الزيتون، الضيافة المارونيّة؛ **دليل بلدات كسروان وجبيل والجبّة؛ وصف بيروت**؛ عهد الأمير منصور **والأمير يوسف**: طرد المتاولة من جبة المنيطرة، زواج الأمير يوسف، الأمير يوسف وضاهر العمر؛ **والنصيريّون**: أصل ديانتهم؛ **والإسماعيليّون**: بلادهم.

قدّم نيبوهر في القسم الأوّل وثائق عاديّة حول دين النصيريّين (العلويّين) وحول الدرزيّة. ثمّ انتقل إلى الكلام على جبل لبنان بقسميه الدرزي والماروني، ويعدّد ما يقرب الـ ١٦٠ قرية وبلدة، مشيراً إلى خصائص كلٍّ منها، وإلى عدد كنائسها وأديارها إذا وُجدت. ولاحظ المدّ الديمغرافي الماروني ونزوح العديدين منهم من شمال لبنان باتجاه كسروان والشوف، من جهة، وأبرز نظام التعايش بين المسيحيّين وغير المسيحيّين لا سيّما الدروز منهم.

* **بلاد الدروز**: انطلقت الرحلة من **دير القمر**، مقرّ الأمير الحاكم يومئذ، الأمير منصور شهاب، الذي، بعد أن حكم مع أخيه أحمد مدّة تسع سنوات، استولى على السلطة وحده، في العام ١٧٦٣. ومن دير القمر التي تقع في **ناحية المناصف**، توجّه إلى **بعقلين** وتذوّق عنبها الممتاز، فإلى **كفر قطرا ودير دوريت والناعمة** حيث يوجد ديران مارونيّان، تحت حماية آل نكد الدروز.

في ناحية **شوف الحيطي** يقيم شيخ العقل، وفي المختارة الشيخ علي جنبلاط ويدخل تحت حمايته أديار مشموشة وقيتولي. وفي **ناحية**

العرقوب يسكن آل يزبك الذين يساندون الأمير الحاكم الحالي. ثمّ يأتي على ذكر بلدة **جزّين**، ولم يُشِر إلاّ إلى مغارتها حيث حاصر الأتراك الأمير فخر الدين. بعد ذلك، ينتقل إلى **ناحية الشحّار**، **فإقليم الخرّوب** الذي توزّع سكّانه بين دروز ومسيحيّين ومحمّديّين. أمّا إقليم التفاح فغالبيّة سكّانه من المحمّديّين.

في دير المخلّص يقيم بطريرك الروم الكاثوليك، تيودوسيوس الخامس. وفي **ناحية الغرب**، القريبة من بيروت، هناك ثلاثة أديار تحت حماية آل شهاب.

* **بلاد الموارنة**: ثمّ ينتقل إلى **قاطع المتن** ويعدّد، عشوائيّاً، بلدات **برمّانا، وبسكنتا، والمتين، ودير مار يوحنا الشوير ومطبعته الشهيرة، فحمّانا، والشبانية، وعين داره.**

ويسترسل في وصف **كسروان**، المنطقة المارونيّة الرئيسة في خلال القرن الثامن عشر، حيث حلَّ المرسلون اللاتين: اليسوعيّون في عينطورة، والكبّوشيّون في غزير. أديارها كثيرة: **مار ضومط البوار، والصفرا، والغينة، والكفور، وعرمون، ومار عبدا، ودير سيّدة الحقلة**، حيث يسكن العبّاد والعابدات على السواء، بالرغم من قرار المجمع اللبناني، في العام ١٧٣٦، القاضي بفصل الأديار المزدوجة. ثمّ يذكر **وطى الجوز، ودلبتا، وساحل علما بكنائسها الثلاث، وبرج جونيه، وصربا، وزوق مكايل وزوق مصبح، ونهر الكلب وعينطورة، وحراش، ودرعون، وحريصا، وغوسطا، ومعراب، وعشقوت، وبزمّار**، مقر بطريرك الأرمن، **فعجلتون** وكنائسها الخمس.

ويشير نيبوهر إلى أنّه لا يزال يسكن، في منطقة الجرد، بعض الفلاحين المحمَّديِّين، في **حراجل وميروبا وبقعتوتة وكفرذبيان وفقرا.**

كيف كانت بيروت آنذاك؟ يصف نيبوهر مدينة بيروت ومرفأها الذي

تزدهر فيه تجارة الحرير والزيت والقطن وسلع أخرى ينتجها جبل لبنان بوفرة. فيها الجنائن الجميلة والعديدة، من جهة البر، وقلعتان صغيرتان على الصخر للدفاع عن المرفأ، من جهة البحر. ويشير نيبوهر أنَّ للمحمّديّين فيها مساجد كثيرة وأعيانهم يختارون بأنفسهم مفتييهم وقضاتهم. فيثبّتهم الأمير الحاكم فقط في مهامّهم بعد تسديد رسم تعيينهم. ويلفت الانتباه إلى أنّ الآغا أو حاكم بيروت لا يكون درزيّاً، بل يكون محمّديّاً مولوداً في هذه المدينة؛ غير أنّه يتقيّد تماماً بأوامر الأمير الدرزي. والموارنة هم الأقوى بين جميع الملل المسيحيّة في بيروت ولديهم كنيسة جميلة. بالإضافة إلى ذلك، يوجد أيضاً في هذه المدينة يونانيّون ونفر من اليهود. يبدو أنَّ هؤلاء غير مقبولين عند الدروز، لأنّه لا يوجد يهودي واحد في كل جبل لبنان، إنّما في بيروت فقط.

لكنَّ مرفأ صيدا يفوق مرفأ بيروت ازدهاراً بسبب كثرة التجار الأجانب الذين يعملون فيه، لقربه من مركز الأمير الحاكم.

وينتقل أخيراً إلى منطقة شمال لبنان التي تخضع لولاية طرابلس. ولم يأتِ على ذكر الأرز إلاّ عرضاً. يبدو أنّه لم يتمكّن من زيارته، في حين يعدّد أسماء المناطق الجبليّة كبشرّي، والحدث، وبان، وعينطورين، وقنّوبين، ودير مار أنطونيوس ـ قزحيّا، حيث يجد الشفاء كلّ من به خلل في عقله.

٦ ـ الجغرافيّة البشريّة:

يقتصر وصف كارستن نيبوهر على الدروز والموارنة. فالدروز ليسوا من أصل صليبيّ كما يزعم بوجيه دي سان بيار في كتابه، وكما كان شائعاً أيّام الأمير فخر الدين. والموارنة هم الذين يهتمّون بتربية أبنائهم وبناتهم، وهم المؤتمنون على أسرارهم. ولقد برز في هذا المجال الشيخ غندور سعد الخوري، كاخية الأمير يوسف شهاب، وغيره.

أمّا الموارنة فلهم أيضاً، بحسب نيبوهر، موقف معاد من الغرب، إذ أنّهم يرفضون أن يتأثّر أولادهم بالعادات الغربيّة؛ وهذا من بين الأسباب التي أسهمت بإقفال المدرسة المارونيّة الرومانية. وفي حين ذكر العائلات الدرزيّة المتنفّذة، كالجنبلاطيّين واليزبكيّين، أشار أيضاً بالمقابل إلى مشايخ الموارنة وأعيانهم كالحبيشيّين والعواقرة وآل الخازن.

وممّا يسترعي الانتباه وصفُهُ «لأمراء الزيتون» الموارنة الذين يسافرون إلى أوروبّا، بزيّهم المشرقيّ، «للشحادة»، بشكل منتظم، بحجّة أنّهم مضطهدون. وكان الأوروبيّون فضوليّين لرؤية أمير عربي أو أمير من جبل لبنان أو من فلسطين؛ فكان لا يحظى فقط بمقابلتهم بل كان يُدعى أيضاً لتناول الطعام على مائدتهم. بالإجمال كان الانطباعُ سلبيّاً تجاههم ولم يُسمَح لهم بالتجوال في كل المناطق. التقى نيبوهر واحداً منهم يدعى عبود بن شديد حبيش الذي كان يحمل وسام القديس لعازر، وهو الذي أمدّه بالمعلومات المتعلّقة بالجغرافية وبتاريخ الأُسَر الواردة في تقريره... كان هدف هؤلاء الأمراء، بعد رجوعهم إلى الوطن، اقتناء بستان زيتون!

وفي نهاية الفصل، يشير كارستن نيبوهر إلى أنّه تابع اهتمامه بجبل لبنان ويشير إلى التغيّرات الأساسيّة في القوى التي حدثت في جبّة المنيطرة وسائر المقاطعات التابعة لولاية طرابلس، إذ قام الأمير يوسف بإبعاد **آل حماده المتاولة** عن التزام تلك المناطق ومَرَدُّ ذلك إلى التربية المنفتحة على المسيحيّين كما على الدروز التي تلقّاها على يد الشيخ سعد الخوري ابن الشيخ غندور وحفيد الخوري صالح.

٧ ـ ملاحظات حول مشاهدات كارستن نيبوهر وقيمة رحلته:

من الصعب التأكّد ما إذا كان كارستن نيبوهر قد زار فعلاً كلّ القرى والدساكر الوعرة وكلّ الأديار والكنائس المنزوية في عمق الوديان أو المنتصبة على رؤوس الجبال، التي أتى على ذكرها في رحلته أو التي أتى على ذكرها

قبله رحّالة عديدون. وقد يغيب عن رحلته العربيّة بالتأكيد تسليط الضوء على وجوه وشخصيّات مشرقيّة بارزة. لكنّ وصفَه للأماكن الجغرافيّة، وعرضه للديانات الدرزيّة والنصيريّة والإسماعيليّة، التي بسط وثائقها وخفاياها، أتى خالياً من الهفوات ومن الأخطاء الكبيرة، على الرغم من غياب بعض المعتقدات التي لا تزال طيّ الكتمان. ومردّ تلك الدقّة والمعرفة إلى المصادر التي استقى منها ووثق برواياتها على أنّ مخبريه يعرفون البلاد جيّداً ويفقهون تماماً خفايا الأمور وصدق العادات.

أمّا أهمّيّة رحلة كارستن نيبوهر فتكمن، أوّلاً، في أنّه زار المشرق العربي قبل الرحالة فولني VOLNEY الذي سار على إثره وأخذ بمشاهداته، كونها تُرجِمَت إلى غير لغة أوروبيّة وفي طبعات متعدّدة. قيمتها أنّها تساعد على معرفة أفضل للبلاد العربيّة في خلال القرن الثامن عشر.

وبالنسبة إلى جبل لبنان، فالأكيد أنّه أدرك تماماً الصراع التاريخي على لبنان، بين عكّا والشام، ولَحَظَ وقوف الأمراء الوطنيّين في وجه كلّ طامع غريب واستبسالهم في الدفاع عن التقاليد والخصوصيّات والحرّيّات التي تتحلّى بها هذه المنطقة من العالم.

خاتمة

كارستن نيبوهر، الذي دخل إلى أكاديميّة الكتابات والآداب والفنون الجميلة، في العام ١٨٠٢، له، اليوم، على الإنترنت ٢٤٢٦ عنواناً يأتي على ذكره. وأُطلِق اسمه على معهدٌ تابع لجامعة كوبنهاغن يهتم بالعلوم المصريّة وبدراساتها وبفقه اللغة الشرقيّة. كارستن نيبوهر أهمله مؤرّخو لبنان، على الرغم من أنّ تحاليله السيكولوجيّة وتقاريره الدقيقة والتفاصيل التي قدّمها عن الحياة اليوميّة تجعل منه أمير الرحّالين ذا رأي ثاقب، يجد عنده المؤرّخون وعلماء الاجتماع معيناً لا ينضب ومنجماً لا ينفذ.

مناطق لبنانية من خلال رحلة
ده فوغيه (De Vogüé)
١٨٧٢

د. جان نخّول[*]

تعددت هويات الرحالة الفرنسيين، وتباينت شخصياتهم وانتماءاتهم الاجتماعية، فكان من بينهم رجل الدين، والعالم، والطبيب، والسياسي، والأديب، والشاعر، والفنان، إلى جانب ذوي الألقاب من أفراد الطبقة الأرستقراطية، فكان منهم الأمير والكونت والفيكونت والبارون، وما يلفت الانتباه في تلك القافلة الطويلة من سياح القرن التاسع عشر، هو مشاركة العنصر النسائي، فقد عُرف منهن خمس نساء، أربع منهن من النبيلات[١].

لقد كان لبنان قبلة أنظار الطبقة الأرستقراطية في فرنسا، ومن بين هؤلاء، برز اسم ده فوغيه الذي صرَّح في مقدمة كتابه بأنه «قد أورد هذه المشاهدات موجهاً اهتمامه، بصورة خاصة، إلى النواحي السياسية والاجتماعية والدينية التي يجب بنظره أن تعالجها جميع كتب الرحلات».

وتأثر الرحالة بعضهم ببعض، فنقل اللاحق عن السابق، بعض المعاني

(*) أستاذ في قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الفرع الثاني، الجامعة اللبنانية.

(١) أميرة جبر. الرحالة الفرنسيون في موطن الأرز عبر القرن ١٩، مؤسسة خليفة للطباعة، بيروت، ١٩٩٣، ص ١٣.

والصور، وأحياناً العبارات والألفاظ. كما تأثر الجميع باعتدال المُناخ وجمال الطبيعة اللبنانية لا سيما تنوع المناظر وألوان الطبيعة وغطاءها النباتي الجذّاب.

واختلفت نظرة الرحالة، إن من حيث الثقافة والأسلوب، أو من حيث الوصف، فمنهم من امتدح ومنهم من ذمَّ، ومنهم من نظّم أفكاره بدقة ومنهم من عرضها مبعثرة مفكّكة. أما ڤوغيه الذي سنتناول رحلته بالدرس فقد تفرَّد في مدوناته وكتاباته.

١ ـ من هو رحالتنا؟ ما نشاطاته؟ وما هي اهتماماته الأدبية؟

هو أوجين ملكيور فيكونت ده فوغيه Eugène Melchior, viconte de Vogüé أديب فرنسي، وُلِد في مدينة نيس سنة ١٨٤٨ وتوفي في العاصمة باريس سنة ١٩١٠. أقام في مدينة بطرسبورج الروسية بصفة دبلوماسية، ساهم في تعريف الأدباء الروس في القرن التاسع عشر إلى الفرنسيين، من خلال كتابه الرواية الروسية المطبوع سنة ١٨٨٦.

حاول تجديد الحركة المسيحية التي قامت بوجه المدرسة الطبيعية والمدرسة العلماوية، أيد التيار الإنساني المتمثل بكتابات الأديبين الروسيين دستويفسكي وتولستوي. ونشر مؤلفات عديدة أطلق من خلالها أفكاره وأظهر مقدرته الأدبية، ومن هذه الكتابات: قلوب روسية سنة ١٨٩٤، وتاريخ وشعر سنة ١٨٩٨، والموتى الذين يتكلمون سنة ١٨٩٩ وغيرها، ساهم في مجلة العالمين La Revue des deux mondes، انتخب نائباً عن مقاطعة الأردادش Ardèche، وترأس حركة مثالية اسمها المسيحية الجديدة، وهو ناقد أدبي يعتبر من البارزين بين نقّاد ذلك الزمان[١].

(١) لمزيد من المعلومات عن حياته، راجع:

Dictionnaire encyclopédique Quillet. Ton - Z. Paris, 1979, p. 7363.

Le petit Robert des noms propres, Paris, 2000, p. 2181.

٢ ـ مؤلفاته:

1) A LA LIBRAIRIE PLON:

- Le Maître de la mer. 50° édition.
- Jean d'Agrève. 58° édition.
- Les Morts qui parlent. 30° édition.
- Le Roman russe. 18° édition.
- Syrio, Palestine, Mon Athos.
- Pages choisies. Préfacee de M. Paul BOURGET, de l'Académie française.
- Remarques sur l'Exposition du Centenaire.
- Maxime Gorky. *L'œuvre et l'Homme.*

avec couverture illustrée du protrait de Gorky.

Séance de l'Académie française du 4 juin 1903. Réponse de M. le vicomte I.-M. de Vogüé au discours de M. Edmond Rostand.

- Souvenirs et Visions. *(épuisé.)*

2) A LA LIBRAIRIE ARMAND COLIN:

- Sous l'horizon: Hommes et choses d'hier.
- Pages d'histoire.
- Le Rappel des Ombres.
- Histoire et Poésie.
- Devant le siècle.
- Heures d'histoires.
- Regards historiques et littéraires.
- Spectacles contemporains.
- Cœurs russes. Nouvelles.

٣ ـ لمحة عن كتابه:

يحمل الكتاب عنوان «سوريا وفلسطين وجبل أتوس. رحلة إلى بلدان الـمـاضـي» «Syrie, Palestine, Mont Athos. voyage aux pays du passé». يتألف من ٣٣٣ صفحة (١٧سم × ١١سم). ويحتوي على مقدمة موجهة إلى الصديق هنري ده بون مارتان Henri de Pont Martin وتشتمل على ثمان صفحات. أما الفصول الأربعة فتتوزع على الشكل التالي:

الفصل الأول بعنوان: الجُذر، لبنان، دمشق	من ص ١ـ٩٢
الفصل الثاني بعنوان: الجليل والسامرية واليهودية	من ص ٩٣ ـ ١٦٨
الفصل الثالث بعنوان: أورشليم	من ص ١٦٩ ـ ٢٥٢
الفصل الرابع بعنوان: جبل آتوس	من ص ٢٥٣ ـ ٣٣٣

كما يحتوي الكتاب على سبع صور هي:

١ ـ مجلس الجبل المقدس في كارياس Karyès	في مقدمة الكتاب
٢ ـ أعمدة بعلبك: الهيكل الكبير	ص ٦٠
٣ ـ أصحاب الجِمال	ص ١٣٠
٤ ـ أبرص نابلس	ص ١٤١
٥ ـ الحرم الإبراهيمي	ص ١٦٠
٦ ـ دير فاتو بادي في جبل آتوس	ص ٢٥٢
٧ ـ دير أغيوس ديو نيسيوس في جبل أتوس	ص ٢٩٠

تجدر الإشارة إلى أننا نستعمل الكتاب المطبوع في باريس، مكتبة بلون Plon، الطبعة الحادية عشرة، سنة ١٩٢٤. وما طبعاته العديدة سوى شهادة من قُرّاء تلك الأيام على أهمية هذا الكتاب.

٤ ـ مقدمة الكتاب:

في المقدمة يورد المؤلف رسالته إلى السيد هنري ده بون مارتان Henri de Pont Martin القاطن في اسطنبول، وهي بتاريخ شهر كانون الأول سنة ١٨٧٥. وجمع المؤلف بعض ما نشر عن رحلته في عدة أعداد من مجلة العالمين الفرنسية (La Revue des deux mondes) وقد اعتبرها ديناً مستحقاً عليه وهو يخاطب صديقه بقوله: في اليوم الذي طلبت منك فيه أن تأتي وتقاسمني هذه الرحلة، أجبتني بأن واجبات امبراطورية تحتجزك في فرنسا. ولكنك كنت قد طلبت مني أن أوافيك بتقرير مستفيض ودقيق عن تنقلاتي على متن القوافل، وأن لا أترك جانباً أي انطباع أو أي موقف أدهشني، وها أنا أفي بوعدي، وأؤكد لك ذلك وقد تذكرتك في العديد من المرّات خلال سهرات تحت الخيمة، بعد يوم شاقٍ وطويل على ظهر الحصان، ومن خلال تصدّي للنعاس حيث كنت أمسك بالريشة وأكتب هذه الصفحات المليئة بالأحداث والتي وضعتها دون ترتيب ودون تتابع، على هوى الساعة التي كتبت فيها تحت الخيمة، أو على طاولة فندق، أو فوق متن المركب، أو فوق هودج، أو على مقربة من أعمدة بعلبك، أو بيبلوس، وأحياناً تمكنت بسبب إنهمار المطر وتأخير الرحلة عن متابعة المسير، من الحصول على وقت للراحة لأحلم وأكتب. وعندما كان المكاريه يستعجلونني لأغادر المكان، كنت أشير لماحاً إلى الأفكار التي أرى اليوم من الصعوبة جمع خيوطها المتسلسلة.

لقد دوّنت لك ما وعدتك به، وهذا (الكتاب) الرفيق التعيس، قد اتسخ كثيراً وكان أحياناً كثيرة غير مقروء، لقد دخل معي الأمكنة التي كنت أقضي فيها حاجاتي، ومع ذلك فقد قلت لي يجب أن تطبع هذا الكتاب.

وأنت تعرف أنني قد تجاوزت فكرة رمي كل هذه الأفكار الخاصة في

خزانة زجاجية في المكتبة، بعد أن واجهتك بآلاف الحجج التي كان يجب أن تحوِّل تفكيري عن ذلك، وبما يعتقده عامة الناس في فرنسا، بأن كل شيء قد قِيل عن الشرق، وأن أبا الهول قد كشف عن أسراره. وكان من الجرأة بمكان أن أتقدم للحديث عن فلسطين من خلال أعمال مميزة موقعة بنفس الاسم الذي سيظهر في أسفل هذه الصفحات.

لقد وصفت فلسطين بكثير من العلم والمحبة، وكم من العناصر التي كان يمكن الإفادة منها كانت ممنوعة علي. لقد توافقنا على ألاّ أجعل هذا العمل مضطرباً لأنه مكتوب بحذر وتردد، وأنه ينساق ورائي. وكأنه يجبرني إلى إعادة النظر في آراء الناس، وفي الأشياء القائمة في ظل الدولة التركية، وأراني أنذلق إلى النواحي السياسية والاجتماعية والدينية التي تفترض بمرويات السفر في عصرنا قبل كل شيء. وكم كانت جرأتي كبيرة وضع هذه الدراسات الهادئة في هذا الوقت بالذات، وهو وقت تصعب فيه الكتابة الأدبية كل الصعوبة نظراً لما هو حاصل في هذه البلاد المضطربة الحافلة بالضياع وبالعديد من المخاوف أو الآمال.

قلت لي بأن الناس لا يعرفون شيئاً عن الشرق، وبأن للرحلة فائدة عميمة، فهي توحي للشباب بقضاء أوقات فراغٍ ممتعة وتنشطهم للقيام برحلاتٍ بعيدة. فعاداتنا وتقاليدنا تفقد كل يومٍ شيئاً من بريقها عند هذه الشعوب لصالح رحالة آخرين، وما زلنا نكوّن آراء خاطئة عن الأمور.

شجعتني إدارة مجلة العالمين (La Revue des deux mondes) لأجمع هذه الأوراق دونما ابتعاد عن شكلها المتواضع كسردٍ لأحداث كتبها صاحبها يوماً إثر يوم. وقد تحفظ هذه المقالات ما جرى من أحداث في الشرق خلال خمس سنوات، ولقد اتبعت جولاتي في سوريا بدراسة عن المدينة القديمة البيزنطية (أسطنبول) وعن جبل آتوس، وكنت أرمي إلى تكوين فكرة عن الحاضر من خلال التعرّف إلى وجه الماضي. وان الهدف من هذه الرحلة

تكوين علاقة مع الأشياء والناس الغابرين الذين أجروا اليوم بعض التعديلات في سلوكهم.

إن الحاضر الثابت يوفر لنا مفتاح الماضي، والأمكنة تساعدنا للقبض على الأسطورة، على غرار ما تعطي اللوحات من معنى للنص في كتاب مجرد.

إن الخطوط الكبرى تستعيد قيمتها الحقة وتترابط التفاصيل لتصبح الوجوه إنسانية، وكل ما كان يبدو مستحيلاً عجيباً، غير قابل للتصديق يصبح طبيعياً قابلاً للتصديق وسهل المتناول.

وتتهاوى الشكوك ويهدأ القلق ويعود الهدوء إلى الفكر المتبصّر، فما على العقل إلاّ أن يتصدى لبديهات الأمور من أجل تقبل التأويلات التي تمرّ أحداثها على نحوٍ واضح حين توضع في إطارها الصحيح.

وتكشف حالة المجتمعات الشرقية أحياناً، وبأمانة فريدة، عن حالة مجتمعاتنا الغربية في بعض حقبات من تطورها ونموها، وتدفع الأمور بها قدماً إلى الأمام، وقد تنسب دونما مفاخرة إلى أجدادنا وإلى أحداث كان من شأنها إطلاق التقدم.

إذا ما بحث المؤرخ بصدق في ما حوله ضمن هذا العالم الواسع، فإن بوسعه أن يرى دائماً لدى السلالات المتأخرة، نماذج ما زالت حية من مجتمعات منقرضة. فروح الماضي تتجلى على نحو أقل من التسلسلات الزمنية المشكوك فيها، ومنها في الأماكن والروائع والناس الذين يعيشون حولنا. بهذه العناصر يعيد العلم بناء الحلقات واحدة بعد الأخرى، وهي حلقات تشكل سيرورة التاريخ وتجعلها تدور بكل تأكيد حتى الأصول البشرية. من هذا المنطلق الخصب، سيكون الشرق فاتح المجال أمام النظرات الجديدة.

إن سرّ التاريخ قد يكون ذلك السرّ الذي يحفظ الهرم على مدخل الصحاري.

لقد عاد المؤلف من الشرق مرتاحاً، حتى ولو لم يستقبله الناس استقبالاً حسناً، لقد بقي له مكافأة فضلى في اللجوء إلى مبادرة من هذا النوع، ألا وهي فرح العيش في خضمّ هذه الذكريات ولوقت طويل بعض الشيء. ولم ينس الكاتب رفيقه لحظة واحدة، فهو يعرفه منذ ٢٢ سنة وكان كثير الترداد إليه.

٥ ـ ده فوغيه في بيروت:

نصل هنا إلى الفصول التي دوّنها رحالتنا عن مسار رحلته إلى لبنان، وبالتحديد كلامه عن مدينة بيروت التي زارها بين ٧ ـ ١١ تشرين الثاني سنة ١٨٧٢.

عندما وصل الحجاج الألمان، على حد قول الأخ فابر (Faber)، عند الفجر، متوجهين إلى شواطئ سوريا استيقظوا على صرخات تقول: «أيها الحجاج انهضوا وانطلقوا، ها قد بانت الأرض التي طالما رغبتم في رؤيتها، أنها الأرض المقدسة، أرض الكنعانيين، أرض المجد».

وعندما فتحنا أعيننا على ضجة المراكب المتجمعة عند المرفأ، قفزت إلى متن السفينة ورأيت كل شيء مُبلل من حولي. لقد كانت المراكب الأربعة للعمارة البحرية الفرنسية قد وصلت مساء أمس إلى بيروت وهي مؤلفة من: لا غولواز (La Gauloise)، لا ران بلانش (La Reine - Blanche). لا تاتيس (La Thétis)، لو دوزي (Le Desaix).

ومن على المرفأ، رأينا شاطئ لبنان والقمم. كان الطقس منذراً بالمطر والغيوم ملبدة، إلى يسارنا سلسلة من الجبال تنتشر من بيروت إلى البترون،

وتجاهنا المدينة المترامية على هضبة وهي تغسل أقدامها في البحر. كانت البيوت الأوروبية المظهر بسطوحها القرميدية، تنمّ عن وجه متحضِّر جداً. ولم يكن بوسعي تشبيه بيروت إلا بمدينة هيير[١] (Hyères) أو كان[٢] Cannes، أو أية محطة شتائية على البحر المتوسط.

وظهر لي أن الريف كان فقيراً جداً بنباته. توقفت الباخرة في حمى سور المرفأ في ظل بعض صخور برج كبير هو من بقايا قلعة الأمير فخر الدين. وأحاط بنا رجال الفندق لدى نزولنا من المركب، وكادوا يتنازعون أغراضنا والاهتمام بنا وجميعهم من الشبّان الموارنة أصحاب السحنة المتفاخرة والذكية وهم يرتدون الزّي السوري الفخم مع سترة قصيرة وشروال، ويتكلمون لغتنا (الفرنسية) بطلاقة، ولا شيء يقومون به يذكّر بالصغارة والهوان، فهم ليسوا كأولئك الأرثوذوكس واليهود الذين يعملون كقواصين في الأساكل الشرقية الأخرى.

وقد صحبنا أحد العاملين الأكثر إقناعاً من رفاقه إلى فندق أوروبا[٣] فوجدنا فيه بعض مواطنينا، ومن بينهم السادة M. de G... من البعثة الفرنسية (des hasas). وما كدنا نجلس حتى عدوت للسلام على السيد بارتيه Péretié

---

(١) هيير: أرخبيل فرنسي صغير على البحر المتوسط، يتمتع بمناخ لطيف وهو محطة شتوية.

(٢) كان: مرفأ فرنسي على البحر المتوسط، مركز سياحي وصناعي ومحطة شتوية.

(٣) فندق أوروبا: يقع على شاطئ البحر، ليس بعيداً عن القنصلية الأميركية، من أعرق فنادق بيروت، يديره صاحبه الإيطالي باتيستا منذ ١٨٤٩. نقلاً عن جورج نصر اللّه البرجي، فنادق بيروت وأصحابها في القرن ١٩، ترجمة ميشال أبي فاضل، مخطوط، الفصل الثالث. أما صاحب فندق أوربة فهو فرنسي سمين، شديد الشقرة، قصير القامة. وكان من حسن اهتمامه أنه خصّنا بشقة (١٨٨٠) . . . تطل على شرفة نرى منها الباخرة، نقلاً عن الفيكونتيس داڤيو دوپيولان، في بلد الموارنة، ترجمة كميل البستاني، دار لحد خاطر، بيروت، ١٩٨٧، ص ٢٥. وتعطينا أميرة جبر، المرجع السابق، ص ٣٧ معلومات أخرى فتتحدث عن فندق السنيور باتيستا (Battista) الأوروبي الذي نزل فيه دي نرفال ١٨٤٣ ولم تكن نفقات الإقامة في هذا الفندق تتعدى الفرنكين في الليلة الواحدة. . . فندق أوروبا نزل فيه الكونت دي باراديو (١٨٤٩) نفقات الإقامة فيه ١٠ فرنكات يومياً.

الموظف في القنصلية الفرنسية. أمضينا الصباح في التحدث عن هذه البلاد التي يعرفها جيداً، وقد عرض لنا مجموعته الغنية المؤلفة من النحاس الفارسي الموشى بالكتابات الكوفية، وأدوات البرونز المصرية والفخار الفينيقي، وأسلحة لأمراء صليبيين وتماثيل صغيرة جميلة وقديمة وميداليات عن السلوقيين وبعض كتابات تدمرية حجرية حُفرت عليها رموز سحرية. وهذا العالم الشرقي والقديم من الحجارة والبرونز والطين لم يُستعرض إلا من جهاته الفضلى.

دعانا السيد de G... إلى نزهة في المدينة، تحدثنا خلالها عن سوريا وفلسطين اللذين زارهما منذ ثمانية أشهر واللذين يعرفهما جيداً. فأسواقهما شرقية المظهر أكثر من أسواق القسطنطينية وأزمير، وقد قصد بكلمة شرقي ما نعرفه عن التصوير المعروف منذ أيام دوكامب[١] (Decamps)، وماريلات[٢] (Marilhat).

وقد شاهدنا شوارع صغيرة ضيقة تحيط بها بيوت عالية وقناطر وقبب وتقلبات من الضوء والظل. وعلى طول هذه الأرصفة الحجرية تُعرض المنتوجات التجارية المنوعة في المشرق: تلال من الأثمار والفواكه معروضة على نحو متناظر إغواءً للعين، إلى جانب بهارات وأفاوية تعلن عن نفسها من البعيد، من خلال رائحتها الغريبة، وواجهات المحلات مزينة بكوفيات

---

(١) ألكسندر كبريال دوكامب (Alexandre Gabriel) ١٨٠٣ـ١٨٦٠. وُلِد في باريس، رسّام ونحّات زار الشرق ورسم مشاهد غريبة (exotiques)، وبخاصة مشاهد تركية: البيت التركي ١٨٣١، المقهى التركي، فرقة عسكر تركي، نساء في الجزائر، داخل الحريم (متحف لندن). ونذكر من جهة أخرى لوحاته: جياد حلاج (Halage)، قارع الجرس (متحف اللوفر)، هزيمة سامبر (Cinbres) ١٨٣٤. ترك رسوماً عديدة ومنحوتات في الصخر ومشاهد على طريقة الفن المعتمد في القرن ١٧، ولكنها لم تكن موفقة كثيراً، نقلاً عن:

Dictionnaire encyclopédique, Quillet, op, cit, p. 1690.

(٢) بروسبر ماريلات (Prosper) ١٨١١ ـ ١٨٤٧. وُلِد في فارتيزون (بوي دي دوم) Vertaizon (Puy-de-Dôme) رسّام مناظر طبيعية فرنسي. نقلاً عن: Idem, p. 4065.

وبمناديل حرير مقصبة بالذهب يكفكف بها العرب رؤوسهم ويثبتونها بجدائل من الصوف أو وبر الجمل (عقالات)، كما عرضت ركابات من الحديد وسروج من الجلد الأحمر.

هذه السلع هي إلى حدٍ ما، محدودة ومقتصرة على الحاجات الأولية للحياة العربية، وعلى المآكل والملابس التي يستخدمها الخيالة. ويرى المرء أيضاً حدوات الجياد ومجوهرات مطعمة بطريقة جميلة بألوان فيروزية، وعلى العقيق الأحمر بعض آيات قرآنية ورعة تدل على الشفقة والرحمة.

وخارج الأسواق، تعتبر الطرقات بمعناها المألوف واسعة ومستقيمة وعلى الطريقة الأوروبية، وحولها بيوت جديدة من الطراز الفرنسي والعربي، يداخلها أشجار التين والصّبير والآكاسيا والرّمان. وما يلفت النظر هو أشكال السكان، وفي إطار هذه العلاقة، يظهر الفارق كبيراً بين منظر المدينة التركية ومنظر المدينة العربية.

ويجد المرء في أي مكان وراء هذه الأزياء المختلطة والمزاجية مع بعض التعديلات في العائلة والقبيلة، البنية الطويلة والنحيفة والعضلات الصلبة والجبهة العريضة والبارزة للعرق السامي.

ويشاهد المرء أيضاً بعض الدروز الملتفين على نحو مميّز بعباءاتهم، وبعض الشيوخ الشاميّين والبدويين الهذيلين والقذرين وكذلك الأروام[1] (اليونان) بالإضافة إلى أناس من الجبل والصحراء. لكن العنصر المسيطر في التجارة هم الموارنة.

المسلمات وبنات المسيحيات الصغار، هنّ محجبات كلياً، وأمهات العائلات غير متزمتات، وهذا ما يتفق عليه جميع الرحّالة إلى سوريا.

عند عبورنا الحيّ اليهودي، وجدنا بعض الفتيات من ذوات الجمال

(١) يشير الكاتب إلى أنه يقصد بالأروام الذين يتبعون الطقس الأرثوذكسي.

المميز، ومع قدوم الليل توجهنا إلى أحد المقاهي الصغيرة في الساحة البيروتية الكبرى، حيث العديد من العاطلين عن العمل، أناس من عامة الشعب، ومكارية وتجار ينتظرون وكأنهم تماثيل، النارجيلة المذودة بكل لوازمها بين أيديهم ينتظرون غروب الشمس. نحن في شهر رمضان، وهو شهر صوم المسلمين، والنظام الصارم الذي تفرضه الشريعة النبوية، يمنع كل طعام وحتى دخان التبغ، قبل إنقضاء النهار. ويتقيد المسلمون بدقة بهذه الفرائض، وكل الشرقيين، إلى أي دين انتموا، من ناحية الممارسة الخارجية والمادية.

وما إن يطلق المدفع طلقته، حتى يستسلم المؤمنون المساكين بفرح كليّ إلى قبضة من التنباك، حتى بعد هذا الصوم الذي انقضى عليه ١٤ ساعة[1]. فالحاجة إلى التدخين هي أهم لديهم من الحاجة إلى الأكل، وبينما كنا نغادر المقهى وسط غيمة من الدخان، كان هناك صاحب عربة ومعه سائق ينفخ في بوقه، في طريقه إلى الساحة، لقد كانت تلك عربة الشام التي يشكل وصولها حدثاً يومياً في بيروت.

بفضل تخطيط بعض الفرنسيين، شقّت طريق رائعة اعتبرت الأفضل في السلطنة العثمانية بلا منازع، لتربط بين المركزين المهمين في سوريا، وتقوم عربات مريحة بقطع هذه المسافة في مدة ١٤ ساعة بين بيروت والشام.

في تلك الأيام التي أمضيناها زرنا محلة الصنوبر في بيروت، كانت الرحلة كئيبة ورتيبة، وهناك تنمو أشجار الصنوبر الباسقة دونما عناية في الرمل الأحمر النائم عند المساء على ضجة البحر المستحبة والأمواج التي تضرب أسس برج فخر الدين، وقد نظمنا قافلتنا وقمنا بزيارة أولئك الأصدقاء الذين

(١) لقد زار المؤلف بيروت بين ٧ و١١ تشرين الثاني، بالنسبة لتاريخ ٧ ت[2] يكون الإمساك الساعة ٤,٠٩ والمغرب ٤,٤٧، وعلى هذا تكون فترة الصيام ١٢ ساعة و٣٨ دقيقة. أما بالنسبة لتاريخ ١١ ت[2]، فيكون الإمساك الساعة ٤,١٢ والمغرب ٤,٤٤ وفترة الصيام ١٢ ساعة و٣٢ دقيقة.

ربطتنا بهم صداقة قلبية لدى التقائهم في بيروت.

ومعظم الموارنة الذين هم من مرتبة معينة، قد تخرجوا من معهد اللعازاريين في عينطورا[1] أو من مدارسنا الأوروبية، ولا يمكن القول كم كنت مفتوناً بما تميزوا به من فكر ومظهر ومن هذا القران الرائع بين الثقافة الغربية والنبل الطبيعي لتلك السلالات العربية.

والشعب الماروني هو من بين كل العناصر التي يتألف منها المجتمع السوري، يفرض نفسه بادئ الأمر على الغريب من خلال سحر في ميزاته وحتى في عيوبه، وهؤلاء العرب يذكروننا بالكثير من النواحي بالعبقرية اليونانية. إنهم يضخّمون كل الأشياء، ويتشوقون إلى الأشياء الغربية وحكايات المغامرات الكبيرة ويُسرّون للعروض المسرحية والمظاهر المضطربة وهم يصدِّقون كل كلام حماسي. يعشقون كل أنواع النزال لا سيما النزال بالسلاح، ولا يقبلون نير أحد، شغفون بالتغيير، خصوصاً وإن السمة المميزة للموارنة هي الشخصية الفضفاضة، كذلك كل السلالات المسيحية في سوريا وفلسطين وهو ما يفرّقهم عن المسلمين ويجعلني أقارنهم بالروم. لديهم قناعة أكيدة بأن أنظار العالم مُحدقة في أبسط أعمالهم، وبأن آذانه مُصغية لأقل شكوى قد تصدر عنهم، وبأن مجرد طلقة بندقية واحدة في الجبل، لا بدَّ وأن تُحدث دوياً هائلاً في أوروبا، وتكون أشد وقعاً من مدفع سيباستوبول[2] (Sebastopol) أوسادوفا[3] (Sadowa).

---

(١) مدرسة عينطورا أسسها اليسوعيون، وديراً لهم على اسم القديس يوسف ١٦٥٧، وكانوا وصلوا لبنان ١٦٥٢، انتقلت المدرسة إلى اللعازاريين ١٧٧٣ بعد أن حلّ البابا أكليمنضوس الرابع عشر الرهبنة اليسوعية. ما زالت بيدهم حتى اليوم.

(٢) سيباستوبول: مرفأ يقع على البحر الأسود ضمن جمهورية أوكرانيا، استولى عليه الفرنسيون والإنكليز من الدولة العثمانية ١٨٥٥.

(٣) سادوفا: قرية في بوهيميا، اشتهرت بوقعة هائلة هزم فيها البروسيون بقيادة الملك غليوم الأول النمسويين بقيادة بنديك ١٨٦٦، نقلاً عن المنجد، ١٩٦٦، ص ٢٤١.

إنهم أبناء هذا الإيمان الساذج، يتملكهم عناد، تضيف إليه التوافه دائماً نوازع بشرية تنتاب الشعوب كما تنتاب الأفراد. وبينما تنحسر أكثر فأكثر الناحية الدينية في أوروبا، نرى الأمر مغايراً في البلاد الشرقية. فالجو العام بأشكاله المتعددة يختلط بكل مظاهر الحياة الاجتماعية ويختصر الطموحات الوطنية لهذه الفئات المتعددة جداً والموزعة على قطاعات تكوّن المجتمع الشرقي.

إن تاريخ الانشقاقات التي أدمت سوريا لا تزال حديثة العهد، فلا يمكن المرور بها دون تعليق. ومن المعروف أنها كانت من محركات انفجار سنة ١٨٦٠، وحمل السلاح سنة ١٨٦٣. وتعود إلى الذهن الصورة البطولية والغريبة للمطران طوبيا[1] الذي قاد اتباعه إلى القتال، ومن بعده يوسف كرم[2] الذي لم يجد شعبيته إلا من خلال تشجيع الأكليروس.

إن الحديث عن السلام الذي أتى بعد حوادث ١٨٦٠ المؤسفة، لم يخمد كل الشرارات التي كانت مختبئة في ذلك الموقد الغريب المظهر.

إن حالات البغض والريبة تسيطر بكل قوة على القضية البسيطة جداً، وإزاء أي شجار يشعر الناس في الجبل بارتعاش من الغضب والخوف.

---

(١) المطران طوبيا عون: وُلِد في بلدة الدامور بتاريخ ١/١٢/١٨٠٣، سيم كاهناً في ٣٠/٩/١٨٢٣، عُين مطراناً على عكا في ١٩/٣/١٨٤١، رئيساً لأساقفة بيروت ٣١/١٢/١٨٤٤، توفي بتاريخ ٤/٤/١٨٧١. راجع عنه: انطوان لبّس، دور المطران طوبياعون ١٨٤٠-١٨٦٠. رسالة ماجستير في التاريخ، الجامعة اللبنانية، كلّية الآداب والعلوم الإنسانية، الفرع الثاني، ١٩٨١ أيضاً أغناطيوس طنوس الخوري: المطران طوبياعون، مجلة السنابل، الأعداد: ٣ و٤ و٥ و١٠ و١١، السنة ١٩٥٨، صفحات متفرقة.

(٢) يوسف بك كرم: وُلِد في إهدن ١٨٢٣، توفي في المنفى إيطاليا ١٨٨٩، زعيم ماروني اشتهر ببسالته وفضائله، كان له دور هام في مقاومة ظلم العثمانيين خاصة زمن المتصرف داود باشا (١٨٦١ ـ ١٨٦٨). راجع عنه: اسطفان البشعلاني، لبنان ويوسف بك كرم، مطبعة مكتبة صادر، بيروت، ١٩٢٥.

إن المسافر الأوروبي الذي يأتي إلى هنا بأفكاره المعتدلة الرصينة والملطفة، يعتقد نفسه أنه أولاً في بيت للمجانين، ويأخذني الفكر أحياناً إلى أن في هذا المحيط الجديد جداً، تنتشر أفكار كانت تشكل مُناخ بلادنا في القرن ١٦ أثناء الحروب الدينية.

إن في ذلك حوافز الرحلات ومنافعها، وهي غالباً ما تعطينا في الحاضر درساً عن الماضي، وكم هو صحيح بأن الزمن لا يجري بطريقة واحدة موحدة، وأنه يتميز باختلافات خلال سيره، وأننا قد نجد لدى الشعوب البدائية أنماطاً حقيقية للتطورات التي طرأت على أسلافنا في هذا السياق الدائم والأبدي الذي يدور فيه التاريخ. ويجب أن لا ينظر إلى كل هذه الانتفاضات الثائرة نظرة مأساوية، وأن لا نغرق في تحميل الكلمات معانٍ فيها مغالات. ففي هذا البلد نسمي حرباً طلقة بندقية، ومذبحة ضربة سكين، وأن الموقف المشكور للبطريرك[1] الماروني والحضّ العاقل للمعتمدين الأجانب، والتسامح المشكور للعثمانيين، قد يفعل فعله لصالح التهدئة المؤقتة إن لم نقل لصالح السلام النهائي، وأن هناك أسباباً عميقة جداً للتنافر لا تتيح أبداً الكثير من الأمل. وتعيس أكثر أيضاً هو الحاكم العام الذي يفترى عليه من البعض ويُستغل من البعض الآخر، والجميع يصدرون بحقه أقبح الأحكام. إن فرنكو باشا[2] هو أرفع مما قيل فيه فهو لم يخطئ إلا لتردده وضعفه،

---

(١) البطريرك بولس مسعد: وُلِد في عشقوت ١٨٠٦، دخل مدرسة الروميّة وثم مدرسة عينطورا وأخيراً مدرسة عين ورقة ١٨٢١، أرسله البطريرك يوسف حبيش ١٨٢٦ إلى مدرسة مجمع نشر الإيمان المقدس في روما، عاد إلى لبنان ١٨٣٠ حيث سيم كاهناً. ارتقى الدرجة الأسقفية ١٨٤١ وله ٣٥ سنة من العمر، انتخب بطريركاً على الكنيسة المارونية في ١٢/١١/١٨٥٤، رقد بالرب في ١٨/٤/١٨٩٠ ودُفن في ضريح خاص به في كنيسة مار بطرس وبولس في عشقوت التابعة لعائلته، فاستمر عهده ٣٥ سنة وخمسة أشهر وستة أيام، وهو من بين أطول عهود البطاركة الموارنة.

(٢) المتصرِّف فرنكو نصري الكوسا باشا (٢٥/٦/١٨٦٨ ـ ١١/٢/١٨٧٣) نقلاً عن عبد اللّه الملاَّح، متصرِّفية جبل لبنان في عهد مظفّر باشا ١٩٠٢ ـ ١٩٠٧، مؤسسة خليفة للطباعة، بيروت، ١٩٨٥، ص ١٠.

وطبيعة هذا الحاكم هي انفعالية وقلقة. وقد قام بمهمته الشاقة واعتاد عليها.

لقد أتى إلى سوريا وهو مريض القلب[1]، ولم تؤثر الإضطرابات الأخيرة في استفحال هذا المرض لديه مع أنه تأثر به كثيراً وكان الحاضر مكفهراً والوضع الراهن مقلقاً على المستقبل. لقد توفي في تلك الفترة في بيت الدّين، وكنت أتمنّى كل التمنّي بأن أرى مكان إقامة الأمراء الدروز القديم والبديع الجمال، وهو مكان إقامة حاكم لبنان اليوم. لقد انتظرت أخباراً سارة في كل هذه الأيام المنصرمة، لكنها لم تصل إذ إن الحاكم المريض لم يكن باستطاعته استقبال الزوّار، لذا قررنا آسفين أن نغادر معتمدين طريق الساحل.

٦ ـ جبيل ١٢ ـ ١٣ تشرين الثاني:

أخيراً انتظمت قافلتنا، وذات صباح بينما كانت الشمس تبتسم لنا مكشحة الغيوم السوداء، خرجنا من بيروت عن طريق الكرنتينا على جياد رائعة حملت أغراضنا وسلاحنا لنذهب وننام في جبيل، ومن هناك للصعود إلى كسروان. اجتزنا نهر بيروت عن طريق جسر فخر الدين بين القصب وأشجار الدفلى[2] المحمرة قبل أن نصل إلى رمل الشاطئ. شاهدنا من البعيد على الشاطئ، قوافل صغيرة هم كناية عن مزارعي الساحل الذين يأتون على دوابهم لينقلوا قصب السكر والفواكه من بيروت، والتقينا بكاهن طرابلسي برفقته قوّاص

---

(١) «وقضى المتصرف نحبه فجأة في بيروت من جراء نوبة قلبية في الرابع والعشرين من شباط من السنة ١٨٧٣. وكان قد أحب لبنان كثيراً وخشي قرب الأجل فأوصى بدفن جثمانه فيه... وقام مجلس الإدارة يكرّم حبيب لبنان بعد وفاته فأقرّ إنشاء حجرة من الرخام الأبيض في الحازمية لتضم رفاته». نقلاً عن أسد رستم، لبنان في عهد المتصرفية، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٣، ص ١٤٩ـ١٥٠.

(٢) الدِفْلَى: شجر زهره كالورد الأحمر وحملُه كالخرنوب، من فصيلة الدفليات. نقلاً عن المنجد، ١٩٦٦، ص ٢١٩.

متميّز بثيابه اللماعة، وبقافلة طويلة من الجمال يقودها عربيان لبيعها في مصر، يسير هؤلاء في رحلة مدتها ٢٠ يوماً بمحاذاة الشاطئ وصحراء العريش. وقبل الوصول إلى وادي نهر الكلب الرائع، نترك لبعض الوقت رمل الشاطئ في سفح الجبال ونصعد طريقاً محفورة في الصخر، ترتفع فوق البحر، وهي طريق موحشة، صعبة وقاسية، ينتشر في أرجائها بلاط قديم متباعد ومُكسّر. وهذه الطريق هي بقايا طريق رومانية، تتصل بطريق أقدم منها، هي طريق الغزوات التي مرّت عليها الجيوش الآسيوية التي جاءت ترتاح من تعبها في شمس هذه الشطآن الجميلة التي كانت تمارس عليها جواً من الفتنة ذاتها التي مارستها الأودية الإيطالية على البرابرة العاتين في القرون الوسطى.

إن الجيوش القديمة المسلحة كلّها مرّت من هنا، كما يشير أرشيف هذه الطريق الفضولي المحفوظ على الصخور، حيث ترسخت آيات الأرشيف تلك: مسلاّت محفورة الواحدة إلى جانب الأخرى في حافة الصخر، تكشف عن بقايا كتابات بجميع اللغات، مرفقة بشعارات خلّفها جميع الغزاة الذين مرّوا بجسرين في وادي نهر الكلب.

وكما يسجل المسافر اسمه في سجل الفندق، فإن هؤلاء السياح الرهيبين قد تفتقت قريحتهم وخطر ببالهم أن ينقشوا ما ارتأوه على هذا الصخر. فهم أولاً الفراعنة، أوائل معلمي العالم، الذين سبقوا موسى، والذين فتحوا فينيقية القديمة، ثم تحوتمس ورعمسيس اللذين لا تزال آثار غزواتهما بادية للعيان منذ ٣٠ أو ٤٠ قرناً من الزمن. ووقع الخيول يمرّ على كتاباتهم الهيروغليفية، ثم الفاتحون الأشوريون الآتون من الفرات، جماعة تغلت فلاصر ونبوخذنصّر، بالإضافة إلى تيجان ملوك نينوى وأثوابهم الطويلة. وبعد هؤلاء يأتي الرومان بكتاباتهم الجميلة، ماركوس أوريللوس يتحدث عن نفسه

على صخرة وسط كل هؤلاء الجنود رغم أنه حكيم، يليهم أوائل الخلفاء العرب، الذين كتبوا بخطهم الكوفي القديم على هذه الصفحة التذكارية، وهناك كتابة[1] أيضاً تعود إلى السنة ١٨٦٠، وهي تذكّر بمرور الجيش الفرنسي الذي أتى للدفاع عن قضية الحضارة والعدالة.

وبعد أن اجتزنا نهر الكلب على جسر مؤلف من قنطرة واحدة، عدنا فأخذنا طريق الشاطئ. أدركنا جبيل عند حلول المساء بينما كان يطلع القمر على بحر مصر، بلونه الجميل الناعم، وباحمراره المتولّد عند الدغوش.

إلى اليسار قرية صغيرة قرب البحر، كانت بجوارها خيمنا، وها هي بيبلوس المعبد السحري للعالم القديم، شقيقة المدن المصرية والأشورية وقد جسّدت هذا الفكر الديني بعمقه الطبيعي، وهو فكرٌ تأثرت به الشعوب في بدايتها.

---

(١) أنجز الأمبراطور نابوليون الثالث (١٨٠٨ ـ ١٨٧٣) هذا النقش خلال حملته إلى لبنان لإنهاء الصراع الذي نشب بين الدروز والموارنة ١٨٦٠. يتألف هذا النص المكتوب بالفرنسية من ١٤ سطراً ذكرت فيه أسماء كتائب الجيش التي شاركت في هذه الحملة. وقد جاءت هذه الكتابة لتزيل معالم نصب كان قد شيّده الفرعون رعمسيس الثاني (١٢٧٩ ـ ١٢١٣ق.م.) يبدو فيه وهو يقتل أسيراً أمام الإله بتاح. أبعاد اللوحة: طول ٢,١٠م عرض ١,٤٦م وهذا ما نقش عليها:

1860 - 1861
Napoléon III
Empereur des Français
Armée Française
Général de Beaufort d'Hautpoul
Commandant en chef
Colonel Osmont
Chef d'Etat-major général
Général Ducrot
Commandant l'Infanterie

5e de Ligne	2e Génie	1er Hussards
13e de Ligne	1er d'Artillerie	1er Chasseurs d'Afrique
16e Baton Chasseurs	10e d'Artillerie	3e Chasseurs d'Afrique
1er Zouaves	Services administratifs	2e Spahis.

هناك بعض أنفار من الضابطية[1] اللبنانية يحسنون اللغة الفرنسية برئاسة مساعد ملازم، يحرسون أسوار المدينة والأكواخ. وثمة كنيسة قديمة خربة من عهد الفرنجة (الصليبيون) (Franque) والعديد من المقابر المنتشرة في السهل.

٧ ـ الأرز عيناتا ١٧ تشرين الثاني:

في الأيام الماضية اجتزنا البلاد المعروفة باسم كسروان ودرنا حول جبل صنّين، وتركنا في عينطورا النسمات الفاترة المتأثرة بالشاطئ، وارتفعنا إلى هضاب عالية لا يسكنها الإنسان، ونمنا في جوٍ جليدي هو جوّ القِمم. استقبلنا متاولة أفقا في موضع جميل حيث نهر أدونيس ونهر إبراهيم يتدفقان من سورٍ عالٍ من الجبال بين خرائب معبد ڤينوس.

شاهدنا أشجار الجوز والتين والنباتات المعربشة تتسلق أعمدة من الرُخام السُمّاقي. ومنذ التاريخ القديم، فإن هذه الوادي السحرية والجميلة بمياهها المتدفقة عبر الصخور، كانت مرتعاً لمعابد جليلة جداً في سوريا، صخورها من العهد الروماني.

تغيرت الأسماء ففينوس أعقب شيرا، وأدونيس أعقب تموّز، ووفق قانون ديني لا يقبل الاستثناء، تحولت العبادة وشهدت الأجيال المتعاقبة هذه التغييرات، لكن المكان المقدّس لم يتغيّر.

واليوم فإن قبيلة من المتاولة (الشيعة) المتعصبين المنفردين، والذين يغلب على العديد منهم فكر ديني مظلم، يسكنون وادي أفقا، ويديرون طواحينه العاملة على شلالات نهر أدونيس. ومعرفتنا قليلة حول هذه العائلة

(١) الضابطية أو الجندرمة: جهاز الأمن الداخلي، درّبه ضباط فرنسيون في عهد المتصرفية على غرار الجهاز الفرنسي المسمّى Gendarme، فانتقلت اللفظة إلى لبنان إلى جانب كلمة الضابطية وعمّت حتى منتصف القرن العشرين، إلى أن حلّت محلها كلمة الدرك. وأصل الكلمة Gent d'armes أي الفئة المسلحة (رجال السلاح). دلّ هذا التعبير أصلاً على جهاز الشرطة الخيالة.

المنتشرة في شمالي الجبل وفي البقاع، وهم لا يقاربون كثيراً السكان المجاورين.

وهؤلاء الرجال طويلو الشعر، أنوفهم كأنوف النسور، وسحنتهم متوحشة ولا يمكن اختراقهم، وهم لا يقبلون أية تجارة مع الخارج، ويكسرون الصحن والكأس التي يأكل أو يشرب منها الإنسان الغريب. وهم مسلمون رسمياً، وقد صعب علينا أن نرى في قراهم أقل أثرٍ للعبادة. ومن أعلى جبال أفقا وصنّين، عبرنا في معابر تسلكها الماعز، وقد توقلت جيادنا الفتية بتمهل وحذر إلى وادي قاديشا الشهير. بعد العاقورة[1] وصلت القافلة إلى وادي قاديشا حيث القرى الكبيرة والغنية، قنوبين المقرّ الشتوي للبطريرك الماروني وديمان بشرّي حيث نمنا البارحة. وهذا الصباح تركنا البلدة المارونية لنصعد إلى أرز سليمان مشياً على الأقدام، من خلال مخرم صعب ينساق في خاصرة الجبل نازلٍ من قِمم لبنان إلى البحر نحو طرابلس. توقفنا أولاً عند محبسة بُنيت على شكل قبّة في الصخر، سكنها راهب إيطالي (كرملي) سبع سنوات، وقد سألَنا بتلهف عن حرب[2] العام ١٨٧٠ وموقف إيطاليا منها. آه يا بادري أنطونيو، وهل هنالك ضرورة لأن يقوم المرء بالتنسك ويدفن نفسه في سفح قاديشا ليتكلم عن السياسة إلى المسافرين الذين يمرّون بجواره، ألا يجدر بالإنسان ترك هذه الاهتمامات البائسة بالأمور الدنيوية العابرة.

وبقدر ما كنا نرتفع في صعودنا ذلك الجبل، كان دليلنا يشير إلينا بإصبعه

(١) حول تاريخ العاقورة راجع كتاب المونسنيور لويس الهاشم، تاريخ العاقورا، مطبعة العَلَم، بيت شباب، ١٩٣٠، ٧٠٩ صفحات.

(٢) فقدت فرنسة مكانتها إثر اندحارها في حربٍ صاعقة شنتها عليها بروسية ١٨٧٠، وكان من نتيجتها سقوط امبراطورية نابوليون الثالث (١٨٥٢ ـ ١٨٧٠) وقيام الجمهورية الفرنسية الثالثة (١٨٧٠ ـ ١٩٤٠)، ودخول الجيش الألماني إلى باريس وضمّ مقاطعتي الألزاس واللورين الفرنسيتين إلى ألمانيا.

إلى النقاط البيضاء الباقية فوق رؤوسنا، كنا ننتظر أن نرى أعشاش الطيور الجارحة، ولكنها كانت محابس، ففي تلك المساكن التي تعبث بالرؤوس، والتي يصعب على النسر الوصول إليها، كان هناك مجموعة من العبّاد. وكل تلك المحابس صعبة الإرتقاء، يعيش النسّاك فيها من خيرات الطبيعة، أو من الحسنات التي يقدمها المؤمنون لهم بين الحين والآخر. ولدى كل من هؤلاء الحبساء جرس صغير يدقه ساعة الصلاة، وقد وصلتنا أصداء تلك الدقّات الشبيهة بالرنات التي يسمعها المرء من القطعان في مراعي حلب، وبعد أن صعدنا لمدة ساعة في تلك الأماكن الصعبة، وصلنا فجأة إلى هضبة الأرز، حيث المكان يغمره الثلج ثلاثة أرباع أشهر السنة، وحيث لا وجود لغطاء نباتي، وحيث تنتصب الأشجار المشهورة وكأنها تحدٍ لقوانين الطبيعة.

ويبلغ عدد هذه الأشجار[1] نحو ١٠٠، وهي في معظمها فتية نسبياً، ستة منها أو ثمانية جذوعها ضخمة، ومقشّرة ورؤوسها مضروبة بالصواعق ومقصوفة بالعواصف، وهي وحدها تحتفظ، بذكرى حية للعصور التوراتية، إذا أردنا أن نصدِّق التقاليد. والشلال الذي عبرناه كان بوسعه أن يأخذ مع مائه المتدفق الأشجار إلى البحر. ويجب أن نذكر هنا أن هذه الأشجار الرائعة، قد صدر حرم من البطريرك الماروني على من يقطعها لأنها أشجار جليلة، وهكذا حفظها من أولئك الحطابين المتحمسين لاستخدامها، وبحسب

(١) بالنسبة إلى عدد أشجار الأرز فقد ذكر Fermanel ٢٢ أرزة ١٦٣٠، وفي ١٦٣٤ عثر Roger على ٢٢، وفي ١٦٦٠ أحصى الجنرال D'arvieux ٢٣، وفي ١٦٨٨ وجد Laroque ٢٠، وفي ١٦٩٦ رأى Maundrell ١٦، وبتاريخ ١٧٣٨ أحصى Pocoke ١٥، وفي ١٨٣٧ شاهد Lindsa ١٢ أرزة، نقلاً عن أميرة جبر، المرجع السابق، ص ٦٩. راجع أيضاً: أنطوان جبرائيل طوق، أرز لبنان التراث والرمز، مطبعة خليل الديك وأولاده، بيروت، ١٩٩٦، ١٨٩ ص. وقد عثرت في أرشيف دير بكركي العائد إلى ١٨٣٢ على وثيقة تحمل عنوان (قياس الأرز) وتحتوي على قياسات ١١ أرزة على الشكل التالي: أرزة (٩ أذرع)، ٢ (٨ أذرع)، ١(٧ أذرع)، ٢ (٦ أذرع)، ١(٥ أذرع)، ١(٤ أذرع وشبر)، ٣ (٤ أذرع). نشير إلى أن الذراع يساوي ٣/٢م ويذكر أحياناً ٦٨سم.

عادة مؤثرة، صعد خوري بشرّي ليقيم القداس لجماعة الرحالة، فقد انتظرنا هذا الكاهن في كنيسة[1] صغيرة مبنية من الحجر الصلب، مترفعة وسط الغابة، عارية وباردة. وقد استقدم معه شمعدانين[2] من الحديد وصليباً، تشكلت منهم الزينة الوحيدة لمذبحه المتواضع والمبني كعرش سليمان من الأرز المقطّع، على شكل طاولة أرزية. وكانت المفارقة أن القندلفت، لم ينس إلا كتاب الإنجيل، لذلك كان علينا انتظاره ساعتين ليجيء به. ولم نجد إلا طريقة للخلاص من هذا الموقف الصعب، فقد أخذت كتاب التوراة اللاتيني الذي في جعبتي وترجمت منه إلى الفرنسية إنجيل اليوم، وهو الذي حوله الترجمان مباشرة إلى اللغة العربية.

ويحتفل بهذا القداس في الجبل ضمن كنيسة قديمة، وتحت قبة الأشجار التي تكاد تكون مقدسة، حيث يشع بين أغصانها في الأفق، لون البحر السوري اللازوردي.

لقد أقبل نحونا حفيد كرم، أسعد بك[3]، جاء ليسلم علينا يواكبه جميع رجاله، وبين تلك التلاّت الصغيرات، حيث تظهر غابة الأرز، كانت كوكبة من مئتي فارس على الأقل، يلبسون الثياب الجميلة الباهرة، ويمتطون جياداً قوية، ويتمنطقون بأسلحة تتمرجح على أكتافهم. وكانت تلك الكوكبة تمرّ الواحدة بعد الأخرى أمام أعيننا، وفي هذه المسيرة، بدا الشيخ الفتي بهندامه

(١) كنيسة التجلّي في غابة أرز الرب التي بنيت منذ القرن ١٦ بجذوع وأغصان الأرز، حتى عقدها قبواً حجرياً الخوري يوحنا شبيعة ١٨٤٤، عمدت لجنة أصدقاء الأرز مؤخراً إلى ترميمها من الخارج والداخل مستعملة أخشاب الأرز التي حطمتها عاصفة ١٩٩٢.

(٢) الشمعدان لفظة مركبة من شمع، ولاحقة دان الفارسية، تعني حاملة الشمع.

(٣) أسعد بك كرم ١٨٥٢ ـ ١٩٠٣. والده مخائيل وأمه حوا ابنة الشيخ ضاهر الضاهر، تولى مديرية إهدن ١٨٧٤ ـ ١٨٧٨ وله ٢٢ سنة، ثم مرة ثانية ١٨٨٣ ـ ١٨٨٧، وقائمقاماً على البترون ١٨٨٧ ـ ١٨٩٢. راجع عنه سمعان خازن: تاريخ إهدن القديم والحديث، ج١، وتاريخ إهدن الديني، ١٩٣٨، ص ١٦٠ ـ ١٧١.

الحريري المقصّب الناعم، وبرزت تقاطيع وجهه النبيل الملفتة، لتدل على أصل رفيع وقديم.

لقد جاء أسعد بك كرم لملاقاتي، وشدَّ على يدي بمحبة، وخاطبني بالفرنسية بثقة ونبرة مدهشتين. لقد أجلسته قرب النار التي أضرمناها بينما استوقف رجاله جيادهم وشبكوا سلاحهم، وتجمعوا بشكل دائرة حولنا خلف الجذوع الضخمة، وهم حذرون ومنتبهون، فأي فنّان يمكنه أن يرسم لوحة أجمل.

لقد حدثني البك بإسهاب عن شؤون وشجون كرم المنفي، وعن إخلاصه الذي لا تنتابه شائبة لفرنسا، ويجب القول بأن كلامه كان محقاً لأن عينيه الواسعتين والجو الملوكي الذي ظهر لدى الحاضرين كان يعبِّر عن الشعور نفسه بلباقة ظاهرة. ولقد تأثرنا شديد التأثر بأن نجد في هذه الجبال البعيدة اسم وطننا التعيس مكرّماً ومعتبراً لهذه الدرجة. لقد رجانا الشيخ بأن نقبل استضافته لنا في بيته الأهدني، في البيت الشعبي لكرم، المفتوح كما جرت العادة لدى بيوت الإقطاعيين عندنا لكل رجالات الوطن. وكانت لدي مع الأسف، أسباب من التحفظ لعدم قبول هذه الفرصة المليئة بالعبر. وبينما أنا أتنزه مع ضيفي النبيل، في ظل أشجار الأرز، وابن لبنان الفتي يحدثني باعتزاز عن أمجاد جبله، شكل مرافقوه دائرة واسعة وبدأوا الرقص على أنغام الأغاني العربية التي تعتمد الرجع، وقد داخلها مقاطع تشيد بمجد فرنسا. سترات زرق مفرقة تلمع بالذهب وشراويل عريضة وطرابيش، تمرّ ثم تظهر في مشهدٍ يسيطر عليه إخضرار الغابة التي تحيط بهذه الوجوه المليئة بالعزم والذكاء بينما الجياد تصهل وتكدف.

لقد ودّعنا هؤلاء الأصدقاء المجهولين الذين حيّوا رحيلنا بإطلاق الصيحات الحماسية وبصرخات تنادي (لتحيا فرنسا) وبدفعات من طلقات

بنادقهم. من مكان بعيد، أتى البك خصيصاً مع جمهوره، ليعبّر لنا عن مدى تأثره بفرنسا وقيمها وليظهر لنا أيضاً صداقته وعرفانه بجميلها.

بعد الوصول إلى قمم الجبال العالية، فوق غابة الأرز، ظهر أمامنا مشهدان مختلفان، الأول يشير إلى قسمٍ من جبل لبنان ينتشر ما بين البترون وطرابلس وطرطوس والبحر، والآخر يمتد نحو سهل البقاع الواسع ونحو آثار بعلبك التي تبدو وراءها سلسلة كثيفة هي انتي لبنان[١]، وإلى اليمين قمة جبل الشيخ حرمون التي تحجب حوض الأردن، ومن وراء الجبال سماء مشعة ولطيفة، هي سماء دمشق.

وبعد ساعتين من السير في طريق هابطة متعبة، نصبنا خيامنا في بلدة عيناتا على منتصف الطريق بين المجاز والبقاع، وبعد الغداء استأثرت بانتباهنا أنغام صاخبة تحدّرت إلينا من أصوات منجيرة ودربكّة، أنهم مجموعة من البدو العائدين من عرس في بشرّي، وهم يرقصون على صوت تلك الأوركسترا العجيبة على نغمٍ غريب يداخله بعض الطرب.

وبناءً لطلبنا قدمت بعض الشابّات المارونيات رقصة جبلية بعد رقصات أولئك، وقد تميّزت بهزّ الأعطاف وتناسق الحركات. وكان الكاهن المرافق يشرف على الأجواء المسلية البريئة وهو يدخّن شبقه[٢] الطويل ويتمسك بقنديل يتصاعد منه الدخان، شكّل الأداة المضيئة في ذلك المشهد المرتجل. وانتهى الأمر بتوزيع بعض القروش على أصوات «لتحيا فرنسا»، واستمرت الموسيقى البربرية تصدح، في حين كنا نغطّ في نوم عميق إثر إرهاق شديد وتعبٍ مضنٍ، ومع ذلك كنا سعداء لأننا أضفنا يوماً مشرقاً إلى مجموع ذكريات هذه الرحلة الراسخة في البال.

(١) Anti - Liban: لبنان المقابل، اسم يطلق على سلسلة جبال لبنان الشرقية.

(٢) الشبق نوع من الغليون، يتكوّن من رأس مجوّف من الفخار يحشى بالتتن (التبغ)، تتصل به ماسورة طويلة، غالباً ما تكون من غصن البيلسان، تنتهي إلى فم الشارب، بينما يلقى الرأس على الأرض أو يسند إلى مسند.

٨ ـ بعلبك ١٩ ـ ١٠ تشرين الثاني:

إثر مغادرتنا عيناتا، سرنا عدة ساعات نزولاً حتى وصلنا إلى دير الأحمر، ومنها إلى سهل البقاع المشهور بأرضه الخصبة وتربته الحمراء حيث لم نعثر على أية شجرة نستظلها. كانت قطعان من الجمال والغنم ترعى هنا وهناك، باحثة عن العشب اليابس يرعاها رعيان دروز أو متاولة. ومشينا أربع أو خمس ساعات لنصل إلى آثار بعلبك، فتجولنا عدة دقائق بين آثار تلك الجدران الرومانية، ودخلنا أقبية مظلمة تحت الأرض وصلنا منها إلى المسطح حيث توجد الهياكل، وكنا مبهورين وقد انتابتنا الدهشة من العجائب التي تحيط بنا.

فالأكروبول[1] الذي ترتفع عليه الهياكل هو نوع من هضبة اصطناعية مبنية في السهل على سفح الأنتي لبنان، الجدران الخارجية قامت على بنائها ثلاثة أجيال متمايزة. الأساسات وهي حجارة عجائبية، يُقال إنها فينيقية أو سيكلوبيانّ[2] Cyclopéennes أصلها حيّر عقول الأثريين، على المرء أن يرى الكتل الحجرية التي طولها أكثر من ٦٠ قدماً[3] وعرضها وسماكتها ١٥ـ٢٠ قدماً، وقد ارتفعت إلى علوٍ شاهق فوق الأساسات ليتأكد من هذه دهشة علماء الآثار. في الأعلى تبدأ الحجارة الرومانية، وبهذا المشهد الذي نعرفها فيه وهي مبنية بمواد ضخمة، وقد قام العرب بتتويج كل ذلك بسور وبأبراج مبنية من بقايا الحجارة الأثرية. ثم يتابع الكاتب كلامه بوصف لآثار بعلبك، بأسلوب يسيطر عليه التأمل والتحليل «الأعمدة الستة التي ما تزال منتصبة في

---

(١) الأكروبول لفظة يونانية، أكروبوليس، تعني المدينة العليا، تدلّ أصلاً على تلة ترتفع عليها هياكل الآلهة، فتكون إذاً مدينة الآلهة، تقابلها بوليس، أي مدينة البشر، المنبسطة عند أقدام الأكروبوليس، وأشهر ما عُرف من هذا النوع أكروبول أثينا، فقيل، بالمشهابهة، أكروبول هليو بوليس أي مدينة الشمس بعلبك.

(٢) المقصود هو أن الحجارة كبيرة مهندمة على الطريقة اليونانية القديمة.

(٣) القدم: وحدة قياس إنكليزية تساوي ٣٠,٤٨ سنتيمتر.

هيكل الشمس، هي أشجار من الحجارة الفريدة في العالم، تظهر أمامها أشجار الدلب لدينا وأشجار السنديان، قزمة ومتواضعة، وهي تقطع قبة الفضاء إلى قسمين وكأنها تحمل هذه القبة. لقد عبد الإنسان إله الشمس في السهول الممتدة من الفرات حتى البحر المتوسط».

ويختم المؤلف حديثه عن آثار بعلبك بكلام يتأرجح بين الواقع والخيال.

٩ ـ ملاحظات عامة:

١ ـ هناك شخص آخر يحمل اسم فوغيه، زار بلاد الشرق، وهو نسيب صاحب الترجمة، اسمه شارل جان مالكيور ده فوغيه ١٨٢٩ ـ ١٩١٦ Charles Jean Melchior de Vogüé وُلِد في باريس، عالم آثار وديبلوماسي، عضو في الأكاديمية الفرنسية ١٩٠١. له عدة مؤلفات منها كنائس الأرض المقدسة (١٨٦٠)، البناء الديني والمدني في سوريا الوسطى منذ القرن الأول حتى السابع (١٨٦٩).

٢ ـ وصل رحالتنا إلى بيروت في ٧ تشرين الثاني سنة ١٨٧٢، على متن مركب للويد Lloyd النمساوي وقد ذكر أن البواخر حلّت محل المراكب الشراعية القديمة مع إشارة إلى صوت وضجيج المحرك الجديدان عليه. وغادر بعلبك في ٢٠ تشرين الثاني، وهو يكون قد بقي في لبنان زهاء ١٤ يوماً فقط وهي فترة قليلة نسبياً للتعرف على أي بلد. فلعامل الوقت أهمية كبيرة في الأسفار تنعكس على نتاج السياح من حيث ضخامة المعلومات الواردة فيه ودقتها.

٣ ـ عندما زار رحالتنا لبنان كان له من العمر ٢٤ سنة فقط، وهذا ما سينعكس على مدوناته.

٤ ـ وصل الكاتب إلى بلدنا في فصل الخريف، ولو زاره في فصلي الربيع

أو الصيف لكانت صورة الطبيعة في مدوناته أزهى وأبهى.

٥ ـ لقد زار جبل لبنان في فترة المتصرفية وبالتحديد في نهاية عهد المتصرف فرنكو باشا.

٦ ـ كان متصرف بيروت في تلك الفترة كميل قبرصلي باشا الذي استلم الحكم ما بين ١٨٧٢ و١٨٧٥، علماً أن بيروت كانت متصرفية بين ١٨٦٤ و١٨٨٧، ثم تحولت إلى ولاية ما بين ١٨٨٧ و١٩١٨.

٧ ـ خصَّص الرحالة ٤٢ صفحة للحديث عن لبنان (من ص ٢٦ ـ ٦٨) من أصل كتاب بلغ ٣٣٣ص. بالإضافة إلى صورة لأعمدة بعلبك الهيكل الكبير بين ص ٦٠ و٦١. والصفحات المتعلقة ببلادنا توازي ٨٪ من الكتاب.

٨ ـ تمتَّع المؤلف بلغة صحيحة، وألفاظ متينة وعبارات متماسكة وصور شاعرية رائعة.

٩ ـ يعتمد الكاتب التشبيه والمقارنة، فنظراً لمناخ بيروت المعتدل في الخريف فهو يشبهها بمدن فرنسية مثل هيير Hyères وكان Cannes وقد تحولت إلى مراكز شتوية منتشرة على شاطئ المتوسط، كما يشبِّه الشوارع الرئيسة في بيروت بالشوارع الأوروبية.

١٠ ـ خلال وصفه للناحية الطبيعية اللبنانية، تحدث عن موقع مدينة بيروت وعن اللوحات الأثرية المنتشرة على صخور نهر الكلب وعن غابة الأرز التي تحوي بين ٦ـ٨ أشجار معاصرة للتوراة.

١١ ـ من الناحية الاجتماعية، وتحديداً عند كلامه عن طوائف لبنان، تحدث عن الموارنة الذين ذكَّروه بالنبوغ اليوناني. وقد قام بوصف ملامح الشيعة (المتاولة) ذوي الشعور الطويلة، والأنوف المعقودة كمنقاد النسر، وأصحاب الملامح القاسية المتوحشة.

١٢ ـ بالنسبة للعادات والتقاليد، فقد انتقد المؤلف، تزايد أعداد العاطلين عن العمل، الذين كانوا يشاهدون في مقاهي بيروت، ينفثون في أنابيب نارجيلاتهم المطاطية، وهم أشبه ما يكونون بالتماثيل الجامدة التي لا يرف لها جفن، ولا يهتز لها حاجب.

١٣ ـ عن الضيافة التي توارثها القروي اللبناني عن أسلافه وأجداده، يتحدث صاحب الترجمة عن استقباله الزعيم الإهدني أسعد بك كرم في غابة الأرز ودعوته إياه لزيارته في إهدن بعد أن اجتاز مسافة طويلة للقائه في تلك الغابة.

١٤ ـ يشير فوغيه أثناء كلامه عن الأزياء، إلى أنه كان يحق فقط للمتزوجات دون العازبات، ارتداء الأثواب المفتوحة حول العنق (الديكولته).

١٥ ـ بالنسبة للناحية الاقتصادية، وبخاصة التجارة الداخلية، فإن المؤلف يرسم لنا لوحة لأسواق بيروت، حيث الأثمار والبهارات والعطور والكوفيات والمناديل الحريرية الزاهية الألوان، والسروج المشغولة من الجلد الأحمر وركابات الحديد الواسعة وغيرها.

١٦ ـ التعليق على الحبيس الإيطالي الذي يتحدث في الأمور السياسية وعن الكاهن الذي لم يحمل معه الإنجيل قبل البدء بالقداس.

١٧ ـ أعطانا فكرة عن القوافل المتوجهة إلى مصر والتي تقضي ٢٠ يوماً من الوقت لقطع تلك المسافة.

١٨ ـ لم يتوسع بالعادات المتعلقة بالمأكولات اللبنانية، علماً أن الفصل الذي مرّ فيه بلبنان هو فصلٌ غني بالأثمار (الليمون والموز على الساحل والتفاح في الأعالي).

١٩ ـ لديه معرفة متمكنة بالتاريخ الديني القديم، ويبدو قريباً من الإكليروس ومتأثراً بالمذهب الكاثوليكي.

٢٠ ـ مرَّ بمناطق لم يتحدث عنها إطلاقاً (مثل العاقورة، عيناتا، دير الأحمر) أتراه لم يقم في تلك الأمكنة طويلاً؟ أمّا الأماكن التي وصفها، فقد جاء وصفه بسيطاً وعاماً ومختصر جداً.

٢١ ـ لم يتحدث عن الخان الذي نزل به، ولا وصف الخيم التي نزل تحتها، حتى إنه لم يذكر أسماء مرافقيه.

٢٢ ـ كانت هذه الرحلة خيالات وتصوّرات أكثر منها تسجيلات، ولعلّ تدوينه لهذه الرحلة كان من باب الترفيه أكثر من باب الجدّية، وهذا واضح من مقدمة الكتاب. خواطره الفلسفية كثيرة، ويبدو أنه دوّن الرحلة بعد الانتهاء منها، لذلك سها عنه الكثير من التفاصيل وحوَّر من طبيعة المعالم، ولو توخّى الدّقة لكان قدّم لنا المزيد من التفاصيل والحقائق الاجتماعية.

مدن لبنانية في رحلة الشيخ القاياتي

د. إبراهيم بيضون(*)

كان القرن الثامن عشر على وشك اختتام مسيرته الهادئة في المشرق العربي. ولكن حدثاً كبيراً فاجأه على مشارف النهاية، متمثلاً بالحملة الفرنسية التي حلّت كالصاعقة، فرجّت التاريخ الآجن، وفجّرت ضوءاً في العقول الراكدة، المسكونة بظلام أبدي. لم تحقق الحملة هدف بونابرت في زعزعة قوة أعدائه الإنكليز في الشرق، تمهيداً لضربهم في المعقل الأوروبي المنيع، فغادر سرّاً إلى بلاده، تاركاً حملته تواجه الهزيمة قبل انسحاب فلولها، وتاركاً، من غير قصد، المجال لتغيّرات عاصفة في المكان الذي تكسّرت أحلامُه الشرقية في مداه، ليشهد ولادة تاريخ جديد، لم يكن ثمة سبيل إليه حينذاك، من دون تلك الحملة والتداعيات المثيرة في أعقابها. فلم تعد مصر مجرّد ولاية تذعن للسلطنة العثمانية، بعد أن قطعت شوطاً كبيراً نحو الدولة التي بدت مستقلّةً على الأرض، متّخذة ريادتها العربية في هذا المجال.

وكان محمد علي، الضابط الألباني في القوات العثمانية التي شاركت في إخراج الفرنسيين من مصر، في متسوى ذلك التحوّل، مدركاً، بوعيه التاريخي اللمّاح، متغيّرات المرحلة، متصدياً بجرأة لتحدياتها. فقد أسفرت الحملة عن واقع، تفتّحت فيه العقول على مفاهيم جديدة في السياسة والاجتماع والاقتصاد، ولم يتردّد الضابط المغامر، الذي قرأ جيداً المتغيّرات،

(*) أستاذ في قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الفرع الأول، الجامعة اللبنانية.

في الإمساك بزمام اللحظة التاريخية، والوثوب إلى السلطة ذاهباً في طموحه إلى المدى البعيد.

وهكذا في رهج المرحلة، أصبح محمد علي حاكماً على مصر، وفي صخب الفكر الأوروبي النهضوي، خاض التجربة، مستفيداً مما تركته الحملة من تراث علمي، ومن خبراء في الإدارة والجيش كانوا قد تخلّفوا عنها. ولكنه على الرغم من نجاحه في إرساء دعائم الدولة الحديثة، محقّقاً الريادة في هذا المجال على مساحة النصف الأول من القرن التاسع عشر، فقد أخفق في إقامة نظام سياسي متكافئ معها، ومتطابق بالتالي ـ فكراً وشعارات ـ مع الأنموذج الأوروبي، فنزع وأسرته إلى الاستبداد، بإحكام القبضة على المناصب العليا واستبعاد المصريين عن أي دور قيادي في الدولة. ولعل الوحيد الذي تنبّه إلى هذه الثغرة، هو نجله الأكبر إبراهيم باشا، الذي كتب إليه محذّراً من الاستئثار بالحكم والاعتماد فقط على عناصر الأتراك والشراكسة. ولكن الأب المؤسس كان ما يزال مشكّكاً في ولاء المصريين له، متوجّساً من أن يقودهم الشعور بالقوة إلى الثورة عليه، وهو ما أفضى به في جوابه إلى ابنه:

«إنني قد تجنّبت حتى الآن ترقية العرب في الرتب العليا، وظللتُ محجماً عنها مدة طويلة، مقدّراً النتائج التي ستترتّب عليها بعد مائة عام[1]».

ولم تخن محمد علي هواجسُه في هذا الصدد، إذ حدث ما توقعه ليس بعد قرن من الزمن، ولكن بعد أقل من نصف قرن على تصريحه السالف، حين قامت الثورة على أحد أحفاده (الخديوي توفيق)، ولكنها جاءت أكثر مطابقة لهواجس ابنه (إبراهيم)، في النقمة على حرمان الضباط المصريين من الترقية. وكان بين هؤلاء أحمد عرابي الذي جاشت نفسه حينذاك بالمعاناة، لا

(١) عبد العزيز نوار، تاريخ العرب المعاصر، ص ١٤٨.

كعسكري مسلوب الحق في الترقية فحسب، بل كواحد من الشعب الذي يشقى لتسعد قلّة تحوز على المواقع العالية والامتيازات في الدولة. ولقد بلغت هذه السياسة ذروتها بعد افتتاح قناة السويس على عهد الخديوي إسماعيل، والتي كان الشعب المصري قد بذل التضحيات الجسام في سبيلها، آملاً أن تسهم في تخفيف معاناته وتصبح مصدر قوة لاقتصاده. هذه الآمال سرعان ما تلاشت، حين تحوّلت القناة إلى وبال عليه، بعد إغراق الخديوي بلاده بالديون، واستغراقه في حياة البذخ والترف، مما أدّى إلى بيع أسهمها إلى بريطانيا، المتربّصة للانقضاض عليها.

كان عرابي في غمرة هذه التطوّرات، يتابع عن كثب ما آلت إليه أوضاع البلاد، متأثراً بالتيّار الوطني الذي أخذ يتّسع مداه وينشر فكره الثوري، ضدّ الاستبداد واحتكار الأقلية للسلطة والمواقع الرئيسة في الدولة. وفي أيلول من سنة ١٨٨١، كانت تظاهرة شعبية، يشارك فيها عسكريون مصريون، تتجه إلى قصر الخديوي، مطالبة بانتخاب مجلس قيادي وإصلاح قوانين الجيش وتغيير الحكومة غير الممثلة للشعب. فكان ردّ الخديوي توفيق الاستعلائي على هذه المطالب، ما شجع على تصعيد وتيرة الموقف باتجاه الثورة... وحينذاك لم يجد الخديوي بدّاً من الانحناء للعاصفة، فاستبدل بالحكومة القائمة، حكومة جديدة، سرعان ما أخذت تؤسس لنظام دستوري، يكون فيه الحكم مسؤولاً أمام ممثلي الشعب. ولكن بريطانيا في ضوء الاتجاهات الاستعمارية التي تبلورت بعد مؤتمر برلين (١٨٧٨)، كانت قد انتزعت من فرنسا الموافقة على احتلال مصر، ولم تتردّد حينذاك في استخدام الوسائل كافة لضرب الثورة، وكل ما يعيق أهدافها في السيطرة على هذا الموقع الحيوي في مصالحها الاستعمارية الشرقية. وما لبث أسطولها أن تحرّك في قناة السويس، فيما كانت قوة عسكرية تنزل في الإسكندرية وتأخذ طريقها إلى القاهرة، حيث انتصرت على قوات الثورة في معركة «التلّ الكبير» (خريف ١٨٨٢).

وإذ دخلت مصر، بتوجيه من الخديوي، في دائرة الاستعمار البريطاني، لجأ الأول إلى تصفية جيوب الثورة، فلاحقت أجهزته زعيمها ورفاقه، والمؤيّدين له من العلماء والشعراء والقيادات الشعبية. وقد انتهى عرابي منفياً إلى جزيرة سيلان، وتوارى عن الأنظار خطيب الثورة عبد اللّه النديم الذي بقي متخفياً تسع سنين، يتنقّل خلالها من بلد إلى آخر في القطر المصري، قبل أن يُقبض عليه ويُنفى إلى يافا في فلسطين. أما الأزهر الذي قاد الحركة الشعبية ضد حملة بونابرت، وما انفك في دوره الطليعي مع الثورة العرابية، فقد ألقي القبض على عدد من علمائه وطلابه، فأودع بعضهم السجن، وأُجبر آخر على مغادرة البلاد، والقليل منهم تمّ العفو عنه. وكان بين المنفيين أزهري لم نتعرّف تماماً إلى دوره في الثورة، وهو الشيخ محمد بن عبد الجواد القاياتي. وقد حلّ في الديار الشامية جائلاً ما بين فلسطين وسوريا ولبنان، مسجّلاً الأحداث التي واجهته وما تركته من الانطباعات في نفسه، في كتاب يحمل عنوان: «نفحة البشّام في رحلة الشام».

ـ ٢ ـ

كانت الرحلة مما عُرف قديماً من فنون الكتابة، وكانت تتمّ لغاياتٍ مختلفة، إما بدافع شخصي، أو في إطار حملة عسكرية، أو سعياً لطلب العلم، أو استجابة لفريضة دينية على غرار تلك الرحلات في مواسم الحج، انطلاقاً من البلدان البعيدة إلى الأماكن المقدسة في الحجاز. ومن الأمثلة على ذلك، الرحلة الشهيرة لابن جبير الذي قدم من الأندلس، مدوّناً ما صادفه على الطريق، برّاً وبحراً، وذاكراً بعض خصائص البلدان التي مرّ بها، مما شكّل مادةً مهمة للمؤرخ في التعرّف إلى المناخ السياسي للمرحلة وحياة السكان وعاداتهم وثقافاتهم ونمط إنتاجهم الاقتصادي. وغالباً ما كان أهل العلم، فقهاءً وجغرافيين ومصنّفين في التاريخ، يتوسلون الترحال إلى المراكز

الكبرى، لتلقي المعرفة، أو التتلمذ على أيدي علماء أصابوا الشهرة في حقلهم، أو الاطلاع على مادة لم تتيسّر لهم في أماكن إقامتهم. ومن هؤلاء، المسعودي الذي اكتسب كتابه في التاريخ (مروج الذهب ومعادن الجوهر) أهميته من المادة الجغرافية الناجمة عن ترحاله في أماكن عدة عاينها عن كثب. كذلك البلاذري في كتابه «فتوح البلدان»، الذي كانت الرحلة واضحة فيه، بحثاً عن حقائق تتّصل بموضوعه ما يتتبّع أخبارها، على نحو ما نراه في رؤيته إلى «المردة»، ملتمساً مادتها من «شيوخ أهل أنطاكية»، الأكثر قرباً من تفاصيلها.

ـ ٣ ـ

لعل رحلة القاياتي تندرج في غير هذه الدوافع التي سلفت، إذ تجلّت فرادتها بوضوح العامل السياسي فيها، نتيجة لاتهامه بالتعاطف مع الثورة العرابية، ومن ثمّ نفيه بناءً على ذلك إلى خارج القطر المصري. هذا ما اختصره الكاتب من أسباب لرحلته، متخذاً لها عنواناً غريباً، وهو «نفحة البشّام»، من دون أن يفصح عمّا يرمي إليه هذا العنوان في المقدمة. وقد جاء في «لسان العرب» في تفسير الكلمة (البّشم) مقتصراً على معنيين: الأول يدلّ على التخمة، والثاني على «شجر طيب الريح والطعم»[1]. وقد يكون كلاهما وارداً في التعبير عن رحلة لقي فيها صاحبها من التكريم حتى الاتخام، وتركت من الأثر في نفسه، كمثل ريح ذلك الشجر، وإن كان التفسير الثاني إقرب إلى أن يكون القصد منه في العنوان، لا سيما وأن كلمة «نفحة» التي استخدمها الكاتب متقدّمة على البشّام، أكثر مواءمة لهذا المعنى من التفسير الأول.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص ٥٠.

والآن، من هو كاتب الرحلة الشامية؟

مرةً أخرى لم يدعنا الكاتب نتعرّف إلى شخصيته، إذ بدأ مباشرة، وبشيء من الاقتضاب، في شرح أسبابها من دون أية إشارة إلى سيرته، بما فيه نشأته ودراسته وموقعه العلمي والاجتماعي، فضلاً عن دوره في الثورة العرابية. ولكننا عرفنا قليلاً من أخباره بصورة غير مباشرة في سياق رحلته، بأنه وُلِد على الأرجح في المنيا من أعمال الصعيد، ودرس في الأزهر، حيث تفقه في الدين وتدرّج في علومه، مما يتضح لنا في الاحتفاء به في الأمكنة التي حلّ فيها، وكذلك في الإشارة أحياناً إلى علماء زاملوه في الدراسة، ممن التقى بهم في منفاه الشامي خصوصاً في بيروت وطرابلس. وما عرفناه، عدا ذلك، من سيرته، فهو مرتبط بالثورة التي لقيت تأييداً عارماً من المصريين، «فاجتهدوا ـ حسب تعبيره ـ غاية الاجتهاد في سبيل المدافعة والجهاد... وبذلوا من نفائس النفوس وما قدرون عليه من مأكول وملبوس، ومهمات عسكرية وتجهيزات حربية، وغير ذلك مما تصل إليه يد الاستطاعة ولو ببسط أكفّ الابتهال والضراعة، كل منهم على حسب حاله وما يليق بأمثاله»[١].

أما أهل العلم، وقد صنّف نفسه بينهم، فكانوا «يساعدون بالدعوات الصالحات والاستغاثات والتضرعات»... يتقدّمهم شيخ الإسلام، مستحثّين على «اتحاد الكلمة» في «مقاومة البلاء» متمثّلاً بنزول الإنكليز في مصر. فهو مع الثورة إذاً، متحمّس لها، ولكن الغموض يشوب موقعه فيها، والذي يبدو لنا في تضاعيف الرحلة هامشياً لم يتعدّ الانخراط في تيّارها انطلاقاً مما رآه من «شأن كل أمة قصدتها بالحرب أمةٌ أخرى، فهي ترى أن الدفاع أولى وأحرى»[٢]. ولكن هدى شعراوي، وفي سياق النقد لقائد الثورة (عرابي)، تستشهد بمقالة لابن القاياتي (حسن) في الأهرام (٢٢ أيلول ١٩٢٠)، جاء فيها أن أباه كان على ألفين من «المتطوعين من الأهالي، دعاهم عرابي

(١) نفحة البشّام، ص ٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٧.

للهجوم على الأعداء (الإنكليز)، فامتنعو»، إذ لم يجد الشيخ فائدة من ذلك بعد هزيمة الجيش، متّهماً قائد الثورة بالتقاعس والخيانة[١]. ومما يعنينا هنا، بعيداً عن سجالات المؤرخين في هذه المسألة، أن الشيخ القاياتي، باعتباره أزهرياً، كان له دور في الثورة لم يلفت إليه بهذا الحجم في رحلته إلى الشام، التي جاءت التفاصيل المصرية مختزلة إلى حدّ كبير فيها. ولذلك فهو يقصر القول على استهدافه بالنفي الذي طال آخرين من علماء الأزهر، فأصابه ما أصاب أولئك النخب ممن تصدّوا للاحتلال الأجنبي منذ حملة بونابرت، إذ كان «أهل الفضل والدين»[٢] ـ حسب تعبيره ـ أكثر من واجهوا عذابات تلك المرحلة الصعبة، ولكنه يبدي في الوقت عينه ـ ربما تحت وطأة المحنة ـ تنصّلاً من الضلوع في الثورة، واصفاً التهمة التي وُجِّهت إليه بأنها مجرّد وشاية باطلة[٣].

ـ ٤ ـ

بعد دخول القوات البريطانية القاهرة، يتقدّمهم «كاتب الحضرة الخديوية»[٤]، صدر الأمر بالقبض على كل الذين وقعت عليهم شبهة التعاون مع الثورة. ويروي القاياتي في هذا السياق: «كنا في ضمن من وقع الحجر والحجز عليهم.. فصار سجننا بسجن مديرية المنيا.. مع عدد كثير من الوجوه والأعيان ومشايخ العرب والبلدان»[٥]. وبعد صدور الأحكام نُقل إلى سجن الضابطية في القاهرة، حيث أمضى عشرة أيام، تقدّم خلالها بطلب للسماح له بالذهاب إلى الحجاز، بقصد «النسك والعبادات الدينية»، ولكن

(١) مذكرات هدى شعراوي، ص ٢٢ـ٢٣.

(٢) نفحة البشّام، ص ٨.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) رئيس النواب.

(٥) نفحة البشّام، ص ٨.

طلبه رُفض. ثم وجد نفسه بعد ذلك في سجن الضابطية في الإسكندرية، فأمضى أسبوعاً لقى فيه من عنت السلطة واضطهادها الكثير. وما لبث أن صدر القرار بإبعاده إلى الشام، فغادر بحراً ـ وكان الوقت شتاءً ـ في ربيع سنة ثلاثماية وألف للهجرة (١٨٨٢م)، إلى بور سعيد، ومنها إلى يافا، فحيفا، فبيروت التي وصلها صباح الأربعاء[1]، أي بعد ستة أيام على مغادرته الإسكندرية.

وكان أول نزوله في بيروت، في خان السيد قبل أن يحلّ ضيفاً على آل القبّاني ـ بجوار دور السادات في منطقة الباشورة[2] ـ وقد وصفهم بأنهم «من مشاهير تلك المدينة المعمورة». أما الذي استضافه فزميل في الدراسة بالأزهر، وهو الشيخ أحمد القباني، ابن أخي عبد القادر القباني صاحب جريدة «ثمرات الفنون» المعروفة. وخلال إقامته في هذه المدينة، كان موضع حفاوة وترحاب من علمائها وتجارها الذين تعاطفوا معه في محنته، ولقى منهم من الإحاطة ما أشعره بأنه في بلده وبين أهله. ونتعرّف في هذا السياق إلى العائلات التي صادفها واحتكّ بأبنائها، ومعظمهم علماء المدينة وأدباؤها وكبار التجار فيها. فإلى جانب آل قباني وآل حمادة، يذكر آل بيهم، متحدّثاً عن «تجاراتهم العظيمة وقصورهم المشيدة» ومنهم الشاعر حسن بيهم، ومحي الدين بيهم، الذي سبق له أن تولى رئاسة البلدية، وحسين بيهم، وكان أيضاً، شاعراً أديباً[3]. كما أتى على ذكر عائلات: رمضان، وأياس (الدمشقية الأصل)، وغندور، والبربير، والخواجة وغيرها، متحدثاً عن أعيانها وأصحاب الثراء منها[4].

ولكن حديث العلماء ما أخذ باهتمامه، لا سيما الأعلام منهم، مثل

---

(١) المرجع نفسه، ص ١١.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٢.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٤.
(٤) المرجع نفسه، ص ١٥ ـ ١٧.

الشيخ يوسف الأسير، الصيداوي الأصل، والذي درس في الأزهر بالقاهرة على كبار شيوخه، ثم تنقّل بعد عودته ما بين طرابلس وعكا والآستانة، قبل أن يستقرّ في بيروت، مشتغلاً بالتعليم والقضاء والتصنيف في علوم الدين. ومن اللافت أن القاياتي، وهو يتحدث تحت عنوان الرحلة إلى الشام، حيث تندرج في مصطلح الأخيرة بلدان المنطقة، يستخدم ـ ربما لمرة وحيدة ـ مصطلح «لبنان» في معرض الإشارة إلى كثير من أهله الذين تتلمذوا على الشيخ «الأسير» في علوم اللغة وفنون الأدب، وكان بينهم «جمّ غفير من نصارى بيروت» على حدّ تعبيره[1]. ولعله قصد من ذلك، الذين درسوا على الشيخ ونهلوا من علمه من جبل لبنان، فخاطبهم بشيء من التوتّر، ناعتاً إياهم «بالجحود وإنكار الفضل»، من دون إبداء أسباب تسوّغ قوله الأخير.

بيد أن الشيخ القادم من بيئة كانت تضطرب بالمتغيرات، متفاعلة مع تيار التحديث، بدا لنا خارج هذا الزمن، مسترسلاً في خطابه التقليدي لا سيما في تقويمه الشخصيات التي قابلها، إذ نأى عن دورها العام بقدر ما اقترب من حياتها الخاصة، منبهراً بالجاه والترف والمجالس اليومية المنقطعة عن هموم المجتمع. والقليلون منهم، تحدث عرضاً عن إسهاماتهم العلمية، مثل الشيخ إبراهيم الأحدب الطرابلسي الأصل، الذي أورد له ترجمة على نسق الأقدمين، ربما أساءت له أكثر مما أبرزت أهميته عالماً وشاعراً متميّزاً في ذلك الوقت. ومن ذلك قوله: إذا نظم الشعر أغرب وإذا نثر الكلام أعجب، وإذا مدح ممدوحاً أطرى وأطرب، وإذا أجاب سؤالاً أجاد وأطنب»[2]. ومن الغريب أن شخصية مثل هذه لا يذكر لها كتاباً من التآليف الكثيرة التي تركتها، والتي ربما لم يطّلع عليها، مكتفياً بالقول: «إن حضرة الأستاذ له مؤلفات أخرى عدا ديوان الشعر. . . لم أستحضر لها الآن ذكراً»[3].

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٩.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢١.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٢.

وعلى نحو ذلك يعرض للآخرين من علماء بيروت، فلا يأتي على ذكر كتاب وما يحتويه مما ألّفوه، قاصراً حديثه على مكانتهم الاجتماعية والوظائف التي تقلدوها، وموهبة الخطابة التي تمتع بها بعضهم. يقول في هذا السياق عن الشيخ عبد الرحمن النحاس ـ مقترناً اسمه بلقب الأفندي، كما بقية العلماء ـ إنه «السيد الهمام والسهم المقدام والحسيب النسيب العالم الأديب... بيروتي الأصل والفرع والإقامة، وتولى بجامعها وظيفتي الخطابة والإمامة.. وهو أيضاً نقيب السادة الأشراف من سلالة آل عبد مناف»[1]. وعند هذا الحدّ تنتهي ترجمة الشيخ النحاس، محصورة بالجانب الذي يعني الكاتب دون غيره، وهو المتّصل بالموقع الاجتماعي للمترجم له، نسباً شريفاً وثراءً غامراً وأدباً رفيعاً، إلى آخر ذلك من صفات يشاركه فيها أولئك الذين أحاطوه بالرعاية والتكريم. وإذا كان من الطبيعي، انطلاقاً من تكوينه الثقافي الأزهري، أن يشيد بأهل العلم، وهو ما كان بارزاً فدي ترجماته بشكل عام، فإن شريحة عريضة كانت مغيّبة عن «رحلته»، ولم يلتفت إلى دورها ونمط عيشها وثقافتها وعلاقاتها، وهي التي تمثل سواد الناس في المجتمع الذي أقام وقتاً فيه، أولئك الذين لم يأبه لهم، بل إنه نعتهم بالسوقة والعوام في أماكن من كتابه.

وعلى الإيقاع عينه تابع ترجمة آخرين ممن التقى بهم، ومنهم الشيخ عبد الغني البنداق الجزائري الأصل، الإسكندري المحتد، البيروتي المولد والإقامة. ويلفتنا في هذا السياق، وجود عدد من الشخصيات في بيروت من أصول جزائرية ومصرية ودمشقية، وحتى طرابلسية وصيداوية وغيرها. فهذه المدينة من خلال موقعها ميناءً بحرياً مهماً، كانت ما تزال تجذب إليها المهاجرين، لغايات تتّصل بالتجارة أو بأداء فريضة الحج، فيحطون رحالهم فيها، وبعضهم تخلّف عن العودة إلى بلاده، الأمر الذي ترك تأثيراً واضحاً

(١) المرجع نفسه، ص ٢٣.

في نسيجها الاجتماعي. يصف القاياتي الشيخ البنداق بأنه «مشتغل بالعلم... وخطّاط في غاية الجودة والإتقان»، ويشيد بداره الظريفة الفسيحة التي غالباً ما كان يدعوه إليها «للكرامة والسمر وطيب الحديث والسهر» على حدّ تعبيره. كما يشيد بمفتي المدينة الشيخ عبد الباسط الفاخوري، «الطرابلسي الأصل صاحب العلم والفضل»، والمتفقه على مذهب الإمام الشافعي، إذ وضع فيه رسالة في العبادات بعنوان «الكفاية لذوي العناية». وثمة آخرون من أهل العلم أتى على ذكرهم، ومنهم الشيخان: محمد الحوت وعبد اللّه خالد، اللذان وصفهما «كفرقدي السماء وكبدرين في ليلة ظلماء».. ومنهم أيضاً الشيخ قاسم أبو الحسن الكستي، «أحد الأدباء في عصره وأوحد الشعراء في مصره»، وقد ذكر له مقاطع من قصائد في مدح الرسول وأهل البيت، وفي مدح «صاحب العزة» أحمد بك العابد مفتش العدلية سابقاً في ولاية سوريا. ونعرف هنا أن الشيخ القاياتي ـ على غرار أكثر العلماء... يمتلك موهبة الشعر، فيدخل حلبته مادحاً صاحب العزة السالف الذكر، كذلك أخوه ورفيقه في الرحلة (الشيخ أحمد)، لم يبخل بنظمٍ في هذه المناسبة.

ويسترسل صاحب الرحلة في حديث الأنس مع علماء المدينة وأعيانها، فيطغى على شجون المحنة التي تتلاشى أخبارها في يومياته إلى درجة أنه بات يصف إقامته بـ«السياحة الشامية»[1]. وكان ممن أنس حينئذٍ لهم، «القمر الكبير» الشيخ محي الدين اليافي، العاكف «على تعليم العلم النافع في الدين مشتغلاً به في كل حين»[2]، على حدّ تعبيره. وقد تردّد القاياتي على «منزله المعمور» في زقاق البلاط، وأفاد من «مكتبته العظيمة المشتملة على الكتب الفاخرة والقديمة»[3]. ويستوقفنا في هذا السياق وصفه لهذا الشيخ بالمعمّر

(١) المرجع نفسه، ص ٢٨.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢٨.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٨.

الكبير، وهو في سنيه الثمانين، مباركاً له فيها، مما يدلّ على انخفاض متوسط العمر في ذلك الوقت. وقد حظي هذا الشيخ بالمهابة، لا سيما وأنه من أصحاب (خلفاء) الطرق والكرامات الذين عرف القاياتي عدداً منهم في بيروت، مثل الشيخ محي الدين الفاخوري (من الخلفاء الصاوية)، والشيخ أحمد الرفاعي (خليفة الرفاعية)، والشيخ عبد الحميد يموت (خليفة الأحمدية)، والشيخ المعروف عباس الأزهري الذي كان قد زامله في الأزهر (خليفة الشاذلية)[1] إلخ...

وممن وصفهم بأهل العلم والأدب تعرّف إلى الشيخ سعيد الجندي، ومحمد اللبابيدي الشاعر والأديب، وكلاهما كان من موظفي الحكومة. كذلك المدرّس الشيخ رجب جمال الدين، والشيخ أحمد طبارة أحد أعضاء جمعية المقاصد الخيرية. واختلط أيضاً بتجار المدينة لا سيما إبراهيم طبارة الذي دعاه إلى داره العامرة، ومصطفى نجا الذي وصفه بأنه من أهل التجارة والعلم والذكاء، فضلاً عن آخرين من البيوت المشهورة مثل آل القباني والعريس وقريطم ودرويش. ويبدو أن القاياتي حرّر تفاصيل رحلته بعد العودة إلى مصر، لأن بعض من التقاهم في بيروت قد غابت أسماؤهم عنه. أما حديث المدينة فكان حديثاً إسلامياً، ونبرته مفعمة بالدين، حيث أقام بين المسلمين، وبعضهم عرفه في مرحلة الدراسة بالأزهر، فكان صلة وصل مع المكان الذي أقام فيه. ولكنه لم يطوِ هذه الصفحة عن بيروت وأعلامها من دون هامش مسيحي صغير، فيذكر عائلات ثلاث اشتهرت «بالتجارة والمعاملات الأوروبانية»، وهي سرسق والتويني وبسترس، مشيداً بمعاملتها لأهل الإسلام[2].

ومما يستوقف القارئ في هذا السياق، أن ما سجّله القاياتي من

(١) المرجع نفسه، ص ٢٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣١.

الانطباعات عن بيروت، لم يتعدّ مجالس العلماء والتي كان للتجّار محلّ فيها، إذ أصابوا شيئاً من الثقافة الإسلامية في ذلك الوقت، دون أن يصرفهم عنها الترف والثراء. وفي ضوء ذلك كانت هذه النخبة محطّ اهتمامه، حافظاً الجميل لأقطابها الذين أكرموا وفادته وخففوا عنه وطأة المحنة وقسوة البعد عن الأهل والوطن، ومهّدوا له السبيل إلى محادثة «أكابر الدولة وأصحاب الحلّ والعقد والصولة» بشأن قضيته. ومن هؤلاء «والي الولاية السورية» أحمد باشا حمدي الذي قدّم له استرحاماً للدولة العلية بالعفو عن المنفيين من مصر. كما حظي بمقابلة متصرّف بيروت (نصوحي بك) الذي تحدّث عن إجادته للّغة العربية واستهوائه الأدب والشعر، فضلاً عن مأمور الضابطية (فوزي أفندي) مسؤول الأمن الذي أعجب بشخصيته الذكية وإمساكه بزمام الأمر في المدينة، حيث كان «أهل البيوت يتركونها من دون تسكير ليلاً إلى الصباح فتبقى طوال الليل مفتّحة الأبواب»[1] على حدّ قوله.

ولكن ما نفتقده في هذا الصخب، هو الشيخ القاياتي نفسه، الذي يبقى الآخرون محور حديثه، بينما هو قابع في الظلّ، مراقب ليس أكثر ما يجري حوله من أحداث محلية، فلا يترك بصمة، وهو العالم الأزهري في فضاء المرحلة. لقد اختلف سلوكاً في هذا المجال عن الشيخ محمد عبده الذي حلّ بدوره منفياً في بيروت واشتغل فيها مدرساً وألقى محاضرات على بعض منابرها، من دون أن يتخلى عن دوره السياسي، متابعاً على الخصوص الاتصال بالشيخ الأفغاني في إطار مجلة «العروة الوثقى». ولقد دأب حينذاك على الكتابة والتحقيق، فنشر مقالات في بعض صحف مصر، وفي «ثمرات الفنون» البيروتية، وأضاف إليها أبحاثاً في التربية والأدب والتاريخ، كما شرع في تحقيق مقامات الهمداني ونهج البلاغة للإمام علي، ملتزماً منهجاً رائداً على هذه المساحة في العالم العربي[2]. فلم تكن بيروت معزولة إلى هذا

(١) المرجع نفسه، ص ٤٥.

(٢) محمد عمارة، الإمام محمد عبده، ص ٣٦-٣٧.

الحدّ عن الحدث السياسي، منصرفة فقط إلى مجالسها الاجتماعية والثقافية، ولكنها كانت معنية أيضاً بأمر السياسات الدولية ومشاريع اقتسام السلطنة العثمانية المتهاوية. وليست مصادفة أن تضطرب حينذاك بالمتغيرات، وترى إلى مصير العرب ما بعد الحكم العثماني الطويل، مسجلة ـ أي بيروت ـ ريادتها في هذا السبيل من خلال جمعيتها السرية الشهيرة (١٨٧٥). ولم نجد في الواقع صدى لهذه التداعيات في يوميات الشيخ القاياتي، الذي بدا غير منفعل ـ كذلك الشخصيات المحتفية به في رحلته ـ بما يجري في المحيط من تطوّرات سياسية غير عادية، وما يدور من صخب فكري، إذ كان الجميع ـ كما بدا لنا ـ متشبثين بالسلطنة ضرورة إسلامية، غير مكتنهين عبء وجودها أو نتائج سقوطها على قضية العرب ومستقبلهم.

ولكن ثمة ما يكسب مذكرات الشيخ القاياتي من القيمة، ما أورده من «نبذة» عن «عوائد أهل بيروت في أفراحهم وأتراحهم»، فيستهلّ انطباعاته في هذا الصدد، بملاحظة عوائد الأعياد والتي تبدأ بالصلاة في «مسجد البلد الكبير الجامع»، ومن ثمّ يكون التزاور في البيوت حيث تُقدّم أصناف الحلوى الرطبة والجافة. وفي مناسبة الزواج كانت الدعوات توجّه إلى «الأمراء» والأعيان والأقارب، فيلتقون في مكان متّسع مفروش بالرياش الفاخرة، وقد اتخذ «العالم» مكاناً خاصاً لقراءة المولد «مسجى بالحرير والديباج أو الكشمير». وحينما يبدأ بالقراءة ترتفع «الأراجيل» وتنطفئ السجائر وينصت الجميع، إلاّ في الفواصل التي يشارك فيها الحضور «بإنشاد الأشعار النبوية والأدوار المولدية». ويُسجل هنا ملاحظة ـ في ضوء المقارنة مع التقاليد المصرية ـ على «عدم معرفتهم الألحان الجديدة» في هذه الأدوار، كذلك يأخذ عليهم قراءتهم للقرآن، بأنها «ليست كما ينبغي في التجويد والجودة»، شأن أهل الشام الذين يتفوق عليهم المصريون في هذا المجال. ويرد ذلك إلى ضعف مستواهم في التجويد والطرب، الأمر الذي يعتبره نقصاً في

«التمدن». وبعد «المولد» تُوزّع «قراطيس من اللوز والملبس والسكر»، مع الفاكهة والشراب، ثم يُختتم الحفل بعقد الزواج، ويكون من شهوده وليا العريسين والعلماء والأمراء (يقصد هنا الأعيان)، متوّجين ذلك بقراءة الفاتحة «لتمام الخير والصلاح».

كما يشيد بالتقاليد البيروتية التي يرى فيها بساطة وكلفة أقلّ مما تفرضه حفلات الزفاف في مصر، حيث تنزع إلى «الترف والتلف والتبذير وقلّة العقل والتدبير»[1]، حسب تعبيره. وعلى نحو ذلك يرى في عادات المآتم ما هو أقلّ تعقيداً مما في بلاده، فلا يستبد بهم الحزن ولا يبالغون ـ كالفرح ـ فيه، إذ «ترى الرجل لا يظهر على وجهه اهتمام ولا يتكلّم بكلام، مشغولاً بتجارته يبيع ويشتري في بضاعته» على حدّ تعبيره[2] أيضاً.

أما عاداتهم في الملبس، فثمة ـ وهو الغالب ـ من «يلبس الطربوش الإفرنجي والسترة والبنطلون ويحلق لحيته ويبقي شعر رأسه»، وثمة من يرتدي القفطان (القنباز)، و«فوقه الجبة أو المضربية أو السترة الطويلة»، وكلاهما ينتعل الجزمة (الليستيك)، فيما قلة تنتعل المركوب من الفقراء. وثمة أيضاً من يتخذ «البدلة العثمانية والسروال الكبير الواسع والطربوش الإسكندراني». كذلك النساء يختلف لباسهن، بين «الإزار الأبيض الناصع أو الملاءة الحرير»، أو المناديل الرقيقة الإسلامبولية على الوجوه، «وفي الأرجل الجزم الإفرنجية» بالنسبة إلى المسلمات، و«الفساتين الواسعة من الشيت والصوف الإفرنجي والحرير الملون»، مع الطرح الرقيقة أو المناديل، بالنسبة لنساء النصارى اللواتي يظهرن سافرات الوجوه، مما يراه تقليداً لعادات الإفرنج.

---

(١) المرجع نفسه، ص ٤٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٠.

والحياة تمرّ هادئة إلى حدّ الرتابة في المدينة، حيث التجارة تشكل عامة نمط الإنتاج الأساسي فيها. فقد اعتاد الرجل الذهاب باكراً إلى السوق، فيشتري ما يحتاج إليه منها، ويضعه في سلّ، ثم يرسله مع خادمه إلى البيت قبل أن يفتح «مخزنه»، طاوياً نهاره فيه. فإذا حلّ الغروب، انصرف إلى بيته ليجد العشاء بانتظاره، فيتناول طعامه وينام، أو يخرج إلى المقهى، فيقضي وقتاً يدخّن الأرجيلة مع أقران له. وعلى هذه الوتيرة تسير حياة الناس، فلا منكرات أو تجاهر بالمعاصي، ولا مسكرات أو مخدّرات، وغير ذلك مما «عمّت البلوى به في مصر»[1] على حدّ تعبيره.

وقد لفتت القاياتي خلال إقامته في بيروت، كثرة المدارس وإقبال الناس على تعليم أولادهم ذكوراً وإناثاً، حيث يتلقون المبادئ الدينية ودروساً في الخطّ والحساب والهندسة والجغرافية، فضلاً عن اللغة التركية واللغات الأجنبية. فكان بعض التلاميذ يتابع دراسته، وبعضهم الآخر ينقطع عنها لمساعدة الأب في عمله.. أما الفتيات، فكن يتلقين الحساب والإعراب والقراءة وتجويد القرآن ويبرعن في الخياطة.

ولا ينسى في سياق انطباعاته عن بيروت في أواخر القرن التاسع عشر، أن يشير إلى مصدر الماء فيها، والذي كان قد وصل حديثاً إلى البيوت من نهر الكلب «على نحو ساعتين» منها، بواسطة قساطل تحت الأرض. وكان الموسرون يقيمون بركاً «من الحجارة والرخام، وفي وسطها النوافر تصب طول النهار والليل فيها»، ويؤدون ثمن الماء إلى الكبانية الأوروبية لقاء «مقادير يسمونها الأمتار». أما أبواب المدينة فيه أربعة: باب الدركة القريب من باب يعقوب أو باب السور، وباب إدريس إلى الغرب منه، حيث يقع أيضاً باب البزركان، وباب السرايا القديمة من الشرق. ويُنهي حديثه عن

(١) المرجع نفسه، ص ٥١.

بيروت، بالإشارة إلى السرايا التي تكوّنت من ثلاث طبقات، وتمتد أمامها حديقة في طرفيها بركتان، وفي وسطها «قبة ظريفة مرخّمة للجلوس». وقد شرع في بنائها وتمّ إنجازه، خلال إقامة الشيخ القاياتي في بيروت، وكانت تشتمل على مركز الولاية و«دوائر الحكومة كلها».

ـ ٥ ـ

لم تقتصر رحلة الشيخ القاياتي على بيروت، فقد زار عدداً من المدن والبلدان الشامية، متنقلاً ما بين صيدا وطرابلس والقدس وبيت لحم والخليل ودمشق، ثم قافلاً إلى بيروت قبيل العفو عنه والعودة إلى بلاده. وكانت المحطة اللبنانية الثانية في صيداء، حيث قصدها «ترويحاً للروح وتنفيساً للنفس واستجلاباً للسرور والأنس»[1] على حدّ قوله. وكان البيت الذي اتخذه مقرّاً في بيروت ـ وهو محفوف بالدوالي والليمون والورد والياسمين، وفيه «بركة ماء مدرار» ـ وجعل إقامته سعيدة فيه، قد أقفله على أثاثه حين غادره صباحاً إلى صيدا، بواسطة خيل استأجرها للسفر إلى الأخيرة، وذلك في ذي القعدة من سنة ١٣٠١/ ١٨٨٤، أي بعد نحو سنة على إقامته في بيروت.

وقد اتخذ في سفره طريقاً متاخماً للشاطئ، تخلّلته محطات للاستراحة يُقال لها الخانات، ومنها خان يونس بالقرب من مزار يحمل الاسم عينه. وبعد أن قطع نهر الدامور منكفئاً عن مصبّه العريض، إلى مكان أقل اتساعاً وغزارة ماء، وصل صيدا ما بعد العاشرة، مما يعني أن الرحلة دامت نحو خمس أو ست ساعات. وكان أول نزوله في بيت الحاج إبراهيم الديماسي الذي سبق أن تعرف إليه في بيروت، حيث أخلى له ولأتباعه الدور العلوي منه. وقد توافدت شخصيات المدينة مرحّبة به، وفي مقدّمهم القائمقام (أحمد

(١) المرجع نفسه، ص ٦٠.

بك شكري)، ورئيس البلدية (إبراهم آغا الجوهري) ومفتي المدينة (الحاج عثمان الزين) وقاضيها (العلامة سليمان حسبي) ونقيب الأشراف فيها (الشيخ أحمد الزين)، وآخرون من الأعيان، معظمهم من عائلات الزين والمجذوب والجوهري.

وكان حديث صيدا مختصراً في رحلة الشيخ الذي قصر حديثه على مشاهداته لمعالمها، مثل «الجامع الكبير العتيق»، وقد رآه من أجمل الأبنية وأكثرها إتقاناً. كما ذكر مزارات المدينة، وهي زكريا وصيدون والشيخ أبو روح وداوود وشرحبيل، كذلك قلعة البحر المتّصلة بجسر حجري بالشاطئ، وفيها مدافع مركبة على عجلات من أيام حملة إبراهيم باشا المصري. وأثارت إعجابه بساتين الليمون المنتشرة بكثافة فيها، وهي «مما يروق للناظر ويدهش الخاطر»[1] حسب تعبيره. ولم ينسَ التذكير بالماضي الكبير للمدينة، حيث كانت من أعظم المدن فيما سبق من الأزمنة، على خلاف ما هي عليه أثناء زيارته لها، إذ بدت له صغيرة بالمقارنة مع المدن الشامية الأخرى. وعند هذا الحدّ يتوقف حديثه عن صيدا، من دون الإشارة إلى مدة إقامته فيها، فعاد حينئذٍ إلى بيروت، ومكث فيها وقتاً قبل أن يستأنف ترحاله الشامي في مطلع السنة التالية (١٣٠٢/ ١٨٨٥)، متوجهاً إلى طرابلس.

- ٦ -

كان الترويح عن النفس، ما هدف إليه أيضاً من هذه الزيارة، يُضاف إليه الالتقاء بمشايخ سبق أن عرفهم في الأزهر، أو قدموا إليه في بيروت، ملحّين عليه زيارتهم في طرابلس. وكانت وسيلة السفر هذه المرة في البحر، إذ ركب «الوابور العثماني» إلى اللاذقية التي وصلها في صباح اليوم التالي،

(١) المرجع نفسه، ص ٦٣.

معانياً شدة ارتفاع الأمواج. فأقام فيها ثلاثة أيام لقي خلالها الترحيب والحفاوة من علمائها وأعيانها، ثم غادرها برّاً إلى جبلة، حيث قصد مزاراً يحتوي على خلوات معدّة لنزول الغرباء. فأخذ به الحنين، متفجّراً في قصيدة طويلة، بثّ فيها شكواه من الغربة، واستغاث باللّه أن يردّه إلى موطنه[1]. وكانت مدة إقامته في جبلة على نحو ما كانت في اللاذقية، إذ غادرها بحراً إلى المرقب، فمكث فيها ساعة، ومثلها في أرواد المحاذية لطرطوس التي وصفها بأنها مدينة كبيرة، حتى إذا وصل إلى طرابلس كان في انتظاره عمر أفندي الملا، فاصطحبه في «كروسه الترامواي» إلى منزله بالمدينة. وقد هرع لملاقاته الأعيان، وفي طليعتهم الشيخ عبد الغني الرافعي، الذي وصفه بأنه «مفرد عصره ووحيد دهره» فاستأثر بضيافته خلال إقامته في طرابلس.

وعلى غرار بيروت، تعرّف على عائلات المدينة أو بعضها، من خلال الذين التقاهم في دار الشيخ الرافعي، ومن هؤلاء «الأستاذ الكبير والمرشد الشهير» الشيخ عبد الفتاح الزغبي «العالم الفاضل»، والشيخ أحمد سلطان «الشاعر الناثر»، والشيخ عبد اللّه الصفدي «العالم الأزهري الصالح»، والشيخ محمود نشابة «العلم الشعير»، والشيخ درويش التدميري «العالم الأزهري»، والشيخ عبد القادر الكلاّس «العالم الأزهري» أيضاً. ومنهم كذلك الشيخ عبد الحميد الحفّار والشيخ محمود منقارة والشيخ عبد اللّه المسقاوي والشيخ محمد الحسيني، وآخرون عرف بعضهم في الأزهر. كما عرض للأعيان والتجار الذي قدموا لزيارته، مكتفياً بذلك من أمر الرحلة من دون أن يأتي على ذكر معالم المدينة، باستثناء إشارة عابرة إلى المسجد الكبير في وسطها، مشبّهاً صحنه الواسع بمثيله في جامع الأزهر. وجلّ ما دوّنه من الانطباع من هذه الزيارة، لم يتعدّ الحفاوة التي لقيها وما تركته في نفسه صحبة العلماء من غبطة أزاحت عنه وطأة الغربة الثقيلة، كذلك المطارحات الشعرية بينه وبين

(١) المرجع نفسه، ص ٦٧.

بعض هؤلاء العلماء، فضلاً عمّا أفادته الإقامة في بيت عالم كبير، لم يدعه يصرف الوقت كله دون الإبحار في المطالعات، فكان يجمع في صحبته بين «أدب الدروس وأدب النفوس»(١) على حدّ تعبيره.

ولم يعكّر صفو هذه الزيارة، سوى تأخّر ورود الرسائل عليه، مما جعله نهباً للقلق مستحثاً العودة إلى بيروت التي عزم على السفر إليها بحراً، لولا أن ألحّ عليه الشيخ علي رضا بزيارة القلمون، وكان قد التقاه في بيت مضيفه في طرابلس، فاصطحبه إلى بلدته الصغيرة على شاطئ البحر، حيث يشتغل أبناؤها بصيد السمك، وحلّ ضيفاً لمدة يومين عليه. ثم استأنف السفر برّاً إلى بيروت، وكان شاقاً في طريق وعرة ما بين ارتفاع وانخفاض، لا سيما وأن الوقت كان صائفاً، فعانى شدة التعب والإرهاق. وقد توقف قليلاً في المسيلحة، ثم عبر ذكرون وأنفة وشكة والجبة، واستراح للغداء في البترون، ومنها إلى جدايل، وبلغ عمشيت عند الغروب حيث أمضى بعض الليل في خان إلى الغرب من جبيل، ومرّ في جونيه، فوصفها بأن «بلدة ناضرة زاهية، بها عمارات على الطراز الجديد كعمارة بيروت»(٢)، ومنها عبر نهر الكلب إلى ضبية، وهي مزرعة «يقصدها المتنزهون في فصل الصيف لما تحتويه من المقاهي واللوكندات والمياه الجارية والنباتات الخضراء»(٣)، ثم أخيراً إلى بيروت متهيئاً لزيارة القدس (جمادي الثانية ١٣٠٢/ ١٨٨٥).

- ٧ -

بعد تجوال في القدس وبعض البلدات الفلسطينية، انتقل ـ عبر طبرية ـ إلى دمشق، فمكث فيها مدة لم يحدّدها، قبل أن يعود إلى بيروت، ربما في أواخر سنة اثنتين وألف وثلاثمائة للهجرة. وقد استخدم في انتقاله عربة

(١) المرجع نفسه، ص ٧٨.
(٢) المرجع نفسه، ص ٨٣.
(٣) المرجع نفسه.

اجتازت به سهل البقاع إلى شتورة، حيث استراح قليلاً في أحد خاناتها، ثم صعد في جبل لبنان، واصفاً أهله بأن غالبيتهم من النصارى والدروز، وحكومته بأنها «منفصلة عن حكومة ولاية سوريا»، إذ كان ذلك متزامناً مع عهد المتصرفية في هذا الجبل. وبدا هنا مطّلعاً على تطورات الفتنة التي عصفت به، وما رافقها من نزول المراكب «الفرنساوية بعساكرها» في بيروت، ومجيء فؤاد باشا، مبعوثاً من السلطنة العثمانية للتحقيق في الأحداث الطائفية، مما أسفر عن معاقبة المتهمين في إشعالها بالشنق والنفي(١). ولم يزل يسير صعوداً في الجبل، مجتازاً في يوم مشمس رأس (ظهر) البيدر، إلا أن ذلك لم يحل دون تكدّس الغيوم في سمائه، متوقّفاً في الحازمية التي جرت العادة عند أهل بيروت أن يتلقوا القادمين فيها من الشام، مشيداً بما يلقاه الزائر من الترحيب وحسن الوفادة، مما لا يجده في عادات المصريين.

ولما وصل بيروت، كانت الدار التي ينزل فيها قد انتهى عقد إيجارها، فانتقل إلى دار لآل العرقجي في زقاق البلاط، حيث أمضى فيها فصلي الربيع والصيف من تلك السنة (١٨٨٥). وقد أتاحت له هذه الفترة التعرف إلى بعض ممن لم يتح له اللقاء بهم في عهده الأول بهذه المدينة. ودأب حينذاك على قراءة التفاسير والشروحات، إلا أن جلّ وقته كان منصرفاً إلى معاشرة العلماء، سواء من أهل بيروت، أو من النازلين فيها من المصريين والعرب، مبدياً إعجابه بهذا المناخ العلمي ونقاوته وأصالته، ومشيداً مرة أخرى بالمدارس التي هي في غاية الإتقان، والتي لم تقتصر على الذكور فحسب، بل إن بينها ما كان مخصصاً للبنات. وكان آخر ما استوقفه في بيروت، أن أهلها يكتفون بالكنية من دون الاسم، فيتنادون بأبي سعيد وأبي سليم وأبي رشيد إلخ... وأن أكثر أسماءهم مركّبة مثل: محي الدين وسعد الدين وعبد القادر... وهو ما زال متداولاً بينهم حتى اليوم.

(١) المرجع نفسه، ص ١٤٤.

وبعد ثلاث سنوات ونصف على رحلته الشامية، صدر العفو عن الشيخ القاياتي، فتأهب للعودة إلى بلاده، وغادر بيروت يوم الثلاثاء في الثالث من ذي القعدة لسنة ثلاث وثلاثمائة وألف للهجرة، على متن الوابور الخديوي، مشيّعاً بجمهرة القوم الذين احتفوا به وحلّ ضيفاً عزيزاً بينهم، وكأنه بين أهله الأقربين. فكان لهذا الوداع تأثير عميق في نفسه، فخنقته العبرة وخانه الصبر على الفراق، ولم يجد سوى الشعر من وسيلة للخروج من الموقف الصعب، فلجأ إليه معبّراً عما تضطرب به نفسه من المشاعر العاصفة فقال:

ومن لي ببيروت وسكان ربعها ومن لي بأحباب هم الروح والقلب

ومن لي بسادات همُ الجاه والغنى ومن لي بأمجاد بهم يفرج الكرب

خاتمة

تندرج رحلة الشيخ القاياتي في سياق التاريخ المتحوّل هذه المنطقة من المشرق العربي، وذلك في تزامنها مع بدء الاستعمار البريطاني الذي اتخذ من مصر بؤرة جديدة، عزّزت نفوذه على الخليج العربي وطريق الهند، متحفّزاً في الوقت عينه لمرحلة ما بعد السلطنة المترنحة وتداعياتها المرتقبة في المنطقة، وقد نجح المشروع البريطاني في مصر حيث أخفق المشروع الفرنسي، فيما كان الأزهر يقود أيضاً التيار الوطني، مستنهضاً المصريين للثورة على الطبقة المستأثرة بالسلطة والامتيازات، في ظل تدخّل مباشر من الحكومة البريطانية. وإذ فشلت الثورة بقيادة الضابط الوطني أحمد عرابي، فإن الأزهر استهدفته أجهزة السلطة، فلاحقت علماءه وزجّت ببعضهم في السجن، ودفعت بالبعض الآخر إلى المنفى، حيث كان بين هؤلاء صاحب الرحلة الشامية التي تابعنا فصولاً منها في هذه الدراسة. وهذه الرحلة كانت أقرب في تداعياتها إلى السيرة الذاتية، لما حملته من أحداث كان محورها الشيخ، علاقات وانطباعات ومشاهدات، واتخذت بيروت النصيب الأوفر منها، نظراً لطول إقامة الشيخ فيها، بالمقارنة مع المدن والبلدان الأخرى التي

قصدها في بلاد الشام. فقد تعرّف عن كثب إلى مجتمع المدينة، واختلط بعلمائه وتجاره الذين أحاطوه ـ وهو الشيخ الأزهري ـ بالحفاوة والرعاية.

وي ضوء ذلك، وانطلاقاً من تكوينه الثقافي، انخرط سريعاً في مناخ النخبة، منبهراً بالترف يسود حياتها، ومسترسلاً في الحديث عن تقاليدها الاجتماعية. أما الفئات الشعبية فلم يعرها انتباهاً، وقد ظلّت غائبةً عن تفاصيل رحلته، وربما «محتقرة» لديه، ليس بالضرورة في المعنى الظاهر للكلمة، ولكن فيما يعبّر عن الرّعية غير المنعّمة بالجاه والثراء، كما جاء في قوله واصفاً تقليد الشموع في احتفال الزواج، إذ كانت توزّع على الحاضرين «صغيراً كان أو كبيراً، حقيراً أو أميراً، لأجل أن يوقدوها ويمشوا بها في الزفّة ولا يستنكفون من حملها تجملاً مع صاحب الفرح جبراً لخاطره»[1]. والأمير هنا ليس موظفاً أو صاحب سلطان، ولكنه ذلك التاجر الذي يتمتع بسلطة المال، خلافاً للفقير الذي يندرج في التوصيف السالف الذكر.

وكان الغياب واضحاً كذلك عن الحدث السياسي، مما يبدو لافتاً في الوقت الذي كانت تعصف فيه المنطقة بالمتغيّارت المهمة، سواء على صعيد موطنه، أو على صعيد المنطقة الشامية التي عانت الاستبداد العثماني، وأخذت ترهص بالفكر القومي وهواجس المستقبل العربي في مرحلة ما بعد السلطنة السائرة قدماً نحو الانهيار. فلم يكن له دور أو رأي فيما يجري حوله، وهو المنفي بتهمة سياسية، كانت قد استهدفته على الأرجح لكونه أزهرياً، أكثر مما استهدفته مناضلاً فعلياً في الثورة العرابية.

وعلى خلاف ذلك، كانت السياحة و«الترويح عن النفس»، فضلاً عن التنعم بالإقامة في بيت وسيع تكتنفه الدوالي والأشجار والورود، والمآدب التي تقام له، ما استهواه من حديث في حلّه وترحاله. أما العلماء الذين كانوا محور الاهتمام، وبعضهم عرفه أثناء دراسته في الأزهر، فنادراً ما أشار إلى

(١) المرجع نفسه، ص ٤٩.

دور لهم في الحياة الاجتماعية والثقافية، ولم تصدر عنه مبادرة تملأ فراغ سنوات ثلاث ونصف من الزمن، سواء من خلال التدريس أو التأليف، أو من خلال التعبير عن موقف سياسي، وغير ذلك مما فرضته متغيّرات المرحلة الساخنة.

بيد أن هذه الرحلة ـ وعلى الرغم من المآخذ على صاحبها في الانصراف إلى حياته الخاصة ـ أولت الجانب الاجتماعي، أو بعضاً منه، قدراً من الاهتمام. فقد تعرّفنا من خلالها إلى التقاليد والعادات وأسماء العائلات البارزة في البلدان التي جال فيها، كذلك إلى النمط الاقتصادي السائد في حينه، والذي كانت التجارة الأكثر تعبيراً عنه، وإن غفل عن الحرف الأخرى التي جاء بعضها، مثل الزراعة، عرضاً في حديثه. كما تعرفنا على العلماء والشعراء، وبعض ذوي السلطة ممن اختلط بهم في هذه الرحلة، الأمر الذي يجعل الأخيرة مرجعاً، على الخصوص، في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي لتلك المرحلة.

أما أسلوبه في تدوين أحداث الرحلة، فكان في الغالب محاكاة لفن المقامة الذي أخذ به عموماً معظم الكُتّاب المصريين في ذلك الوقت. وهو أسلوب يتطلّب عادة الجهد في اختيار المفردات المناسبة وإمساكاً بنصاية اللغة، فكان اللجوء إليه تعبيراً عما يتميّز به الكاتب في هذا المجال. ولكنه قد يتخلى عنه، عندما تأخذه التفاصيل السردية وتزدحم الصفحة بالأسماء، فلا يجد حينئذٍ ضرورة للاسترسال في التكلّف اللفظي، الذي يسيء إلى الأسلوب والمعنى معاً، إذ يجد نفسه أسيراً لمفردات مجوّفة ومجرّدة من معانيها الدقيقة. ومن ذلك قوله: «ومنهم الذكي والإمام اللوذعي»، أو قوله: «إذا نظم الشعر أغرب وإذ نثر الكلام أعجب»، أو قوله: «هو كبير العائلة المشتهرة وله من الأولاد النبهاء العشرة»، إلى آخر ذلك مما تبدو فيه الصنعة وينزع إلى المبالغة تحت تأثير المفردة الملائمة للإيقاع، وغالباً ما تفقد معناها الدقيق، وهي مرهقة بهذا السجع الثقيل.

الأمير بشير الثاني وإبراهيم باشا من خلال كتاب

Ferdinand PERRIER

«La Liban sous le gouvernement de Méhémet Ali»

د. مارون سمعان رعد(*)

خلاصة المحاضرة

يدور موضوع المحاضرة حول فترة مهمّة من حياة الأمير بشير الثاني وعلاقاته بالقائد المصرّي إبراهيم باشا وانعكاساتها على مصير الجبل بكامله ومصير الإمارة الشهابية بشكلٍ خاص، ومصير نظام الإمارة في الجبل بشكلٍ عام. وذلك من خلال القائد الفرنسي Ferdinand Perrier أحد أركان مجلس قيادة إبراهيم باشا، بالإضافة إلى زميل له وهو ضابط فرنسي أيضاً يُدعى Achille Laurent، وقد ترأس مجلس القيادة المصري الضابط الفرنسي الكولونيل De Sèves الذي دُعِيَ فيما بعد سليمان باشا الفرنساوي.

يتحدّث Perrier عن بداية العلاقات بين بشير والمصريّين منذ سنة ١٨٢٣ إثر الخلاف الذي حصل بين عبد اللّه باشا والي عكا ودرويش باشا والي دمشق، وانحياز الأمير إلى الأول، ممّا أدّى إلى عزله عن السلطة والذهاب إلى مصر سنة ١٨٢٢ حيث نشأت علاقات وديّة بينهما انتهت فيما بعد بعقد معاهدة شفهية تقضي بدعم الأمير لمحمد علي في مشروعه الاستقلالي

(*) أستاذ في قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الفرع الرابع، الجامعة اللبنانية.

المستقبلي عن السلطنة، وضمّ بلاد الشام إلى ولايته.

يشدّد الكاتب على قوّة شخصيّة الأمير التي صدمت كُلاً من الجزّار والأمير يوسف الشهابي عندما قبلا به بديلاً للأول في حكم الجبل، لأنّهما كانا يراهنان على فشله في إدارة شؤون الجبل. وعندما يتحدّث عن بشير يجد فيه شخصاً ذا هيبة وجلال ووقار، يحترم نفسه ويحترمه الآخرون.

ينتقل Perrier بعد ذلك إلى الحديث عن الوجود المصري في لبنان مشيراً إلى العلاقات التي نشأت بينه وبين سليمان باشا الفرنساوي، ويشدّد على أنّها تقوم على مبدأ التعامل وفق بروتوكول محدّد وعلى قدم المساواة. إلاّ أنّ الموضوع الأهمّ الذي ركّز عليه هو المعاناة الطويلة التي عاش الأمير تحت وطأتها في ظلّ الوجود المصري حيث أخذت عظمته تتلاشى أمام ضغوط المصريّين وقادتهم، وتدخّلهم الظاهر في شؤون الإمارة، ممّا سبَّب نشوء أزمات اقتصادية ومعيشية خانقة ولّدت عاميّات وثورات شعبية ضدّه وضدَّ حلفائه. وفي هذا الإطار يشير الكاتب إلى خطورة الازدواجية في السلطة التي مورست في حكم الجبل أثناء الوجود المصري حيث اضطرَّ الأمير إلى أن يتنازل عن كثير من عنفوانه وكرامته الشخصية ليتمكّن من مجاراة الأمور والتصرّف بحكمة، ليتمكّن من اجتياز الأزمات التي يتخبّط فيها. وساءت الأمور أكثر فأكثر عندما أخذ إبراهيم باشا وكبار قادته ومستشاريه يستغلّون شيخوخة الأمير لتسيير أمور الجبل وفق مصالحهم.

أما بداية سوء التفاهم ـ بشكلٍ علني ـ فبدأت تظهر بين اللبنانيّين والمصريّين منذ سنة ١٨٣٣ عندما بدأ الفاتح المصري بتنفيذ تدابير اقتصادية وضرائبية صارمة وظالمة بحقّ اللبنانيّين، أثقلت كواهلهم وشلّت مظاهر حياتهم المختلفة، والأمير عاجز عن ردع المصريّين. وبدأت مظاهر الثورة تتجلّى أكثر فأكثر منذ سنة ١٨٣٨ لتشتعل بشكلٍ شامل سنة ١٨٤٠ بعد عاميّة دير القمر وعاميّة انطلياس الثانية ١٨٤٠ والتي انتهت بانسحاب الجيش

المصري من لبنان ونفيَ الأمير إلى مالطة، بعد فشل الأمير بشير وابنه أمين في استقطاب حلفائه اللمعيّين وإقناعهم بضرورة الوقوف إلى جانبه.

أثناء حديثه عن هذه الثورة الشاملة لا يغفل Perrier دور الأجانب في إضرام هذه الثورة المدمّرة وخاصة الإنكليز والعثمانيين وبعض الفرنسيّين المعارضين للسياسة الفرنسية. وعلى الصعيد الداخلي وقف رجال الدين المسيحيّون في غالبيّتهم إلى جانب الثوّار وسط ذهول من موقف البطريرك الماروني من الثوّار الذي بدا في الظاهر لا مبالياً، ولم يستجب لطلب تقدَّم به الأمير بشير بقصد مساعدته على تهدئة الأوضاع.

يتطرق Perrier أيضاً في كتابه إلى حياة الأمير العائلية واليومية وإخلاصه لزوجته وأولاده وأحفاده. كما يتحدَّث عن زواج الأمير الثاني من حسن جهان التي استقدمها من أسواق الرقيق في الآستانة متحدّياً تقاليد عائلته، لأنه لم يكن مسموحاً للأمير الشّهابي أن يتزوّج إلا من إحدى الأميرات. وبرَّر Perrier تصرّف الأمير هذا بأنه بسبب كبر سنّه خاف ـ إذا ما تزوَّج أميرة من الجبل ـ أن يستغلَّ أهلها السّلطة. وعندما يتحدّث عن حياة الأمير اليومية يركّز ـ بالإضافة إلى ممارسة الأمير لشؤون الحكم ـ على كيفية تمضية أوقات فراغه وخاصّة من خلال ممارسة هواية الصيد وحضور حفلات سباق الخيل والمبارزة بين الفرسان.

هذه باختصار لمحة موجزة عن أهم مضامين كتاب Perrier والتي ألقت الضوء على صفحة مهمّة من تاريخ لبنان الحديث. وأهميّة هذه المعلومات أنّها جاءت على لسان شاهد عيان عايشَ الأحداث وسياسة الجبل، إذ أمضى فيه حوالي عقد من الزّمن. فمن الطبيعي أن تكون معلوماته موثوقة ودقيقة.

الأمير بشير في طفولته وشبابه:

وُلِدَ الأمير بشير الشهابي الثاني في السادس من شهر كانون الثاني ١٧٦٧ وتعمَّد حسب شريعة الطائفة المارونية على يد المطران يوسف اسطفان في

كنيسة «سيدة الأبراج» في غزير. وعندما توفّي والده في نيسان من السنة نفسها تولّى شؤون الوصاية عليه وعلى شقيقه حسن الشيخ منصور الدحداح. وبعد إنقضاء سنة واحدة تنازل الشيخ المذكور عن مهمّة الوصاية هذه ليعهد بهذه المهمّة إلى الشيخ بطرس نوفل الخازن وقام بها على أكمل وجه، وعاونه في شؤون التربية المربّية مرحبا البشعلاني وخادمة تُدعى مرجانة. أما والدتهما فقد تزوّجت من الأمير سيد أحمد شهاب، ولم يتردّدا عليهما إلا في مناسبات قليلة ولفترة قصيرة جداً[1].

عندما أصبح الأمير في مطلع شبابه التحق بخدمة عمّه الأمير يوسف كمدبّر لأملاكه وكمستشارٍ له فيما بعد. إلاّ أنَّ حادثة مفاجئة حصلت وغيَّرت مجرى حياته هي مقتل الأمير بشير نجم شهاب في حاصبيا، فكلَّف الأمير يوسف الأمير بشيراً بالذهاب إلى منزل الأمير القتيل لإنهاء النزاع الذي نشب هناك، وتأمين انتقال تركته إلى ورثته بشكلٍ شرعي، فنفّذ المهمّة على أكمل وجه، وتعرَّف إلى زوجته واتّفقا فيما بعد على الزواج، فتأمّنت له ثروة كبيرة جداً، أمّنت له سلوك دروب المجد بعد وقت قصير جداً.

أثناء هذه الفترة بدأت موجة من التململ والاستياء في صفوف زعماء الدروز تجاه الأمير يوسف وأخذوا يفتّشون صراحةً عن أميرٍ بديل يخلفه فوقع نظرهم على الأمير بشير الذي عقد معهم ومع شيخ العقل عدّة خلوات واجتماعات سريّة أدّت بهم إلى تبنّيه كأمير بديل للجبل، وطلبوا منه أن يذهبَ باسمهم إلى الجزّار لطلب الولاية مع استعدادهم لتأمين كلّ الأموال اللازمة لتنفيذ هذه المهمة لدى الجزّار. إلاّ أنَّ الأمير يوسف الذي تناهت إليه أخبار

(١) مجلّة المشرق، السنة ١٨، العدد ٧، تموز ١٩٢٠، صفحة ٥٤٨ ـ ٥٤٩؛ عيسى إسكندر المعلوف، وسليم خطّار الدحداح، مقال بعنوان: «تنصّر الأمراء اللمعيّين والشهابيّين». والسنة ٣، العدد ٥، آذار ١٩٠٠، صفحة ٢٠٨ ـ ٢١٨، مقال بعنوان: «غزير»، نجيب أفندي باخوس الغزيري.

هذه اللقاءات السرية وما آلت إليه من ترشيح هذا الأمير الشاب لحكم الجبل، استدعى إليه بشيراً وكلّفه بأن يذهبَ باسمه إلى عكّا لطلب الولاية من الجزّار، إلا أنَّ بشيراً أجابه: «إنّي أخاف أن أذهبَ إلى عكّا ابناً لكَ وأعود ابناً للجزّار». فأجفل الأمير يوسف من هذا الجواب وأخفى دهشته بابتسامةٍ صفراء وقال له: «على سلامتك يا ولدي مهما عملت، يأكلها السبع ولا يأكلها الضبع».

وبعد فترةٍ من الزمن عاد الأمير بشير من عكّا حاملاً خلعة الإمارة سنة ١٧٨٨ مع أمر بطرد الأمير يوسف من الجبل.

ارتاح الدروز لهذه الإجراءات الجديدة التي اعتبروها قد تمَّت لمصلحتهم وظنّوا أنّهم استراحوا من خصم عنيد قد أقلق راحتهم، وقضَّ مضاجعهم، وحدَّ من حريّتهم، واعتقدوا أنَّ هذا الأخير الطريّ العود سيبقى ألعوبة بين أيديهم، ويحكمون الجبل فعلياً من خلاله، ويبقى هو مجردّ أمير ظلّ فقط. وكذلك الجزّار الذي ظنَّ أنَّ الأمير الجديد لن يتمكّن من ضبط أوضاع الجبل المتناقضة، وبالتالي سيبقى ورقة لابتزاز كلّ طامح إلى زعامة الجبل، وبالتالي مصدر ثروة دائمة له.

غير أنَّ Perrier عندما تحدَّث عن مرحلة التغيير هذه أشار بوضوح بأنّه لم يدر في خلد الجزّار طاغية عكّا أنَّ هذا الأمير الفتى سوف يتمكّن من حكم هذه الإمارة التي تمزّقها الحزبيات والزعامات المتضاربة الأهداف والمطامح والمطامع، بالإضافة إلى كثرة الطامحين لتولّي حكم الجبل. لذا، فقد ظنَّ في البداية أنّه سيتحكّم به كيفما يشاء ـ تماماً كما اعتقد الأمير يوسف ـ غير أنَّ نظرة كلّ من الاثنين جاءت خاطئة.

لقد لمع نجم بشير شهاب كأعظم أمير من أمراء الأسرة الشهابية التي حكمت جبل لبنان حوالي قرن ونصف القرن تقريباً. وكانت نظرة كلّ من الاثنين ـ بالإضافة إلى نظرة الدروز ـ خاطئة جداً، وقد صدمهم جميعاً لأنّهم

كلّهم كانوا يراهنون على فشله. ولكن Perrier يستدرك ويقول أنَّ الأمير بشير لم يتمكّن من ترسيخ أقدامه في الحكم إلا سنة ١٧٩٠ بعد أن أغرى الجزّار وأقنعه بضرورة إعدام الأمير يوسف شنقاً، لأنَّ أوضاع الجبل لن تستقرَّ طالما هو على قيد الحياة، وقد تمَّ له ما أراد. إلاّ أنَّ الجزّار قد ندم على فعلته، لأنّه كان من الأجدى له إبقاء يوسف على قيد الحياة ليظلَّ ورقة ابتزاز ومساومة مع الأمير بشير لتحقيق مكاسب مادية دائمة[١].

صفات الأمير وأخلاقه:

يبدأ Perrier الحديث عن شخصيّة الأمير بشير وطلّته المهيبة المحبّبة فيشبّهه ببطريركٍ جليل ذي هيبة ووقار، وقامة طويلة منتصبة، حاجباه عريضان وسميكان، ولونهما رمادي، وعيناه غارقتان في وجهه، وينبعث منهما سحرٌ غريب، جبهته عالية ونافرة إلى الأمام، تغطّيها خطوط عريضة وعميقة تظهر من خلالها ملامح التجاعيد التي تنبئ بالهرم، أما يداه فصغيرتان ولا تنسجمان مع ضخامة جسمه.

إلاّ أنَّ حديث Perrier قد بدا أكثر إسهاباً في الصفات والمزايا المعنوية التي طبعت شخصية الأمير بطابعها الخاص كأميرٍ جليلٍ نبيلٍ، يتحلّى بالشهامة والنجابة واللطف والإيناس وعفّة اللسان وعفّة النفس. كما شدَّد عنده على صفات العظمة والكرم وحسن الضيافة، وقد تجلّى ذلك في عظمة قصر بيت الدين في ظلِّ الأمير، وبشكلٍ يتعارض كلياً مع بساطة إبراهيم باشا وتواضعه. إذ إنَّ كلّ غريب أو مقيم، غنيّ أو فقير يلقى الضيافة الكاملة فور وصوله إلى قصر بيت الدين هو ومرافقوه وحيواناته طيلة المدّة التي كانت ظروفه أو انشغاله أو حشريّته تفرض عليه الإقامة في ضيافة سيد هذا القصر. لذا، فقد

(١) Ferdinand Perrier, La Syrie sous le gouvernement de Méhémet Ali, Paris, 1842, page 318-327.

عُرِفَ عن الأمير أنّه كان يستقبل يومياً في قصره ما لا يقلّ عن مئتي شخص مع كامل مصروفهم دون أن يتحمّلوا أيّة أعباء مادية. يُضاف إلى ذلك العطاءات والمساعدات المختلفة التي اعتاد أن يقدّمها لأصحاب الحاجات المختلفة وفي مناسبات عديدة.

ويشير Perrier أيضاً إلى صفات أخلاقية ومعنوية تميّز بها الأمير وخاصة الذكاء الحادّ والرأي السديد والفراسة، والذاكرة المتّقدة والمرونة السياسية في إدارة شؤون البلاد رغم وجوده في خضمٍّ من التناقضات والأهواء والمواقف المتضاربة، وتمكّن من جمع كلمة أبناء الجبل بحكمته ومرونته. ولكنّه يُنسَب إليه نوعاً من الازدواجية في تصرّفاته وسياسته لإدارة الجبل. فيعتبر أنَّ الأمير يتظاهر أمام الغرباء باللين ودماثة الأخلاق والعذوبة في الحديث وهدوء الأعصاب، في حين أنَّ هذه الصفات لم تكن دائماً موجودة عنده في تعامله مع أبناء الجبل، وخاصة تجاه خصومة ومعارضي رأيه، إذ كان يُنزِل بهم أشدّ أنواع العذاب، ويتعرّضون على يده وأيدي أتباعه إلى مختلف أشكال المضايقات بما في ذلك زيادة الضرائب والسجن والنفي وأحياناً القتل، بالإضافة إلى مصادرة الأموال والأرزاق والتجريد من الألقاب والامتيازات الاجتماعية والطبقية وغيرها من العقوبات. ويبرّر Perrier بأنَّ هذه الازدواجية في التصرّف هي على العموم من صفات الشرقيّين الذين يتظاهرون على خلاف حقيقتهم بغية تأمين الوصول إلى السلطة والاحتفاظ بها أطول وقت ممكن.

أما بالنسبة لعلاقته بأصدقائه فقد تميّزت ـ بنظر Perrier ـ بالإخلاص والصدق والتضحية، ويعتمد في حكمه هذا على اهتمام الأمير بزوجته وأولاده وأحفاده، إذ بدا ـ حسب رأي الكاتب ـ زوجاً مثالياً عامل زوجته بكلِّ تقدير واحترام وتفانٍ، وأباً حنوناً بذل لأولاده العطف والرعاية والعناية بشكلٍ لا محدود. وعندما أشار إلى تديّن الأمير شدَّد على احترامه وإخلاصه لدينه رغم

كلّ ما عاناه من صعوبات وأزمات أثناء ممارسته لشؤون الحكم، بالإضافة إلى المضايقات والشدائد التي كان يسبّبها الولاة بين الحين والآخر عندما تسوء العلاقات بينه وبينهم. كما أشاد الكاتب باحترام الأمير لرجال الدين من مختلف الطوائف رغم كونه الحاكم المطلق للبلاد، وبخضوعه لرؤسائه الروحيّين بشكلٍ مُطلَق[١].

كما أكد أيضاً على هذه الصفات المميّزة عند الأمير الرحّالة الألماني يوركهاردت[٢].

حياة الأمير العائلية والدينية واليومية:

حياته اليومية: تميّزت حياته اليومية إجمالاً بالبساطة، وقد اعتادّ أن ينهضَ باكراً قبل طلوع الفجر، فيخرج من جناح الحريم ليجلس على طراريح خاصة عند درج القصر، حيث يقف إلى جانبه دائماً عبدان أسودان لتنفيذ طلباته، ويهتمّان بشكلٍ خاص بإعداد غليونه الذي لا يفارقه طيلة النهار، ويمضي ساعات من التفكير والتأمّل في حياته المليئة بالأحداث والهموم والمتاعب قبل أن يستفيق أهل القصر. وعندما تدبُّ الحركة فيه ويحضر العمّال والموظّفون يبدأ الأمير بتصريف أعماله محاطاً بعددٍ كبير من أمناء السرّ والمحاسبين والموظّفين، فيعرضون عليه التقارير المتنوّعة والشكاوى المختلفة، فيبتُّ فيها فوراً. وعندما يحلُّ الليل يدخل إلى جناحه الخاص ليستريح من ممارسة مهام السلطة وهمومها. فيتناول طعام العشاء وبعد ذلك يتوافد على مجلسه بعض أصدقائه وكثير من الأعيان، فيمضي معهم سهرات ممتعة وشيّقة. كما يحضر إلى مجلسه أيضاً عدد كبير من أهل الفكر والعلم

(١) Perrier, page 344-346, 352-354.

(٢) فيليب حتي، ص ٥٠٥، نقلاً عن Bruklardet, A Travel in Syria and the Holyland.

والأدب فيتناقش معهم بالمواضيع المختلفة، ويتبارون أمامه فيبدي رأيه في كلٍّ منهم سلباً أو إيجاباً.

هذا بالإضافة إلى تمضية بعض أوقات السهرة في الشتاء بلعب الورق مع ما يستتبع ذلك من بعض مظاهر «التزريك» والتنكيت[١].

يتحدّث Perrier أيضاً عن هواية الصيد عند الأمير مستخدماً السركة أو البازي، واعتبر أنَّ تلك الهواية هي المفضّلة بالنسبة للأمير، يلجأ إليها للترويح عن نفسه، لأنّه قلّما كان يخرج من قصره. وأشار الكاتب إلى ضخامة الجمهور الذي كان يرافقه إلى الصيد ويضمُّ الحاشية، ومجموعة من الفلاحين والقرويّين الذين يرغمهم الأمير على القيام بكلِّ ما تتطلّب هواية الصيد دون أي أجر. وعندما يجلس بشير في المكان المحدَّد أثناء الصيد يقف الجميع على أهبة الاستعداد منتظرين إعلان إشارة بدء الصيد من قِبَله. أما الحجال التي يتصيّدها فيوزّعها بشكل هدايا على كبار جيرانه، وحاشيته.

حياة الأمير الدينية: تطرَّق هذا الكاتب إلى حياة الأمير الدينية فجاءت معلوماته دقيقة جداً لأنّه عايش الأمير عن كثب، وظلَّ يتردّد إلى مجلسه طيلة إقامته في لبنان.

لقد أشار في البداية إلى أنَّ أمراء لبنان كانوا يتقلّبون عادةً في دينهم بين المسيحية والدروز والإسلام حسب مصلحتهم، ومقتضيات ظروفهم العامة والخاصة. ومن الأدلّة على ذلك ـ بنظره ـ أنَّ العائلة الشهابية منذ أن تسلّمت مقاليد السلطة في الجبل بدأت تداعب مشاعر وأماني الجماعات المختلفة في الجبل لتستميلها إليها، بما في ذلك أبناء الطائفة الشيعية. ونظراً لأهمية العنصر الديني عند مختلف الشعوب والجماعات فقد انصرف الشهابيون إلى تقديم البراهين المتتالية على احترامهم لمختلف المعتقدات الدينية المنتشرة في

(١) Perrier, page 343-344.

الجبل، وحفاظهم على الحرية الدينية بمختلف مظاهرها، ممّا يؤمّن لهم نوعاً من الولاء الذي يقوّي نفوذهم ويثبّت أركان إمارتهم، ويجعلهم يتجنّبون نشوء الفِتَن والثورات وحركات التمرّد ضدّهم. لذا، فإنّهم كانوا مسيحيّين مع المسيحيّين، ومسلمين مع المسلمين، ودروزاً مع الدروز. لقد شيّدوا في قصورهم كنائس مسيحية يعمّدون فيها أولادهم، ويمارسون فيها شعائرهم الدينية، وأقاموا أيضاً جوامع حيث كان هؤلاء الأولاد في بعض الأحيان يُطهَّرون. وعند الموت تسلَّم جثّة الأمير الميت إلى الدروز ليدفنوه حسب فروض وشعائر ديانتهم. لقد كان لكلٍّ طائفة ما يرضيها وما يكفيها: **المعمودية** للمسيحيّين، **التطهّر** للمسلمين **ومراسم الدفن** للدروز[١]. ويؤكّد ذلك أيضاً لامرتين في كتابه: Souvenirs, Impressions, Pensées et Paysages pendant un voyage en Orient, 1832, page 241.

أما فيما يتعلّق ببشير شخصياً فيؤكّد Perrier أنّه كان ميّالاً إلى الديانة المسيحية، ذلك لأنّه نشأ عليها منذ ولادته، وأخذ إيمانه بها يترسّخ يوماً بعد يوم وقضى طيلة حياته طائعاً لها ولرؤسائها[٢].

حياة الأمير العائلية: تميَّز بشير بأمانته الزوجية وإخلاصه لزوجته، فكان لطيفاً مع جميع أفراد أسرته وأحفاده، وأظهر تعلّقاً كبيراً بزوجته الست شمس ـ رغم أنّها أكبر منه بحوالي عشر سنوات ـ وأحاطها باهتمامه ورعايته، وأمّن لها كلّ وسائل الراحلة والرفاهية، وعاملها بكلّ لطفٍ واحترام وحنان، ولم يقم بأي تصرّف يسبّب لها الغيرة أو الحسد. ورغم وصول هذه الأميرة إلى مرحلة متقدّمة من العمل ظلَّ الأمير يحيطها بعناية فائقة، وصار يقضي معظم أوقاته بجانبها، ويقوم هو شخصياً بخدمتها وإحضار الأدوية لها. وعندما ماتت حزن عليها حزناً شديداً، ودفنها في قبرٍ خاص بناه لها في حديقة

(١) Perrier, page 347-348.

(٢) Perrier, page 347-348.

القصر، وظلَّ طيلة بضعة أشهر بعد وفاتها يزور قبرها ويذرف الدمع عليها[١].

بعد وفاة الستّ شمس بحوالي السنتين عقد الأمير زواجاً ثانياً على الفتاة الشركسية حسن جهان التي استقدمها له صديقه إبراهيم الجوهري من أحد أسواق الرقيق في الآستانة. وقد عاملها ـ كما عامل زوجته الأولى ـ بكلّ محبّةٍ وأخلاص وعاطفة صادقة، ووفّر لها كلّ أسباب الراحة والرفاهية والسعادة، وقد بادلته بدورها هذه العاطفة بأصدق منها وتميّزت بشدّة إخلاصها له، بالإضافة إلى تميّزها بالجمال والأنوثة والأناقة والذوق الجمالي الرفيع. ورغم احترام زوجها لها لم تستغلّ مطلقاً شؤون الحكم، إنّما استعملت نفوذها لديه لإغاثة المظلومين ورفع الضيق عنهم. وأثناء فترة النفي ظلّت وفيّة له حتى أثناء الضائقة المادية والنفسية التي ألمّت به، وظلَّ هو يأخذ برأيها، وأبرز دليل على وفائها له أنَّ الأمير قد باعها بيع بتّ كلّ ما يملك من أموال وعقارات بما في ذلك قصر بيت الدين، حارماً أولاده الذكور من كلّ هذه الثروة الضخمة بسبب سوء أخلاقهم وسوء معاملتهم لها[٢].

باختصار، لقد وجد Perrier في الأمير زوجاً مثالياً عاملَ كلاً من زوجتيه بكلّ تقدير واحترام وتفانٍ، وأباً حنوناً بذل لأولاده كلّ عاطفة ورعاية وحنان بشكلٍ لا محدود[٣].

الوجود المصري في لبنان:

بحلول عام ١٨٣١ استحقَّت حسابات الأمير نتيجة المعاهدة الشفهية التي عقدها في مصر مع محمد علي، لأنَّ هذا الأخير قد قرَّر تنفيذ مشروعه الاستقلالي عن السلطنة، وضمّ البلاد الشامية بما فيها لبنان إلى ولاية مصر،

(١) Perrier, page 344-346.

(٢) Perrier, page 344-346.

(٣) Perrier, page 344-346, 352-354.

وبدأت معها مرحلة طويلة من المتاعب والمآسي بالنسبة إلى الأمير.

اضطرَّ الأمير بشير لتلبية طلب حليفه للانضمام إلى حملة ولده إبراهيم في عكا على مضض بعد أن تلقّى رسالة تحوي تهديداً مبطّناً باحتلال إمارته بالقوّة في حال تلكأ في مساعدته، وأرسل عشرة آلاف جندي لبناني إلى عكا وأشرف هو شخصياً على هذه الحملة، وتمكّن من احتلال البلاد الشامية بكاملها وبدأ يُخضعها إلى تنظيمٍ جديد.

أما فيما يتعلّق بلبنان فلم يلحقه بأية مديرية من المديريات التي استحدثها (حلب، دمشق، طرابلس وصيدا) وإنّما أبقاه تابعاً مباشرةً لحكم «العزيز». أما الأجانب فقد عيّن إبراهيم باشا شخصاً من قِبَلِهم لتنظيم شؤونهم يُدعى الكولونيل De Sèves الذي صار يُعرَف فيما بعد باسم: سليمان باشا الفرنساوي. كما كلّف شخصاً أجنبياً آخر يُدعى مسيو إلييه للقيام بمهمة الاستخبارات العسكرية.

احتلَّ الأمير بشير مكانةً رفيعةً لدي محمد علي وابنه إبراهيم، وأصبح كلّ صاحب حاجة لدى المصريّين يتشفّع لديه، ولم يكن يُردُّ له طلب عندهم. كما أنّ اللبنانيّين قد استقبلوا الحكم المصري بحماسٍ شديد لأنّهم أحسّوا بمعاملته الوديّة لهم وبأجواء الطمأنينة والرخاء التي أمّنها لهم. كما أنَّ المسيحيّين بشكلٍ خاص ارتاحوا له لأنّه جعلهم على قدم المساواة مع المسلمين[1].

أثناء الوجود المصري في لبنان درج الأمير على معاملة إبراهيم باشا وقادته وكبار معاونيه بكلّ تقديرٍ واحترام، وبنى تعامله معهم على أساس بروتوكول محدَّد. فإذا وفد إليه إبراهيم باشا ينزل الأمير شخصياً إلى ساحة الميدان لاستقباله، ويأخذ بركابه عند نزوله عن ظهر جواده ليعانقه ويسير بجانبه إلى القاعة، ولا يتناول القهوة إلا بعده. وقد اضطرَّ الأمير نتيجة هذا

(١) Perrier, page 352-356.

البروتوكول أن يتخلّى عن كثير من مظاهر أبّهته وعظمته مجاراةً لبساطة إبراهيم باشا وتواضعه، ويقول هنري غيز أنّه فقد ثلثي نفوذه وهيبته.

ذات يوم زاره إبراهيم باشا في قصره فجأة وسيراً على الأقدام مع خادم واحد فقط، فاضطرَّ بشير إلى أن يردَّ له الزيارة مع خادم واحد فقط وسيراً على الأقدام، وقد سقط أرضاً عدّة مرّات بعد أن زُلّت قدمه في أماكن عدّة، لأنّه لم يعتد السير على قدميه وخاصة في الطرقات الصعبة. ويضيف Perrier أما بالنسبة إلى سليمان باشا الفرنساوي فكان الأمير يستقبله على الدرج، وبعد مبادلته التحية والمصافحة يتّجه وإيّاه جنباً إلى جنب إلى القاعة. وبعد هنيهة يُقدَّم لهما التبغ في غليونين متشابهين ومتساويين تماماً، وكذلك تقدَّم لهما القهوة في فنجانين متشابهين تماماً. وفيما يتعلّق بطريقة الجلوس فيجلس كلٌّ منهما في صدر القاعة على مقعد مقابل للآخر، كلّ ذلك للتدليل على مساواتهما لبعضهما في المكانة. وإذا اصطحب معه سليمان باشا مجلس أركان حربه (وPerrier وهو واحد منهم) فإنَّ ضبّاطه وضبّاط الأمير يجلسون على دواوين أقلّ ارتفاعاً من الديوانين اللذين يجلس عليهما الأمير وسليمان باشا، ويتّخذون أمكنتهم ـ كلّ فريق من جهة سيّده ـ وحسب رتبة كلّ منهم.

أما بقيّة القادة فلا يجلسهم إلى جانبه، ولا يشاركهم في القهوة أو التبغ، وإنّما يستقبلهم وهو واقف، ومتى حان وقت توديعهم فإنّه يودّعهم بالنهوض احتراماً لهم ودون أن يقف[1].

تضاؤل هيبة الأمير وسلطته في ظلّ الفتح المصري:

ما إن استقرَّ الوجود المصري الحليف في لبنان حتى بدأ الأمير يفقد بعض مظاهر سلطته وهيبته لمصلحة القادة المصريّين. ولكنّه رغم ذلك حاول الاستفادة من هؤلاء الحلفاء في نواحٍ كثيرة، وصار أكثر قوة وأرفع مكانة لدى

(١) Perrier, page 352-356.

شعبه ولكن إلى حين، إذ استراح من سلطة الولاة الأتراك عليه. وما كان يهمُّ إبراهيم باشا فقط هو أن يؤدّي له بشير ما يتوجّب عليه من أموال، ويقدّم له ما يحتاج إليه من رجال. وفيما عدا ذلك فقد أطلق له الحرية في أن يتصرَّف في جميع الحقول والميادين وفق مصالحه ورغباته دون حسيب أو رقيب، ممّا أتاح له جمع مقادير كبيرة من الأموال المستحقّة والضرائب والرسوم المتأخّرة، إذا لم يعد أحد يتجرأ على التمنّع عن دفع أية ضريبة أو يؤجّل دفعها.

لقد استغلَّ في ذلك الدعم المصري المعنوي والعسكري له في قمع معارضيه ومخالفي رأيه وأوامره. فالجيش المصري لم يترك المجال لنشوب حركات فِتَن وفوضى ضدَّ الأمير في الجبل، وبالتالي اضطرَّ الأهالي إلى دفع كلّ المتوجّبات عليهم للأمير، حتى الضرائب غير المشروعة التي كان يفرضها عليهم بين الحين والآخر بشكلٍ غير قانوني وبأسماء مختلفة.

إلاَّ أنَّ الأمير ـ رغم الدعم المصري له ـ لم يتمكّن من التوفيق دائماً بين كرامته الشخصية من جهة وبين ولائه لإبراهيم باشا من جهةٍ أخرى خاصة بعد أن بدأت الحكومة المصرية تشعر أنَّ الأمير قد أصبح طاعناً في السنّ، ولم يعد بمقدوره ضبط الأمور بحزم كما كان في السابق، فأخذت تزرع بذور الخلاف بين الطامعين في خلافته، بغية فرض الشخص الذي تراه مناسباً لصالحها. لذا، فقد بدأ نفوذ الأمير يتقلّص في أوساط شعبه، وانحصرت قوّته العسكرية بحوالي ٦٠٠ خيال و٥٠٠ راجل، ممّا عرّض عنفوانه كأمير للخطر، وخاصةً بعدما اضطرَّ إلى تقديم التنازلات المتتالية للمصريّين في حالات ومناسبات كثيرة ليأمَن شرّهم. وأخذ يشعر تدريجاً بمرارة المأساة التي يعاني من وطأتها بعد أن أصبح دوره ثانوياً، لدرجة أنَّ بعض الموظّفين المصريّين الكبار وبعض القادة العسكريّين حاولوا أن يثبتوا له من خلال تعاملهم معه وفي أكثر من مرة أنّه ليس إلا مجرَّد خادم لدى سيّدهم إبراهيم

باشا ووالده محمد عليه. ورغم النصح الذي أسداه الأمير للفاتح المصري بضرورة معاملة اللبنانيّين بالعدل، فلم يلقَ آذاناً صاغية لديه لأنَّ شفاعته لم تعد مقبولة لدى حليفه المصري كما كانت عليه الحال في السابق. ولكنَّ الأمير ظلَّ يلتزم جانب الحكمة والحيطة والحذر في تعامله مع حلفاء الأمير كي لا تؤدّي به الأمور إلى مصير مشؤوم، وآثر أن لا يصطدم معهم بشكلٍ مباشر رغم عدائهم واحتقارهم وامتهانهم له.

لقد أصبح دور الأمير بشير ثانوياً في ظلّ الوجود المصري، ولم تعد قيمته أرفع بكثير من قيمة كبار الموظّفين والقادة المصريّين، ولا صلاحيّاته وأوسع من صلاحيّاتهم، وصار هؤلاء ـ كما ذكرنا سابقاً ـ ينظرون إليه على أنّه موظّف عند إبراهيم باشا أو خادم له ليس إلاّ. ولكنّ الأمير ـ رغم أوضاعه السيّئة ـ ظلَّ يعرف كيف يتصرَّف مع المصريّين بجرأة وجدارة ولطف ظاهر، وجعلتهم في بعض الأحيان يدركون ـ على خلاف ما اعتقدوا بالأمس ـ أنَّ مرتبته في الشرف أعلى منهم بكثير[1].

بداية التوتّر في العلاقات بين بشير والمصريّين:

رغم الضغوط المصرية المتزايدة فإنَّ الأمير لم ينقد انقياداً أعمى للمصريّين، وحاول قدر استطاعته أن يخفِّفَ من مساوئ التجاوزات المصرية وآثارها السلبية عليه وعلى شعبه، وقد سعى بشكلٍ ضمني إلى تخليصهم من الواقع المتردّي الذي يتخبّطون فيه، ذلك لأنّه ظلَّ يعمل في الخفاء من أجل إمارة مستقلة، ولم يتنبّه محمد علي إلى هذا الأمر إلا متأخراً.

لقد بدأ سوء التفاهم يظهر بين اللبنانيّين وبشير منذ سنة ١٨٣٣ عندما بدأ إبراهيم باشا بتنفيذ سياسة اقتصادية سيئة في الجبل، تمثّلت باحتكار بعض

(١) Perrier, page 349-359.

السِلَع الاستهلاكية الأساسية كالبن مثلاً، بالإضافة إلى محاولته شراء مواسم حرير برّ الشام تمهيداً لاحتكاره. وفي أواسط هذه السنة فرض ضريبة جديدة دُعِيَت «الفرضة» أو «الفردة» وهي ضريبة على الرؤوس، وتشمل أيضاً المراهقين الذين تجاوزوا الثانية عشرة من العمر، وتراوحت قيمتها بين عشرة قروش ومئتين وخمسين قرشاً سنوياً. ثمّ أخذت مظاهر التململ تنتقل من منطقة إلى أخرى لتتحوَّل إلى بداية حركات شغب ضدَّ المصريّين في لبنان وفلسطين وإنطاكيا وجبل وسوريا الشمالية، فما كان من السلطان إلا أن استغلَّ هذه النقمة الشعبية المتزايدة في صفوف أبناء البلاد الشمامية، وأخذ يعمل للاستفادة منها إلى أقصى حدّ لإضرام الثورة الشاملة ضدّ المصريّين[١].

بداية الصدام بين اللبنانيّين وبشير:

بعد أن ترسّخت أقدام المصريّين في لبنان، وبعد أن تزايدت موجة النقمة والغضب ضدّ المصريّين في مختلف أنحاء الجبل أخذت بوادر الصدام تظهر يوماً بعد يوم مُؤذنة باضطرام ثورة عارمة شاملة ضدّ المصريّين وحليفهم بشير، نظراً للضائقات الشديدة والحاجات الملحّة التي أخذت تتزايد في صفوف اللبنانيّين بتزايد المتطلّبات العسكرية والاقتصادية التي فرضتها مستلزمات ضبط شؤون الأراضي المحتلّة في مصر وبرّ الشام.

ففي أواخر سنة ١٨٣٤ طلب الفاتح المصري من الأمير بشير تجنيد ١٦٠٠ شاب درزي من إمارته فتوسَّط الأمير لدى حليفه إبراهيم باشا بإعفاء الشباب الدروز من الخدمة العسكرية فوافق على طلبه، إلاّ أنَّ والده اشترط على الأمير تخيير الدروز بين أمرين: التجنيد أو البدل وإلا يلجأ إلى القوة في معاملتهم. غير أنَّ محمّد علي ما لبث أن تراجع عن موقفه هذا وأخذ يلحُّ

(١) Perrier, page 355-368.

على ابنه من جديد بضرورة تجنيد الدروز على أن تكون مدّة الخدمة محدّدة بـ ١٥ سنة.

ما إن تمكّن الأمير من تسوية المشكلة الدرزية مع زعماء هذه الطائفة حتى عاد محمد علي ليعيد طرح المسألة من جديد وبشكلٍ أسوأ من قبل، إذ صمَّم على تجريد الدروز من أسلحتهم بحجّة عدم ولائهم له. وبعد فترة تريّث قليلة من قِبَله وجّه أمراً جديداً إلى ابنه إبراهيم في ١٤ تموز ١٨٣٥ يقضي بالزحف على المناطق الدرزية، فإن قبلوا بتسليم أسلحتهم كان خيراً وإلا فالحرب معهم لا محالة واقعة. فما كان من إبراهيم إلا أن أبلغ مضمون هذا الأمر إلى بشير بغية مساعدته على تنفيذه. فما كان من هذا الأخير إلا أن حاول إقناع اللبنانيّين وخاصة الدروز بضرورة تسليم أسلحتهم تجنّباً لكارثة محتّمة، وتوجّه إبراهيم شخصياً إلى بيت الدين لمراقبة هذه العملية.

إلا أنَّ ظاهرة جديدة أثار شكوك محمد علي هي قضية تنصّر بعض الشباب الدروز تجنّباً للخدمة العسكرية وحاول استيضاح الأمير عن حقيقة الأمر، فلم يحصل منه على جواب كافٍ ومقنع.

حاول الأمير بكلِّ قواه منذ بداية التوتّر في العلاقات مع الدروز إقناع إبراهيم باشا بضرورة معاملة اللبنانيّين بالحُسنى فلم يفلح، ولم يتمكّن بالتالي من تجنيب سكّان إمارته المجابهة المحتّمة مع المصريّين، ذلك أنّ سوء معاملة المصريّين للبنانيّين، وتقييدهم لحرية الأمير، بالإضافة إلى عوامل التحريض المختلفة في الداخل والخارج وخاصة من قِبَل العثمانيّين والإنكليز قد أدّت إلى حتميّة الصراعات الدامية التي استمرَّت بشكلٍ متواصل على مدى أكثر من خمس سنوات، بدءاً بالثورة الدرزية وانتهاءً بالثورة اللبنانية الشاملة التي قضت على بشير وحلفائه معاً[١].

(١) Laurent Achille, Relations historiques des affaires de Syrie, Paris, Tome I, Page 5-11.

عاميّة أنطلياس الثانية:

بغية تدارس الأوضاع المعقّدة ووضع خطط مجابهة المرحلة المقبلة عقد زعماء الدروز والموارنة اجتماعاً ثانياً على غرار «عاميّة دير القمر» في بلدة أنطلياس عُرِفَت باسم «عاميّة أنطلياس الثانية» في كنيسة مار الياس أنطلياس، وأقسم الجميع على مذبح هذه الكنيسة، وبشهادة الخوري إسكندر العرموني كاهن الرعية على أن يظلَّ الجميع يداً واحدة من أجل تحقيق الاستقلال والقضاء على التحالف المصري ـ الشهابي. وقد أدّى نجاح هذا المؤتمر الوطني إلى جعل هؤلاء الشبّان الثائرين يلتهبون حماسةً، وانصرفوا على الفور إلى افتعال مناوشات والقيام بأعمال تخريب في مختلف مناطق الإمارة الشهابية. وقد اشتدَّت الثورة وازدادت اضطراماً في منتصف حزيران، وبدأ تدخّل الدول الأوروبية في المسألة الشرقية على قدم وساق. هذا في الوقت الذي استمرَّ فيه «العزيز» يؤكّد لبشير أنّه سوف يضربُ العُصاة ويجرّدهم من أسلحتهم. وبالفعل فقد توجّه القائد المصري عثمان نور الدين باشا بعساكره إلى بعلبك في ٢٤ حزيران ١٨٤٠، واشتبك في اليوم التالي مع الثوّار في بلدة الفرزل البقاعية، ولكنّه مُنِيَ بهزيمةٍ نكراء. ثمَّ تعقّب الثوّار إلى مكانٍ آخر في البقاع يُدعى ترحيم بجوار زحلة، فحقّق عليهم انتصاراً كبيراً. وفي ٣٠ من الشهر المذكور وصلت تعزيزات من مصر إلى إبراهيم باشا بقيادة عبّاس باشا حفيد محمد علي. وفي ٦ تموز انتقلت الاشتباكات إلى جوار صيدا، فلاقى المصريّون هزيمة جديدة كبّدتهم خسائر فادحة. ثمّ انتقلت المواجهات العسكرية إلى بيروت ومنها إلى ضهر البيدر. وبعد وقتٍ قصير عاد معظم الأمراء اللبنانيّين إلى موالاة الأمير، ولم يبقَ خارج طاعته سوى «جمهور الساحل» الذي يتزعّم أعضاؤه الثورة، فتمكّن بشير من تشتيت شملهم، وانصرف إلى الانتقام منهم.

عند ذلك توجَّه الأمير خليل ابن بشير إلى كسروان وبدأ يجمع الأسلحة

من أهاليها بكلِّ شدّة وقساوة، وانتقم من خصوم والده بمختلف الوسائل، مستعملاً وسائل الترهيب والتهديد والوعيد، وتمكّن من القبض على الشيخ نقولا الخازن أحد خصوم والده. أما سرّ عسكر النصارى الشيخ فرنسيس الخازن فقد فرَّ إلى قبرص ثمّ تبعه بعض المشايخ الخوازنة. وبعد أن تخلّص الأمير من معظم زعماء المعارضة وافق على نفي أربعة أمراء شهابيّين إلى سنّار وثلاثة أمراء لمعيّين، وثلاثة مشايخ نكديّين إلى مصر، لأنّهم شاركوا في التحريض على العصيان. وقد نفى أيضاً إلى الإسكندرية الشيخ نقولا الخازن بصحبة ٤٦ عامياً.

غير أنَّ هذه الانتصارات التي حقّقها بشير وحلفاؤه لم تتمكّن من إطفاء نار الثورة لأنَّ النقمة الشعبية قد بلغت حدّها الأقصى بسبب الأوضاع المترديّة والمظالم المختلفة وبسبب استمرار التحريض من قِبَل الأجانب بمختلف الوسائل والسبل. وممّا زاد الأمور تعقيداً الأسلوب السيئ الذي أتبعه المصريّون لإخماد الفتنة، إذ لجأوا إلى القوة بدلاً من اللين والحكمة والتفاهم. كما يمكن أن نشير هنا إلى اللحمة الشديدة التي تجلَّت بين أبناء طوائف الجبل وخاصة بعد انضمام الشيعة إلى الموارنة في منطقة كسروان ضدّ التحالف المصري ـ الشهابي ممّا شكّل عاملاً مهماً من عوامل انهيار الوجود المصري وسلطة بشير[١].

لعلَّ التطرّق ببعض التفاصيل إلى دور الأجانب في إشعال الثورة اللبنانيّة يلقي ببعض الأضواء على هذه الثورة. من ذلك أنَّ أحد المرسلين الفرنسيّين المدعو الكونت Onfroy قد أخذ يحرّض الثائرين ويشدّد من عزائمهم. ونشير أيضاً إلى أنّه عندما وصلت باخرة محمّلة بالأسلحة من قبرص إلى جونية أشرف هذا الكونت شخصياً على تفريغها وتوزيعها على الثوّار، بالإضافة إلى

(١) Perrier, page 380-383; et Achille Laruent, page 187.

توزيعه الأموال الطائلة عليهم. وهذا ما دفع بقنصل فرنسا في لبنان مسيو بوريّه إلى استدعاء الكونت المذكور لاستيضاحه عن تصرّفاته ونشاطاته المعادية لمحمد علي حليف بلاده. إلاّ أنَّ هذا الكونت نفى كلَّ التّهم الملصقة به. مع العِلم أنّه نُسِبَ إليه أيضاً التمنّي على سر عسكر النصارى بالزحف على رأس قوّاته إلى بيت الدين لإجبار الأمير بشير على اتّخاذ موقف إيجابي ولمصلحة الثوّار، ولكنّ الشيخ المذكور لم يتجرّأ على تحدّي سيّد بيت الدين(١).

هذا، وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى خلوة سريّة عقدت بينه وبين بوريّه بحضور راهب يسوعي شارل كمترجم. ولكن لم تسفر عنها نتائج إيجابية لمصلحة الأمير.

في ١٣ تموز ١٨٤٠ شوهدت ٣ مراكب إنكليزية وبعض القطع البحري تتحرَّك على طول الشاطئ اللبناني، إلا أنّ الدهشة علت وجوه الضبّاط الذين على متنها لأنَّ نيران الثورة قد خمدت نسبياً، في الوقت الذي كانوا ينتظرون أن يجدوها مضطرمة وشاملة مختلف أجزاء الإمارة، وذلك كردّة فعل لبعض «الأعمال البربرية» التي ارتكبها الجنود المصريّون بحقّ اللبنانيّين.

حاول الإنكليز استغلال هذه الأحداث لمصلحتهم إلى أبعد الحدود، وقد حقّقوا في ذلك نجاحاً باهراً إلى أقصى الحدود، وذلك بفضل الدبلوماسي الإنكليزي المشهور «ريتشارد وود». وفي ١٥ تموز بدأت المراكب الإنكليزية والتركية تصل إلى شواطئ لبنان، وأخذ وود وعملاؤه يغرون الناس بالمال والأسلحة. ولم تنفع في الحدّ من نشاطاتهم التحريضية مواقف الفرنسيّين الذين ظلّوا يوهمون المصريّين بوصول مساعدات عسكرية منتظرة. فما كان من الإنكليز إلاّ أن ضربوا بيروت بالمدفعية ليثبتوا لإبراهيم

(١) Achille, Laurent, Page 187; et Perrier, page 347-387.

أنَّ الفرنسيّين لن يتدخّلوا لمصلحته. ثمّ أنزلوا أيضاً قوّات عسكرية في جونية. عند ذلك أخذوا يشعرون ببوادر الهزيمة، إذ بدأوا يجدون أنفسهم محاطين بالأعداد خاصة بعد أن انقطعت عنهم طرق الإمدادات، والاتّصالات البرية والبحرية. ولم تنفع مداخلات الأمير مع الثوّار، إذ فشل في إبقاء المبادرة في يده، وأخذ الإنكليز يفتّشون عن بديل له(١).

أما فيما يتعلّق بدور رجال الدين المسيحيّين ومواقفهم مع الثورة فيشرحه Perrier بشكلٍ مفصَّل، ويشير إلى أنَّ هؤلاء لم يتّخذوا موقفاً موحّداً من الثورة. ففي حين طاف كثير من المطارنة على الثائرين ليدعوهم إلى ضرورة التقيّد بالنظام، انصرف كثيرٌ من الكهنة إلى التجوّل في المناطق والقرى المختلفة، وأخذوا يضرمون نار الثورة في نفوس اللبنانيّين، وذلك عن طريق إقامة الذبيحة الإلهية قرب تجمّعات الثائرين اعترافاً منهم بتحرّكاتهم، ومباركةً لخطواتهم التحرّرية. وقد ورد في أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية أنّه حضر في ٢٠ حزيران ١٨٤٠ كاهن مُرسَل من قِبَل بشير إلى البطريرك الماروني طالباً شفاعته لإنقاذ الموقف، فاعتذر الأخير عن تلبية طلبه لأسباب صحية. وقد أبدى قنصل فرنسا في بيروت أسفه لموقف البطريرك اللامبالي من الفظائع التي ارتكبتها قوّات إبراهيم باشا في الجبل، وذلك في ١٧ تموز ١٨٤٠. ويشير التقرير المذكور إلى الأعمال التخريبية التي قامت بها قوّات إبراهيم باشا في مختلف مناطق لبنان، ولم تستثنِ من ذلك المراكز الدينية المسيحية. فأحرقت الأديرة والكنائس في أماكن مختلفة مثل: دير مار روكز المنصورية، دير القلعة. وشبّت حرائق كثيرة، وحدثت أعمال مخلّة بالأمن في برمّانا وبعبدات، بالإضافة إلى تقتيل الأطفال وتقطيع أوصالهم، وتمزيق أجسادهم وذبح النساء بعد الاعتداء عليهنَّ. كما يلوم القنصل حكومة بلاده على إهمالها لحماية أنصارها. تلك الحماية التي أصبحت بنظره مضحكة.

(١) Perrier, page 3&9; et Achille Laurent, page 121-123, 128.

وقائع الثورة اللبنانية ومراحلها:

بدأ خصوم محمد علي يشحنون الأجواء ضدّه منذ أوائل ١٨٤٠، وأخذت الإشاعات تسري عن عزمه على تجنيد المسيحيّين والدروز معاً. وممّا زاد موقفه تعقيداً أنّه طالب النصارى بالأسلحة التي وزّعها عليهم سنة ١٨٣٨ (عندما قرّر تجنيد الدروز، وتداركاً لردّة فعل قد تحصل من قِبَلهم، وزّع على النصارى ٨٠٠٠ قطعة سلاح مجاناً ليلوّح على الدروز بوجود خطر مسيحي عليهم في حال رفضوا الخدمة العسكرية) بحجّة أنّه منحهم إيّاها هبة وليس إعارة. وما كان منهم إلا أن اتّحدوا مع الدروز في حلف ظاهر ضدّه، وأخذوا يتحيّنون الفرَص للتخلّص من حكمه. وقد تجلّى تنظيم هذه المعارضة وتلاحمها من خلال الجمعية التي أنشِئَت للدفاع عن جبل لبنان، وضمَّت أعضاء من جميع الطوائف اتّفقوا على أربعة مبادئ أساسية هي:

١ ـ الإمتناع عن تقديم الأسلحة التي وزّعت سنة ١٨٣٨ ما لم يُرجع «العزيز» الأسلحة التي أخذها من لبنان سنة ١٨٣٥.

٢ ـ عدم الإذعان لأي تجنيد جديد.

٣ ـ الإمتناع عن تسليم أي شخص يلجأ إلى لبنان حتى ولو كان فاراً من الجيش.

٤ ـ إنشاء صندوق عام للدفاع عن لبنان[١].

إزاء الإصرار المصري على جمع الأسلحة تنادى شباب دير القمر إلى حمل السلاح، وعقدوا اجتماعاً في «خلوة دير القمر» حضره زعماء من الدروز والمسيحيّين في ٢٧ أيار ١٨٤٠، وثبّتوا فيه الدعوة إلى العصيان رغم حرصهم على عدم قطع الصلة مع الأمير. وهذا ما عُرِفَ باسم: «عاميّة دير

(١) Perrier, page 369-378.

القمر». غير أنَّ بشيراً لم يرضَ بما حصل، ووجّه نداءً إلى زعماء البلاد محذّراً إيّاهم من مغبّة هذا التصرّف. كما كتب في الثامن والعشرين من الشهر المذكور إلى كلّ من العزيز وابنه إبراهيم، ومحمد شريف باشا القائد المصري يعلمهم بصعوبة جمع الأسلحة من النصارى، ويطلب منهم أن يأمروه بما يجب أن يفعل لتدبّر الأمر.

أخذت نيران الحرب الأهلية تمتدّ من منطقة إلى أخرى وقد انضمَّ إلى الثوّار بعض الأمراء الشهابيّين واللمعيّين وبعض المشايخ ورجال الإقطاع من آل الخازن، وحرفوش والخوري، بالإضافة بعض الفرسان الأشدَّاء أمثال: أبي سمرا غانم ويوسف الشنتيري. وقد انتخب الثوّار رئيساً عليهم الشيخ فرنسيس أبي نادر الخازن الذي لقِّبَ باسم: «سر عسكر النصارى»، وعمدوا على الفور إلى قطع الطرق على العساكر المصرية في مختلف المناطق، وخاصة صيدا وطرابلس والحازمية والدكوانة والبقاع. كما هاجموا بيروت التي صدّهم عنها الأرناؤط. هذه الأحداث أقلقت إبراهيم باشا وحليفه بشير الذي حاول استثارة حلفاؤه من اللمعيّين وغيرهم فلم يفلح. وفي الثاني من حزيران كتب إليهم إبراهيم باشا بضرورة معاملة الثوّار بالحُسنى خوفاً من التدخّل الخارجي. وفي الثامن من الشهر المذكور كتب «العزيز» وابنه إبراهيم إلى الأمير بأنّهما عدلاً عن تجنيد اللبنانيّين، وعدم مطالبتهم بالأسلحة. فما كان من بشير إلا أن أزفَّ هذه «البشرى» إلى الأعيان بواسطة ابنه أمين الذي توجَّه في الحادي عشر من حزيران إلى مقرّ رجالات الثورة في سنّ الفيل، واستدعى إليه سر عسكر النصارى فلم يحضر. وحاول استمالة غيره من القادة ففشل أيضاً. عند ذلك عاد خائباً إلى بيت الدين ليبلغ والده بتصلّب الثوّار في مواقفهم، كما أبلغه بتدخّل بعض رجال السلك الدبلوماسي في لبنان بالتحريض على الثورة والعصيان (قنصل سردينيا، وترجمان قنصل النمسا وترجمان قنصل الإنكليز). كما أكد له أنَّ أوروبياً اتّصل بهم في ٩ حزيران ووعدهم بوصول سفينة

محمّلة بالأسلحة إليهم. كما ذكر له أنّ الأمير ملحم الشهابي أخبره بوجود عناصر أجنبية مسلّحة في كسروان. وممّا أثار مخاوفه من التدخّل الدبلوماسي الأجنبي في إضرام الثورة أنّ المسيو بوريّه قنصل فرنسا في بيروت قد أظهر حماسة بالغة لمصلحة الثوّار النصارى، ممّا اضطرّ وكيل وزارة الخارجية الفرنسية إلى ردعه وتحذيره من مغبّة هذه التصرّفات. فما كان من بشير إلا أن كتب في منتصف حزيران إلى «العزيز» مؤكّداً له التدخّل الأجنبي، الذي لجأ إلى مختلف الوسائل والإغراءات المادية والمعنوية[١].

نهاية حكم المصريّين وبشير:

عندما امتدّت نيران الثورة لتعم مختلف أرجاء الجبل وجّه الأميرال سدني سميث القائد العام للأسطول الإنكليزي إلى الأمير رسالة يعرض عليه فيها العودة إلى طاعة السلطنة مقابل جعل حكمه وراثياً في الجبل. فأهمل الأمير هذا العرض ظناً منه أنّ الفرنسيّين لن يتخلّوا عنه وعن حليفه محمد علي. إلاّ أنّه تراجع عن موقفه هذا وأرسل سراً إلى الأميرال كتاباً يعلمه فيه أنّه مستعدّ للدخول في طاعة السلطنة شرط إبقائه في السلطة، وبضمانة الدول الأربع، وإعطائه مهلة لاستدعاء أولاده وأحفاده من صفوف المصريّين فحدّد له المهلة حتى ٨ تشرين الأول دون أن يوافق على مبدأ الضمانة الدولية. وفي ٧ أيلول ١٨٤٠ جاء مركب تركي من القسطنطينية وعلى متنه فرمان بتعيين بشير الثالث حاكماً على الجبل (يبدو أنّ المراسلات بين الأمير والأميرال سميث لم تكن منظّمة ولم تصل في مواعيدها). إلاّ أنّ الإنكليز ظلّوا يفاوضون الأمير لإدراكهم مدى احترام اللبنانيّين له. فأرسلوا إليه وفداً من قِبَلهم يعلمه بصدور الفرمان المذكور ويدعوه للتدخّل مع قناصل الدول المعتمدين في بيروت لتسوية قضيّته مع السلطنة. وقبل أن يقوم الأمير بأي مسعى من هذا النوع،

(١) Perrier, page 378, 386-394; et Achille Laurent, page 187.

قصدت مراكب إنكليزية في ٢٦ أيلول إلى الشاطئ اللبناني محمّلةً بالأسلحة إلى دير القمر بعد اتّفاق حصل لهذه الغاية بين الدبلوماسي الإنكليزي ريتشارد وود وأنطوان الحداد من دير القمر، ولكنّ أهالي هذه البلدة رفضوا تسلّم الأسلحة. فتوجّهت هذه المراكب إلى صيدا وخرّبتها، ثمّ غادرتها بعد أن حصلت اشتباكات بينها وبين المصريّين، وبنتيجتها تقرّر تعيين حاكم من قِبَل الإنكليز على المدينة، ثمّ توجّهت المراكب لتفرغ حمولتها في بلدة الدامور لتوزّع على الأهالي الثائرين ضدّ التحالف المصري ـ الشهابي. فعرض عند ذلك إبراهيم باشا على الدروز عرضاً مغرياً يقضي بمنحهم بلاد كسروان ملكاً لهم إن هم وقفوا إلى جانبه ففشل. ومن عوامل ضعفه أيضاً أنّ العثمانيّين تمكّنوا من استمالة أحد قادة الأمير بشير المدعو أبو سمرا غانم إلى جانبهم وأرسلوه لمحاربة بشير وحلفائه المصريّين في بلاد جبيل والبترون وجبّة بشرّي، فألحق بهم هزائم متتالية.

أما الكسروانيّون، وبعد أن وافقوا على تسلّم الأسلحة من الإنكليز والعثمانيّين فقد بدأوا يناوشون المصريّين في ميروبا وجوارها، فوجّه إبراهيم باشا حملة لقتالهم وتأديبهم وألحق بهم هزائم متتالية. وعندما توجّه قائد القوات المصرية إلى البقاع لتأديب المتمرّدين طلب الكومودور الإنكليزي Napier إلى بشير الثالث أن يضربَ مؤخّرة الجيش المصري فنفّذ الأمر وألحق بالمصريّين خسائر كبيرة. وبعد هذه الانتصارات قرّر الإنلكيز والعثمانيّون والثوّار احتلال بيروت من البرّ والبحر فاستسلمت لهم في ١٠ تشرين الأول ١٨٤٠. إلاّ أنّ المعركة الحاسمة التي قصمت ظهر إبراهيم باشا فكانت في بلدة بحرصاف بجوار بكفيا حيث لَقِيَ المصريّون هزيمة نكراء، اضطرَّ إبراهيم باشا بعدها الهرب إلى قرنايل ومنها إلى البقاع.

في هذه الأثناء انتهت المهلة المُعطاة إلى بشير، وأعلن تنصيب الأمير بشير الثالث مكانه من قِبَل الإنكليز والعثمانيّين، وفي احتفال رسمي في بلدة

ميروبا الكسروانية. فما كان من الأمير بشير الثاني إلا أن جمع أمواله وأوراقه ومستنداته الخاصة والأشياء الثمينة في قصره، وقرَّر تسليم نفسه في صيدا للإنكليز والعثمانيّين، وكلّ ذلك كان بحضور حنّا بك البحري أمين خزانة إبراهيم باشا. وهذا الأخير ـ بعد أن فوجئ بما حصل ـ توجَّه فوراً إلى بلدة عين زحلتا ليخبر سيّده بما حصل، فصادفه قادماً إلى بيت الدين للإجتماع بالأمير وتوجيه دعوة إليه لقضاء بقيّة حياته في مصر وبناء على رغبة والده. وعندما علم إبراهيم بما حلَّ بالأمير قفل راجعاً إلى البقاع في ١١ تشرين الأول، ومنه غادر إلى مصر في حين الأمير نُفِيَ إلى مالطة ومنها إلى الآستانة[١].

نهاية العلاقات بين الأمير والمصريّين:

ما إن علم الأمير بشير بصدور فرمان عزله وتعيين الأمير بشير الثالث مكانه حتى بدأ يجمع أغراضه وحوائجه استعداداً لتسليم نفسه إلى العثمانيّين والإنكليز. ولم تنفع محاولات حنّا البحري أمين خزانة إبراهيم باشا في إقناعه بالعدول عن هذه الخطوة التي قد تعرّضه للمصير المجهول. فغادر البحري بيت الدين قاصداً زحلة للإجتماع بسيّده إبراهيم باشا الذي التقى به في الطريق قاصداً بيت الدين ليبلغ الأمير أمراً تلقّاه من والده يقضي فوراً بالانسحاب من الإمارة اللبنانية، وتوجيه دعوة إلى حليفه بشير ليذهب معه إلى مصر لقضاء بقيّة حياته في القطر المصري مع زوجته وأولاده وأحفاده. فأبلغه الحبري بأنَّ الأمير قد غادر إلى صيدا مع بعض أفراد عائلته وحاشيته. فحزن حزناً شديداً لدى سماعه هذا الخبر نظراً لما سيلاقيه حليفه من ذلّ ومهانة في المنفى، ورجع حالاً إلى زحلة تمهيداً للانسحاب من الجبل عن طريق البقاع، في حين أن الأمير بشير قد نُفِيَ ـ بناءً على رغبته ـ إلى مالطا.

(١) Achille Laurent, page 121-128, 132-137, 182-189; et Perrier, page 388-393.

بعد انقضاء حوالي تسعة أشهر من الإقامة في مالطا، تقرَّر انتقال الأمير إلى الآستانة. وقبيل المغادرة قدم شخص رومي من قِبلَ محمد علي باشا يحمل إليه رسالة، فلم يقبل الأمير الاجتماع بالرسول وأرسل من قِبَله مدبّره بطرس كرامه للاستفسار عن مهمّته، وحصل منه على نسخة من الكتاب المتضمّن عواطف تقدير واحترام وعرفان جميل من قِبَل والي مصر. فاستشار الأمير حاكم الجزيرة لإبداء الرأي فنصحه بعدم الردّ. وهكذا انتهت مرحلة مهمّة وخطيرة من تاريخ لبنان الحديث لا تزال ظلالها قائمة بشكل أو بآخر حتى أيّامنا هذه.

بيروت وجبل لبنان
من خلال مذكرات كريمسكي ١٨٩٦ ـ ١٨٩٨

د. مسعود ضاهر(*)

كريمسكي ورسائله:

وُلِد أغاتانغيل كريمسكي في ١٥ كانون الثاني ١٨٧١ في مدينة فلاديمير فولينسكي Vlademir Volensky الأوكرانية. أكمل علومه في معهد بول كالاغان Paul Calagan ثم في معهد لازاريف Lazarev للدراسات الشرقية في موسكو. ظهرت أولى كتاباته في عام ١٨٩١ فلفت إليه الأنظار بسبب ترجماته عن الآداب العثمانية والفارسية والعربية والسلافية. يقول عن نفسه أنه كان يتّقن أكثر من ١٧ لغة ولهجة، وبشكل خاص اللغات واللهجات ذات الصلة بتاريخ وآداب المجتمعات العربية والإسلامية. شغل مناصب إدارية مهمة منها أستاذ كرسي في قسم الآداب العربية وتاريخ الشرق الإسلامي لمدة عشرين عاماً ١٨٩٨ ـ ١٩١٨ في معهد لازاريف.

بعد أن قام برحلات عدّة خارج روسيا القيصرية، ومنها رحلة إلى بيروت أمضى فيها قرابة السنة وسبعة أشهر زار خلالها المناطق اللبنانية المجاورة لها، نشر كريمسكي أكثر من ثلاثمائة مقالة موضوعة أو مترجمة أبرزها عن الإسماعيلية، والوهابية، والبابية، والبهائية، والتصوّف، والخلفاء الراشدين، والأخشيديين، ونور الدين زنكي، وجامعة الأزهر، والإسلام ومستقبله،

(*) أستاذ في قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الفرع الأول، الجامعة اللبنانية.

والمعلّقات السبع، والمتنبي، وأبي فراس الحمداني، وأبي تمّام، والفارابي، وتاريخ فارس وآدابها، وتاريخ السلطنة العثمانية وآدابها، وغيرها.

بالإضافة إلى الروايات، ودواوين الشعر، والأعمال الإبداعية التي نشرها، شارك كريمسكي في مقالات متخصصة لعدد من القواميس ودوائر المعارف، وكتب أبحاثاً عدّة بلغّات متنوعة كان يتقنها، وأقام صلات حميمة مع عدد من كبار الباحثين في عصره. لكن القسم الأكبر من مراسلاته، باستثناء «رسائل من لبنان» موضوع هذا البحث، ما زالت محفوظة في أرشيفات المدن الروسية، خاصة أرشيف مدينة كييف Kiev.

يحتلّ كريمسيكي مكانة متميزة في الاستعراب الروسي، ويعتبر كتابه «تاريخ الأدب العربي الحديث» من أفضل الدراسات العلمية التي كتبها الباحثون الروس عن العرب حتى الحرب العالمية الثانية. وقد كُتبت عنه دراسات علمية كثيرة، أشادت بمزاياه الثقافية، وسعة إطلاعه، ودقة ملاحظاته العلمية.

زار بيروت في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وأمضى فيها قرابة السنة وسبعة أشهر دون انقطاع، ومنها بعث برسالته الأولى في الأول من تشرين الثاني ١٨٩٦، والأخيرة في ١٤ أيار ١٨٩٨.

تضمّنت رسائله الشخصية إلى ذويه وأقاربه وأصدقائه في روسيا وصفاً رائعاً لجمال الطبيعة اللبنانية، وتعريفاً بعادات اللبنانيين، وتقاليدهم، وتنوّع مصادر ثقافاتهم، وأنماط حياتهم اليومية، وأشكال العلاقات السياسية التي كانت سائدة في بلادهم، وتطور أوضاعهم الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، وغيرها.

كان كريمسكي يرغب في استخدام تلك الرسائل كمادة وثائقية لنشر دراسة علمية مطولة عن بيروت وجبل لبنان في تلك الفترة. فكتب في خريف

١٩٤٠ إلى صديقه المستعرِب الشهير أغناتي كراتشكوفسكي مستذكراً تلك الأيام الجميلة التي أمضاها في بيروت وجبل لبنان، وأنه عازم على التفرّغ لإعداد دراسة تستند إلى المادة التي تضمنتها تلك الرسائل. لكن ظروف الحرب العالمية الثانية حالت دون تحقيق أمنيته، إذ وافته المنية عام ١٩٤٢. وقد تولّت الباحثة الروسية المعروفة إيرينا سميليانسكايا، إعداد تلك الرسائل، ونشرتها أكاديمية العلوم السوفياتية في موسكو عام ١٩٧٥. فجاءت ، بصيغتها الأصلية، ملأى بالتكرار الذي تمّ تفاديه عندما نقلها إلى العربية الأستاذ يوسف عطاللّه، واستندنا إليها لإعداد كتابنا «بيروت وجبل لبنان على مشارف القرن العشرين من خلال رسائل كريمسكي»، الصادر عن دار المدى في بيروت عام ١٩٨٥.

أولاً: بيروت وضواحيها في أواخر القرن التاسع عشر من خلال رسائل كريمسكي:

١ ـ تحديد المصطلحات الجغرافية:

تضمّنت الرسائل تعريفاً بالمصطلحات الجغرافية، والمناخ، وأنماط الحياة اليومية في بيروت وجبل لبنان. وقد استخدم مصطلح بيروت مقروناً بسوريا بعد أن وضعها بين مزدوجين بيروت (سوريا). واستخدم مصطلح «العرب» للدلالة على اللبنانيين من مختلف الطوائف والمناطق، تمييزاً لهم عن الأرمن، والأتراك، واليونان، وغيرهم. ويرمز «جبل لبنان» لديه إلى المنطقة الجبلية المقابلة لشريط سوريا الساحلي (ص. ١٠٣).

٢ ـ البريد والجمارك:

بدأ انطباعاته بتحليل وظيفة البريد الذي كان صلة الوصل الأساسية، لا بل شبه الوحيدة بين الأجنبي الوافد إلى بيروت وأهله في الخارج. كان البريد

يحمل عبر السفن القادمة إلى بيروت والتي كان يتأخر موعد وصولها أحياناً فيتأخر معها وصول الرسائل إلى أصحابها. فالباخرة الروسية تصل عادة مرة كل ١٠ـ١٢ يوماً، لكن الرحلة قد تستغرق أحياناً ١٨ـ٢٠ يوماً. أما الباخرة النمساوية فتصل بيروت مرتين في الأسبوع وأحياناً مرة كل ٨ـ١٠ أيام.

عبر البريد كانت النقود تصل إلى كريمسكي بانتظام من مؤسسات روسية رعت رحلته العلمية. وبسبب تقلّبات أسعار العملة في سوق بيروت كان ينصح أهله بإرسال العملة الروسية الذهبية لأنها متداولة في بيروت ويساوي الروبل الذهبي عشرين فرنكاً فرنسياً (ص. ١٠٣ـ١٠٤). ونظراً لمعاناته من الرشوة التي كانت سائدة في جميع المراكز العثمانية، ومنها دائرة الجمارك في بيروت، تحدّث بالتفصيل عن انتشارها على نطاق واسع في دوائر بيروت. هذا بالإضافة إلى رقابة صارمة على دخول الكتب المرسلة إليها باستثناء ما يفد منها إلى القنصليات الأجنبية التي كانت مكرهةً على دفع الرشوة لتسهيل الكتب المرسلة إليها وإخراجها من دائرة جمارك في بيروت (ص. ١٠٤).

٣ ـ جمال الطبيعة:

بعد أن استقر به المقام في أحد أحياء منطقة الأشرفية الجميلة في شرقي بيروت، تضمّنت غالبية رسائله الأولى إلى ذويه وصفاً رائعاً لهذه المدينة الساحرة التي تغزّل بها أحد شعراء تلك المرحلة بقوله:

بيروت جوهرة في تاج عثمان ... محروسة بسيوف الإنس والجان
مدينة ما بنى كسرى لها شبهاً ... ولا بنت مثلها أيدي سليمان
يا من تغزل بالإيوان يحسبه ... أجلّ ما صنعته كف إنسان
إذا تنقلّت في بيروت مفتقداً ... شاهدت أجمل منه ألف إيوان

وقد جاءت انطباعات كريمسكي الأولى مطابقة تماماً لمضمون تلك الأبيات. فكتب في إحدى رسائله:

«بيروت مدينة رائعة الجمال، غارقة في بساتين النخيل والتين والليمون. شوارعها شبيهة بشوارع المدن الأوروبية. منظر أخّاذ على البحر، ويغلب على الطراز المعماري فيها الطابع الغربي. غالبية سكانها من المسيحيين الذين تستهويهم الثقافة الأوروبية إلى حد كبير» (ص. ١٠٥).

وأضاف في مكان آخر: «الحق يقال، إن مدينة بيروت رائعة في أي وقت من الأوقات، حتى في عز الهجيرة. إنها أجمل مدن الشرق التي شاهدتها. ولو كانت أراضي الغرف فيها مغطاة بالخشب لا بالحجر، ولو أقيمت في بيوتها مواقد للتدفئة لكانت بيروت الجنّة بعينها. القسطنطينية مدينة جميلة من جهة البحر، ولكنها قبيحة من الداخل. أما بيروت فجميلة من الخارج ونظيفة من الداخل» (ص. ١١٦).

ثم قدّم كريمسكي وصفاً دقيقاً لمنطقة الأشرفية التي سكنها خلال رحلته البيروتية. «أسكن المنطقة الجبلية من بيروت التي تدعى «الرميل» وهي قريبة من بساتين جميلة. في أحياء الأشرفية والرميل ومار متر تشاهد اليوم قصور فخمة شيّدت على النمط الشرطي وتعود لأعيان المسيحيين الأغنياء. ففي شارع آل سرسق مثلاً شيّدت قصور آل التويني وطراد وثابت وغيرهم. وكانت بداية النهوض في مطلع الثلاثينات من القرن التاسع عشر، وهي تضم جنائن خلابة وصفها لامارتين بدقة إبّان زيارته لبيروت عام ١٨٣٢». وأضاف: «لدي مكان مفضل للنزهة هو كرم الزيتون الذي يبعد عشر دقائق فقط عن غرفتي سيراً على الأقدام. إنه لغابة وارفة الظلال تختلط فيها أشجار الخروب والتين، واستطيع منها مشاهدة البحر، ومدينة بيروت، وجبال لبنان. في الجهة المقابلة تمتد أرض صحراوية كثرت فيها أشجار النخيل... وكثيراً ما تراودني الفكرة التالية: من أين جاءتني كل هذه السعادة في بيروت؟ ولماذا دفعني قدري للمجيء إلى هذا البلد الساحر؟ (ص. ١٣٠، وحاشية ص. ١٣٨). لكن الانطباعات الأولى بدأت تتغير عندما اكتشف كريمسكي مساوئ مناخ بيروت غير الحصي والمصحوب بالرطوبة وما يرافقها من ألم حاد في

المفاصل. «الليل شديد الرطوبة في سوريا ومعظم سكان البلاد يعانون من الروماتيزم والزكام... وعندما يبدأ موسم الرطوبة لا يسمح الروماتيزم لساكن بيروت بالتمتع لفترة أطول بجمال الطبيعة» (ص. ١٠٥ و١١٦).

٤ ـ وصف الطعام والشراب:

قدّم كريمسكي وصفاً دقيقاً لنماذج الحاية اليومية التي عاشها بنفسه. «فسكان بيروت لا يأكلون لحم البقر، ولا يحبّونه، لأنهم يفضلون لحم الغنم. معظم الطعام نباتي، والخبز هنا لا يشبه الخبز الروسي. يخبزون أرغفة مستديرة رقيقة يصعب هضمها. الفاكهة رخيصة جداً. فالبرتقال متواجد على مدار السنة، أما العنب فيختفي من الأسواق بعد عيد الميلاد. التمر الجيد مستورد من بغداد ومصر. ثم يبدأ موسم المندرين، وبعده موسم الإكّي دنيا، وبعده المشمس وغيره. لا يوجد في بيروت كرز لأنه يُستورد من القسطنطينية... ومع أن نبيذ بيروت يفوق بجودته أي نبيذ آخر إلا أن ثمنه بخس للغاية. فالنبيذ الأغلى ثمناً الذي يُباع في أسواق بيروت مُستورد عبر قبرص، لكن سعر الزجاجة لا يصل إلى أكثر من عشرين كوبيكاً روسياً». (١٠٦ و١١٦ و١٣٢).

٥ ـ حمل السلاح والفلتان الأمني ليلاً:

كان الأجنبي الوافد حديثاً إلى بيروت وجبل لبنان يصاب بالدهشة لكثرة وجود السلاح بين أيدي السكان. لذا تبدو المرارة القاسية لديه بسبب تنافر قسمات الصورة لمدينة بيروت، الرائعة الجمال، والفلتان الأمني الذي لا مبرر له في أحيائها. فكتب ما يلي: «ما أجمل السير ببيروت ليلاً، لا سيما في الليالي المقمرة. بيد أن النزهة الليلية، مع الأسف، لا تخلو من الخطر. فغالباً ما تسمع في الليل طلقات نارية لأن السكان يحملون مسدساتهم في الليل» ويضيف: «منذ خمسة أيام استقليت مع ترجمان السفارة الروسية،

سليم شحادة، عربة أجرة، وفي الطريق التقت عربته بعربة أخرى. كانت الطريق ضيقة لم تتسع للعربتين معاً. بدأ سائق العربة المقابلة يكيل الشتائم وترجل يبغي العراك. وما إن تمتم سائقنا ببضع كلمات لم أفهمها حتى شهر السائق الآخر مسدسه وأطلق رصاصتين على مؤخرة عربتنا».

«وبما أن سليم شحادة من التابعية العثمانية، كان من السهل التعرّف إليه من خلال الطربوش الذي يعتمره العثمانيون ولا يُسمح لهم باعتمار القبعة الأوروبية. أما أنا فكان مظهري الأوروبي باد عليّ، ومن معطفي يعرفون أنني روسي الجنسية. لكن من المؤكد أن بعض حملة السلاح في بيروت قد يقتلون أوروبياً إبّان فورة غضب، غير عابئين بالعقاب الصارم الذي ينتظر كل من يقتل أوروبياً». (ص. ١١٨ ـ ١١٩).

ثم يشير إلى خوف المواطنين من السير ليلاً، وإلى حوادث قتل لأسباب متنوعة، كالسرقة، أو لمشاحنات شخصية، أو لخلافات طائفية. كأن يقول: «صعدنا الجبل وعبرنا غابة من أشجار الزيتون والتوت والليمون والنخيل، لكننا لم نبلغ القمة لمشاهدة منظر بيروت بكاملها، فقد اعترانا بعض الخوف ألا نتمكن من العودة قبل غروب الشمس... في ٢٤ تشرين الثاني ١٨٩٦، ظهر اضطراب في المدينة. فقد قتل المسلمون في أحد أحيائهم اثنين من المسيحيين، وردّ المسيحيون بقتل أحد المسلمين، فلم يعد أحد يخرج من بيته ليلاً» (ص. ١٢١ ـ ١٢٣).

ونظراً لسكنه في منطقة شبه مسيحية بالكامل، بدت له المدينة كلها على غرار الحي السكني الذي نزل فيه: «مدينة بيروت تكاد تكون مدينة مسيحية، والمسيحيون في بيروت أناس مسالمون. كمواطن روسي لا يعتريني خوف كبير من إقامتي في بيروت، إذ يعرف المسلمون أن روسيا تكاد تكون الدولة الوحيدة التي تقف إلى جانب السلطنة العثمانية. ويعرف الأرثوذكس العرب أن روسيا تقف إلى جانبهم. (ص. ١١٩).

٦ ـ أجور الفنادق في بيروت وازدهار بنوكها:

«نزلت في فندق نمساوي اسمه «فندق ألمانيا» ومكثت فيه الأيام الثلاثة الأولى ودفعت ثمانية فرنكات أجرة الغرفة في اليوم الواحد. وهناك فنادق أخرى بستة فرنكات لليوم الواحد. (ص. ١٠٥).

«البنك العثماني في بيروت هو بنك فرنسي أساساً، ويعتمد الاحتيال في تعامله مع الزبائن. لقد تعرّضت فيه للغش مرتين. فلقاء صرف تحويل مائة روبل تقاضى البنك ستة عشر فرنكاً أي ستة روبلات. العملة الروسية الوحيدة التي يتقبّلها سكان بيروت بسرعة هي العملة الذهبية. فهم يُقبلون على الإمبريال الروسي الذي يساوي سبع روبلات ونصف الروبل ويحسب بقيمة عشرين فرنكا، ويتخاطفونه بلهفة أكثر من النابوليون الفرنسي لأنه يحتوي على ذهب أكثر من تلك القيمة بقليل» (ص. ١١٢).

٧ ـ حرير بيروت:

«الحرير في بيروت أرخص من الكتان. أمس اشتريت لنفسي ربطة عنق جديدة ظننت أنها رخيصة. فقد دفعت ثمنها خمسة قروش فقط أي ما يعادل خمسة وثلاثين كوبيكا. لكن أصدقائي من آل الشاغوري، وهم يملكون مصنعاً للحرير، قالوا إنني دفعت ثمنها غالياً. ويضيف في مكان آخر: «قمت اليوم (٥ كانون الأول ١٨٩٦) بزيارة متاجر الحرير التي يملكها بعض أصدقائي من آل الشاغوري وغيرهم. الحرير البيروتي رخيص جداً ومتعدّد الألوان. أعجبتني بشكل خاص المناديل الحريرية في بيروت لدرجة أنني أجد صعوبة في تحويل نظري عنها. للأسف، الرسوم الجمركية على الحرير المصدّر إلى روسيا باهظة. إذ تفرض الجمارك على كل رطل من الحرير سبعة روبلات ذهبية ونصف الروبل. الحرير الفرنسي أيضاً رخيص في بيروت لكنه يبقى أغلى ثمناً من الحرير الآسيوي. مع ذلك، فالأشغال اليدوية

الآسيوية تعجبني أكثر من سواها، لا سيّما المناديل الرائعة» (١١٦ ـ ١١٧، و١٢٩).

٨ ـ انطباعات كريمسكي عن الحياة اليومية في بيروت ١٨٩٦ ـ ١٨٩٨:

بدأ كريمسكي بوصف الجالية الروسية التي تعرّف إليها فور وصوله إلى بيروت وأمضى معظم أوقاته مع أفرادها، الدبلوماسيين أو من الروس العاديين الذين قاموا بمهمات محددة في بيروت وعملوا بإشراف القنصلية أو المؤسسات الروسية. لا يتجاوز أفراد الجالية الروسية في بيروت السبعة إلى الثمانية أشخاص يسكنون في مناطق مختلفة. أسكن بالقرب من مدرسية «زهرة الإحسان للبنات» بإدارة السيدة إميلي سرسق، المعلمات الروسيات فيها يكرهن بيروت. وعندما يبدأ الحديث بيننا عن خصائل العرب، والمقصود هنا تجار بيروت الذين نتعامل معهم يومياً، نبدو موحدي الرأي حين نشتم معاً أولئك المحتالين. أما حين أجرؤ أحياناً على القول بأننا مجبرون على التعامل دوماً مع أشد العناصر سوءاً بينهم، لكن في بيروت أناساً طيبين، كان قولي هذا يثير عاصفة من الغضب عندهنَ مما يضطرني إلى التزام الصمت» (ص. ١١٠ و١١٦).

نائب القنصل الروسي في بيروت هو الأمير الشاب غاغارين، وعرّابه الأمير العظيم سيرغي ألكساندروفيتش، حاكم موسكو حالياً. أما زوجته، ماريا باكوفلفنا، فأوكرانية الأصل، وكان أبوها البارون فريفسكي حاكماً عاماً لتركستان. كانا يفضلان التخاطب بالفرنسية التي باتت أيضاً لغتي الرئيسية هنا، أما اللغة العربية فأسمعها أكثر مما أتحدّث بها... لقد بتّ أجد الآن صعوبة في تكلّم اللغة الروسية على الرغم من أنه لم يمضِ أكثر من شهرين على مغادرتي روسيا. تتداخل في ذهني الفرنسية والروسية والعربية. في الأحاديث الطويلة أستخدم عادة الفرنسية، أما العربية فللمحادثات القصيرة، وهي لغة النزهات (١٢٧).

إحدى المعلمات الروسيات في مدرسة سرسق، أو كما يدعونها غالباً مدرسة لبيبة جهشان لم تعد تطيق الحياة في بيروت لأنها مصابة بالروماتيزم. ستسافر إلى روسيا وستكون قريباً في موسكو. عندما تتحدثون إليها لا تصدقوا كل ما تقوله عن بيروت. إنها تكرهها من كل قلبها، وتشتم أشجار النخيل لأنها قليلة الظل، وتسمي سوريا «بلاد النخيل والصبار والخبز». يمكن تلمّس العذر لها لأن بيروت لم تعطها سوى إلتهاب الإمعاء حتى باتت لا تأكل إلا الطعام الروسي، بالإضافة إلى داء الروماتيزم الحاد الذي حرمها من السير إلا نادراً في شوارع المدينة (ص. ١٢٤). وبالإضافة إلى مدرسة «زهرة الإحسان» كانت هناك مدرسة صغيرة بإدارة السيدة شيركاسوفا. كان التلامذة فيها ينشدون كل صباح نشيد «ربنا إحفظ القيصر»، فيرددون: «ربنا إحفظ القيصر! إحفظه قوياً سيداً. ليتمجد ملكوتك علينا، ساعده يا رب لكي يفرض جبروته على الأعداء» (١٥٠). «معلمات مدارس الجمعية الفلسطينية الأرثوذكسية التي تمولها روسيا القيصرية لا يتمتّعن بالكفاءات المطلوبة، وهي مدارس ذات برامج ضعيفة المستوى يدرس الأولاد فيها اللغة الروسية، والقانون الإلهي، والحساب، والتاريخ، والجغرافيا، والغناء، والأشغال اليدوية، والرياضة، كما يدرسون في الصف الأخير مادتي التربية والتعبير. مدرسة بيروت تعلّم اللغة الفرنسية أيضاً لأن مدرسة سرسق كانت، في الواقع العملي، مستقلة عن الجمعية الفلسطينية. أما باقي مدارس الجمعية الفلسطينية فمحظور فيها تدريس الفرنسية (ص. ١٦٧).... يمتلك الموارنة والروم الكاثوليك مدارس متطورة لا يحظى الأرثوذكس بمثلها». (ص. ١١٩).

ويشير كريمسكي إلى حساسية أهالي بيروت المفرطة في تلك الفترة من الذين لا يمارسون الشعائر الدينية. «لم أذهب إلى الكنيسة، فترك ذلك علامة استفهام كبيرة، فكانت ربّة المنزل ترغمني أحياناً على رسم إشارة الصليب على صدري لكي تقتنع بأنني مسيحي. نهار الأحد الماضي استيقظت باكراً

وبدأت القراءة والكتابة فإذا بفتاة تقترب من غرفتي وتقرع نافذتي. رفعت رأسي وسألتها «شو بتريدي؟» فقالت «يهودي»، ومضت. أما أنا ففغرت فاي من الدهشة» (فتحت فمي من الدهشة) (١١٣).

٩ ـ مقارنة بين الأخلاق والتقاليد الفلاحية وعادات سكان المدن:

يبدو أن كريمسكي قد ترعرع في بيئة فلاحية تركت في نفسه إحساساً مرهفاً وإيجابياً للعادات والتقاليد الريفية. فكانت ردود فعله قاسية على الدوام ضد تقاليد وعادات سكان المدن، ومنها بيروت. فسكان المدن، كما يراهم، أناس تربّوا على صفات سلبية كالغش والخداع، في حين يغدق كل النعوت الإيجابية على سكان الأرياف.

«في بيروت يمارس كثير من الناس الغش بشكل لا يطاق. وكأني بكل من حولي يحاول خداعي. بالمناسبة، يؤكد الجميع أن أهالي جبل لبنان ممتازون، شرفاء لا يشبهون بشيء سكان المدينة من التجار. انتقادي اليوم لتجار بيروت يذكرني بانتقادات ليفيتسكي لسكان مدينة أوديسا. فلعل جميع المدن البحرية تضم فئات متنوعة من البشر ولا سيّما الشذاذ منهم، وتنشأ لديهم طباع غريبة... ثم اكتشفت كيف أن ترجمان القنصلية الروسية في بيروت يخفي عن القنصل أسماء السفلة الذين يتقاضى منهم رشوة (ص. ١٠٦ ـ ١٠٩ و١٢٦).

بالمقابل، يقدم صورة جميلة جداً لتقاليد الريفيين: «فلاحو ضواحي بيروت شعب بسيط جداً ونبيل جداً، ويلذّ لي التحدث إليهم. إنهم لمختلفون تماماً عن سكان المدينة من التجار. أعتقد بأنني سأسرّ بالقرويين صيفاً عندما أصعد إلى الجبال فتتأكد مصداقية الأفكار التي تراودني كيف أن أهل السوء من العرب هم فقط أولئك الذين يسكنون المدن ويمارسون التجارة. إنهم التجار المتواجدون داخل كل أمة ولا يحبهم أحد» (ص. ١٣١).

لكن الصورة تبدأ بالتبدل بعد أن طال سكنه في بيروت وخبر أهلها عن كثب. «لقد تآلفت مع السكان المحليين. طبعاً كل سكان بيروت من التجار. منهم التجار الكبار، ومنهم أصحاب المحلات الصغيرة. هم في حقيقة الأمر مخادعون، لكن الكثيرين منهم أذكياء وقريبون إلى القلب وأنا أعايشهم بسرور بالغ. هناك أيضاً عدد لا بأس به من الشرفاء والمثقفين» (ص. ١٧٣).

١٠ ـ الحياة الثقافية والفنية في بيروت أواخر القرن التاسع عشر من خلال ذاكرة كريمسكي:

قدّم كريمسكي وصفاً دقيقاً للبيئة البيروتية التي عاش فيها، والتي كانت الأكثر تطوراً في المدينة إبان تلك الفترة. «أجد صعوبة في استخدام اللغة. فأنا أعرف اللغة الفصحى وهنا يتكلّمون اللهجة العامية. ويبدي «المتعلمون» إعجابهم بلغتي الفصحى ويلحون على دعوتي لكي يستمعوا كيف يتكلم «الموسكوبي» العربية الفصحى. وضعت كلمة «المتعلمين» بين قوسين لأني لم أرَ بعد عرباً متعلمين فعلاً من الجيل القديم. راقبت بيوت الأغنياء من آل طراد: أفراد العائلة يرتدون الملابس الأوروبية، وكلهم يتحدثون باللغة الفرنسية حتى في ما بينهم. يتجمّعون في المساء ويرددون الأغاني المصرية. ينشدون كجوقة غناء بأصوات مزعجة لا يمكن تحمّلها. دوّنت كلمات إحدى الأغنيات الحديثة: مضمون الأغنية سطحي جداً لكن الجميع يستسيغونها. فوزنها مرصوف بالكلام الجميل والعبارات المنمّقة. حضرت مرة حفلة غناء. في الوسط يجلس مطرب مصري يرتدي ثياباً شرقية ويتحلق حوله بعض المستمعين من الأغنياء. كانوا يستخفّون به لكنهم يطربون من غنائه. لم تكن قراءة الكتب تثير لديهم أدنى اهتمام باستثناء الفتيات الذين يدرسون عند الآباء اليسوعيين وهم أبناء الجيل الطالع. حديث الشيوخ يدور، في الغالب، حول التجارة والدين. يندّد الأرثوذكس بالموارنة ويظهرون الهزء من الدعاية

اليسوعية، وهم ينتظرون الخير العميم من روسيا والجميع مهتم بالسياسة العالمية» (ص. ١١٣).

ثانياً: ضهور الشوير، عاريا، عاليه، حمانا من خلال ذاكرة كريمسكي صيف ١٨٩٧:

تقدّم انطباعات كريمسكي معطيات مفيدة لدراسة تطور قرى جبل لبنان في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، نشير هنا، وبشكل مكثف للغاية، إلى بعضها. «إيجار البيوت في الشوير مرتفع نسبياً». فبالمبلغ الذي سأنفقه للإيجار خلال فصل الصيف كنت أستطيع قضاء الصيف في أحد فنادق الجبل التي يملكها أوروبيون.

في الشوير نفسها، لا يوجد مثل تلك الفنادق لكنها متوفرة في كل مكان قريب منها، خاصة في برمانا، وهي منطقة ممتازة وقد تكون أفضل من الشوير. بيوت الشوير متداخلة ويلاصق كل منها الآخر.

في الواقع، الفرق شاسع بين بيروت وجبل لبنان. مناخ جبل لبنان معتدل والخضرة تبعث على الإنشراح، أما بيروت في الصيف فهي نقيض ذلك تماماً وليس لخضرتها تلك النكهة الرائعة المنعشة. لقد اعتدت الحياة تماماً في الشوير وأتمنى لو أبقى فيها ولا أغادرها إلا إلى روسيا. (ص. ٢٠٠ ـ ٢٠٤).

«غادرت الشوير «بالبوسطة»: متوجهاً إلى بيروت. والبوسطة تعني البريد كما تعني مركبة تتسع لثمانية أشخاص اتجهت بالقطار إلى عاريا حيث يصطاف القنصل الروسي وزوجته. دار القطار حول مدينة بيروت كلها وسط البساتين وحقول النخيل، ثم بدأ بالصعود والنسيم يهب منعشاً. فوصلنا عاريا بعد ساعتين، وهي مرتفعة جداً لكن أين هي من ضهور الشوير! بيروت

منبسطة أمامك بأكملها. المناظر رائعة الجمال، لكن أين هي من جمال الشوير وغابات الصنوبر الشاسعة وقمم صنين المكسوة بالثلج» (ص. ٢٣٤ ـ ٢٣٧).

تعتبر عاليه المحطة التالية بعد عاريا على خط سكة الحديد بين بيروت ودمشق. «دخلت مدينة عاليه فلم أعرفها للوهلة الأولى. عندما كنت فيها إبان الربيع المنصرم كانت خالية تماماً من السكان. فبدت آنذاك وكأنها غير مأهولة. أما الآن فجماهير الناس تملأ الشوارع والطرقات، عرفت منهم كثيرين أتوا من المدينة فظننت نفسي في بيروت. في الواقع، معظم البيروتيين ينتقلون صيفاً إلى عاليه التي تزدحم بالسكان. المناظر الخلّابة كثيرة لكن سحب الغبار التي تثيرها العربات المتنقّلة عبر طرقات المدينة تسمم الحياة فيها. ضواحي عاليه نظيفة ومنعشة جداً ويقطنها عادة القرويون المقيمون، وأغنياء بيروت، وبعض القناصل. يتجنب غالبية البيروتيين ضواحي عاليه ويتجمّعون قرب المحطة والسوق حيث تتكاثر سحب الغبار مع مرور العربات. ولدى سؤالي عن سبب تجمعهم هناك كان الجواب بأن الحياة هنا أكثر «متعة» بالقرب من المحطة والسوق. فهناك عدد من المقاهي تصدح فيها الموسيقى والأغاني دون انقطاع، وهناك أكشاك وحوانيت ومقاه كثيرة. يتنزه المصطافون عبر شارع طويل يمتد من المحطة حتى الأحياء الدرزية... إنه ممتع فعلاً، ومزدحم بالناس، لكنني عجبت كيف لا يختنق البيروتيون لكثرة الغبار فيه» (ص. ٢٣٨ ـ ٢٣٩).

«قطعنا من عاليه محطتين بالقطار حتى وصلنا إلى صوفر حيث أقام أغنياء بيروت مركزاً للعبة الروليت وخصصوا مبالغ طائلة من المال لبناء «فندق صوفر الكبير». يرتاد المركز أناس كثيرون وبعضهم يخسر كل ماله في القمار. لكن أغنياء بيروت من آل سرسق وبسترس وغيرهم يرون أن المركز لم يعد يؤمن لهم كل ما يشتهون. فسرت شائعة تقول إنهم عازمون على

تحويل جناح فيه إلى بيت للدعارة يجمع الرجال والنساء. وقيل لي بأنهم أوصوا على «نساء» من مرسيليا وفيينا ومدن أوروبية أخرى لهذه الغاية» (ص. ٢٤١).

«حمانا بلدة رائعة الجمال فيها جداول كثيرة تنحدر من سفح الجبل. منظر شلالات عين الشاغور المعلّقة في الهواء أخّاذ للغاية. وقد تغنى الشاعر لامرتين بجمال حمانا في ثلاثينات القرن التاسع عشر» (ص. ٢٤٣).

هكذا تبرز الأهمية الثقافية لتلك الرسائل على شكل انطباعات مدونة، وشبه يومية بعد أن أتيحت له الفرصة للاصطياف في منطقة ضهور الشوير، ومناطق أخرى، فسجّل عنها ذكريات حميمة. وقد أجاد كريمسكي، بأسلوبه الشاعري الرائع، في وصف الحياة الريفية في جبل لبنان بعد أن أمضى صيف عام ١٨٩٧ بأكمله متنقّلاً بين ضهور الشوير، والمروج، وبكفيا، وبيت شباب، وعاليه، وسوق الغرب، وحمانا وغيرها.

بعض الملاحظات الختامية:

قدّم كريمسكي وصفاً دقيقاً للحياة اليومية خلال إقامته المتواصلة في بيروت وجبل لبنان لمدّة عام وسبعة أشهر. فتضمّنت رسائله إلى ذويه صور دقيقة عن البيئة اللبنانية التي تعرّف إليها عن كثب. وهي تبرز تقلّبات المناخ، والطبيعة، وأسعار السلع، والحاجيات، أجور السكن، والعمال، والموظفين. وتناول بالتفصيل متاعب الحياة اليومية التي يتعرّض لها الأجنبي في بيروت بسبب مزاج اللبنانيين المتقلّب، وكثرة النميمة، والحسد، والنزاعات المذهبية المُعلنة حيناً والمُضمرة في غالب الأحيان.

خلال إقامته في بيروت تعرّف كريمسكي إلى نظام البريد فيها، وكيفية إرسال الحوالات المالية عبره من الخارج. ووصف بعض فنادقها، ونظام الغذاء اليومي لدى اللبنانيين بالمقارنة مع نظام الغذاء الروسي، وتطور أسعار

الحاجيات اليومية تبعاً لتطور الفصول وتواجد السلع، وميل التجار اللبنانيين إلى الاستغلال. وقدّم معلومات غنية حول دور القنصلية الروسية في السياسة اللبنانية مع نماذج لصراع خفي بين القنصليات الأجنبية في بيروت وعلاقاتها المتفاوتة بالوالي العثماني.

وصف كريمسكي بدقّة واقع التعليم في بيروت وجبل لبنان في تلك الفترة، مع التركيز على تعليم اللغة الروسية في مدارس بيروت الأرثوذكسية التي كانت تموّلها القنصلية الروسية فيها. هذا بالإضافة إلى حرص اللبنانيين على تعليم البنات ووجود مدارس خاصة بهنّ إلى جانب المدارس المختلطة، وإصرارهم على تثقيف أبنائهم بلغات أجنبية حيّة كانت منتشرة في مدارس بيروت أكثر من مدارس المشرق العربي.

وبعد أن تحدّث بشيء من التفصيل عن تطور الحركة المسرحية في بيروت أشار إلى مشاركة الفتيات فيها.

تضمنت الرسائل أيضاً وصفاً دقيقاً للحمّام العربي في بيروت، وللأعراس، ومراسم الدفن، والطقوس المتّبعة لدى الطوائف اللبنانية في الأعياد الدينية، والاحتفال بعيد شفيع بيروت، مار جرجس، الذي يشارك فيه المسيحيون والمسلمون. هذا بالإضافة إلى إشارات خاطفة لمحتويات مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت، ولوفود السيّاح إلى بيروت وباقي المناطق السورية، ولبعض الحفلات المسرحية والفنية وغيرها.

أخيراً، تضمّنت مذكراته وصفاً تفصيلياً أحياناً وشمولياً أحياناً أخرى لمناطق عدة خارج بيروت منها ضهور الشوير، وعاريا، وعاليه، وصوفر، وحمانا، وسوق الغرب ووادي المتين، والمروج، وبكفيا، ونهر الكلب. وهي تبرز الكثير من الانطباعات الدقيقة حول جمال الطبيعة، والعادات والتقاليد القروية، وأسباب الهجرة اللبنانية إلى الخارج، والاختلاف الواضح بين عادات الفلاحين وعادات سكان بيروت. وقد استنكر مراراً بعض عادات

اللبنانيين السيئة خاصة إطلاق الرصاص في جميع المناسبات. وأبدى سروراً بالغاً بالتقاليد اللبنانية المحببة كالاحتفالات القروية. وقدّم وصفاً دقيقاً لمحتويات بعض مكتبات الأديرة ودورها في نشر الثقافة في لبنان.

أحب كريمسكي الطبيعة اللبنانية، وأعجب كثيراً بتقاليد الريفيين في ضواحي بيروت وفي القرى اللبنانية، فتمنّى السكن الدائم في ربوعها. لكن سرعان ما تجاوز عواطفه الرومانسية حول جماليات الحياة الريفية التي لم تكن تقدّم للمثقف سوى روعة الطبيعة والمناخ الجيد. فاستعادت المذكرات صفة الواقعية بعد عودته إلى بيروت لاستكمال مشاريعه الثقافية والإبداعية والبحثية التي تتطلّب ارتياد مكتباتها ومراكز الوثائق فيها. «صحيح أن الجبال توحي بالأفكار عن الاستقلال، لكن مع مضي الوقت يشعر الإنسان أن السهول وحدها مؤهّلة لإنقاذه من ضيق النظر، بالمعنى المباشر وغير المباشر. قد لا أستطيع تحمّل العيش في الجبال أكثر من عام واحد على الرغم من روعة الطبيعة وطيبة السكان القرويين المحيطة بي من كل جانب» (ص. ٢٣١).

ختاماً، قدّمت رسائل كريمسكي من بيروت وجبل لبنان لوحات أدبية رائعة في وصف جمال الطبيعة، والعادات والتقاليد القروية اللبنانية. وهي تشكّل نوعاً متقدماً في أدب الرحلات نظراً لشاعرية هذا الباحث الروسي الذي اتّقن لغات عدة، وكانت لديه القدرة على الحوار بلهجات محلية. لقد تمتّع بدقّة المشاهدة العيانية، بالإضافة إلى ثقافة موسوعية، وحس إنساني مرهف، وإلى جانب وصفه الشاعري لجمال الطبيعة اللبنانية، محض اللبنانيين محبة كبيرة كانت ثمرة السكن معهم، والتعرّف إلى عاداتهم وتقاليدهم عن كثب. فقدّمت انطباعاته متعة أدبية بأسلوب فني جميل، إلى جانب دقّة متناهية في وصف الظاهرات الاجتماعية والثقافية.

الريف اللبناني من خلال كتابات القنصل الفرنسي هنري غيز ١٨٠٣ ـ ١٨٤٢

د. عبدالله إبراهيم سعيد(*)

أولاً: في المنهج:

إن اختيار الريف اللبناني من خلال مراسلات وكتابات القنصل الفرنسي هنري غيز ينبع من كون هذا القنصل لم يكن مجرد دبلوماسي يكتب التقارير، وينقل الأخبار السياسية إلى حكومة بلاده. كما لم يكن مجرد رحّالة عابر سبيل ومستعجل في أمره لهدف ثقافي أو سياحي أو سياسي أو ديني، أو مستشرق يعمل لصالح مؤسسة استشراقية في مهمة استطلاعية أو استكشافية أو استخباراتية.

ويعرّفه الأديب مارون عبود، مترجم كتابه «بيروت وجبل لبنان» بقوله: «فالمسيو هنري غيز قنصل ابن قنصل، وُلِد في ديارنا، ونشأ على هذا الساحل اللازوردي، وتعلّم الفرنسية كما نتعلّمها نحن، لأنه ربيب أسرة عتيقة المقام بهذه الأرض»(١).

لقد شغل غيز منصب قنصل فرنسا في كل من بيروت وحلب مدّة تزيد

(*) أستاذ في قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الفرع الرابع، الجامعة اللبنانية.

(١) مارون عبود في مقدمته لترجمة كتاب هنري غيز إلى اللغة العربية، بعنوان: «بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن»، جزءان، الطبعة الثانية، بيروت، دار المكشوف، الجزء الأول ١٩٤٩، الجزء الثاني ١٩٥٠، الجزء الأول ص ٥. أما عنوان الكتاب باللغة الفرنسية فهو:

على الأربعين سنة، كان خلالها الدبلوماسي، والمرشد السياسي الناصح للأمراء اللبنانيين، وزعماء التجمعات البشرية الدينية، والدليل السياحي لأترابه من الأوروبيين، والمكتشف للآثار اللبنانية، والعاشق لجمال الطبيعة الريفية وأزهارها وأشجارها وأنهارها وينابيعها. كما كان الناقد الساخر واللاذع حتى القساوة لمجمل العادات والتقاليد اللبنانية ومجاملاتها القروية والعائلية والمذهبية، ولمجمل نشاطات سكان الريف، والمدن الساحلية، اقتصادياً وعمرانياً وصحياً وثقافياً.

وفي المدّة التي قضاها هنري غيز منذ ولادته في طرابلس الشام، وحتى تعيينه قنصلاً لبلاده في كل من بيروت وحلب، أي في السنوات الممتدة من عام ١٨٢٤ إلى عام ١٨٤٢م، لم يكن هناك تمايز كبيرٌ بين الريف والمدينة. بل كان بينهما تداخل وتفاعل وحتى تكامل اقتصادي واجتماعي وثقافي. ولم يكن الريف اللبناني، آنذاك، مجرد مناطق جردية وعرة بعيدة عن الحضارة المدينية. بل كانت بيروت كناية عن قرية كبيرة، يعتاش أهلها من إنتاج زراعة التوت وأعمال التجارة والحرف البسيطة، ويقتاتون لأكثر من شهرين بالصبير، والتين «البرباري» «Barbarie»ـ المعروف في شمالي أفريقيا باسم التين المسيحي[1]، بالإضافة إلى منتوجات ضواحي المدينة الريفية من الألبان والأجبان.

= «RELATION d'un Séjour de Plusieurs Années à BEYROUTH et dans le LIBAN, Pairs 1847».

ملاحظة: إن هنري غيز هو من أسرة شغلت منصبي القنصل ونائب القنصل في كل من طرابلس الشام (ألفونس Alphonse، الأب)، قنصل طرابلس (١٨٠٦ ـ ١٨١٢) وشارل أدمون، الابن (Charles Edmond) نائب قنصل (١٨١٢ ـ ١٨٣٠)، ومارك Marc (الابن) ـ ١٨٣٠ ـ ١٨٣٦ في مصر وشمالي أفريقيا.

(١) Henri GUYS: «Beyrouth et le Liban, Relation d'un Séjour de Plusieurs Années dans ce Pays», Editions Dar LAHD KHATER, Beyrouth 1985, tome 1, p. 107 et 108 et 182.

وهذه الطبعة من الكتاب التي سنعتمدها في هذا البحث.

لقد رافق هنري غيز، نمو كل من مدينة بيروت ونواحي جبل لبنان بين عامي ١٨٠٨ و١٨٣٨م. فبالنسبة لبيروت يقول: «إن أهميتها كمدينة تجارية لا يعود تاريخها إلاّ إلى ثلاثين سنة خلت. فلقد شاهدتها عامي ١٨٠٨ و١٨١٠... وعدت إليها عام ١٨٢٤، ولم أتركها إلاّ عام ١٨٣٨، فلاحظت خلال هذه السنوات الأربعَ عشرة، تقدّمها ونهوضها التجاري، ونمو ثروة أهاليها، ... وازدياد عدد سكانها الذي بلغ (عام ١٨٣٨) حوالي ١٥ ألف نسمة بقليل، لتحتل بذلك المركز الرابع في سورية، بعد دمشق وحلب وطرابلس»[1].

ويحدد هنري غيز، جغرافياً، الجبل اللبناني، آنذاك، بالناحية الريفية الواقعة بين نهر المعاملتين شمالاً، ونهر الدامور جنوباً، وبينم الحدود الطبيعية الفاصلة بين ولايتي دمشق وصيدا شرقاً. تلك الحدود التي رسمها نهر الليطاني، القاسمية، باختراقه وادي البقاع طولاً. أما من الوجهة السياسية، فتقسم هذه الناحية إلى ثماني مقاطعات، في حين يبسط أمير الجبل الشهابي نفوذه وسيطرته الضريبية على ٢٤ مقاطعة تبتدئ بجبة بشري فوق طرابلس وتنتهي بجزين عند صيدا، أي بطول ١٤٠كلم وعرض ٦٠ كلم[2].

ويقدِّر غيز عدد سكان جبل لبنان، بمقاطعاته الأربع والعشرين، بحوالي ٣٠٠ ألف نسمة. ويعيد ذلك إلى الإجراءات والقواعد الصحية السليمة التي فرضها الأمير بشير شهاب الثاني، وإلى تطبيقه نظام التلقيح والمحاجر الصحية ضد الأمراض السارية وخاصة الطاعون الذي وقف بسبب هذه التدابير على

---

(١) Ibid, p. 7. لقد وقع خطأ مطبعي في تحديد سنة مغادرة غيز لمدينة بيروت، حيث ذُكر في النص الأصلي، وفي الترجمة أن تاريخ المغادرة كان عام ١٨٥٨، ولكن بالواقع فهو سنة ١٨٣٨م. لأن غيز بنفسه يقول: «أنه أمضى في بيروت فقط ١٤ سنة لا غير»، Tome 1, p. 7.

(٢) Ibid, tome 1, p. 170.

حدود الجبل[١]. ويعتبر غيز أن إجراءات الأمير بشير كانت سابقة على تعليمات إبراهيم باشا بإنشاء المحجر الصحي «الكرنتينا» في بيروت بتمويل شخصي من القناصل الأوروبيين وبسعي وهمة منه شخصياً (أي من القنصل الفرنسي غيز)[٢].

وبسبب تطاحن الولاة العثمانيين في سبيل أحكام كل منهم سيطرته على مدينة بيروت، وبسبب غزوات القراصنة اليونانيين لها عام ١٨٢٠، وتعرض المدينة لوباء مرض الطاعون منذ عام ١٨٢٦، شكّلت المناطق الريفية القريبة من بيروت، بنظر القنصل الفرنسي غيز، ملجأً مستقراً وآمناً للقناصل الأوروبيين، ولأغنياء المدينة بشكل خاص، ولأهاليها بشكل عام، الذين امتلكوا البساتين والأبنية في ضواحي المدينة. مما ساهم في نموّ هذه الضواحي الممتدة من المعاملتين حتى الشويفدات واكتظّت بالسكان ونعمت بالغنى والثراء[٣]. وهكذا تكاملت وتداخلت مدينة بيروت مع الريف المحيط بها وشكّلت منفذه الاقتصادي إلى التجارة الخارجية في حين شكّل الريف مصيفها الطبيعي وخزان رساميلها الأمين في حال تعرّضها لأي نكسة تجارية.

ثانياً: مصادر الدراسة:

من الناحية المنهجية يمكن تقسيم تصوّرات هنري غيز ومشاهداته عن الريف اللبناني إلى نوعين من المصادر:

(١) Ibid, T. 1, p. 170 et 171.

(٢) Ibid, T. 1, p. 171.

(٣) Adel ISMAÏL: «Documents Diplomatiques et Consulaires Relatifs à l'Histoire du Liban et des Pays du Proche-Orient du XVII^{eme} siècle à Nos Jours», Les Sources Françaises, 32 tomes, Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1975-1982, tome 5, p. 91-96, 99-101, et 110, 111, 131, et 140-141.

سنعمد إلى استعمال هذه الوثائق الدبلوماسية تحت اسم:
Adel ISMAÏl: «Documents...», t..., p...

١ ـ المصدر الأول هو التقارير الدبلوماسية باللّغة الفرنسية التي نشرها السفير عادل إسماعيل في المجلد الخامس من مجموعة سلسلة «الوثائق الدبلوماسية والقنصلية»[١].

تضمنت هذه الوثائق حوالي ٨٥ تقريراً مرفوعاً كل منها إلى وزارة الخارجية الفرنسية. يبدأ التقرير الأول بتاريخ ٢٨ آذار ١٨٢٦، وينتهي التقرير الأخير بتاريخ ١٦ آذار ١٨٣٨م. ولقد شغلت هذه التقارير والرسائل أكثر من ٢٢٠ صفحة من المجلد الخامس ضمن مجموعة «الوثائق» الدبلوماسية. وكان كل منها يحمل العنوان التالي:

«Henri GUYS, Consul de France à Beyrouth au... Minsitre, Sécrétaire d'état aux Affaires étrangères».

٢ ـ المصدر الثاني هو كتابه «بيروت ولبنان»، الذي صدر للمرّة الأولى في باريس عام ١٨٤٧، تحت عنوان:

«RELATION d'un Séjour de Plusieurs Années à BEYROUTH et dans le LIBAN, par HENRI GUYS».

وفي عام ١٩٤٨، عرّب الأديب مارون عبود هذا الكتاب في جزءين، ومن ثمَّ أعيد نشر الترجمة في طبعة ثانية في أيلول ١٩٤٩ للجزء الأول، وفي تشرين الثاني ١٩٥٠ للجزء الثاني، وذلك عن دار المكشوف في بيروت. وفي عام ١٨٥٠ أيضاً، أعيد طبع الكتاب للمرّة الثانية باللغة الفرنسية تحت عنوان:

«BEYROUTH et le LIBAN, Relation d'un Séjour de Plusieurs Années dans ce Pays».

(١) Ibid, tome 5, p. 91-96, 98-101, 107-119, 127-132, 134-136, 140-174, 181-182, 189-194 et 241-382.

ومن ثمَّ أعاد دار لحد خاطر نشر هذا الكتاب باللغة الفرنسية عام ١٩٨٥، كما هو، دون تغيير في نص وهوامش وملحقات طبعة ١٨٥٠ الفرنسية. فقط تمَّ تحديث بعض الكلمات والتعابير التي لم تعد مستعملة في اللغة الفرنسية في وقتنا الحاضر.

وفي هذا البحث سنعتمد طبعة دار لحد خاطر الفرنسية، لأن الترجمة العربية للكتاب التي وضعها الأديب مارون عبود هي ترجمة أدبية بتصرّف، حيث لم يقم المترجم بترجمة حرفية لكامل النص، بل أهمل بعض المقاطع وحتى الصفحات التي يعتبرها مسيئة لبعض الطوائف اللبنانية وعاداتها وتقاليدها المتّبعة في زمن هنري غيز.

يتضمّن هذا الكتاب وصفاً دقيقاً لمدينة بيروت والأرياف اللبنانية الجبلية والبقاعية والشمالية والجنوبية وعادات سكانها وتقاليدهم ونشاطاتهم ومختلف مظاهر حياتهم الاقتصادية والثقافية والاجتماعية.

ثالثاً: الريف اللبناني في مراسلات غير الدبلوماسية (١٨٢٤ ـ ١٨٣٨):

لم تكن رسائل القنصل الفرنسي إلى وزارة خارجية بلاده مجرد تقارير إدارية سطحية. بل تضمّنت صوراً واقعية لمختلف شؤون الحياة اللبنانية الريفية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والتربوية. ويستطيع كل قارئ لهذه التقارير أن يكتشف البعد الإنساني التاريخي للتعامل الدبلوماسي مع سكان الريف اللبناني والتعاطف معهم. فعلى مدى أربعَ عشرة سنة قضاها غيز، قنصلاً في بيروت (١٨٢٤ ـ ١٨٣٨)، رصد العلاقة السلطوية في المقاطعات اللبنانية بكل مضامينها وأبعادها المحلية والإقليمية والعثمانية. فرصد علاقة الأمير الشهابي الحاكم بكل من الولاة العثمانيين، والأمراء والمشايخ المقاطعجيين، والفلاحين، وعامة الناس على اختلاف تنوّعهم الطبقي والمذهبي.

ويظهر البعد الإنساني في مراسلات غيز، من خلال تقريره الأول الذي نقل فيه أخبار غزوة القراصنة اليونانيين لمدينة بيروت عام ١٨٢٦، وتأثير هذه الغزوة العسكرية على إنتاج الريف اللبناني الوحيد الجانب آنذاك، ألا وهو زراعة التوت وتصدير الحرير الخام. كما ينقل أخبار ما رافق تلك الغزوة من انتشار لمرض الطاعون، والتدابير العثمانية والمحلية للوقاية منه[١].

كما يظهر البعد الإنساني لمراسلات غيز من خلال انتقاده في تقاريره الارتفاع الجنوبي لأسعار مادة القمح، المادة الغذائية شبه الوحيدة آنذاك، حيث بيع الكيلوغرام الواحد بسعر ٤٠ قرشاً، في الوقت الذي كان سعر المد الواحد، أي عشرين كيلوغراماً يباع في الموسم بسعر عشرة قروش، أي نصف قرش للكيلوغرام الواحد (التضخم بنسبة ٨٠٠٠٪)[٢].

ويربط هنري غيز، بنقد ساخر، بين تعطّش أركان النظام المقاطعجي الريفي والعثماني للضرائب المتنوّعة والمجهولة الأسباب في فرضها وجبايتها في ظل معاناة الريفيين من وطأة ارتفاع أسعار القمح. ويرصد في سبيل ذلك، وتيرة ارتفاع ضريبة الأعناق على الرؤوس من ١٨ قرشاً إلى ٤٢ قرشاً (١٣٣,٣٪) على المكلفين الذكور من الفئة الأولى (أغنياء الريف)، ومن ١٣ قرشاً إلى ٢٨ قرشاً، على الفئة الثانية، أي على متوسطي الحال، ومن ٨ قروش إلى ١٨ قرشاً على الفئة الثالثة، أي على عامة الناس من الفلاحين والحرفيين[٣]. ويزيد من سخريته للنظام المقاطعجي بقوله: «كم كان الفلاحون والمزارعون يشعرون بالفرح والسعادة لو استطاعوا ترك أراضيهم

---

(١) Ibid, T. 1, p. 91-96.

(٢) Ibid, T. 1, p. 111.

راجع أيضاً عبد اللّه سعيد: «تطور الملكية العقارية في جبل لبنان في عهد المتصرفية استناداً إلى وثائق أصلية»، (نموذج المتن الأعلى)، قدّم له د. مسعود ضاهر، الطبعة الأولى، دار المدى، بيروت، ص ٢٧٠ـ٢٧١.

(٣) Adel ISMAÏL: «Documents...», t. 5, p. 135.

واستثماراتهم بدون زراعة كي يتخلّصوا من الضرائب المجهولة السبب والنوعية»[1]. ومما زاد في سخريته، عدم معارضة الأمير بشير الثاني، لطلب عبد اللّه باشا والي عكا ـ صيدا، بزيادة الضرائب عام ١٨٢٨، بل جاراه في طلبه، وأرهق سكان مقاطعاته بالضرائب التي كان يحتفظ بقسم كبير من عائداتها المجبية لمصلحته الخاصة[2].

ويتابع غيز، رصد تذمّر أهالي الريف اللبناني من ظلم الضرائب المقاطعجية، وطلب الولاة العثمانيون المزيد منها. فعلى الرغم من اشتراك الأمير بشير شهاب الثاني على رأس مجموعة من مقاتلي الجبل في مساعدة والي عكا عبد اللّه باشا في حصار قلعة سانور وتحقيق انتصاره على أهالي نابلس، لقد فرض هذا الوالي عام ١٨٣١ مبلغ ألفي كيس (مليون قرش) إضافية على الأمير الشهابي فور عودة هذا الأخير إلى إمارته في الشوف. ويرى هنري غيز أن هذا التصرف السيئ من والي عكا، حمل الأهالي على التذمّر، ورفض الضرائب الجديدة وحملهم على الترحيب بقدوم جيش محمد علي لتخليصهم من ظلم عبد اللّه باشا[3].

وينتقد هنري غيز، أيضاً، نظام إبراهيم باشا المصري الضريبي وما رافق هذا النظام من احتكار لإنتاج وتجارة الحرير وأعمال السخرة في استخراج الفحم الحجري في الجبل اللبناني وبناء التحصينات العسكرية للجيش المصري في عكا. حيث كان بنظره، إبراهيم باشا يدرك أن الشعب الريفي قد سحق بالرسوم والضرائب التي لم يصل منها إليه إلاّ ثلث المبالغ المجبية في حين كان الأمير الحاكم والمقاطعجيون يحتفظون بالثلثين. مع ذلك تمكّن، بعد تخفيض الضرائب إلى ربع عددها ونوعها، من جباية ضعفي ما كان يصله

(١) Ibid, p. 157.

(٢) Ibid, p. 157.

(٣) Ibid, p. 192.

من أصحاب المقاطعات في الأرياف اللبنانية، والسورية. ولكن الأمير بشير شهاب الثاني، استفاد من ثقة إبراهيم باشا به، وإطلاق يده في جبل لبنان ليجبي ضريبة الأعناق بمعدل ٥٠ قرشاً، على المكلّف الواحد بدلاً من ١٥ إلى ٢٠ قرشاً كما كانت في المقاطعات السورية عام ١٨٣٣[1].

وتدل الوثائق الدبلوماسية التاريخية إلى أنَّ الأمير بشير شهاب الثاني كان في أواخر العهد المصري عام ١٨٣٩، يجبي حوالي ١٧٥٠٠ كيس (٨٥٠٠٠٠٠ قرش) يرسل منها إلى اسطنبول أي إلى السلطان العثماني ٢٥٠٠ كيس وإلى إبراهيم باشا (الحكم المصري) ٥٠٠٠ كيس ويحتفظ هو لنفسه بعشرة آلاف كيس (٥٠٠٠٠٠٠ قرش)[2].

ويرصد هنري غيز، منذ أيار ١٨٣٥، تحركات الأهالي ضد مظالم الجيش المصري، واستعدادهم للثورة ضد زعمائهم إذا فرضوا عليهم المقاتلة في جيش إبراهيم باشا أو إذا قرروا إجبارهم على مساندته. ويبرهن كيف تعاون إبراهيم باشا مع الأمير الشهابي الثاني في سبيل تأمين المزيد من الريفيين للخدمة الإجبارية في جيشه (٨٠٠ رجل من الدروز) والسخرة في بناء التحصينات العسكرية (ألف مسيحي). ولكن رغم ذلك لم يعفِ هؤلاء أو عائلاتهم من الضرائب التي كانت مفروضة على سكان الجبل آنذاك[3]. بل على العكس من ذلك، لم يرأف إبراهيم باشا، بأحوال الريفيين الذين تعرضت أراضيهم للخراب والإنزلاق بفعل غزارة تساقط الأمطار في شباط ١٨٣٦، وفرض عليهم ضرائب آنذاك بحوالي ٧٪ لتصل إلى حوالي ألفي كيس (مليون قرش أو ٢٥٠ ألف فرنك فرنسي). كما استمر بطلب المزيد من رجال الريفيين للسخرة، وأمر بفرض مساحة جديدة للأراضي الزراعية

(١) Ibid, p. 255, 261 et 276.

(٢) Adel ISMAÏL: «Documents...», t. 6, p. 376-377.

(٣) Adel ISMAÏL: «Documents...», t. 5, p. 323-325.

وأشجارها وللمكلفين الذكور بقصد إعادة جدولة توزيع الضرائب وتنظيم جباياتها مما أدى بالمكلفين من الأهالي والبالغين الذكور بالتخفي والهروب عن عيون وأنظار ضباط جيش إبراهيم باشا وعملائه في جبل لبنان[1].

ويستمر هنري غيز في تتبّع مسيرة إبراهيم باشا الضريبية والاحتكارية، والمشرذمة للريفيين بإرهاقهم بأعمال السخرة وإثارة النعرات الطائفية، وإثارة المقاطعجيين ضد بعضهم البعض، فبعد أن قرر استثمار استخراج الفحم الحجري من منطقة قرنايل وصليما وفالوغا وميروبا، عين الأمير حيدر أبي اللمع أمير صليما آنذاك أميراً أعلى لكل المقاطعات التي تقع فيها مناجم الفحم والحديد مما أثار حفيظة الأمير بشير الشهابي الثاني، وتوعد بالأمير حيدر شراً. . وتجلّى غضب الأمير الشهابي، في زيادة ضريبة الأعناق على أغنياء مقاطعته عام ١٨٣٦ من ٥٠ قرشاً كما فرضها إبراهيم باشا عام ١٨٣٣ إلى ٥٠٠ قرش، وعلى الفقراء وصغار الفلاحين والحرفيين من ١٨ قرشاً إلى ٤٠ و٩٠ قرشاً، كما عمل إلى احتكار مادتي القمح والحرير فارتفعت الأسعار بشكل كبير مما سبب في مضايقة الأمراء والمشايخ المقاطعجيين بما في ذلك الأمير حيدر أبي اللمع نفسه[2].

ويعتقد غيز أن تعيين إبراهيم باشا للأمير حيدر أبي اللمع حاكماً من قبله على مقاطعات وكسروان والبترون يعتبر خلق منافس للأمير بشير الشهابي الثاني، وبالتالي تحفيزه على الاستمرار في تنفيذ مطالب وتعليمات الجيش المصري.

ولقد تضمنت مراسلات القنصل الفرنسي الدبلوماسية أيضاً، شرحاً وافياً لعلاقاته بالتجمعات الريفية على اختلاف مذاهبها ومشاربها الدينية، ولعلاقاته بالبطريرك الماروني، ولنصائحه للأمراء والمقاطعجيين.

(١) Ibid, p. 344-346.

(٢) Ibid, p. 353, 357-358, 366-367, 370, et 380.

رابعاً: آراء وتصورات هنري غيز المنشورة في كتابه الذي صدر لأول مرة في باريس عام ١٨٤٧، بعنوان: «Relation d'un Séjour de Plusieurs Années à BEYROUTH et dans le LIBAN».

فعلى الرغم مما تضمّنته تقاريره الدبلوماسية من آراء وأخبار للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في المقاطعات اللبنانية. بقيت تلك التقارير بنظره مجرّد مراسلات رسمية بعيدة عن عيون الباحثين والمستكشفين الأوروبيين لمكونات طبيعة المشرق العربي ودفائن آثاره وأخلاق سكانه. كما أنها لم تتضمن كامل تصوراته ومشاهداته وبعدها التثقيفي الإرشادي الناصح لسكان بيروت وجبل لبنان. فلذلك عمد إلى تأليف كتاب أراده دليلاً سياحياً للأوروبيين الراغبين في زيارة بلادنا. كما أراده كتاباً للبنانيين والسوريين، في الإصلاح السياسي والاقتصادي والتربوي، كتاباً، ناقداً ساخراً لتصرّفاتهم وعاداتهم وتقاليدهم في المسكن والزواج والمأكل والملبس والأعمال الزراعية والصناعية التجارية وغيرها من متطلبات الحياة الريفية.

وتسهيلاً لدراسة الكتاب ومطالعته مطالعة مفيدة، قسم هنري غيز كتابه إلى ٤٤ فصلاً وملحقين. وجعل من فصوله فصولاً صغيرة لا يتعدى عدد صفحات أكبرها الخمس عشرة صفحة تتضمن في نصفها الأول تماماً، أي ٢٢ فصلاً، وصفاً لمدينة بيروت، وأهمية موقعها وتجارتها واقتصادها، ولغتها وثقافتها وحاصلاتها، بالإضافة إلى عادات أهاليها من المسلمين والمسيحيين من علاقتها بالريف اللبناني وامتداد ضواحيها من المعاملتين شمالاً حتى الشويفات جنوباً، وعلاقة تجارها بمنتجي الريف اللبناني خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. أما النصف الثاني من الكتاب فيتناول البحث فيه عن آثار الريف اللبناني جبلاً وبقاعاً، وعن زراعة وإنتاج الجبل وعادات سكانه وتقاليدهم، وتجمعاتهم المذهبية والدينية، وعادات أمرائهم الشخصية

والسلطوية وعلاقة الجبليين بحملة إبراهيم باشا المصري، وتأثير هذه الحملة على مختلف جوانب الحياة الريفية من اقتصادية ومالية وطائفية . . .

وحتى لا نقع في الاستفاضة، ونتناول بالتفصيل كل الجوانب القيّمة التي تناولها هنري غيز في كتابه، حيث لم يقتصر الريف اللبناني في كتاباته على حدود جبل لبنان فقط، بل تناول بالبحث والوصف أيضاً منطقتي بعلبك ووادي البقاع وآثار كل منهما وعلاقاتها بجبل لبنان سياسياً واقتصادياً[1]. وانطلاقاً من مشاهداته وملاحظاته الهامة بوصف مختلف النشاطات الريفية والاقتصادية والاجتماعية، سنسلط الضوء على بعض الجوانب من الحياة الريفية التي كانت موضوع استهجان وانتقاد من قبل القنصل الفرنسي، موضوع بحثنا، تاركين لمن يريد الاستزادة، والمقارنة بين الماضي والحاضر، العودة إلى كتاب هنري غيز موضوع دراستنا. لقد شكّلت الطبيعة الريفية بجمالها وقربها من الشاطئ اللبناني وتنوّع تضاريسها المنبسطة هنا، والشديدة الانحدار والصعبة المسالك الكثيرة التعاريج هناك، بالإضافة إلى غناها بالأبنية القديمة والآثار الدفينة، وتنوّع مناخها وأشجارها ومزروعاتها، شكّلت عشقاً روحياً للسوّاح والمستشرقين الأوروبيين على اختلاف انتماءاتهم الإثنية واللغوية.

ولكن على الرغم من جمال الطبيعة اللبنانية وتنوّعها، يعترف هنري غيز، بأن هذه الطبيعة لم تكن موضوع اهتمامه، بل كان همّه التنقيب عن الآثار ودراسة طباع الريفيين وأخلاقهم وعاداتهم[2]. فلقد كان غيز يعتبر التضاريس اللبنانية الخطرة المسالك معيقة لعمله الاستكشافي. فلذا يصفها بقوله « . . . إني قمت بعدّة رحلات في لبنان (جبل لبنان)، وفي اتجاهات مختلفة . . . تعرّضت خلالها للمخاطر الكثيرة . . . واقتدت في معابر الماعز

(١) Henri GUYS: «Beyrouth et le Liban», op. cit, tome 2, chapitre 27, p. 19 à 27 et chapitre 28, p. 29-32.

(٢) Ibid, t. 1, p. 169-170.

الكثيرة المهالك . . . لأبلغ خرائب زعموا لي أنها موجودة . . . أو أبنية قديمة عديمة الفائدة الأثرية . . . ولكنني ألزمت نفسي أن أكتشف وأعرف مكان أي أثر مهما كان بسيطاً . . .»[1].

من هنا طاف هنري غيز الأرياف اللبنانية الجبلية والبقاعية والجنوبية والشمالية. واستكشف معالمها الأثرية القديمة ابتداءً من آثار مدينة بيروت والمدن الساحلية، صيدا وصور وطرابلس وجبيل والتبرون، ومروراً بآثار نهر الكلب ودير القلعة وعبيه، وبيت الدين، وفقرا وأفقا، والعاقورة وبسكنتا وجبلي صنين والكنيسة، وصولاً إلى آثار البقاع في كل من قب الياس وزحلة وقصرنبا ونيحا والفرزل والكرك ودير مار سمعان وعنجر وبعلبك وغيرها . . .[2].

ومن خلال رحلاته الاستكشافية للآثار، كان غيز يراقب الطبيعة اللبنانية، وطباع الريفيين ويقف على تدخلاتهم في الطبيعة ونشاطاتهم الاقتصادية والاجتماعية، فعلى سبيل المثال لا الحصر نستعرض ما يلي:

١ ـ انتقاد غيز للطرقات الجبلية الرديئة المسالك والممرات الضيقة المصنوعة بفعل قطعان الماعز أكثر مما هي من عمل الإنسان الريفي. لذا فهي طرقات صخرية متعرّجة غير منتظمة، يمشي عليها الناس بحكم العادة والاستمرارية، ولأنه لا يوجد لديهم طرقات غيرها[3].

(١) Ibid, p. 169.

(٢) للمزيد من معرفة التفاصيل عن الآثار التي زار مواقعها هنري غيز ووصفها في كتابه «بيروت ولبنان» تراجع الفصول: الخامس، والثاني والعشرين، والثالث والعشرين، من الجزء الأول، ص ٢٩ـ٣٠ و١٥١ـ١٦٧، والفصول ٢٦ و٢٧ و٢٨ من الجزء الثاني، ص ٩ـ٣٢.

GUYS, op. cit, tome 1, chapitres 5, 22, 23, p. 29-30, et 151-167, et tome 2, chapitres 26, 27 et 28, p. 9-32.

(٣) Ibid, tome 2, p. 12.

٢ ـ تعليقه على الزراعة والانتاج الزراعي اللبناني في الجبل والبقاع: فيصف المراعي الخصبة في أعالي الجبال، المؤجرة لأصحاب وتجار الأغنام من الفرس والأكراد والتركمان الذين يقودون سنوياً قطعانهم الوفيرة العدد (٣٠ـ٤٠ ألف رأس)، إلى سهل بعلبك والجرود الجبلية، ونتيجة لذلك راجت تجارة الأغنام في الجبال اللبنانية والمدن الساحلية لقاء رسم بسيط ليتمتع الرعاة والتجّار بالحماية من قبل آل حرفوش ، أمراء البقاع آنذاك. كما انتشرت عادة تربية وعلف الأغنام ذات الآليات الكبيرة الوزن (١٥ كلغ)، حيث كانت كل عائلة تربي خروفاً أو أكثر وتعلفه على ورق التوت وتغسله يومياً بالمياه النظيفة لتذبحه بعد أن يسمن فتحتفظ بلحمه المقلي أي «القورما» إلى فصل الشتاء[1].

ويعتبر هنري غيز أن آل حرفوش أسياد منطقة بعلبك في النصف الأول من القرن التاسع عشر، قد استفادوا من علاقتهم بالرعاة العرب من بلاد ما بين النهرين، حيث جمعوا ثروة كبيرة من عائدات تأجيرهم المراعي وتبادلاتهم التجارية معهم، بما سمح لهم الاحتفاظ بالأعداد الكثيرة من الأتباع الفرسان والشركاء[2].

وأما بالنسبة لإنتاج جبل لبنان وملحقاته الساحلية من الحبوب (القمح والشعير والذرة والعدس والكرسنة)، فهو بنظر غيز لا يفي إلاّ بثلث الكمية المستهلكة سنوياً في الجبل. وفي حين يرى أن غلة مبذر مُد القمح الواحد من الحبوب، يعطي في الأراضي الجبلية الخصبة حوالي ١٢ إلى ١٤ مُداً، وفي السهول الساحلية ٢٠ مُداً، فإنه يعطى في البقاع مقدار ٢٥ إلى ٣٠ مُداً. كما يرى غيز أن أراضي جبل لبنان صالحة لزراعة البطاطا، ولكن الجبليين بالكاد يعرفون هذه الزراعة إلا في مناطق محدودة لتباع للفرنسيين. والجبلي

(١) Ibid, tome 1, p.179, et tome 2, p25-26.

(٢) Ibid, tome 2, p. 26 .

يفضل على البطاطا الفول المصري والخروب القبرصي. وتنتج الزيت في القرى الساحلية من بيروت إلى صيدا[1]. وتنتشر في الأرياف اللبنانية القريبة من بيروت زراعة العنب والتين والصنوبر التي تعتبر حاصلاتها تصديرية هامة للبنانيين، واللوز والجوز اللتين يكاد تكفي حاصلاتهما الإنتاج المحلي[2].

ويلاحظ غيز، أن الأشجار المثمرة نادرة في المناطق الساحلية بسبب شدّة الحرارة والجفاف صيفاً، وفي الجرود الجبلية بسبب كثرة البرودة والصقيع شتاءً. ولكن بنظره أن ندرة الأشجار المثمرة الجيدة تعود إلى عدم تذوّق الشرقيين للثمار، وعدم تقديرهم قدرها. فكان من عاداتهم أن يأكلوا الثمار المتوفرة لديهم وهي فجّة، ولا يصبرون عليها إلى أن تنضج، مما جعلهم يجدونها مزّة الطعم الذي يشبه طعم الثمار المبرّدة وتصيبهم آلام في المعدة.

ولم يجد غيز في الريف اللبناني من الثمار طيّباً ولذيذاً إلاّ العنب والمشمش اللوزي والتين البيروتي الشبيه بتين مرسيليا. وإن عدم استطابة الشرقيين للثمار بسبب طريقة تناولهم هذه الثمار قبل نضجها ضيّع عليهم فرصة الاستفادة من الأشجار المثمرة الجيّدة التي كان بإمكانها أن تدرّ عليهم أرباحاً طائلة يستفيدون منها في تغيير نمط معيشتهم[3].

وأفرد هنري غيز اهتماماً خاصاً بشجرة التوت، زراعة وإنتاجاً ومعاملة وعائدات، مما جعل الفلاح اللبناني يضحّي في سبيلها بجميع الأشجار، خوفاً من أن تشاركها تلك الأشجار عصارة التربة المغذّية، وبأعمال الفلاح في تربية دود القز وإنتاج الحرير وتسويقه[4]. وبنظره يأتي إنتاج شجرة الصنوبر في

(١) Ibid, tome 1, p. 180.

(٢) Ibid, t. 1, p. 180.

(٣) Ibid, t. 1, p. 180-181.

(٤) Ibid, t. 1, p. 107, 108, 109, 183 et 184.

المرتبة الثانية أهمية بعد شجرة التوت. فالصنوبر شجرة صمغية معمّرة، وتستعمل جذوعها كجسور لسقوف المنازل ودعائمها ومنافذها وأبوابها. وتُصنع من خشبها المراكب. ولكن بسبب استعمالها وقوداً في الأتونات المخصصة لصناعة الكلس والمنتشرة بالقرب من مدينة بيروت فهي على وشك الانقراض[١].

وبعد استعراض أنواع الحيوانات التي كانت تسرح في الأرياف اللبنانية من النمر والضبع والذئب والثعلب وابن آوى والغزال والدب والعنزة البريّة، والغرير والأعداد الوفيرة من الخنازير البريّة، ينتقل غيز إلى ملاحظة نوع من النمل الجبلي الذي تؤلم سلعاته وتحدث انتفاخاً في البشرة[٢].

ولم ينسَ أن يُسجّل ملاحظاته على الخمور الريفية المُنتَجة في الهضاب المطلّة على بيروت، ويعتبر أن الخمور أنواع فهي: صفراء ذهبية وحمراء وردية، ولكن أفخرها طعماً ونوعاً هو النبيذ المُنتَج من قرية صليما في المتن الأعلى[٣].

ويلاحظ غيز أيضاً، أن الطرائد لا تكبر في جبل لبنان وذلك بسبب الطريقة المعتمدة في الصيد، من خلال الصيد الكثير، أو من خلال الكمائن وبناء السواتر للطيور كي تقع في الفخ فيسهل صيدها. وغالباً ما يكمنون في الأماكن التي تجد الحجال فيها غذاءها فيصطادون في كمينهم من عشرة إلى ١٥ فرخاً في الطلق الواحد. أو يصنعون للحجال رايات على شكل رقع الشطرنج لتنجذب إليها فيسهل صيدها[٤].

كما اهتم هنري غيز بالنباتات العطرية في جبل لبنان، وجمع منها

(١) Ibid, t. 1, p. 184-185.

(٢) Ibid, t. 1, p. 184 et 185.

(٣) Ibid, t. 1, p. 185.

(٤) Ibid, t. 1, p. 185.

النماذج وأرسلها إلى فرنسا. ووقف على غنى الجبال اللبنانية بهذه النباتات، ولا سيما العرعر الكثير الانتشار جهات قرية صليما. وأبدى تخوّفه من انقراض بعض النباتات ولا سيما النادرة منها كنبتة الريباس مثلاً النافعة في المعالجة الطبية. وفي هذا المجال يعتبر غيز أن اسم لبنان مشتق من شجرة اللبنى ذات القشور الذكية الرائحة والمنتشرة في أعالي الجبال اللبنانية، وليس من الثلوج التي كانت تغطي جباله، لأنه في الماضي كانت الثلوج ـ تتساقط بكميات قليلة عما تتساقط في المدّة التي قضاها في بيروت[١].

وينتقد غيز نمط الزراعة في وادي البقاع الذي اعتبره من أخصب الأراضي المروية في سورية آنذاك، وذلك لأنه يرتوي من مياه السلسلتين الغربية والشرقية. ولكن مع ذلك لا يزرع في البقاع إلاّ ما يكفي مؤونة مدينة فقيرة بعدد سكانها. ولاحظ غيز، أنه في الوقت الذي كانت فيه التلال المحيطة بسهل البقاع مكسوة بأشجار العنب الفاخر، أتلفت وخرّبت بأمر من الأمير الحاكم الأمير (الأمير بشير شهاب الثاني) ليمنع استئجارها والتزامها من قبل أهالي دمشق[٢].

ولا يختلف الوضع في ناحية بعلبك عنه في البقاع، حيث يمتنع الأهالي عن زراعة الأشجار، ويهتمون فقط بزراعة الحبوب. فلذا يتألّم المشاهد من رؤية الأراضي الجرداء في البقاع، ومن كثرة الحقول المغطاة بالعوسج والأشواك. ويعيد هنري غيز سبب تأخر الزراعة في مناطق بعلبك، بشيء منه، إلى طريقة آل حرفوش، في الحكم وإلى ظلمهم الضريبي، ومنازعاتهم وغاراتهم فيما بينهم، التي كانت تقضي بإحراق المزروعات وخراب الاستثمارات الفلاحية. ويقارنه بين حكم آل حرفوش، والأمير بشير شهاب الثاني، الذي كان رغم ظلمه، ولجوئه إلى العنف لتوطيد سلطته، كان يتقيد

(١) Ibid, t. 1, p. 186.

(٢) Ibid, t. 1, p. 174-175.

بعض القواعد والأصول المقاطعجية التي تضمن الحد الأدنى من الحقوق الشخصية للفلاح الجبلي[١].

ولكن منازعات آل الحرفوش، وظلمهم الضريبي لم يمنع «بعض أهالي زحلة وجبة بشري من شراء الأراضي والعقارات من الشيعة في ناحية بعلبك، حيث أخذ عناصر هذه الطائفة بالميل إلى السلم، وأصبحوا بفعل هذا الاختلاط أقل ميلاً للمنازعات المحلية»[٢].

وفي جبل لبنان، راقب غيز، عن كثب الحالة الاجتماعية والاقتصادية لمالكي الأراضي الزراعية والمتصرفين بها[٣]. فوجد أنه هناك كمية كبيرة من الأراضي البائرة، وهناك عدد كبير من السكان الفقراء الذين لا مورد لديهم إلاّ العمل بأيديهم. ولقد قسّم غيز الملكيات الزراعية في الجبل إلى ثلاث فئات هي: الملكيات العائدة للأمراء والأكليروس، وملكيات المشايخ وملكيات الفلاحين الأغنياء. وكانت الملكيات الأخيرة أقل غناً واتساعاً من الملكيات السابقة، التي كانت تتوسّع وتنمو على ريع عائدات ملكيات الفلاحين. ويستفيض غيز في شرح أشكال استثمار الأراضي في جبل لبنان من شراكة المساقاة والمرابعة والمغارسة وتربية دود القز. والعمل اليدوي المأجور في مواسم قطاف الشرانق الذي ينتظره المرحومين من أية ملكية بفارغ الصبر. ويعتبر غيز أن العمّال المياومين، هم من أفقر طبقات المجتمع الريفي آنذاك. فهم ينتظرون ثلاثة أرباع، أوقاتهم، مواسم قطف شرانق الحرير ليعملوا في بيع قوّة عملهم اليدوية مقابل أجور زهيدة جداً أحياناً. ولقد لاحظ، أن من هذه الفئة الأشد بؤساً وفقراً، خرجت فئات الرهبان والحرفيين والرعاة والمياومين الفعلة، والمكارين والحطابين...

---

(١) Ibid, t. 2, p. 25-26.

(٢) Ibid, t. 2, p. 26.

(٣) Ibid, t. 2, chapitre 35, p. 94, 95, 96, 97 et 98.

ويتابع غيز، أنه في الوقت الذي لا يتنازل فيه الأمراء، وكذلك الأكليروس، عن أي شبر من أراضيهم لأي إنسان كان. كانت تنتشر في جبل لبنان المساحات الشاسعة من الأراضي البائرة والمعطلة بفعل الضرائب الفاحشة التي كان يفرضها المقاطعجيون والولاة العثمانيون. وكانت هذه الضرائب في أكثر الأحيان تعادل دخل كامل أرض مغروسة توتاً أو مبذورة حبوباً، مما حمل مستثمرها أو الشريك المالك على تركها بوراً، خوفاً من أن يذهب تعب كل منهما إلى غيرهما. هذا بالإضافة إلى نظام الشراكة غير العادل الذي كان يحمّل المزارع ثمن ربع الغلّة مسبقاً بالإضافة إلى أعباء الحراثة وثمن السماد والضرائب والرسوم المتنوعة.

وهكذا عاش سكان الريف اللبناني بفقر مدقع من سنة إلى سنة، ولم يكن إنتاج ملكياتهم الصغيرة يكفي لسد حاجاتهم الضرورية. ويكفي أن تتعاقب سنة سيئة الإنتاج، بين كل سنتين أو ثلاث سنوات بسبب الجدب والمحل والجفاف حتى يفتقر الفلاح ويضطر للإستدانة... فقد اضطرت بعض الأسر اللبنانية إلى بيع حاجياتها الضرورية بأبخس الأثمان. كما أجبر الأمير الحاكم الفلاحين على بيع محاصيلهم بأسعار متهاودة في سبيل تسديد الضرائب المفروضة عليهم، وإيفاء ديونهم المتراكمة لتجار المدن والمرابين. وبعد أن يصنّف غيز المعاملة السيئة للمنتجين والفلاحين من قبل جباة الضرائب، ينتقل إلى تعرية نظام الربى المشرقي الذي يصفه بأبشع أنواع الاستثمار المالي، واعتبره من أربح التجارات في جبل لبنان، فهذه التجارة أفقرت سكان الريف من أميرهم إلى أصغر فلاح فيهم. وكان هذا النظام يقضي بتسليف الفلاحين الأموال اللازمة لمصاريفهم السنوية، على أن يُسترد الدين من إنتاج المواسم بأسعار متدنية جداً وبفوائد مرتفعة، ومن لا يستطيع تسديد دينه يخسر أرضه ويتحوّل إلى عامل مأجور. وهذه القضية شكّلت مسألة التضاد والتنازع بين أهالي الريف والمدينة، حيث كانت أكثرية المرابين من سكان المدن. وكانوا هؤلاء يمدّون أبناء الجبل من أمراء ورجال دين

وفلاحين وأصحاب الملكيات الخاصة بالقروض المالية اللازمة لإنتاج مواسمهم. فكانوا يسلّفونهم كدين على موسم الحرير مالاً بربى فاحش تصل فائدته إلى ٤٠٪ (من ١٦ـ٤٠٪)، أو يقدّمون لهم ملابس وحبوباً بأبهظ الأثمان، فيرزح الريفي تحت دين لا يستطيع إيفائه فيخسر أرضه وملكه، ليمتلكها ابن المدينة[١]. وهكذا نشأ الصراع بين الريف والمدينة وما زال إلى يومنا هذا!

وفي المقابل تفتّت الملكيات الريفية المقاطعجية والفلاحية ونمت ملكية الأكليروس والأديرة، حيث كان الرهبان يشرفون بأنفسهم على إدارة أعمالهم والاعتناء بها، فالأيدي العاملة الرهبانية المجانية متوفرة عند هذه الطبقة المعزّزة والمكرّمة. فالأديرة كانت قفراناً من الرهبان الشّباب الأقوياء الذين يعملون على إنماء ملكيات رهبانياتهم في ظل رؤساء أديرة يعرفون كيف يستفيدون من هذا الواقع الجبلي الاجتماعي السياسي والاقتصادي. كما ساهمت أعطيات المشايخ والأمراء والفلاحين الأغنياء في تكوين نواة ملكيات الأديرة. فعمل رؤساء الرهبانيات على تنميتها والاعتناء بها[٢].

وفي الفصل الثامن والثلاثين[٣] من كتابه يتابع هنري غيز مشاهداته وآرائه حول الحياة الزراعية الريفية من خلال بحث علاقته الكثيرة والعنيفة بالبطريرك الماروني بشكل خاص، والأكليروس بشكل عام، ليصل إلى استنتاج أن معارف الأكليروس تنحصر في قراءة اللغة السريانية دون فهم معناها، وحفظ بعض الجمل والمقاطع من علم اللاهوت الأخلاقي للقديس أنطونيوس[١]...

---

(١) Ibid, t. 1, p. 131 et t. 2, p. 98.

(٢) Ibid, t. 2, p. 97.

(٣) ورد في الجزء الثاني من كتاب هنري غيز خطأ في ترقيم الفصول، حيث أدرج رقم الفصل السابع والثلاثين مرتين ولكن بالواقع هما الفصلان ٣٧ و٣٨. Henri GUYS: «Beyrouth et le Liban», t. 2, op. cit, p. 111 et 117.

(٤) Ibid, t. 2, p. 120 et 121.

ولكن بالمقابل فالرهبان يتمتعون بحياة عمليّة حافلة بالنشاط والعمل فمنهم، داخل الدير: الصناعيون والحياكون والإسكافيون والخياطون والبناؤون والنجارون. وفي خارجه: هم زارعو الحبوب والكرمة والتوت والجوز واللوز، ورعاة القطعان، إنهم ينتجون كل ما يحتاجون إليه. فلذلك نمت واتسعت ملكياتهم بفعل سواعدهم أو بفعل بعض النذورات التي يقدّمها المؤمنون في مناطقهم[١].

٣ ـ هنري غيز والعادات الريفية:

في هذا المضمار، يبدأ غيز، بانتقاد طريقة الريفيين في بناء المساكن التي كانت لا تتلاءم مع متطلبات تقلبات الطقس والمناخ الجبلي أو الساحلي. فبعد أن أبدى اشمئزازه من بيوت مدينة بيروت البشعة المنظر بسبب بنائها من الحجارة غير المصقولة، وبسبب نوافذها وأبوابها الضيقة[٢]. وينتقل غيز إلى وصف أبنية مدينة زحلة كنموذج من المنازل الريفية آنذاك فيقول: «إن بيوت قصبة زحلة المبنية بالتراب والقش والقليلة الارتفاع، والتي تحفظ حرارة شمس النهار إلى الليل، يدفع بالزحليين للنوم على سطوح منازلهم في العراء. مع أنها منازل نظيفة واسعة يدخلها الهواء ويتوفر فيها جميع سبل الراحة...»[٣].

ورأى هنري غيز عند البقاعيين عادة تطبيع زبل البقر على جدران منازلهم وسطوحها لاستعمالها وقوداً في فصل الشتاء[٤]، وهي عادة ما زالت شائعة حتى يومنا هذا، بعد إنقضاء أكثر من ١٦٠ سنة على رحلة غيز البقاعية.

---

(١) Ibid, t. 2, p. 121 et 122.

(٢) Ibid, t. 1, p. 11 et 12.

(٣) Ibid, t. 2, p. 30 et 31.

(٤) Ibid.

أما في جبل لبنان، وفي المناطق البعيدة من بيروت، فهناك صعوبات كثيرة في أن تجد منازل مستقلة للسكن، فمنزل الفلاح يتألف عادة من غرفة واحدة، وهو في الوقت نفسه زريبة لمواشيه ودواجنه. بعكس منازل الأغنياء التي تتألف عادة من ثلاث أو أربع غرف غير مرتفعة الأبواب حيث يضطر الرجل الطويل القامة إلى الانحناء للدخول إليها. ويتألف أثاث البيت من حصيرة وفراش ووسادة أو وسادتين، ومن صندوقين أو ثلاثة صناديق مدهونة باللون الأخضر أو الأحمر، ومن مرآة بحجم ٢٠ سنتم. وهناك بعض الأواني الكبيرة من الفخار والنحاس والصحون التي تستخدم في قضاء بعض حاجات المنزل. أما النوافذ فهي صغيرة وتقفل طيلة أيام الشتاء، وليس لها إطار أو زجاج، لذا لم تكن تقدم أي راحة لسكان المنازل الجبلية الذين لم يعتادوا الجلوس إلى النوافذ كما كانت الحالة في أوروبا. أما إذا أرادوا أن يتنشّقوا الهواء فيخرجون إلى الحدائق والحقول[١].

وفي مجال البناء يشير غيز إلى غنى سكان مدينة بيروت الذي تجلى آنذاك، بنظره، بأنه تقريباً لا يوجد شخص بيروتي لا يملك بيتاً في الريف، وهذه المنازل تختلف عن مثيلاتها التي وصفها في مدينة بيروت. فمنازل الجبل كانت تنم عن ذوق في الفن والفخامة في البناء، وغنى في الثروة. ويعتبر غيز أن حب البناء هو مرض معدي وغيرة عند الشرقيين الذين كانوا يحرمون أنفسهم من الثروات النقدية وأرباحها الطائلة لدفنها بين حجارة منزل أو قصر يشبع عنجهية صاحبه. وحتى أن بعضهم كان يستدين بفائدة ٤ أو ٥ بالمئة لاستكمال بناء منزله الريفي[٢].

ومن ثم يعرّج غيز على وصف الملابس التي كانت نظيفة وجيدة. فكانت النساء تلبس المآزر المصنوعة من النسيج الأحمر، ويضعون على

(١) Ibid, t. 1, p. 86-87.

(٢) Ibid, t. 2, p. 31.

رؤوسهم شبه منديل بسيط (عصبة). وكان الرجال يلفون الطربوش بمنديل يغطي الرأس على طريقة أهل قبرص[١].

ويظهر الفقر على الفلاحين الجبليين من خلال عدم امتلاكهم لأكثر من قميص واحد فيضطرون إلى غسله يوم السبت، بينما في أوقات العمل، كان غيز يرى الفلاحين والفلاحات يلبسون ثياب العمل الممزقة. أما في أيام الآحاد فترتدي النساء الفساتين الزرقاء، ويضعن على خصرهن زنانير تزينها بضع قطع من الفضة. ويضعن على الرأس الطنطور الذي يلف بمنديل يشكل غطاء الرأس عندهم. أما الفلاحات الفقيرات فيحلّ الساتان المقلم محل النسيج، ويرتدين جبة من الجوخ في بعض الأحيان يحيط بها كشكش صغير. وتزيّن النساء أسفل سراويلهن بتطريزها بالخيوط الحريرية الملونة[٢].

ويرجع غيز أسباب ارتداء النساء في بيروت وجبل لبنان للسراويل، إلى أنهن بعد زواجهن، تقوم النساء بأعباء العمل المنزلي وتقطيع الحطب وتأمين المياه من العين وغيرها من الأعمال التي تتطلب منهنّ رفع القمصان والفساتين إلى ما فوق الركبة[٣].

وبعد أن يتحدّث غيز عن الأعراس الجبلية وعاداتها المستحبة في القرى الريفية، يستعرض تقاليد الزواج الريفي ومراحله: منذ التعارف بين الشاب والفتاة، مروراً بمرحلة الخطوبة، وصولاً إلى حفلة الزفاف وهتافات الفرح وما يواكب الزفاف من عادة إطلاق العيارات النارية، والزيارات المتبادلة من أهل العروسين، قبل وبعد الزواج، وعادة «النقوط» (الهدية المالية) لدى الأغنياء التي تصل إلى مئة قرش (من ٢٠ إلى ١٠٠ قرش). ولقد لاحظ غيز أن الفلاحين كانوا يدفعون بدلاً مالياً تتراوح قيمته ما بين ٢٠٠ و٥٠٠ قرش

(١) Ibid, t. 1, p. 68 et 83, t. 2, p. 74-75.

(٢) Ibid, t. 2, p. 65-66.

(٣) Ibid, t. 2, p. 66.

(أي أجرة نحو ١٠٠ إلى ٢٥٠ عاملاً في اليوم، أو ثمن ٢٠ إلى ٥٠ مداً من القمح وبدل مؤونة شخصين إلى ٥ أشخاص من هذه المادة في السنة ع.س.). وكان هذا المبلغ من المال المرهق للفلاحين يعتبر بمثابة ثمن للعروس وكأن عملية الزواج كانت آنذاك تتم كصفقة تجارية وليست كعلاقة حب وشراكة زوجية[١].

وينتقد هنري غيز معاملة الرجل المشرقي لزوجته. حيث لاحظ آنذاك عدم احترام اللبنانيين للمرأة في عاداتهم وتقاليدهم. فالرجل الذي كان يريد أن يتلّفظ باسم زوجته، أو يضطّر للحديث عنها، يقول: «أجلّك، أو أعتذر عن هذا التعبير، ابنة عمّي، العيلة، أمّ العيال، أمّ فلان، أهل البيت، الحرمة... المرأة...». وفي حال فقد الرجل، آنذاك، زوجته، كان يعتبر هذا الفقدان كألم كوع اليد، الذي يزول بعد مدّة بسيطة، ولا يستمر طويلاً، فيعود الرجل ليتزوج ثانية وكأنه لم يحصل أي شيء. وفي المقابل، كانت المرأة لا تتحدث عن زوجها مباشرة، بل تنعته بابن عمّها، بأبي فلان، بالسيد، بالرب وكانت هي تعتبر نفسها عبدته وخادمته[٢].

وفي نظر غيز، كان اللبنانيون يبالغون في منح الألقاب لبعضهم البعض، في مجاملاتهم وأقوالهم وأحاديثهم وفي معاملاتهم اليومية وفي تدبيج رسائلهم؛ كقولهم: الرفيع الشأن، أو الأجلّ، أو الأمجد، أو المحترم، أو الفاضل، أو الجليل، أو الأفخم أو الشجاع،... وغيرها... حتى أن كل شخص كان يمكن اعتباره باشا (وزيراً) مهما كان وضيعاً... وكان صاحب الرسالة يوقع رسالته وخطابه باسم الحقير أو الفقير، أو العبد المطيع، أو الأخ، أو الصديق... وكلها بنظره تعابير مجاملة فارغة في معناها وفي مدلولها الاجتماعي الواقعي[٣].

(١) Ibid, t. 2, p. 71, 72, 73, 75.

(٢) Ibid, t. 2, p. 67, 68.

(٣) Ibid, t. 2, p. 68-69, 70.

كما لاحظ غيز تقديس الريفي للكنية. فهي عند الجبلين خير الألقاب وأفضلها. وكان الجبليون، حتى قبل الزواج، يميلون إلى إبدال أسمائهم بأبي فلان (أبو)، كأن يكنى جرجس بأبي عسّاف، ويوسف بأبي حسين، والياس بأبي ناصيف... لذا كان الزواج وإنجاب الذكور الأمنية الأولى والأخيرة للريفي، فبهما تكتمل سعادته وفرحته؛ ومنذ اليوم الأول لمولوده الذكر (الصبي) تبدأ كنيته وتغيب مناداته باسمه الشخصي حيث كانت هذه المناداة تعتبر من العيوب الريفية آنذاك. وفي بعض الحالات كانت الكنية التي أطلقت على شخص ما قبل زواجه، تبقى ملازمة له مدى الحياة على الرغم من إنجابه الذكور. كما حدث ذلك مع الأمير ملحم شهاب الذي أنجب خمسة صبيان واستمر يكنّى بأبي فاعور[١].

وينتقد القنصل الفرنسي، غيز، المجاملات القروية المستهلِكَة للوقت وقسم من العمل النافع، وذلك من خلال تبادل الريفيين للأحاديث الجانبية على قارعة الطريق بوابل من الأسئلة عن الصحة والعمل وأهل البيت والأقارب والمعارف والمواشي والأملاك وغيرها من الأسئلة والتمنيات التي يتبادلها شخصان كلما التقيا مرّة أو أكثر خلال النهار الواحد[٢].

ولا ينسى هنري غيز وصف عادات الجبليين في أحزانهم ومآتمهم المختلفة باختلاف طبقات الشعب اللبناني آنذاك، فيتحدث عن إجراءات الدفن والصلاة وعادات المواساة وغيرها...[٣].

وبعد الحديث المستفيض عن العادات الجبلية في المآكل والملابس، والأفراح والأحزان والمجاملات يخلص غيز إلى الاستنتاج، بأن الجبليين يميلون كثيراً إلى الفخفخة. فهم وإن كانوا لا يملكون إلاّ الملابس

(١) Ibid, t. 2, p. 67-71.

(٢) Ibid, t. 2, p. 66, 67.

(٣) Ibid, t. 2, p. 75-76.

والأسلحة. ولكنهم يحبون كثيراً تقديم الهدايا، حتى زياراتهم البسيطة... لذا كانوا يرددون دائماً أنّ اليد الفارغة هي كريهة الرائحة (اليد الفاضية مجويّة). وهي عادة اكتسبها الشرقيون من اليهود الذين طلب إليهم النبي موسى بأن لا يأتوا إليه وأيديهم فارغة[١].

أخيراً، إن من يرغب في الاستفادة من ملاحظات هنري غيز القيّمة عن الأوضاع السياسية في جبل لبنان وتقسيماته المقاطعجية، وعن علاقة أمراء الجبل ومشايخه بسهل البقاع والتزامه، وعن عادات الأمراء الشهابيين وتقاليدهم في الحكم والإرث وجباية الضرائب والزواج والصيد والفروسية والظلم الأميري والاجتماعي منذ الميثاق الشهابي الذي انفرد القنصل الفرنسي هنري غيز في اكتشاف مضمونه وتوضيح مبادئه وحتى نهاية الحكم المصري، ما عليه إلاّ مراجعة الفصول الخاصة بهذه المواضيع في كتاب غيز «بيروت وجبل لبنان»[٢] موضوع دراستنا هذه. وذلك لأنه لا يتسع المجال هنا لبحث هذه المسائل التي لها الطابع السياسي الصرف بينما ما حاولنا أن نقدّمه هو دراسة الريف وعاداته من وجهة نظر القنصل الفرنسي هنري غيز.

بعض الاستنتاجات:

بعد مرور أكثر من مئة وخمسين سنة على صدور كتاب هنري غيز، «بيروت وجبل لبنان» في طبعته الأولى. هل ما زال نص ومضمون هذا الكتاب يحاكيان الواقع الاقتصادي والاجتماعي للريف اللبناني بجوانب وقضايا كثيرة؟

للإجابة على هذا السؤال لا بدَّ من مراقبة الأوضاع الاقتصادية حيث

(١) Ibid, t. 2, p. 75.

(٢) Ibid, t. 2, chapitres 36 et 37, p. 101-124.

ما زال الإنتاج الزراعي غير مستقر ومتقلب الزراعات ويعاني من أزمات جودة وتصريف وإيجاد أسواق محلية وخارجية. وما زال الزارع، بضغط من السوق المحلي، والمضاربة الخارجية، يضطّر إلى حصاد وقطاف مواسمه قبل أن تنضج خضاره وفاكهته، على أمل تحقيق بعض الأرباح الوهمية السريعة، التي تذهب في أكثر الأحيانَ إلى جيوب التّجار والسماسرة وعمّال الحسبة (الرجعة). وبسبب هذه العادة من إغراق الأسواق اللبنانية بالثمار الفجّة المشبعة بالكيماويات والأدوية السامة، تكثر، عند المستهلك اللبناني، الأمراض المعوية الشائعة كالإسهال والديزنتريا، المتلازمة مع هكذا استهلاك للثمار الفجّة.

وأما على صعيد قطع الأشجار الحرجية، وعدم زراعة البديل منها، فحدّث ولا حرج، فإن القطع مستمر رغم الجهود المضنية لوزارة الزراعة في هذا المجال، وإذا لم يستطع تجار الفحم والحطب قطع حاجاتهم من الأشجار لجأوا إلى افتعال الحرائق المتنقّلة، أو استفادوا من اشتعال الحرائق العفوية بسبب ترك المزارعين والمتنزهين لفضلاتهم الزجاجية في الغابات والأحراج القريبة من العمران السكاني. وفي هذا المجال، لا بدَّ من العودة إلى ترشيد قطع الأشجار الحرجية من خلال تفريدها، وتشذيب أغصانها اليابسة والقريبة من سطح الأرض، والتخلّص من الشجيرات الضارة السنوية، أي التي تيبس سنوياً لتعود وتنمو من جديد أو أنها لا تعمر أكثر من ٣ ـ ٥ سنوات فتساعد على تكاثر الحرائق لمجرد تكدّس أغصانها اليابسة من سنة إلى سنة.

وإذا أردنا التحدّث عن الطيور وأنواعها، والحيوانات البريّة النافعة التي ذكرها هنري غيز في مشاهداته. فلا يحتاج الإنسان إلى جهد كبير للتفتيش عنها، طالما هي انقرضت، أو في طريقها إلى الانقراض. وذلك بسبب جهل أكثرية اللبنانيين، وخاصة الصيّادون (القنّاصون) منهم لفائدة هذه الطيور في

خلق ما يعرف بالتوازن الطبيعي للبيئة المحلية. فإن الطيور المستقرة والعابرة (العبور) على اختلاف أنواعها مفيدة لتنقية البيئة اللبنانية وغاباتها من الحشرات والديدان الضارة التي تفتك بأشجارها. فعلى سبيل المثال لا الحصر ماذا حلّ بطائر الصفراية التي يلذّ لها افتراس الديدان الشعراء التي تضر بشجر السنديان ولا سيما بالملول منه، وبشجر الصنوبر (حشرة الجمّر أو الصندل). وماذا يحلّ بالفرّي، طائر السلوى عندما يأتي إلى البقاع في أوائل نيسان ليقضي على حشرة القمح المضرّة، فيقضي عليه الصيادون ويمنعونه من البقاء في لبنان فيخسر البقاع ثروته الحنطية من الحبوب وينعم الصيادون بلذة القتل والقضاء على الطيور المفيدة. ولا يتسع هنا المجال لذكر فائدة السنونو والخطّاف (الخطّف) والهدهد واللقلق (البجع) والوروار والسمرمر والغبرة والخوري والشماس والسماني والشحرور وغيرها من الطيور النافعة التي انقرض الكثير منها في لبنان[1]...

ولو قيّض لهنري غيز أن يعيش إلى يومنا هذا، ويشاهد بأم العين ابتكارات الصيادين الحديثة في القضاء على الطيور من خلال آلات التسجيل التي توقعها في الفخ فينعم القناصون بصيد وفير... وما ضرَّ اللبنانيون إذا كانوا يسيرون على خطى الأمير بشير شهاب الثاني (الأمير الكبير!!!) الذي كان يكمن للحجال (طائر الحجل) بطريقة بدائية تطوّرت مع الزمن، إلى تسجيلات صوتية تغوي الطيور فتقضي عليها على طريقته، «ومن الحب ما قتل» فننعم بلحم الطيور ونشتري الأدوية والسموم للتخلّص من البعوض والذباب والحشرات المضرّة.

---

(١) للمزيد من المعلومات الهامة عن الحيوانات والطيور النافعة التي كانت تستوطن الجبال والسهول اللبنانية راجع إسماعيل حقي (بهمته): «لبنان مباحث علمية واجتماعية»، عُني بنشره ووضع فهارسه فؤاد إفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية قسم الدراسات التاريخية، رقم ١٨، جزءان، الجزء الأول بيروت ١٩٦٩، والجزء الثاني بيروت ١٩٧٠، الجزء الأول، ص ١١٢ـ١١٧.

إن مسألة حفظ التوازن البيئي الذي حاول هنري غيز لفت نظر اللبنانيين إليه من خلال رصد الطبيعة اللبنانية ومنافعها الجمالية والإنتاجية، ومحاولته باستمرار تقديم النصائح الريفيين بضرورة الاهتمام بزراعة الأشجار المثمرة وتركها لتنضج حتى تصبح لذيذة الطعم وكثيرة الفائدة، وبضرورة الابتعاد عن صيد الطيور والحيوانات البريّة للمساعدة على حماية الإنتاج الزراعي من الأعشاب والحشرات الضارة. فأين الريفي اليوم من تلك النصائح في أواسط القرن التاسع عشر؟ هل تغيّر أسلوبه في التعاطي مع البيئة الجبلية، والإنتاج الزراعي، أما ما زال يعتمد في زراعته على التجربة، فيزرع موسماً واحداً، أو نوعاً واحداً من الإنتاج، فإذا كسد يجرّب زراعة نوع آخر وهكذا دواليك من كساد إلى كساد ومن خراب إلى خراب. فلقد نصح هنري غيز اللبناني بتنويع مزروعاته وأشجاره وإقامة التوازن الإنتاجي، فيدرس التربة والمناخ وما يلائمهما من مزروعات متنوعة ليعتمدها في سبيل تأمين استقرار أنتاجه وتحسين نوعيته وبالتالي تتحسن ظروف العمل الزراعي.

كما لفت هنري غيز، نظر اللبناني إلى ثروة طبيعته الجبلية، إلى النباتات العطرية والطبية، وإلى ضرورة الاستفادة منها بدلاً من القضاء عليها بالحرائق والقلع المستمر من جذورها. فإنّ التسابق على النباتات العطرية والبريّة النافعة من قبل الفئات الاجتماعية الطفيلية يهدد هذه الثروة اللبنانية التي يمكنها إذا تأمنت لها الحماية اللازمة، فتعطي دخلاً إضافياً للريفيين، وذلك من خلال ترشيد الزراعة اللبنانية، وتوسيع الرقعة الزراعية بالنباتات العطرية والطبية والغذائية البريّة بدلاً من القضاء عليها وعدم مراقبة استغلالها والعمل على إرشاد قطفها في مواسم محددة.

فهم تساهم إرشادات هنري غيز ونصائحه التي لم يؤخذ بها في أواسط القرن التاسع عشر في إنعاش الريف اللبنانية في بداية القرن الواحد والعشرين، في خلق قطاع زراعية طبيعي متوازن نباتاً وطيراً وحيواناً؟

أخيراً، لا يمكن الأخذ بكل آراء هنري غيز وتصوّراته للمجتمع اللبناني إلى القرن التاسع عشر لأن هذا القنصل كان ينتمي إلى الارستقراطية الأوروبية التي نظرت إلى الشرق بنظرة دونية واعتبرت عاداته وتقاليده عادات متخلّفة لا يمكن من خلالها التطوّر والتقدم. فلذلك لا بدَّ من إعادة قراءة غيز قراءة ثانية وثالثة للوقوف على آرائه القيّمة في بعض جوانبها والمسيئة في الجوانب الأخرى.

LE LIBAN VU PAR LES ESPAGNOLS, 1860-1910
(VOYAGEURS, DIPLOMATES, PÈLERINS ET INTELLECTUELS)

PABLO MARTÍN ASUERO[*]

L'Espagne, la Question d'Orient et le Liban

Lorsqu'en 1782-1783 Charles III et Abdül Hamid Ier signent la paix, l'Empire Espagnol et la Sublime Porte mettent un terme à l'hostilité qui avait caractérisé la situation méditerranéenne durant des siècles[1]. L'arrivée au trône des Bourbons et les idées nouvelles du siècle des Lumières avaient permis un changement dans la perception du monde ottoman. A partir de ce moment, diverses expéditions étaient envoyées vers Istanbul dont les mémoires se publient et se répandent parmi les espagnols instruits.

L'arrivée au trône de Charles IV en 1788 suppose le début du déclin dont souffrira l'Empire Espagnol. Des hommes précieux comme Floridablanca seront destitués et Godoy - qui qualifiera son prédecesseur comme «un vieux irrésolu» et l'accusera entre autres d'être un ennemi des Jésuites et un ami des Turcs[2] - gagnera du terrain dans l'arêne politique. L'Espagne se passera de jeter un oeil de l'autre côté de la Méditerranée et s'embarquera dans un naufrage bien plus rapide que celui du «Malade de l'Europe».

(*) Directeur de l'Institut Cervantès à Istanboul.

(1) Ce thème a été traité en profondeur par Fernand Braudel, *El Mediterráneo en la época de Felipe II,* Mexico, F.C.E., 1979 (1ère Edition, Paris, La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, 1949).

(2) M. Conrote, *España y Países Musulmanes durante el Ministerio de Floridablanca, Madrid,* Patronado de Huérfanos de la Administración Militar, 1909, p. 19.

Une fois surmonté l'échec de la perte des colonies et la succession d'Isabelle II avec les guerres carlistes, l'Espagne se rapprochera timidement à la question de l'Orient en signant un nouveau traité en 1840. Ce sera au cours de cette période; à la suite du soulèvement égyptien et de la conquête postérieure de la Syrie et de la Palestine, que l'attention internationale se focalisera sur la Méditerranée Orientale, plus concrètement sur le Liban et sa population chrétienne, laquelle avait le soutien de la France depuis les temps de François 1er. Le Piémont avec Cavour a connu un rapprochement durant les années 1840-1841 et, dans la sphère politique, l'unique grand pays catholique qui pouvait aider la France était l'Espagne. Ainsi, dans un Communiqué daté du 9 Novembre 1842, le Ministre plénipotentiaire espagnol à Istanbul, de Castro, a été envoyé en Syrie, spécialement au Liban afin qu'il observe la situation complexe qui se dessinait dans la zone durant l'occupation égyptienne. Deux ans plus tard, ce diplomate remettait un rapport de soixante pages sur ce sujet dans lequel il conclue que ni la France, ni l'Angleterre seraient capables de conquérir la région et que, selon lui, la Syrie resterait «musulmane et turque»[1].

Quelques années plus tard, durant la guerre de Crimée (1854-55), le gouvernement espagnol envoyait le Général Prim comme observateur en face des bouches du Danube[2] et plus tard O'Ryan Vásquez au siège de Sebastopol. L'Espagne d'Isabelle II ne se rapprochait pas seulement de l'Empire Ottoman mais également des pouvoirs libéraux - la France et l'Angleterre - en faisant front contre la Russie défenseur de la cause carliste. Il était, en plus, question d'une guerre qui avait trouvé son origine dans la question des lieux saints; ce qui était étroitement en relation avec l'Espagne. Il ne faut pas passer outre le fait que la Couronne d'Espagne possédait le patronat sur les Lieux Pieux de la Terre Sainte[3].

Revenant à la fin de la guerre de Crimée, le Traité de Paris de 1856

---

(1) Caesar E. Farha, *Arabs and Ottomans a Chekered Relationship,* Estambul, Isis, 2002, p. 273. Le document cité comme référence se trouve dans les archives du Ministerio de Asuntos Exteriores, Turquía- LEGACIONES, numéro 263.

(2) Les mémoires de cette expédition ont été rééditées récemment, voir Juan Prim et Prats, *El Viaje Militar a Oriente,* Madrid, Ministerio de Defensa, 1995.

(3) Adolfo de Mentaberry, *Patronato de la Corona de España sobre los Lugares Píos de Tierra Santa,* Madrid, La Ilustración Española y Americana, 1884, Tomo II, pp. 34-35.

permettait aux pouvoirs une certaine interférence sur le gouvernement de l'Empire Ottoman, en faisant pression afin que soient promulguées de nouvelles lois qui garantiront réellement l'égalité des sujets du Sultan. Le *Islahat fermani* ou Décret des Réformes de 1856 sera le fruit de ces circonstances. Ce processus de reformes leur permettra d'impulser le développement de l'identité nationaliste des différents peuples de l'Empire en commençant par les grecs et les arméniens. De plus, le Traité de Paris dotait la Serbie d'une autonomie majeure et Napoléon III, un des héros du conflit, profite de la conjoncture pour aider les roumains des Principautés de Moldavie et Valachie.

Cette effervescence nationaliste se fera sentir en Syrie durant l'été de 1860; en tenant compte des druses et des maronites soutenus respectivement par la France et l'Angleterre, et en considérant que les réformes des *Tanzimat* n'étaient pas suffisantes. Deux années auparavant Tanius Shahin s'était rebellé dans la montagne maronite étant accablé par le gouverneur ottoman. La France soutenait les maronites. L'Angleterre envoyait des armes aux druses et profitait du mécontentement musulman, opposés à certaines réformes contre leur religion. La situation explosait durant l'été 1860 avec un solde de 7,000 à 12,000 morts, 300 villages rasés, 500 églises et 40 monastères détruits[1].

Pour comprendre l'opinion espagnole par rapport aux massacres de 1860, il faut renir compte de deux facteurs. Le premier est le fait qu'Isabelle II continuait d'assumer les idées du Néocatholicisme, c'est-à-dire une combinaison de Catholicisme d'Etat, gouvernements personnels et répression; ce qui la mènera à la Révolution Glorieuse de 1868[2] et son exil postérieur à Paris. Le deuxième aspect est la guerre d'Afrique qui s'était déroulée en 1859-1860 et qui offrait une des victoires militaires espagoles peu nombreuses de ce siècle: la prise de Tétouan le 4 Février 1860. Cette guerre, après l'émancipation des colonies américaines, avait permis la récupération de l'illusion de situer l'Espagne parmi les grandes puissances. Dans ce contexte il est facile de comprendre l'attention des

---

(1) Stanford & Ezel Shaw, *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, vol II Reform, Revolution, and Republic: The rise of Modern Turkey,* 1808-1975,Cambridge University Press, 1977, pp. 142-143.

(2) Juan Pablo Fusi et Jordi Palafox, *España:* 1808-1996, *el desafío de la modernidad,* Madrid, Espasa, 1997.

Les pages de politique internationale de la presse espagnole, centrées sur les luttes de Garibaldi en Sicile accordaient assez d'importance aux événements du Liban et de Damas où la guerre civile s'étendait. Le couvent-école espagnol de Damas a été saccagé et détruit; et les huit religieux, sept espagnols et un autrichien et les trois frères maronites Massabeki avec eux furent martyrisés(1). Ce sera à partir de ce moment que les lecteurs espagnols connaîtront la réalité de la région méditerranénne et de ses habitants. Les articles dédiés aux druses et maronites viennent prouver ceci.

La zone une foix pacifiée, la France convoquait à une conférence les représentants des nations qui avaient signé le Traité de Paris de 1856 en vue d'éclairer la situation. Réunis à Beyrouth en 1861. ils rédigeront un Règlement Organique qui faisait du Mont Libanais un *Mutesarrif*, région administrative privilégiée, au sein de l'Empire Ottoman avec des garanties internationales, dirigé par un gouverneur chrétien ottoman nommé et envoyé par la Sublime Porte mais avec l'accord des puissances européennes(2). Il est question d'un moment clé dans la Question d'Orient qui fera que ce petit territoire entreprend une évolution bien différente de ses voisins.

Beyrouth, au milieu du XIXème siècle s'était convertie en un des principaux ports de la Méditerranée Orientale et en une ville moderne où se trouvaient installés les commerçants et les consulats. Cette ville servait de passage pour accéder à Damas et s'occuper des questions en relation avec les Lieux Saints. Les diplomates espagnols dans la zone serviront de

= *avec leurs cadavres, en les mutilant et les taillant en pièces à coups de poignard. Enfin, et pour compléter sa vengeance, ils s'opposaient au fait qu'une sépulture soit accordée aux morts, les laissant traîner pour que les chiens les mangent; principalement aux environs de Saida, ils marchaient par centaines en célébrant leur festin avec la viande de chrétiens. Il y a lieu de supposer que le châtiment soit exemplaire afin qu'il puisse servir de leçon et de sécurité aux chrétiens à l'avenir, (...).*
Le rôle que certains fonctionnaires turcs de Syrie représentent est indigne, Il est prouvé que les troupes envoyées pour proteger les chrétiens ont fait presque partout cause commune avec les re, étant les rebelles premiers à perpétrer leurs assassinats.

(1) Patrocinio García Barriuso, *España y la Historia de Tierra Santa*, Madrid, Ministerio de Asuntos Exteriores, 1994, Vol II, p. 543.

(2) K. Salibi, *Une Maison aux Nombreuses Demeures, L'Identité Libanaise dans le Creuset de l'Histoire*. Paris, Naufal, 1989 (1 a ed. Londres A House with many windows...), p. 19.

journaux espagnols tels *La Epoca, La España, La correspondencia de España*, ou des hebdomadaires illustrés tels *El Mundo Militar* ou *El Museo de las Familias* sur la question d'Orient.

Cette première guerre civile libanaise a été pacifiée grâce à l'envoi de troupes françaises avec le soutien de l'Autriche. Les journaux espagnols annonceront la nouvelle «de l'envoi de deux bateaux espagnols aux mers du Levant pour coopérer à la réparation de la chrétienté et de la civilisation outragées là-bas d'une manière cruelle et barbare» *(La Epoca*, 27 Juillet 1860). Quelques bateaux qui n'arriveront pas à lever l'ancre mais qui démontreront que les esprits étaient suffisamment altérés. Cela se comprend à la lecture d'articles de fond comme le suivant de *La España* du 11 Juillet 1860:

El telégrafo nos anuncia nuevos envíos de buques franceses a Beirut para proteger a los cristianos. Los excesos y crimenes cometidos por los musulmanes y drusos no tienen cuento: se hace subir a 1,200 el número de cristianos de todas edades, sexos y condiciones sacrificados ferozmente al fanatismo y exaltación de los musulmanes, excitados por la voz de sus muftis. La rabia de que se hallaban poseídos se revelaba en los excesos y actos de inútil e inconcebible barbarie a que se entregaban con los cadáveres, mutilándolos y destrozándolos a puñaladas. Por último, y para completar su venganza, se opusieron a que se diese sepultura a los muertos, dejándolos para que los comieran los perros, que principalmente en las inmediaciones de Saida, andaban a centenares celebrando su festin con la carne de los cristianos. Es de suponer que el castigo sea ejemplar, para que sirva de escarmiento y de seguridad a los cristianos para lo sucesivo. (...)

El Papel que algunos funcionarios turcos de Siria están repesentando es afrentoso. Está probado que las tropas enviadas a proteger a los cristianos ban hecho en casi todas partes causa común con los insurrectos, siendo los primeros en consumar los asesinatos(1).

(1) *Le télégraphe nous annonce le nouvel envoi de bateaux français à Beyrouth pour protéger les chrétiens. Les abus et les crimes commis par les musulmans et les druses sont incomptables: Le chiffre atteint 1200 chrétiens de tout âge, genre et conditions, sacrifiés férocement au fanatisme et à l'exaltation des musulmans, excités par la voix de ses muftis. La rage dont ils sont possédés se révélait à travers les abus et les actes de barbarie inutiles et inconcevables auxquels ils se livraient*

médiateurs dans la zone en controlant le triangle: Damas, Beyrouth, Jérusalem, en plus de tenter d'équiliber les intérêts espagnols et romains. Dans ces circonstances, le Consul Général Antonio Bernal de O'Reilly était voué à percevoir les indemnisations pour les événements de Damas[1]. Ce même diplomate démontrait un grand intérêt dans la zone en envoyant à Madrid «una interesante colección de obras (...) que me fue ofrecida. Deben hallarse en la Biblioteca Nacional»[2].

L'Espagne de la Restauration (1874-1923) connaît un calme et une prospérité économique, politique et sociale. Dans ce contexte, la Constitution de 1876 reconnaissait le catholicisme en tant que religion d'Etat, laquelle n'interdisait pas la coexistence avec une culture de caractère libéral. Les villes connaîtront leur expansion; en Catalogne et au Pays Basque la bourgeoisie industrielle se développait. Ces facteurs, ajoutés à l'ouverture du Canal de Suez en 1869, l'apparition de l'appareil photographique portable et l'éveil du tourisme, fruit de l'amélioration des moyens de communication permettront aux voyageurs espagnols d'accéder à la Terre Sainte, faisant apparaître une série d'écrits sur la région. A partir de ce moment, les migrations augmenteront et avec celles-ci l'information sur la zone. L'itinéraire comprenait, en plus de Jérusalem, Nazareth, Bethléem, ou la vallée du Jourdain, une excursion à Damas, en passant par Beyrouth avec une visite des ruines de Baalbek. Le Liban se convertit dans ces écrits en une destination secondaire mais intéressante en tenant compte des commodités existantes en Europe.

VOYAGEURS ET ECRITS ESPAGNOLS

Un des premiers voyageurs qui abordent la réalité libanaise est Lamartine; un poète, politologue, romancier et diplomate dont les oeuvers étaient amplement diffusées parmi les lecteurs espagnols. Cet auteur romantique est précisément celui qui donne le nom à ce type d'itinéraires avec son **Voyage en Orient**[3], et à partir de là les termes

(1) P. García Barriuso, *Op. Cit.*, p. 379.

(2) «Une intéressante collection d'oeuvres (...) qui m'a été offerte. Ils doivent se trouver à la Bibliothèque Nationale» Antonio Bernal de O'Reilly, *En el Líbano, cartas-relaciones sobre la Siria,* Madrid, p. 78.

(3) Jean-Claude Berchet, *Le Voyage en Orient, anthologie des voyageurs français dans le Levant au XIXe siècle,* Paris, Laffont, 1994, 6e éd (1e 1985), p. 5.

«orient» et «oriental» font pleinement irruption non seulement dans les lettres françaises mais aussi bien dans les lettres espagnoles[1].

Une autre oeuvre qui marque les voyageurs espagnols suite au fait d'être cité dans presque tous les écrits est *La Terre Sainte* de l'Abbé Mislin. Ce pretre né en Suisse en 1808, visitait le Moyen-Orient en 1848 et 1856; et fruit de ses visites, il publiait divers livres qui seront édités tout d'abord en français et plus tard en italien, allemand ou espagnol. De nos jours, on lui reconnait le fait d'avoir attiré l'attention mondiale sur les lieux saints[2]. En Espagne, il sera publié à Barcelone en 1864; un écrit qui comme celui de Lamartine sera assez mentionné par les voyageurs espagnols. L'Abbé franco-suisse peut être considéré comme un héros romantique dans un territoire exotique à la lecture de ses descriptions sur les excursions du Mont libanais monté en mulet ou les grands repas dans les couvents; bien que son point de vue soit éloigné du héros tourmenté par la perte de sa fille comme l'est Lamartine.

Ces perspectives sont celles qui seront présentes dans les écrits produits par les auteurs espagnols qui traitent du thème. Ces textes peuvent être divisés en trois groupes: livres de voyageurs officiels comme les diplomates, les militaires et les voyageurs indépendants comme les écrivains ou bien les pèlerins, et d'autres types d'écrits liés au Liban.

Les mémoires des diplomates supposent un intéressant champ d'études pour comprendre la politique internationale espagnole qui, dans le cas du Liban, se fait évidente dans les années 60, juste après la première guerre civile libanaise, lorsque, comme je l'ai déjà exposé, cette région acquiert une certaine autonomie de l'Empire Ottoman et la présence internationale s'accroît. Une bonne preuve à cela est l'oeuvre d'Antonio Bernal de O'Reilly, nommé Consul Général en Syrie de 1863 au mois de novembre de 1866[3]. Le Consul espagnol en Syrie se trouvait

(1) *Viaje a Oriente*, Córdoba, Noguer et Marté, 1840. *Viaje a la Palestina,* Valencia, Mateu et Cervera, 1844. *Viaje a Oriente,* Madrid, Madoz et Sagasti, 1846. *Viaje a Oriente,* Zaragoza, Lucía et Calabia 1858. *Viaje a Oriente,* Madrid, Manuel Guijarro, 1878.

(2) *Enciclopedia Universal Ilustrada,* Madrid, Espasa, tomo XXXV, pp. 993-4.

(3) Il était aussi vice-consul à Bordeaux en 1844 d'où il est passé à Nantes en tant que Consul Jusqu'à ce qu'il soit muté à Beyrouth de 1863 à 1866. Plus tard, il abandonnera la carrière diplomatique jusqu'en 1875; année aù il sera nommé Consul en Bayonne jusqu'au mois de mars de 1881, Archive du Ministerio de Asuntos Exteriores legajo 28, nº 1149.

à Beyrouth et pendant son mandat il s'occupait des questions en Palestine, ce qui lui permettait de bien connaître la zone comme le démontrent ses oeuvres: *En el Libano, cartas relacionadas sobre la Siria (187?), Viaje a Oriente, en Egipto (1876), En Tierra Santa: La Judea, la Samaria y la Galilea (1896), et Jerusalén, la Semana Santa (1877).* Adolfo de Mentaberry, auteur de *Viaje a Oriente, de Madrid a Constantinopla (1873)* coïncidait avec Bernal de O'Reilly suite à sa nomination en tant que vice-consul à Damas en 1864[1] et ce jusqu'à l'été de 1867; date où il sera muté à Istanbul[2]. Manuel Quintana, Consul d'Espagne en Orient durant les années 1875-76 publiait un an plus tard *Siria y el Libano.* Bien que Quintana et Bernal se rapprochaient du Réalisme, avec des descriptions détaillées et concrètes sur leurs expériences, Mentaberry se rapproche du Romantisme avec une récréation d'un monde exotique, mystérieux et fascinant. Les 20 ans à peine atteints de Mentaberry l'incitent à rêver des femmes turques voilées, des harems ou de la rencontre avec Lady Jane Digby. Deux autres diplomates qui ont publié leurs expériences sont Melchor Ordõñez Ortega et Adolfo de Rivadeneyra. Le premier, dans *Una misión diplomática en Indochina (1882)* restitue la visite que l'Ambassadeur amanite avait réalisée en Espagne en 1878 et, avant d'arriver en Indochine, il passait par Istanbul, Beyrouth, Jérusalem et l'Egypte en 1879. Il faut tenir compte du fait qu'entre 1877/78 avait eu lieu la guerre russo-turque dans les Balkans où les ottomans perdaient l'immense majorité de leurs possessions européennes et que la question de l'Orient était à l'ordre du jour. Adolfo de Rivadeneyra était destiné à Beyrouth d'où il envoyait ses «Cartas sobre la Siria» au quotidien *La Época* en 1867, qui plus tard verront le jour dans *Viaje al interior de Persia*[3] qui a eu lieu entre 1874-5.

Comme on peut le noter, l'intérêt espagnol dans la zone date des années soixante et soixante-dix. En 1871, se décidait l'envoi d'une expédition en Méditerranée Orientale dont la mémoire eut une grande diffusion dans les bibliothèques et centres de savoir espagnols si on met à

(1) Cf. mon article intitulé «Adolfo de Mentaberry en Damasco» in *Cervantes n° 3*, Instituto Cervantes de Damasco, mayo 2003.

(2) Archive du Ministerio de Asuntos Exteriores legajo, p. 172.

(3) Ce livre a été réédité par Lily Litvak à Barcelone, le Serval, 1987. Voir aussi de ce même auteur *Viaje de Ceilán a Damasco*, Madrid, Ribadeneyra, 1871.

jour les connaissances sur ce thème. Juan de Dios de la Rada y Delgado, un intellectuel de premier rang[1] était chargé de rédiger le *Viaje a Oriente de la Fragata de Guerra Arapiles* en trois volumes avec des gravures qui apparaîtront au début des années 80. Ils partiront de Cartagène en route vers Alger où ils resteront 24 jours pour aller à Naples et visiter le Vézuve et Pompeï; et de là ils iront à Athènes et Istanbul. Ils ne seront pas autorisés à entrer dans la Mer de Marmara, et seulement une partie de cette expédition a pu se rendre dans la capitale ottomane; ils ont dû se consoler avec Smyrne. L'île de Chypre était l'escale avant Beytouth où ils resteront 5 jours en faisant une excursion rapide à Damas avant d'arriver en Palestine. De là, ils se rapprocheront de l'Egypte et de Malte et reviendront avec de riches expériences et informations personnelles sur le sujet. Les dix années écoulées entre le voyage et la publication permettront à l'auteur la réalisation d'un intéressant document où coexistent ses experiences personnelles avec des dissertations sur les différentes disciplines qui traitent de ces écrits: sociologie, économie, politique, littérature, beaux-arts, religions comparées, philosophie, histoire, géographie, arquéologie, etc... De la Rada paraîssait être suffisamment au courant de ce qui se passait dans le monde; ainsi il parvenait à rapprocher les lecteurs espagnols et hispanoaméricains à la réalité de la Méditerranée Orientale.

Un autre membre de cet equipage *Arapiles* était Vincent Moreno de la Tejera, médecin militaire qui plus tard laissera tomber son service pour les armes en faveur des lettres[2]. Son *Diario de un Viaje a Oriente*, alors

(1) «Rada y Delgado (Juan de Dios de la) Biog: Jurisconsulto y escritor español contenporáneo. N. en Almeria en 1827. ganó el título de Doctor en derecho; enseñó Arqueología en la Escuela Superior de Diplomática, de Madrid y después en la misma capital tuvo a su cargo una cátedra de Jurisprudencia. Hoy es director de la citada Escuela de Diplomática y en ella desempeña las cátedras de Numismática y Epigrafía»* (agosto de 1895)» in *Diccionario Enciclopédico Hispano Americano (DEHA)*, Barcelona, Montaner et Simón 1887- 98 tomo 17, 1895, p. 34.
* **Traduction-**«Eléments biographiques: Jurisconsulte et écrivain espagnol contemparain. Né à Almeria en 1827. Obtient le titre de Docteur en droit; a enseigné l'Arquéologie à l'Ecole Supérieure de Diplomatie de Madrid et ensuite dans la même capitale a eu à sa charge une Chaire de Jurisprudence. Aujourd'hui il est directeur de la dite *Ecole de Diplomatie* et dans celle-ci il exerce les Chaires de numismatie et Epigraphie (Août 1895)».

(2) «Moreno de la Tejera (Vicente): Biog. Novelista español nacido en Madrid en febrero de 1848. Ha sido médico de la Armada y dejó el servicio para dedicarse

qu'il n'avait que 23 ans, est un contrepoint à l'étude sage de Rada, qui permet de vérifier comment la réalité du voyage change selon le regard du voyageur et que les perceptions sont compatibles, oscillantes entre le Romantisme et le Réalisme. Dans ce contexte, alors que le «je» de Rada apparaît à peine dans ses citations, données et références à d'autres auteurs; le «je» de Moreno se répand. Ainsi se manifeste-t-il à son départ de Beyrouth.

La noche extiende su manto tachonado de estrellas, cuya luz reverbera en las tranquils aguas. El barco se pone en movimiento. Ya no volveré a contemplar este paisaje encantador donde se complació la naturaleza en verter todas sus galas. Pequeños pueblos y caseríos que coronais los montes del Libano, metualis y beduinos, drusos y maronitas, griegos y turcos, mujeres enmascaradas que habéis pasado junto a mí como fantasmas de un sueño; si habéis fijado un instante la atención en el viajero para olvidarlo después, este guardará siempre en un rincón de su memoria vuestro recuerdo, con el recuerdo de sus impresiones[1].

Le second groupe de personnes qui arrivent au Liban sont les voyageurs non officiels, lesquels peuvent être classés en deux catégories: les migrants et auteurs hispano-américains. En commençant par les espagnols, le premier à arriver était Alvaro Robledo, un commerçant de Bilbao qui, comme l'indique le titre de son livre, *Diario de un peregrino en Tierra Danta*, décidait de découvrir les Lieux Saints au printemps de

= a trabajos literarios. Entre sus muchas obras citaremos: *Diario de un viaje a Oriente; Monarca, bandido y Fraile; Las catacumbas de Nápoles; Los hijos del Misterio; La Mina de Fuego; Los Mártires del Presidio*, etc.»* in DEHA tomo 28, (2° apéndice) año 1910 p. 275. * **Traduction-** «Nouvelliste espagnol né à Madrid en Février 1848. A été médecin de l'Armée et a laissé son service afin de se dédier à des travaux littéraires.

(1) «La nuit étend sa cape ornée d'étoiles dont les lumières réverbèrent sur les eaux tranquilles. Le bateau se met en mouvement. Je ne reviendrai plus contempler ce paysage enchanteur où la nature se complaisait à renverser toutes ses grâces. Les petits villages et les maisons de campagne qui couronnaient les monts du Liban, métuales et béduins, druses et maronites, grecs et turcs, femmes masquées qui sont passées près de moi comme les fantasmes d'un rêve; si vous avez fixé un instant l'attention au voyageur pour l'oublier ensuite, celui-ci gardera toujours dans un coin de sa tête votre souvenir avec le souvenir de ses impressions», Vicente Moreno de la Tejera, Diario de un Viaje a Oriente, Madrid, Imprenta Manuel Martínez, p. 245.

1858, plus concrètement durant la Semaine Sainte, une période de l'année qui a l'habitude de se répéter. Robledo représente la bourgeoisie éclairée de caractère libéral, qui seront les précurseurs de la naissance du tourisme quelques années plus tard. José Maria Fernández Sáchez et Francisco Freire Barreiro en 1875 entreprendront ensemble l'itinéraire suivant: *Santiago, Jerusalén, Roma, diario de una peregrinación*. Ils rencontreront le Consul Quintana qui les invitera à déjeûner et leur fera une visite de Beyrouth. Ces voyageurs étaient des professeurs à l'Université de Santiago et représentaient les quelques intellectuels espagnols qui étaient intéressés de voyager à l'étranger et d'apprendre d'autres langues; comme il ressort des citations et références qu'ils utilisent. Cet intérêt reste circonscrit à la religion catholique comme il peut être remarqué à travers les lieux de migration et leurs commentaires sur les peuples ottomans. Les druses sont accusés de «secte immonde» et ceux qui ressortent plus que d'autres en mauvaise voie sont les Juifs en Palestine. Il s'agit d'une vision conservatrice où les préjugés religieux sont bien ancrés servant de clé pour déchiffrer la réalité.

Narcise Pérez Reoyo, un médecin de Bourgos installé en Galicie réalisait aussi le *Viaje a Egipto, Palestina y países de Oriente*[1] en 1875 durant le Consulat de Quintana et cela rejaillit dans les pages de son livre. La vision de ce médecin est de caractère libéral assez représentative de la bourgeoisie de la Restauration. Il s'agissait d'une personne qui voulait connaître les pays exotiques qui sont le berceau des civilisations: la Terre Sainte, l'Egypte et Constantinople. La *Bible* se maintient comme référence obligatoire, mais le catholicisme n'est pas la clé des professeurs galiciens.

Deux autres pèlerins qui laisseront des marques de leur passage par le Liban étaient Octavio Velasco del Real avec *De Roma a Jerusalén* et Ricardo Baeza avec *De Barcelona a Jerusalén a pie y sin dinero por un peregrino español*. Le premier, qui publiait aussi *Viaje por la América del Sur* se rapproche du voyageur romantique alors que vers la fin du siècle le Modernisme et ses chroniques avaient remis à la mode les voyages vers les pays exotiques. Octavio del Real en 1889 visitait l'Exposition

(1) Carlos García-Romeral Pérez, *Bio-Bibliografía de Viajeros Españoles (siglo IXI)*, Madrid, Ollero y Ramos, 1995.

Universelle à Paris lorsqu'il prit la décision d'aller à Rome et de là à la Terre Sainte en passant par la Grèce, la Turquie, la Syrie, le Liban et Chypre. Son itinéraire, son style et ses descriptions ont pour précédent le voyage de Chateaubriand au début du XIXème siècle. Ricardo Baeza, au contraire, a un document intéressant d'une migration à l'ancienne mode, à pied et sans argent, à travers les Balkans, la Turquie et le Liban en 1910 à un moment où paradoxalement les communications entre les deux rives de la Méditerranée faisaient en sorte que les migrations vers la Terre Sainte se convertissaient en une pratique du tourisme. De ce fait, à l'Université Saint Joseph de Beyrouth il rencontre un groupe de près de 150 migrants galiciens guidés par l'Evêque de Lugo.

Le troisième type d'écrits présente un aspect moins homogène que les antérieurs tant pour son origine, que pour son extension et sa thématique. Antérieurement je m'étais référé au rôle de presse écrite comme *La España, La Época* ou *La Correspondencia de España* durant les événements de l'été de 1860, informations similaires sur la guerre ou les maronites, druses ou métoualis apparaîssent aussi dans des revues illustrées telles *El Museo Universal* (plus tard rebaptisée *La ilustración Española y Americana), La Ilustración de Madrid, El Mundo Militar* ou *El Mundo Ilustrado: biblioteca de las familias: historia, viajes, ciencias, artes, literatura.* Cette dernière revue, destinée à la bourgeoisie catalane de la Restauration, s'est vu offrir un intérêt particulier par la littérature des voyageurs et dans les écrits à caractère géographique et anthropologique. Ainsi le démontre *Historia Natural del Hombre* de Juan Montserrat y Archs qui décrit les races des cinq continents avec une partie dédiée à la Syrie et la Mésopotamie où il étudie la situation des maronites et des druses. Cet écrit est publié par séries dans une revue au même moment (1881-2) que *Palestina, según el coronel Wilson, Warren, Jorge Ebers, Herman Guthe, Victor Guerin y Lartet* de Francisco Miguel Babia, collaborateur dans cette publication, qui était chargé de la traduction et rédaction de l'oeuvre qui ne prétend pas etre originale: «El fondo de cuanto hemos escrito que, conforme hemos indicado, pertenece a muchos autores, quedándonos sólo con el mérito, si este existiere, de

(1) «Le fond de tout ce que nous avons écrit, conformément à ce que nous avons indiqué, appartient à beaucoup d'auteurs, nous restant seulement le mérite, si celui-ci existe, d'avoir choisi et fait la compilation», Francisco Miguel Badía,

haberlo elegido y compilado»[1].

Francisco Miguel Badía démontre comment en Espagne les intellectuels étaient au courant de ce qui se déroulait dans le monde, connaissaient des langues étrangères et détenaient un public avec lequel ils partageaient leurs connaissances. Il représente l'intellectuel de la culture de la Restauration à un moment où, après le retour des Bourbons avec Alphonse XII le carlisme ne représentait déjà plus un problème, l'économie avait pu se réactiver, la Catalogne et le Pays Basque entreprenaient leur industrialisation et les villes se développaient. C'est dans ce contexte que surgira une culture de caractère bourgeois, libéral et catholique à laquelle appartiennent Francisco Miguel Badía et son *Palestina*: «con el Evangelio en la mano y la ayuda también de los historiadores profanos recorreremos estos santos lugares»[1] auxquels sont inclus le Liban et la Syrie. Cette oeuvre permet aussi d'affirmer qu'il ne faut pas spécialement un déplacement physique pour voyager, et que ces voyages peuvent s'effectuer à travers les livres, surtout s'ils ont les gravures des revues illustrées, et, le cas échéant, se rappeler que Emilio Salgari n'a jamais quitté l'Italie et combien de fois n'avons-nous pas visité empoigné à sa main l'Inde de Sandokan, la Méditerranée du XVIème siècle, la Chine, la Mongolie ou l'Amérique du Sud.

Le Liban apparaît aussi au long du XIXème siècle dans des ouvrages à caractère géographique, religieux où historique. Je ne m'étendrai pas longuement sur ceux-ci parce qu'ils ne sont pas porteurs de données nouvelles comme *La Tierra Santa y los lugares recorridos por los profetas, por los apóstoles, por los cruzados: historia, descripción y costumbres actuales* (Barcelona, 1840) qui, bien qu'ils remplissent des pages et des pages sur l'époque de Jésus Christ ou des Croisades ils dédient à peine quelques lignes sur le moment actuel. Cette attitude s'observe aussi avec *Diccionario Enciclopédico Hispanoamericano* où les Rois de Grenade ou les Califes de Cordoue apparaissent dans des colonnes entières alors que les sultans ottomans du XIXème siècle n'ont droit qu'à quelques

= *Palestina,* Barcelona, vol 8 p. 990. Dans cette même revue, il publiait «El arte en casa» tomo 4 (1880-1), un thème en rapport aussi avec *Historia del Mueble,* Barcelona, Montaner, 1897.

(1) «avec l'Evangile à la main et l'aide aussi des historiens profanes nous parcourrions ces lieux saints» *Ibidem,* tomo 6, p. 483.

paragraphes. Cette encyclopédie, vrai résumé intellectuel du savoir hispanique à la fin XIXème siècle ne se fait pas l'écho de l'évolution politique libanaise et poursuit de la définir d'une manière traditionnelle «Líbano: geog. Cordillera de la Syria, Turquia asiática»[1].

Un petit livre qui mérite la peine d'être cité est *Marón, el niño cristiano del Líbano* publié vers la fin du XIXème siècle à Fribourg de Brisgovie, en Allemagne, par des Libraires-Editeurs Pontificaux qui correspond au tome XIII de la collection *Desde lejanas tierras, galería de narraciones ilustradas dedicadas a la juventud,* collectionné par un jésuite et qui, si tout cela n'est que peu, était recommandé par le Cardinal-Archevêque de Valence, les archevêques et évêques de Arequipa, Bogotá, Buenos Aires, Caracas, Chiapas, Huánaco, León (en Espagne), Lima, Medellin, México, Nicaragua, Nueva Pamplona, Portoviejo et Santiago de Cuba.

Pour moi, il s'agit d'un livre très special parce que je l'ai découvert a l'âge de quatorze ans à Villabrágima, province de Valladolid, d'où est originaire mon père et où nous allions toutes les vacances. Je me souviens de l'avoir dévoré avec une avidité similaire aux livres de Salgari et que, curieusement, j'en ai gardé énormément de souvenirs. L'œuvre en soi est, comme nous pouvons l'imaginer, de propagande maniquéenne. Comme il ne pouvait en être autrement, elle était centrée sur les massacres des chrétiens en 1860. Marón, un adolescent, vivait avec sa maman veuve et sa soeur à Saida durant la première guerre civile libanaise et décident de fuir a la montagne. Un ami de Marón les aide, Ali, qui au début de l'histoire annonce clairement dans quel camp il se trouve: «Sí, abomino de la inhumana rabia de mi padre contra los cristianos; abomino de mi hermano Hakem que con su propia mano ha asesinado a más de treinta

(1) * **Traduction** «Liban: géog. Chaîne de la Syrie, Turquie asiatique».
DEHA,vo; 11, 1892, p. 860. Ce fait se maintient jusqu'au début du XXème siècle en oeuvres telles *El Tesoro de la Juventud,* vol VI, «Persia y Turquía Asiática, el territorio del Sultán y el del Cha», p. 1847 ou dans **Geografia Política** de Arthur Dix, Editorial Labor, 1943 (1a ed. 1923), mapa V.

(2) «Si, j'abomine la rage inhumaine de mon père contre les chrétiens; j'abomine mon frère Hakem qui de sa propre main a assassiné plus de trente personnes parmi ces malheureux, j'abomine la religión de Mahomed qui permet de telles infamies», *Marón, el niño cristiano del Líbano,* Friburgo, Herder & Cía, 1921 (4° ed), pp. 8-9.

de esos infelices; abomino de la religión mahometana que permite tales infamias»[2]. L'Islam apparaît avec ses connotations traditionnelles de violence: «ahi tienes una cuchilla de carnicero; a mí me sobran. Acompañanos y ayúdanos a matar cristinos como un verdadero musulmán»[1]. Dans ce contexte, les chrétiens étaient perçus comme des moutons, symbole de claires connotations bibliques, qui mènent à l'abattoir alors que les druses les appellent loups ou sanguinaires. Tous les druses ne sont pas non plus mauvais; une princesse apparaît aussi, avec la coiffe inévitable des dames druses, que Marón sauve de la colère des chrétiens, une mesure de faveur qui lui retournera plus tard bien que celle-ci refuse de se convertir au christianisme, non comme Alí qui portera dès lors le prenom de José Maria.

En marge de la simplicité de l'histoire, cet écrit permet de mettre en exergue la superficialité de la vision espagnole, engagée à marquer les différences entre les diverses communautés libanaises et prenant partie de manière éhontée, dans ce cas pour les chrétiens, et en appliquant les principes comme le martyre que, malheureusement, nous ne sommes pas parvenus à passer outre en ce début du XXIème siècle: «Así pues, ¿no sois cristianos?. Sí lo somos, y como cristianos queremos morir (...) !O dices: glorificados sean los profetas de Dios, Mahoma y Hakem, o descargaremos el golpe!.

Mas la viuda, recogiendo todas sus fuerzas, volvió la cabeza hacia Marón y dijo con voz débil: Hijo mío, no digas eso!, dirige tus ojos al cielo, adónde iremos, y mantente fuerte»[2].

(1) «là tu as un couteau de boucher, j'en ai de trop. Accompagne-nous et aide-nous à tuer les chrétiens comme un vrai musulman» *Ibidem,* p. 17.

(2) «Ainsi donc, vous n'êtes pas chrétiens? Si nous le sommes, et nous voudrons mourir en tant que chrétiens (...)! Ou bien tu dis: Que soient glorifiés les prophètes de Dieu, Mahomet et Hakem, ou bien nous déchargerons le coup! La veuve, reprenant toutes ses forces, tourne la tête vers Marón et dit avec une voix faible; mon fils, ne dis pas cela! Dirige tes yeux vers le ciel, où nous irons, et mainitens-toi fort» *Ibidem,* p. 69-70.

BIBLIOGRAPHIE

- BAEZA, Ricardo: *De Barcelona a Jerusalén, a pie y sin dinero,* Bilbao, La Vizcaina, 1912.
- BERNAL DE O'RELLY, Antonio: *En el Libano, cartas relaciones sobre la Siria.* Madrid, Biblioteca Popular Ilustrada, 1888.

  «Cedros del Libano». *El Panorama nº 1,* Madrid, 1840.
- «Drusos y maronitas», *El Mundo Militar,* Madrid, 29 de Julio de 1860.
- «El Puerto de Beirut», *El Mundo Militar,* Madrid, 26 de Julio de 1860.
- ENAULT, Louis: *La Virgen del Libano,* Madrid, Hilarión de Zuloaga, 1861. (1862 Imp. del Diario de la Marina)
- FERNANDEZ SANCHEZ: Santiago, *Jerusalén, Roma. Diario de una peregrinación a estos y otros santos lugares,* Santiago, Boletin Eclesiástico, 1881.

  «Los Drusos y los Maronitas del Libano», *El Museo Universal,* Madrid, 5 de agosto de 1860.
- MASIA Y LUCAS, Hugolino: *Los Ritos Orientales.* Madrid, S.L. 1883.
- MENTABERRY, Adolfo: *Viaje a Oriente, de Madrid a Constantinopla.* Madrid, Berenguillo 1873.
- MIGUEL BADIA, Francisco: *Palestina según el coronel Wilson, Warren, Jorge Ebers, Herman Guthe, Victor Guerin, Lortet y otros autores.* Barcelona *El Mundo Ilustrado* 1881.
- MOLA MARTÍNEZ, Juan: «Los Pueblos del Líbano I y II», *La Epoca,* Madrid, 23 y 28 de Julio de 1860.
- MORENO, José: *Viaje a Constantinopla,* Madrid, 1790.
- MORENO DE LA TEJERA, Vicente: *Diario de un Viaje a Oriente.* Madrid. Manuel Martínez.
- PEREZ REOYO, Narciso: *Viaje a Egipto, Palestina y otros países de Oriente.* Lugo, Soto Freire. 1883.
- QUINTANA, Manuel: *Siria y Líbano,* Madrid, 1877.

- RADA Y DELGADO, Juan de Dios: *Viaje a Oriente de la Fragata Aragata Arapiles* Barcelona. Emilio Oliver Cia, 1876.
- ROBLEDO, Alvaro: *Diario de un Peregrino en Tierra Santa,* Madrid, Leocadio López, 1864.
- RIVADENEYRA, Adolfo: «Beiruth y Damasco», Madrid, *La Epoca,* 25 agosto, 1867.
- VELASCO DEL REAL, Octavio, *De Roma a Jerusalén,* Barcelona, Abraxas, 1999 (1a ed. 1890).
- GARCIA-ROMERAL TEREZ, Cárlos: *Bio-Bibliografia de Viajeros Españoles (Siglo XIX),* Madrid, Ollero & Ramos, 1995.
- GUTIERREZ DE TERAN GOMEZ-BENITA, Ignacio: *Las Relaciones interconfesionales en Líbano y Siria desde la época de la Tanzimát hasta nuestros días.* Madrid, Universidad Autónoma, 2000. (Tesis doctoral)
- MARTIN ASUERO, Pablo: *España y el Líbano, 1788-1910. Viajeros, diplomáticos, peregrinos e intelectuales,* Madrid, Miraguano, 2003.
- ORDEN, Francisco de la: «Los templos de Baalbek», *Revista de Geografía Española,* Nº 3, San Sebastián, 1938.
- PENA AGÜEROS, Miguel: *Beirut, Historia de una ciudad plural,* Melilla, Consejería de Cultura, Educación y Deportes, 1996.
- ZAFER CHAABAN, Nadia: *La imágen del Líbano en los escritos de viaje españoles de la segunda mitad del siglo XIX,* Madrid, Universidad Autónoma, 1988. (Tesis doctoral).

LES VOYAGEURS FRANÇAIS AU MONT-LIBAN AU COURS DU XIXème SIÈCLE

Dr. Thérèse Douaihy Hatem [*]

Cette intervention se divise en deux parties:

1 - Les voyageurs français venus au Mont-Liban.

2 - Les conditions de voyage au Mont-Liban.

1 - Les voyageurs français venus au Mont-Liban

L'intérêt des voyageurs européens pour l'Orient et pour le Mont-Liban est à signaler depuis des siècles. En effet, refaire l'historique des relations de voyage en Orient nous ramène à l'*Itinéraire de Bordeaux à Jérusalem* (Itinerarium a Burdigalis Hierusalem usque et ad Heracleam et per Roman...) que l'on croit composé vers l'an 333 par un pèlerin bordelais: c'est une sorte de guide, mentionnant les relais et les étapes du pélerinage, et qui a été édité pour la première fois en 1589 par Wesseling. Henri Bordeaux écrit en 1926: «Le vétéran de cette armée de pèlerins, de soldats, d'archéologues, d'écrivains, d'érudits et d'amateurs en route pour l'Orient, c'est ce fameux et inconnu pèlerin de Bordeaux qui, en l'année 333 traversa l'Europe et l'Asie Mineure pour atteindre Jérusalem»[1]

Au XIIème siècle, on pourrait s'intéresser surtout à la figure originale du voyageur espagnol Benjamin de Tudèle, l'auteur de l'*Itinerarium* qui visita dans la deuxième moitié de ce siècle le Liban Nord et poussa ensuite vers Damas et Baghdad[2]. Vers la même époque,

(*) Département de langue et de littérature françaises, Faculté des Lettres II.

(1) BORDEAUX (Henry), **Voyageurs d'Orient,** Plon, Paris, 1926, tome I, p. 3.

(2) Pour plus de détails, voir Henry BORDEAUX, **Voyageurs d'Orient, op. cit.,** et Jean de la Roque, **Voyage de Syrie et du Mont-Liban,** Editions Dar Lahad Khater, Beyrouth, 1981. Cette édition est dirigée et annotée par Jean Raymond qui

on doit à Guillaume de Tyr archevêque latin de Tyr en 1174 – l'un des premiers documents imprimés relatifs aux Maronites du Mont-Liban.

Au XVIème siècle, la passion des voyages et le développement du commerce français ajoutent au type du voyageur médiéval, moine ou chevalier, deux types nouveaux, le marchand et l'explorateur. Tavernier qui était marchand, Chardin joaillier, Lucas antiquaire, rapportèrent de leurs voyages en Orient des observations et non des paysages ou des décors.

À la fin du XVIème siècle et au début du XVIIème siècle, la publication des relations de voyage sur l'Orient connut un succès sans précédent, Parmi les plus célèbres voyageurs qui ont consacré une grande part de leurs écrits au Mont-Liban à cette époque: Gérôme Dandini, Sylvestre de Saint-Aignan, Laurent d'Arvieux et Jean de La Roque[1].

Au XVIIème siècle, Colbert encourage les voyageurs à publier leurs impressions de voyage, devinant l'excellente réclame qu'elles constituent à ses projets d'expansion commerciale. Il nomme au Levant des représentants diplomatiques permanents, dont certains formeront à travers les siècles une nouvelle catégorie de voyageurs: on signale en 1670, la mission en Orient de l'ambassadeur de Nointel, premier ambassadeur érudit en Orient et, dans la première moitié du XIXème siècle, l'activité intellectuelle du consul de France à Beyrouth, M. Henri Guys, dont l'œuvre est d'une importance capitale pour la connaissance du Liban et de la Syrie.

Au XVIIIème siècle, la traduction des *Mille et une nuits* par Antoine Galland[2] insuffle au goût des voyages un sang nouveau. Rappelons à

= rapporte que les nombreux voyages de Tudèle en Europe, en Asie, en Afrique, depuis l'Espagne jusqu'en Chine, ont été racontés par l'auteur lui-même dans une intéressante relation, sous le titre hébraïque de **Mazaroth** (Excursions) à Constantinople en 1543. Cet ouvrage a été réimprimé plusieurs fois et traduit en latin **(Itinerarium Domini Benjaminis,** Anvers, 1575 et Leiden, 1633, puis en français par Jean Baratier **(Itinéraire de Benjamin de Tudèle),** Amsterdam 1734, nouvelle édition, Paris, 1830.

(1) Jean de La Roque, auteur du **Voyage de Syrie et du Mont-Liban,** séjourna plus de deux ans au Liban (1688-1690), dans le but de faire du commerce.

(2) GALLAND Antoine (1648-1715) est l'un des orientalistes français les plus authentiques de son époque. En 1670 il accompagne en qualité de secrétaire le célèbre marquis de Nointel dans son voyage en Orient. Il traduit à partir de 1704 les **Mille et une nuits.**

cette époque les voyageurs: Paul Lucas, Henry Maundrell, Richard Pococke, Castern Niehbur et surtout Volney qui a exploré l'Egypte et la Syrie pendant trois ans, ouvrant la voie aux grands voyageurs. «À tous ceux qui, après lui visiteront l'Orient, écrit Jean Gaulmier, il impose son témoignage et la parfaite bonne foi de sa vision»[1].

À l'aube du XIXème siècle, l'Orient demeurait pour les voyageurs européens un rêve nourri de souvenirs bibliques et religieux. De tous les points de l'ancien monde, soutenus dans leurs pèlerinages par une foi ardente, poussés par le goût de l'exotisme et de la couleur locale, ils continuaient sans interruption à visiter la Terre sainte et, au gré de leurs parcours en Palestine ou en Syrie, ils évoluaient à travers le Mont-Liban qui imposait à leurs imaginations les images les plus éblouissantes.

Sur le nombre de ces voyageurs, Xavier Marmier, dans la préface à l'ouvrage de Bart, *Le Mont Liban,* en donne un aperçu qui mérite d'être cité: *«Quel philologue,* écrit-il, *quel travailleur infatigable, quel bénédictin pourrait essayer de faire la bibliographie du Liban, de la Palestine, de la Syrie depuis l'antiquité jusqu'à nos jours, depuis les pieux pèlerins du moyen âge jusqu'au philosophe Volney, depuis les naturalistes de France, de Suède, d'Allemagne (Belon, Hasselquist, Russegger) jusqu'à notre mélodieux poète Lamartine„»*[2]. Jean Raymond[3] a inventorié, dans un ouvrage bibliographique *Essai de Bibliographie Maronite,* les récits de voyage sur le Mont-Liban; et il est surprenant de noter que leur nombre, au cours du XIXème seulement, s'est élevé à plus de cent cinquante récits de langue française, sans compter de nombreux autres, notamment en anglais, espagnol, allemand et russe.

Les voyageurs venus au Mont-Liban présentent une heureuse variété, tant par leurs aptitudes que par leur origine et leur formation. On y voit des pèlerins, des militaires, des marchands, des savants, des écrivains, des amateurs de voyage qui affluaient en Orient, *«pays des*

(1) GAULMIER (Jean), **Introduction au Voyage en Egypte et en Syrie de Volney,** Mouton, Paris, 1959, p. 15.

(2) Bart (F.), **Le Mont Liban, Scènes et tableaux de la vie en Orient,** Emmanuel Vitte, Lyon, 1884, p. 9.

(3) Voir Raymond (Jean), **Essai de bibliographie maronite,** Kaslik Liban, 1980. Voir aussi Saliba (Maurice), **Index Libanicus,** Liban, 1979.

dieux et des couleurs».[1] comme l'appelait Henry Bordeaux. Ils écrivaient souvent leurs souvenirs et leurs impressions.

Passons en revue seulement ceux qui ont visité le Mont-Liban au XIXème siècle et qui se sont signalés par des récits dotant de leur originalité la littérature de voyage. À partir de 1830, l'Orient et le Mont-Liban connurent les voyages des grands hommes de lettres français: Alphonse de Lamartine, Gérard de Nerval et Gustave Flaubert. Citons également parmi les voyageurs les plus célèbres: Michaud et Poujoulat, Marie-Joseph de Géramb, Jacob Mislin, le vicomte de Marcellus, Delaroière, Joseph d'Estourmel, le maréchal Marmont duc de Raguse, Georges Robinson, le baron de Taylor, Eusèbe de Salle, Edouard Blondel, Baptistin Poujoulat, Maxime du Camp et une armée de savants dont, Léon de Laborde et Félix de Saulcy.

Dans la deuxième moitié du XIX$^{\text{ème}}$ siécle, les troubles politiques et les événements de 1860 n'empêchèrent pas les voyageurs de visiter le Mont-Liban, et l'expédition française à cette époque provoqua en France une recrudescence d'intérêt et de curiosité pour ce pays. Les voyageurs de la seconde moitié du XIXème siècle, qui ont lu les descriptions et les impressions de leurs devanciers, surtout celles du chantre du Liban, Lamartine, n'en seront pas moins enthousiastes dans la visite du pays et l'évocation de son image. De cette nouvelle vague de voyageurs rappelons: Charles Auberive dans *Voyage au Mont Liban* 1861, le Comte de Paris dans *Damas et le Liban* 1861, et Richard Cortambert dans *Les Aventures d'un artiste dans le Liban* 1864. Suivrons, Amédée de Damas dans *Souvenirs du Mont Liban* 1870, et le vicomte Eugène Melchior de Voguë dans *Syrie, Palestine, Mont Athos* 1876. La vicomtesse d'Aviau de Piolant, Adolphe Joanne et Emile Isambert, Gustave Larroumet et les abbés Patrice Chauvierre, Léon Gauthey et Ducret ne seront pas les derniers à visiter le Liban. Il y aura aussi Georges Rodier, F. Bart, Joseph Goudard, et d'autres voyageurs d'une célébrité notoire.

Riche d'un passé lointain, le Mont-Liban suscite également la curiosité des savants comme Ernest Renan, Bourquemeau et Duteau, Louis Lortet et Victor Guérin. Sur les pas des naturalistes et des

(1) Bordeaux (Henry), **Voyageurs d'Orient,** op. cit., t.I. p. 1.

archéologues qui les ont précédés, ils explorent le pays, demandant à la nature et à la pierre la révélation de leurs curieuses histoires.

2 - Les conditions de voyage au Mont-Liban

Voyager au Mont-Liban au cours du XIXème siècle ne manque pas de présenter de véritables dangers. Les voyageurs européens qui franchissent les mers agitées au risque d'être attaqués par les corsaires ou retenus en quarantaine à *«la santé»* dans différents ports du Levant, se piquent d'être courageux, surtout que les informations sur les difficultés de voyage, rapportées par les voyageurs des siècles précédents, n'étaient point du tout légendaires. Leurs récits respectifs remettent les conditions de voyage au Mont-Liban à leurs justes proportions. Que de contraintes avant d'arriver aux ports de Beyrouth ou de Tripoli, et surtout au cours du périple au Mont-Liban, pays montagneux d'accés difficile, où les routes n'existaient même pas, non plus que les auberges.

Arrivée et préparatifs

À la sortie du port de Beyrouth où le débarquement est assez souvent dangereux - la rade étant ouverte à tous les vents - le voyageur est assailli par une foule houleuse de flâneurs et de portefaix. Viennent ensuite la gêne et l'impatience de se voir délivré des douaniers turcs qui, moyennant un «bakchich», permettent au voyageur d'emporter valises, sacs et colis sans «les visiter». Aussitôt dans la rue, les voyageurs de la première moitié du XIXème siècle se rendaient au consulat de leur pays: les consuls européens, concentrés à Beyrouth, aidaient par leur obligeance les voyageurs européens dans leur projet de voyage à l'intérieur du pays, et formaient comme une chaîne de recommandations, de relations et d'hospitalité au service de leurs concitoyens; ainsi Lamartine fut d'abord reçu au Consulat de France, de même Jacob Mislin se rendit à son arrivée au Consulat d'Autriche. Rappelons aussi, qu'à cette époque, les voyageurs européens étaient presque toujours les hôtes des missionnaires installés à Beyrouth ou à Tripoli, s'ils venaient à débarquer au port de l'une ou l'autre de ces villes.

Les voyageurs de la seconde moitié du XIXème siècle hébergent plutôt dans l'un des hôtels de Beyrouth, ville qui, à cette époque, avait déjà relevé le défi dans le secteur des services hôteliers: la vicomtesse de

Piolant séjourne à l'hôtel de l'Europe, Bart réside à l'hôtel Bellevue, d'Aquin à l'hôtel de l'Univers, Rodier préfère l'hôtel d'Orient et Ducret, l'hôtel de France.

Dans les villes côtières, le voyageur peut aussi héberger dans des khans, relais touristiques et commerciaux à la fois, que Lamartine décrit comme suit: *«une cabane dont les murs sont de pierres mal jointes, sans ciment, et laissant passer le vent ou la pluie (...) Les murs ont à peu près sept à huit pieds de haut; ils sont recouverts de quelques pièces de bois brut avec l'écorce et les principaux rameaux de l'arbre; le tout est ombragé de fagots desséchés qui servent de toit; l'intérieur n'est pas pavé, et, selon la saison, c'est un lit de poussière ou de boue»*(1).

Tous les préparatifs des voyages se font à Beyrouth: le voyageur, désireux de visiter le Mont-Liban, la Palestine ou la Syrie, devrait y faire ses emplettes. C'est là aussi qu'il faudrait s'attacher un drogman ou interprète et des muletiers. Et souvent, le voyageur fait un contrat avec un muletier ou un drogman pour la durée du voyage, système qu'il juge sûr et avantageux. Le contrat, passé entre le vicomte de Piolant et Nousrallah Hani, guide drogman, et que le récit de la vicomtesse de Piolant reproduit textuellement comme *«une pièce curieuse et fort utile à connaître»* nous en donne tous les détails. Voici le texte du contrat:

«Entre M. le vicomte de Piolant et Noussaralla, guide drogman à Beyrouth, il a été convenu ce qui suit:

«Noussaralla Hani s'engage à servir de drogman dans le Liban à M. le vicomte et à Mme la vicomtesse d'Aviau de Piolant. Il leur fournira les tentes et les chevaux nécessaires, tous les vivres, y compris le vin. Il se pourvoira d'un cuisinier convenable, connaissant la cuisine européenne; il se précautionnera d'autant de mulets que M. le vicomte de Piolant jugera utiles pour le transport des bagages et du matériel.

«Chaque matin, au lever du campement, le café sera servi, ainsi que du miel ou des confitures.

«À la première étape, un déjeuner froid sera toujours prêt, tandis que le soir, M. et Mme de Piolant, à leur arrivée au campement, devront trouver la

(1) Lamartine (Alphonse de), **Souvenirs, impressions, pensées et paysages, pendant un voyage en Orient 1832-1833,** 4 tomes, Gosselin, Paris, 1835, t.I, p. 335.

tente dressée et le dîner préparé. Ce dîner se composera d'un potage, de deux plats de viande, d'un plat d'entremets et du dessert.

«En outre, Noussaralla Hani devra posséder, dans les cantines portées par le cheval de service accompagnant les voyageurs, quelques citrons pour faire de la limonade.

«Le voyage commencera à partir du 28 avril au matin pour se continuer d'étape en étape, en tenant compte de l'itinéraire convenu entre M. Le vicomte de Piolant et Noussaralla. Cependant M. le vicomte de Piolant pourra modifier ledit itinéraire à son gré. On partira de Beyrouth en traversant tout le Liban, passant par les Cèdres et Baalbeck pour se rendre à Damas. Dans ces conditons M. et Mme de Piolant paieront pour eux deux soixante-dix francs par jour, tout le temps du voyage, qui ne pourra pas durer moins de six jours.

«En signant le présent contrat, Noussaralla a reçu deux cents francs à titre d'avance»[1].

C'est à Beyrouth aussi que les voyageurs organisent les caravanes, qu'ils préfèrent pour leur confort et leur sécurité à la fois. Lamartine qui voyage en pompe, en *«émir Frangi»*, selon la réputation que lui ont fait les habitants de Beyrouth, organise avec soin une caravane pour le voyage de l'intérieur de la Syrie et de la Palestine. Il s'achète des chevaux et leur fait faire des selles et des brides arabes, s'achète aussi des tentes et s'attache, à part les drogmans, des palefreniers, cuisiniers et domestiques, des *«Cawas»* qui remplacent les janissaires que la Porte accordait autrefois aux ambassadeurs ou aux voyageurs qu'elle voulait protéger. En 1880, Louis Lortet voyage aussi en caravane qui comptait vingt chevaux ou mulets et trois petits ânes pour transporter les personnes et les caisses.

Mais il n'y a pas que la caravane pour parcourir le pays, la plupart des voyageurs prennent une monture et s'accompagnent d'un muletier pour le trajet, c'est le cas de Mislin. Pour Bart, la chose est beaucoup plus simple, il voyage à dos d'âne, accompagné d'un seul guide-drogman et, avec humour, il fait un rapprochement entre les modes de locomotion

(1) Aviau de Piolant (vicomtesse d'), **Au pays des Maronites,** Oudin, Paris, 1882, p. 6-7.

français et ceux connus au Mont-Liban à l'époque. *«En France,* écrit-il, *lorsqu'on désire voyager ou rendre visite à ses parents et amis, on monte en chemin de fer, ou bien on fait atteler (...). Ici, ne riez point, on loue un âne à selle rouge ou bleue; puis, l'un portant l'autre, et parfois l'autre aiguillonnant l'un, on trottine piano, piano, tant que l'exige la longueur du chemin»*[1].

État des routes

Des routes au Mont-Liban, il n'y en avait point. On ne pouvait circuler que par des sentiers muletiers et étroits, souvent fort dangereux, qui serpentent entre des précipices continuels. Dans ce pays montagneux, c'est partout des sommets élevés qu'il faut escalader et des pentes rapides qu'il faut descendre avec mille dangers. Tous les voyageurs se plaignent des difficultés que présentent ces sentiers; *«Dans les Alpes,* écrit Mislin, des chemins comme ceux que nous parcourons seraient abandonnés aux chasseurs de chamois; ici ce sont les seules voies de communication entre deux pays»[2].

Les voyageurs répriment un sentiment de crainte, en suivant sur des mulets ou des chevaux les escarpements les plus périlleux, rampes d'escalier raides et tortueuses; crainte fondée, car il se passait souvent dans les caravanes des incidents fâcheux. Il arrive que la monture tombe dans un trou ou renverse son cavalier. Lamartine, de Géramb et Mislin rapportent qu'un légat du Saint-Siège périt aux environs d'Antoura, lorsqu'il fut jeté, par un faux pas de son cheval, au fond de l'abîme. La vicomtesse de Piolant rappelle la chute du drogman de sa caravane et de son cheval, sur une passerelle branlante au nord du pays. Pour prévenir ces accidents, les voyageurs prennent souvent le parti de descendre à pied les pentes trop difficiles.

Même à la fin du siècle, les voyageurs des années 1880-1882 ne rencontrent au Mont-Liban qu'un trançon unique et inachevé de routes carrosables, à l'entrée du village de Ghazir. Une seule grande artère est mentionnée, c'est la route directe de Beyrouth à Damas qui côtoie le

(1) Bart (F.), **Le Mont Liban,** op. cit, pp. 17-18.
(2) Mislin (Jacob), **Les Saints Lieux,** Lecoffre, Paris, 1858, 2 tomes, t. I, p. 174.

Mont-Liban sans pour autant le traverser. À l'unanimité, les voyageurs font l'éloge de cette route carrossable, payante, bien entretenue, d'ailleurs *«exemple unique dans tout l'Empire ottoman»*. Inspecteurs et régularité des parcours font de cette route la voie empruntée par les voyageurs pour gagner, à partir de Beyrouth, Damas et la Syrie.

Hébergement et hospitalité

Au Mont-Liban, point d'auberges non plus. Jusqu'à la fin du XIXème siècle, les voyageurs ne pouvaient que recourir à l'hospitalité des particuliers ou des couvents, ou bien dormir dans des campements. Souvent, les voyageurs qui s'adressaient aux familles riches ou notables du pays avec des lettres de recommandation, se voyaient attribuer l'hospitalité la meilleure, un bon lit et une nourriture apprêtée à l'usage du pays. Dans les maisons pauvres ou modestes, le voyageur se voyait aussi attribuer un coin d'une chambre à coucher commune à tous les membres de la famille si c'est l'hiver, et la terrasse de la maison par le beau temps.

Dans les couvents, l'hospitalité est également toute particulière. Les Franciscains, les Lazaristes, les Jésuites sont tous hospitaliers. Même dans les retraites les plus pauvres du clergé maronite, l'accueil est ravissant. Dailleurs, dans tous les récits de voyage, c'est un concert de louanges à l'adresse de l'hospitalité libanaise.

Itinéraires

Inclus dans le pèlerinage en Terre sainte, le Mont-Liban pouvait donner lieu à plusieurs itinéraires, suivant les escales, les passages par terre ou par mer des voyageurs occidentaux. Le voyageur, touriste ou pèlerin venu au Mont-Liban, rêve de voir les Cèdres, curiosité religieuse et historique de grande importance dans ce pays. Toujours dans la partie septentrionale du Liban, le voyageur passe par Ehden et visite la Vallée Sainte, premier berceau des Maronites. Au Kesrouan, les étapes sont surtout les couvents catholiques à Ghazir, Antoura et Harissa. Dans le sud du Mont-Liban, et seulement dans la première moitié du XIXème siècle, la visite de l'émir Béchir le Grand dans son palais de Beit-eddine et celle de Lady Esther Stanhope, nièce du ministre anglais Pitt, dans sa résidence de Djoun, était particulièrement recherchée par les voyageurs

occidentaux. Cependant on remarque l'étendue et la variété de la plupart des itinéraires: autant d'itinéraires que de voyageurs.

En 1832-1833, Alphonse de Lamartine, lors de son célèbre voyage en Orient, ne s'écartera du littoral que pour visiter Lady Stanhope, l'émir Béchir, Antoura, puis remonter le cours de la Kadicha et vénérer de loin *«Les cèdres de Salomon»*.

En 1848, Jacob Mislin fait l'itinéraire des monts. Cahotant de monts en vals, il visite le Kesrouan, escalade le pays du *«djourd»* de la région de Gbeil pour atteindre par la suite les villages haut perchés du Liban nord, Quannoubine, et les Cèdres.

En 1850, Gustave Flaubert, après avoir visité la Terre Sainte et la Syrie, au terme de son périple levantin, arrive aux Cèdres en passant par Baalbek et Deir-el-Ahmar et redescend vers Tripoli, après une halte à Ehden. De Tripoli à Beyrouth, le retour s'effectue très vite, un jour et une nuit, le voyageur devant prendre, tout de suite après, le paquebot pour Chypre et Rhodes.

Joseph d'Estourmel, voyageant entre 1832 et 1837, part de Beyrouth et ne mentionne du Kesrouan que le village de Ghazir où il est reçu en *«émir»*. Puis, tout de suite, il gagne la ville de Tripoli et de là, la Vallée Sainte à travers le village d'Amioun dans le district du Koura. Il visite aussi Ehden, Bécharreh et les Cèdres. De là, il descend vers la plaine de Baalbeck, d'où il se dirige vers Damas.

Ernest Renan, en 1860-1861, ne se borne pas aux villes côtières de Gbeil, Saîda et Tyr où avaient lieu les fouilles. Savant et archéologue, il parcourt les replis du Mont-Liban, fait le tour de tous les villages de la région de Gbeil: Machnaka, Michmich, Jrapta, Djej, Tartedj, Tannourine, Deir-Houb, Douma, Toula..., les hauteurs du Kesrouan et du Metn, remonte vers le nord juqu'aux Cèdres puis redescend jusqu'à Amchit à travers Kousba et Bziza.

La vicomtesse de Piolant fera un itinéraire religieux dont les étapes principales seront les églises, les couvents et les monastères. Sur la route des Cèdres, elle visite: Bekerké, le couvent des Capucins à Ghazir, Diman, résidence d'été du patriarcat maronite et d'autres monastères et églises.

En 1880, Louis Lortet fera l'itinéraire d'une région très délimitée du

Mont-Liban: Gbeil, la vallée de Nahr-Ibrahim, Afka, Meirouba, Antoura et la Grotte du Nahr-el-Kelb.

L'itinéraire le plus complet est celui effectué par le père Joseph Goudard en 1898 puis en 1902. Il fait le tour des centres de dévotion, des églises réputées miraculeuses et le lecteur ne peut qu'admirer son courage pour avoir parcouru les villages les plus ignorés des voyageurs européens, les plus retirés dans les gorges profondes du Mont-Liban, et dont il rendra compte au lecteur dans *La Sainte Vierge au Liban.*

Ainisi, en l'absence de routes, les voyageurs évoluaient au Mont-Liban au gré de leurs goûts et de leurs lectures. Parfois aussi ils devaient se plier à des contraintes de temps ou de santé et tenir compte des conseils de leurs guides et muletiers.

Conclusion

Les voyageurs du Mont-Liban sont les témoins d'une terre, dont l'image qui nous est restée est en grande partie celle qu'ils ont tracée. Les centaines de témoignages qu'ils ont laissés sur les aspects de la réalité qu'ils ont découvertes sont d'un précieux concours pour la reconstruction de la vie sociale, familiale, religieuse, politique et économique du pays.

Le Liban au XIX siècle à travers Le Livre de David Urquhart The Lebanon: a history and a diary

Dr. Souad Slim(*)

Le livre que David Urquhart nous a laissé sur le Liban du XIX° siècle constitue un témoignage très important sur ce pays à une époque cruciale de son histoire. Il nous est apparu comme étant l'orientaliste, ou le voyageur le plus objectif de l'ensemble des occidentaux qui ont visité la région à cette époque. Son attitude critique à l'égard de la politique orientale de son pays se manifeste par les remontrances qu'il adresse aux consuls anglais chargés d'appliquer les mesures et les décisions prises par la diplomatie britannique. Son œuvre est un mélange d'histoire et de géographie de ce pays. Les événements historiques dont il nous fait le récit sont intercalés de description de la nature du Liban et des régions libanaises qu'il a visitées. Les chapitres d'histoire sont suivis de descriptions des régions et de descriptions anthropologiques d'analyse des communautés. Il est inutile de préciser l'intérêt que portaient les voyageurs à la pluralité des religions et des rites pratiqués par les habitants du Mont Liban.

Une note du début du livre nous précise que ce livre est une retranscription des notes prises, par l'auteur entre 1849 et 1850 et que ces notes ont été publiées sans aucun changement ou correction de ce qui y a été décrit et prédit. Ce but s'inscrit dans la charge même de l'auteur et la fonction qui lui est confiée. En effet David Urquhart est envoyé par la chambre des communes du parlement de Londres pour se renseigner sur la réalité des événements qui se passèrent dans cette région, et surtout sur

(*) Université de Balamand

le rôle que la diplomatie britannique pouvait avoir dans leur déroulement. Cette époque était celle de la Qa'immaqamiyya qui opéra la partition entre le nord du Mont-Liban gouverné par les maronites et le sud gouverné par les druzes. Cette période entre 1845 et 1860 fut précédée par les conflits confessionnels de 1841 et 1845 entre ces deux communautés; et suivie par les massacres de 1860 qui provoquèrent l'intervention de l'armée française dans la Montagne.

Cette profusion d'évènements dans un empire Ottoman en décadence amena les puissances européennes à intervenir et à envenimer les conflits en cours et même à en provoquer de nouveaux. Ces interventions favorisées par les accords des capitulations amenèrent les européens, diplomates, voyageurs, missionnaires, commerçants à venir en Orient. Qu'ils soient investis de missions précises ou simplement de leur goût pour l'aventure et leur amour du voyage.

Le point essentiel qui transparaît de l'œuvre de David Urquhart «The Lebanon a history and a Diary», semble être son émerveillement et sa surprise de la pluralité des peuples et des religions qui se sont imbriqués au Liban. Dans les chapitres qu'il consacre à l'histoire et qui sont au nombre de seize nous débutons avec la période médiévale. L'histoire de chaque tranche chronologique est accompagnée de l'histoire de l'arrivée d'une des communautés religieuses venues s'installer au Mont-Liban à travers les siècles. Maronites, Druzes, Chiites viennent trouver refuge au Liban à différentes périodes de leur histoire. Les chapitres ainsi arrivent en couple, l'un pour relater le récit des événements, l'autre pour décrire et analyser l'histoire de la communauté dont l'arrivée au Mont-Liban coïncide avec le déroulement de ces évènements ou est provoquée par cette même conjoncture. Ainsi pour les chapitres 4 et 5 concernant l'histoire, l'arrivée des maradas et des maronites et l'élection du patriarche est suivie d'un chapitre sur l'histoire des relations des maronites avec les byzantins et les caliphes arabes (tome I, p. 23 et 29). Le chapitre sur l'entrée de la communauté druze au Liban est suivi du chapitre relatant leur politique de neutralité à l'égard des croisades (tome I, chapitre 6 et 7).

Dans son journal c'est dans leur cadre de vie et dans leur milieu géographique que Urquhart nous entretient des différents groupes

communautaires. Il inaugure la géopolitique avant son temps et nous donne une vision géographique de l'histoire et une approche historique de la géographie. C'est en parlant de la ville de Tyr qu'il aborde le sujet des Chiites qu'il appelle les Metouali (tome II, chapitre VII - VIII).

Ce dédoublement des chapitres nous le retrouvons aussi dans les autres chapitres relevant de son journal. La visite du Sheykh Said Jumblat (chapitre 1) est suivie d'un chapitre décrivant sa demeure et sa fonction dans l'élaboration du cadastre dans le pays (tome II, p. 183 et 215).

Ainsi pour Urquhart l'histoire du Liban est une histoire des communautés. C'est l'historie de la montagne refuge des minorités. Une montagne forgée et sculptée en terrasses où les cultures de la trilogie méditerranéenne: blé, oliviers et vignobles existaient depuis des temps immémoriaux. Ces cultures furent abandonnées au profit de la culture du mûrier.

L'auteur avance deux raisons: La première étant les prix élevés de la soie sur les marchés européens, la deuxième raison de ce changement étant la facilité d'irrigation des terrasses qui n'était d'aucun avantage pour les cultures de l'olivier et des vignobles. Ces cultures essentiellement destinées à l'exportation faisaient du Liban un pays dont le commerce était florissant. Ils étaient la source d'une rentrée importante de numéraire dans le pays. La rentabilité des douanes de la Syrie étant bien connue depuis l'époque de Justinien.

Dans ce cadre les terrasses de la montagne ont joué un grand rôle tant au niveau économique qu'historique. En assurant un revenu important en numéraire à leurs habitants, ces cultures ont aussi laissé aux chefs de ces districts une certaine marge de manœuvre dans la gestion des affaires de leur pays. Mais l'envers de la médaille et le désavantage de cette autonomie relative furent les perpétuelles luttes et concurrences entre les fermiers de l'impôt et les gouverneurs du Mont-Liban. Ce qui amena une mise à l'enchère et une augmentation du montant du tribut payé par la Montagne.

Le problème essentiel posé par David Urquhart se trouve être celui des capitulations. Il s'agit de la protection des minorités religieuses par les

puissances européennes. Ce système qui était à l'origine un accord commercial permettait à un état européen, en l'occurrence la France, d'arborer le pavillon français et de faire profiter ses sujets d'un droit d'exterritorialité au niveau judiciaire.

Ces accords qui étaient considérés comme la marque de la puissance ottomane vont devenir avec le déclin de l'empire un élément d'affaiblissement et un moyen d'ingérence des puissances européennes dans les affaires intérieures de l'empire ottoman: la Grande Bretagne, la France, la Prusse et la Russie avaient leurs mots à dire dans la gestion des affaires mêmes celles considérées comme administratives. Ces puissances européennes vont étendre le droit d'exterritorialité aux populations locales et s'octroyer le droit de protéger les minorités religieuses de la Montagne. Ainsi la France va s'arroger le droit de protéger les maronites, la Russie va protéger les grecs orthodoxes, l'Autriche réclamera la protection des grecs-catholiques. Les protestants nouvellement arrivés en orient n'étaient pas encore assez nombreux pour les Anglais qui se proclamèrent protecteurs des druzes.

Dans sa mission au Mont-Liban Urquhart essaie de dissuader les maronites d'avoir recours à la protection française. Dans un entretien avec le colonel Rose le Patriarche maronite l'assure de ne pas avoir recours à la protection française si l'Angleterre n'accordait pas soutien et aide aux druzes de la Montagne. Mais la réponse de Rose s'était faite sèche et définitive: «Jamais les maronites ne pourront se passer de la protection française».

La protection mutuelle des communautés religieuses par les puissances ennemies ne pouvait mener qu'à un engrenage de la haine et de la violence. Urquhart cite Sir Straford Cunnings dans son rapport pour dire que durant 800 ans les rivalités religieuses et la rancœur entre les communautés étaient inconnues; elles furent introduites par les agents des gouvernements européens non pas à travers le fanatisme mais sous le masque du fanatisme pour voiler leurs ambitions et leurs intérêts (vol. II, p. 435). L'auteur discute aussi du sujet de la protection des minorités par les puissances européennes avec les moines du monastère St. Jean qui lui demandent innocemmemt si les ottomans avaient en contrepartie le droit de protection des musulmans des Indes qui étaient déjà à cette époque colonisés par les britanniques. Et il était évident pour ces moines que la

protection des minorités en orient par les puissances européennes était devenue inutile car elles se neutralisaient mutuellement et les habitants finissaient par être victimes de ce jeu diplomatique et de ces luttes d'influence dans la politique étrangère.

Un thème tout aussi crucial est traité par David Urquhart dans son journal relatant ses observations et ses impressions de voyage. Il s'agit du régime politique proposé par les puissances européennes pour régler les problèmes du gouvernement du Mont-Liban et pacifier les conflits entre druzes et maronites. Ce nouveau régime politique qui a partagé le gouvernement de la Montagne entre Druzes et Maronites, a laissé insoluble le problème des districts mixtes dans les différentes régions. Ainsi Urquhart note que ce régime est l'œuvre des cinq puissances qui dès le départ étaient conscientes des difficultés que l'exécution de leur plan allait rencontrer. Dans une lettre envoyée par Lord Cowley à Mr. Guizot en Juillet 1844, il est précisé que les puissances européennes étaient acculées à ce choix à cause de la haine que les Ottomans avaient pour les gouverneurs de la famille Chehab. Et les Anglais conscients des défis posés par l'application de ce régime étaient prêts à l'améliorer ou à le remplacer en consultation avec les autres puissances concernées. Mais il leur semblait dangereux de renoncer à une décision adoptée solennellement par les pays européens et à laquelle ont adhéré, sauf quelques factions, les Druzes et les Maronites. Ainsi les diplomates anglais co-artisans de l'élaboration de ce régime avaient opté pour le parti du silence afin d'éviter les dangers d'une chute de ce régime. Les évènements et désordres vécus par le Mont-Liban ayant marqué l'échec du démarrage de cette expérience ont constitué une déception des espoirs que les puissances avaient investis dans cette nouvelle formule politique. Les responsables de ces évènements et de ces violences sont tout désignés. Tous les ambassadeurs et consuls européens sont unanimes dans leurs rapports pour accuser le gouvernement ottoman car tout ce qu'il fait, dit ou planifie n'a d'autre but que de fournir les preuves que le régime du Qa'immaqamiya est impossible.

Du côté des ottomans nous relevons la même attitude. Ils vont publier leur point de vue dans ce qui fut communément appelé le livre bleu (volume II p. 430). Les conclusions se résument en trois points. Les cinq états européens se sont engagés dans la déstabilisation du pays et

toute mesure visant à pacifier la région suppose une lutte contre les cinq puissances européennes. Les moyens qui pourraient rendre l'issue de cette lutte victorieuse seraient d'amener le peuple à exprimer et à présenter ses griefs d'une manière efficace et unanime. Cette dernière suggestion nous introduit dans la longue et impossible marche des ottomans dans le cadre des réformes entreprises, les Tanzimat, et leurs efforts en faveur d'un système de consultation populaire tant que ceci était dans leur intérêt. La constitution d'un parlement ottoman ne vit le jour que très brièvement avec la tentative du Destour de Midhat Pacha et plus tard après la révolution des jeunes turcs. Le Mont-Liban de la moitié du XIX siècle fut un champ d'expérience pour les nouvelles idées et les transformations entreprises par les ottomans tant au niveau social que politique.

Cette conclusion des ottomans nous renseigne sur leur attitude à l'égard des pressions exercées par les puissances européennes et sur la conscience qu'ils avaient de l'importance croissante du peuple dans l'action diplomatique des consuls européens. Leur désir de se moderniser et leur souci de ressembler à l'Europe les avaient amenés à travers la série des réformes à œuvrer pour une plus grande centralisation du pouvoir et à accorder plus d'importance aux aspirations populaires dans les décisions et mesures prises en haut-lieu.

Un autre thème qui semble très grave pour l'auteur se manifeste dans la détérioration de la situation économique. Ce problème engage directement la responsabilité du gouvernement anglais. Il s'agit du traité de commerce anglais. Une conversation entre l'auteur et les moines du monastère St. Jean est très révélatrice de la situation économique qui prévalait dans le pays; elle porte sur la prospérité et le développement des échanges.

Les moines remarquaient que plus le commerce était florissant et plus les gens du pays s'appauvrissaient. Ils comparent la situation du pays à la leur et à celle de leur monastère. Autrefois leur monastère ressemblait à un petit village où tous les métiers étaient représentés. Ils produisaient eux-mêmes tout ce dont ils avaient besoin. Nourritures en tout genre étaient produites par les terres, laine et soie étaient filées sur place, même le cuir des chaussures était fourni par les peaux des troupeaux. Au moment où les moines recevaient le voyageur anglais, ils

se plaignaient de leur inaction et de leur paresse. Ceux-ci autrefois si habiles et si actifs et besogneux avaient réduits leurs activités manuelles à tricoter leurs soquettes. De même le pays dont le commerce est devenu florissant voit ses habitants réduits à la paresse et à l'inactivité.

La responsabilité de cette nouvelle situation incombe selon Urquhart au traité de commerce anglais qui suppose pour la porte ottomane l'imposition de taxes exorbitantes allant de 25 à 90% sur les produits destinés à l'exportation et le commerce intérieur. Ce traité n'est autre que l'acord de Balta-Liman conclu en 1839 pour amener les anglais à s'allier à l'empire ottoman et l'aider à récupérer la Palestine, la Syrie et le Liban occupés depuis 1832 par Muhammad Ali. Cet accord qui à l'origine n'incluait pas le Liban allait détruire l'artisanat local et l'industrie des provinces ottomanes. Urquhart nous dit que sa seule annonce allait ouvrir une période d'agonie pour l'economie du Liban. Bien qu'initié par l'Angleterre, ce traité va s'étendre à toutes les puissances européennes. Le livre bleu publié par la Turquie précisait que les diplomates anglais étaient parfaitement conscients des conséquences qu'allait avoir l'exécution de ce traité et qu'ils ont sciemment empêché le gouvernement ottoman de l'amender, de même qu'ils réussirent à intercepter la pétition que le peuple avait signé pour l'annulation de ce traité. Pour expliquer l'importance et la gravité de cet accord, Urquhart demande aux lecteurs d'imaginer cette même situation appliquée à l'Angleterre. Il propose cyniquement et ironiquement de supposer l'imposition de droits de douanes aussi exhorbitants imposés sur le cotton exporté de Manchester à Londres ou sur la laine envoyée de Leeds à Manchester ou sur le lin envoyé de Belfast à Birmingham ou sur les machines... Urquhart insiste pour mieux faire comprendre les désastres causés par l'accord commercial et donne l'exemple de l'Angleterre où les puissances étrangères obligeraient les Britanniques à une partition de l'Irlande entre les Anglicans et les Catholiques. Il va jusqu'à critiquer les diplomates anglais comme Rose qui considère: «les maronites susceptibles et trop proches de leurs intérêts».

Urquhart nous renseigne surtout sur l'animosité et la concurrence qui existaient entre les consuls anglais complotant en Orient. Il s'agit de Rose et Woods qui attribuaient chacun à sa façon les méfaits de la politique de leur pays à la perfidie et la vilenie de l'empire ottoman et ses

agents. Chacun de ces consuls a ses plans et ses vues et considère avec horreur les plans de l'autre. Il détracte avec véhémence ceux de son collègue en prévenant ses supérieurs que ces agissements vont plonger le pays dans la ruine et le sang et chacun de préciser que les projets de son collègue n'ont d'autre but que de favoriser l'oppression ottomane.

Cette dualité serait-elle le résultat d'intérêts économiques contradictoires en Angleterre même. Les sociétés de commerce elles-mêmes finançaient l'envoi des diplomates britanniques dans les villes où leurs affaires les appelaient, Cette divergence politique entre les ambassadeurs ou consuls d'un même pays resulterait alors d'une simple concurrence économique entre les différentes compagnies.

Le reproche un peu cynique qu'Urquhart adresse à la population libanaise, c'est de ne pas pouvoir assimiler et comprendre la politique anglaise fruit du progrés de la civilisation dans ce pays. Ils n'arrivent pas à faire la distinction entre la moralité privée et publique. Ils n'ont pas encore compris que la politique n'est qu'un ensemble de complots pour assurer de l'amusement et du loisir au peuple. Ils ne réalisent pas que de telles actions soient l'oeuvre d'hommes éminents et connus qui instruisent l'Europe et le monde en morale et en éthique.

Cette ignorance des libanais à l'égard des règles de la politique étrangère britannique les réduit en victimes du rôle que les puissances européennes jouent sans aucun égard ou respect que celui qu'ils doivent à leurs propres intérêts. Ainsi ces victimes ne sont pas responsables de ce qui leur arrive, ils subissent les retombées des évènements et des décisions prises ailleurs. Urquhart rapporte et décrit les prises de positions des différentes communautés libanaises comme une suite de réactions en chaine provoquées par les mesures prises tant de la part des ottomans que de la part des puissances européennes. Cette attitude de considérer les libanais comme des victimes a été adoptée par d'éminentes personnalités qui dans la guerre civile du Liban ont essentiellement insisté sur les facteurs extérieurs (Une Guerre pour les Autres de Ghassan Tuéni).

Cette attitude développée par David Urquhart sur la situation du Liban au XIX siècle et les évènements qu'il a vécu est très révélatrice de la politique que l'Angleterre adopta à cette époque à l'égard de ses colonies. Cette puissance que l'on dit respectueuse des droits des peuples laissait une large marge d'autonomie aux populations colonisées. Le père Sélim

Abou dans son livre Culture et Droits de l'Homme estime que l'Angleterre n'a pas cherché à imposer sa culture ou ses valeurs aux autochtones. Certains chercheurs et spécialistes loin de trouver dans cette politique une option de démocratie et de respect du droit des peuples à disposer d'eux-mêmes y voyaient la révélation d'une attitude hautaine et méprisante: les peuples africains ou asiatiques n'étaient pas capables d'assimiler la culture anglaise ou européenne et d'en adopter les valeurs. Ces peuples, comme les libanais que Urquhart critique, sont incapables d'adopter les cultures européennes supérieures à la leur, ou même d'en apprécier les méfaits ou les bienfaits. Ce sont des victimes qui comme les libanais n'ont aucun rôle à jouer. Il leur suffit d'être des victimes qui subissent leur histoire au lieu de la faire.

رحلة في لبنان
في الثلث الاول من القرن التاسع عشر(*)
جون كارن

د. فيغان العلم(**)

تمهيد

يقع النص الاصلي باللغة الانكليزية في ثلاثة اجزاء بعنوان «سوريا، الارض المقدسة، آسيا الصغرى و. . .» نشرته دار فيشر في لندن سنة ١٨٣٦ ويضم بين طياتهماية وعشرين رسما وخريطتين، نال لبنان ما يقارب الاربعين وساهم بوضعها ثلاثة فنانين رافقوا المؤلف في رحلته[١]. ميزة الكتاب الاساسية هي مقاربة المواضيع مشفوعاً بالرسوم اليدوية لمشاهد طبيعية ومواقع مختارة ذات دلالات متنوعة انتقاها المؤلف باتقان على ضؤ اهميتها التاريخية والآنية في ميادين الاجتماع والدين والسياسة وكرسها عناوين لفصول كتابه[٢]. للكاتب هدف مزدوج من زيارته للبنان والاراضي المقدسة: الاول لينقل

(*) هذه المقالة هي عن مقاطع من دراسة كاملة بصدد التهيئة للنشر.

(**) أستاذ في قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الفرع الثاني، الجامعة اللبنانية.

(١) CARNE, John; Syria, the Holy Land, Asia Minor, & c... illustrated in a series of views drawn from nature by William Henry Bartlett, Thomas Allon and William Purser, with descriptions of the plates, London, Fisher, Son & co. 1836. First Edition.

(٢) يستفيض المؤلف بالتعليق على الاماكن التي زارها من سوريا الى الاراضي المقدسة في فلسطين الى لبنان ولكن دراستنا تقتصر على المناطق اللبنانية باعتبارها عنوان المؤتمر السنوي في قسم التاريخ في كلية الاداب ـ الفنار حول «لبنان في كتابات الرحالة» ايار ٢٠٠٣.

للغرب عامة، وللحركات والجمعيات الدينية البروتستنتية بخاصة، صورة حية عن اوضاع الشرق واحواله وعن لبنان، مع تحديد امكانات العمل فيه تبشيرا وتعليما وتسويق هذه الصورة باللجؤ الى الرسوم المختارة. الثاني ثانوي لانه شخصي الى حد بعيد، جاء يرضي رغبات وميول ويلبي حاجات متعددة من حب الاطلاع والاختلاط والتعرف على البلدان والشعوب. لتحقيق هذين البعدين، استفاض جون كارن[١]، الفنان، المتدين، المثقف والملم بتاريخ المنطقة، بتصوير ظاهرتين عامتين من خلال الاماكن التي زارها وترجمتها بسلسلة من المشاهد والرسوم شكلت محور كتابه. الاولى: ظاهرة الحياة اليومية من تحديد لخيارات السكن ساحلا وجبلا والمفاضلة فيما بينها من خلال اختباراته الشخصية ورسم صفات وعادات وتقاليد الشرقيين في الضيافة والمأكل والمشرب والزي؛ الثانية: المشهد الاقتصادي التقليدي في المدن والارياف، ملمحا الى مؤشرات حركة نشطة في بيروت، مبينا تفاصيل حركة الصناعة والتبادل التجاري والاوضاع المعيشية ويختم مع ظاهرة وجود الاجانب في اماكن مختلفة ولاهداف متباينة.

بين هذين المشهدين الوصفي العام والاقتصادي الخاص، ينفرد كارن مع قلة من الرحالة بتقويّم الحياة الدينية في الشرق وتفصيّل نظام حياة رجال الدين والتمييّز بين كهنة الرعايا والاساقفة والرهبان فنقل صورة حية عن الاديرة ووظائفها ولكنه أنتقد وبقساوة بالغة، واحيانا بتجنٍ، رهبان بعض الاديرة والبطريرك لعلاقتهم المباشرة بقضية اسعد الشدياق وغيرها، كما لم يخف اطلاقا تهكمه وسخريته من بعض الطقوس والعبادات الدينية المشرقية وصولا الى حد التشكيك بصحة بعض المعتقدات.

(١) ثبتت ثقافته والمامه بالتاريخ المحلي من استشهاداته المتكررة ببعض الرحالة امثال: لامرتين، بوكوك، دنديني، بركهاردت، موندريل، سترابون، فولني فضلا عن الاطلاع الواسع على تاريخ امثال: اسعد الشدياق، عبدالله الزاخر، بشير شهاب، بشير جنبلاط، يوسف السمعاني والليدي استير استنهوب. . .

I ـ الرسوم والمشاهد عناوين بارزة لموضوعات فصول الكتاب.

سلك المؤلف ومرافقوه خلال تنقلاتهم في لبنان، للتعرف على طبيعته الجغرافية وعادات شعبه وتقاليدهم واحوال البلاد وشجونها ومن كافة الجوانب الحياتية اليومية، ثلاثة اتجاهات مختلفة، انطلاقا من بيروت، على الشكل التالي: الاول، بيروت ـ طرابلس ـ الارز؛ الثاني: بيروت ـ دير القمر ـ بعلبك ـ دمشق؛ الثالث: بيروت ـ صيدا ـ الاراضي المقدسة (فلسطين).

المسار الاول: بيروت ـ طرابلس ـ الارز.

ينطلق المؤلف من مشهد رأس بيروت[١] ليرسم في ذهن القارئ صورة المدينة جغرافيا واقتصاديا واجتماعيا وليقارنها لاحقا مع طرابلس ودمشق. في الجغرافيا الطبيعية يتكلم عن المشاهد الخلابة من منظر الخليج والبحر من جهة والجبال والهضاب من جهة ثانية، المناخ المعتدل، المساكن المتنوعة البعيدة عن بعضها البعض، لكن تبقى بيروت برأيه مدينة «قذرة ممجوجة» اذا ما قورنت بطرابلس «الحسنة البناء» ونهر قاديشا الذي يزيد من جمالها وروعتها. تداخل الجغرافيا بالاقتصاد مكّن المؤلف من ابراز دور المدينة الاقتصادي بأوجهه المتنوعة: التجاري انطلاقا من اتصالها المباشر باوروبا عبر مرفئها الذي يعتبر «بوابة الشرق» لذلك رغبها التجار فضلا عن القناصل ووكلاء الدول الاوروبية، ظاهرة ارتفاع بدلات السكن للمنازل المريحة[٢]،

(١) ينقل الرسم فيلا يقطنها القنصل البريطاني السابق في سوريا المستر فارن وبدت سلسلة جبال لبنان البعيدة فضلا عن منازل خارج الاسوار هي ملك المرسلين الاميركان (الجامعة الاميركية) والى اليمين برج المحجر الصحي الذي بناه حديثا ابراهيم باشا كما ظهرت في مقدم الرسم نساء بزي لبناني تقليدي الى جانب اشجار «الصبّير». جون كارن ، ص. ٩ .

(٢) يعطي المؤلف لائحة ببدلات ايجار المنازل ويربط ارتفاع بدلات الايجار بكثرة الفرنسيين والاجانب الذين نزلوا المدينة. كارن، ص. ١٤ .

تفاصيل اسعار المعيشة[١]. اجتماعيا، يستفيض جون كارن بالثناء على بيروت «الموضع الوحيد الذي اقمنا فيه بدون ضجر او شعور بالسأم»، «انها اوفق مكان يتخذه المرء مسكنا في لبنان»، تتوفر فيها كل وسائل الراحة واسباب البهجة ومتطلبات العمل لذلك يقيم فيها عدد موفور من التجار بالاضافة الى القناصل والوكلاء الغربيين من شتى الامم يعيشون عيشة بذخ في منازل مريحة وحياة اجتماعية ودية[٢] وقد تأمنت لهم كل الحاجيات اليومية فضلا عن الكماليات وصولا الى الخبز الفرنسي «الترف النادر في الشرق». ينهي الصورة بانطباع خاص استنتجه من اقامته في بيروت فمنح المدينة افضلية لا بل امتيازا على سائر مدن سوريا هو «حرية العبادات الدينية وامتيازاتها».

من بيروت الى نهر الكلب يقدم ايضاحات تاريخية قيمّة عن النهر والطريق التي بمحاذاته «جادة انطونيانا»، الحد الفاصل بين بطريركتي اورشليم وانطاكية. من نهر الكلب الى خليج جونية وصف تداخل البحر بالجبل، تحوطه القرى والاديرة على مدارج المنحدرات، الى قلعة المسيلحة «قلعة قوطية» (عهد الفرنجة) على شكل صخر عامودي، يستخدمها المسافرون الذين يدركهم الليل، وقد فضلّه على الكثير من الامكنة «فليس من رب منزل يلقاه في الصباح، وعلى شفتيه اللطف، ولكن في حدقتيه انتظار الهدية... وليس من شيخ يطالبه بمطلب ملح ربما جاز تخفيضه، لكن يستحيل الهرب منه...»[٣].

يعتبر المؤلف «طرابلس وقلعتها» من اجمل مدن لبنان الساحلية، بيوتها من حجر ذات طبقتين، شوارعها ضيقة قاتمة بالغة الطول؛ تجمع كل ميزات الراحة التي تغري الزائر الذي يلتمس التمتع بالمناظر فيأخذها مقرا

(١) يحدد اسعار: الخبز والنبيذ واللحوم والزبدة ... كارن، ص. ١٤ .

(٢) يعقد الاثرياء وكبار القوم مع القناصل والتجار والوكلاء الاوروبيين المآدب واللقاءات.

(٣) جون كارن ، المرجع السابق، ص. ٢٦

لاستجمامه[١]. رأى مظهر قلعتها الصليبية كمظهر احدى قلاع الاشراف البارونات عهد الاقطاعيين ونادرا ما يدخلها السائح اذ «يكتفي بنظرة عابرة على منظرها الخارجي الكالح»[٢]. من طرابلس الى الميناء حيث شاهد ستة ابراج مربعة منفصلة تقوم على البحر مباشرة، اعدت لاغراض دفاعية.

في أهدن خصص كارن «الكنيسة وبيت الشيخ» عنوانا مستقلا لكنه اهمل وصف الكنيسة الا بمناسبة واحدة هي تلاوة الحرم بحق صديقه المبشر البروتستنتي الانكليزي. بالمقابل يسترسل بالكلام عن بيت الشيخ «ملجأ المسافر»، «الصرح الانيق المتين والمهيب»، «ذات الطابع الاقطاعي»، وعن سيده و«حفاوته بالضيف» و«نبل اخلاقه». اما المحلة المجاورة (اهدن) فتشتهر بزراعة التوت[٣] لتربية دود القز وشتى انواع الاشجار المثمرة[٤] كما تحفل بمقدار كبير من الاعشاب والازهار العطرة.

بعد اهدن جاء دور بشري والجبة فقسم هذا المحور الى اربعة عناوين: الاول لبشري، الثاني للمنطقة وتحديدا الوادي، الثالث للارز والرابع للغابة. قدّم صورة البلدة التقليدية كنموذج عن الحياة القروية وسهرات حول نار الموقدة[٥] وصورة الكاهن وعلاقته بالرعية[٦].

---

(١) يلحظ وجود مجموعة من العائلات الفرنسية التي تسنوطن المدينة وتهتم بفروع مختلفة من صناعة نسج الحرير.

(٢) لم يدخل القلعة لذلك لم يصفها بدقة من الداخل واكتفى بالمشهد الخارجي. نفهم هذا التوجه من المؤلف الذي لم يكن سائحا بقدر ما كان كشافا للبلاد واحوالها ليرسم صورة حقيقية تسهل عمل الارساليات والبعثات التبشيرية البروتستنتية.

(٣) هذه اشارة الى حجم منتوج الحرير واهميته في الدورة الاقتصادية في البلدة.

(٤) اشتهرت بين الفاكهة الخوخ الخمري والعنب الذي يعطي اكثر من اثني عشر صنفا من الخمور.

(٥) عندما يقبل المساء، ينضم (المسافر) الى اسرة الشيخ حول نار من حطب الجزل، ثم يأتي بالجدي او طير الدجاج او القنيص مشفوعا بخمور لبنان السخية. كارن، ص. ٥٦

(٦) «التقينا كاهنا جبليا بقلنسوتة وجلبابه ولحيته، راح يرشدنا الى الطريق، يركب بغله، الذي ألف كسيده اجتياز المهاوي والاودية. كان صاحبنا في طريقه الى بيته، حيث تنتظره زوجته،

يستفيض المؤلف بسرد تاريخ الارز من عهد التوراة وبكثير من الدقة سندا للتقاليد المروية، هنا يتداخل التاريخ بالموقع الخلاب بالوجدانيات بتدين الكاتب وبروتستنتيته بالاستشهادات التوراتية من سفر حزقيال[١]. في الارز استشهد المؤلف ببوكوك ودنديني ولامرتين وبركهاردت و موندريل وينهي زيارته بالقداس السنوي الذي يحييه اهالي بشري ويترأسه البطريرك ويحضره القنصل الفرنسي والموفد البطريركي والزوار الاجانب الذين تصدف زيارتهم للمنطقة وموعد القداس.

العنوان الاخير من المسار الاول كان دير مار انطونيوس قزحيا، يقارنه مع دير سيدة قنوبين الذي لا يبعد عنه كثيرا ويفوقه متانة، حيث يقيم بطريرك الموارنة، فيما يمتاز دير مار انطونيوس بالوحشة والعزلة: «انه دير للتوبة والتفكير لا للمرح والحبور»[٢]. يقدم وصفا دقيقا لنظام الحياة اليومي للرهبان من الصباح حتى المبيت، من الاكل الى العمل في الحقل والدير الى نظام الحياة الروحية ومحطات الصلاة ويعلق عليها فتبرز خلفياته ومعتقداته الدينية البروتستانتية. ينسب شهرة الديرين الى الماضي البعيد، مار انطونيوس الذي يقصده المرضى (المجانين) للشفاء وقنوبين للتقشف والزهد والانقطاع للحياة القاسية ومقارنته بدير جمعية «لاتراب» (La Trappe) في فرنسا.

المسار الثاني: بيروت ـ الشوفين ـ بعلبك.

في طريقه من بيروت باتجاه الشوف، يصف الرحالة كارن ظروف الناس

= وسط قريته التي تقطنها رعية، يعايشها معايشة اسرة واحدة كبيرة، ترحب بعودة راعيها. كان كوخه وضيعا، لم يكن في تلك الضعة فقر ولا عوز ولا حرمان». كارن، ص. ٩١.

(١) «ارزة بلبنان بهجة الافنان، شامخة القوام...، وكل شجر في جنة الله لم يماثلها في بهجته... ينزل من ظلها جميع شعوب الارض». كارن ، ص. ٩٧.

(٢) «في لبنان اديرة عديدة ينزل فيها الضيف برفاهية ، فعلام ينزل فيه؟ انه دير للتوبة... لا للمرح والحبور». كارن، ص. ٦٠.

المعيشية وازيائهم، يقارن بين مزارعي الشمال والشوف، يروي قصة مشاحنة حيّة بين كاهنين ماروني وارثوذكسي بمناسبة وليمة غداء[1] مبينا اصناف المأكولات والخدمة الرديئة وتدافع الخدم، يستطرد الى مطبعة ديرمار يوحنا وزيارة فولني لها ودور عبدالله الزاخر البارز باطلاقها وآلية العمل فيها. منها ينتقل الى الدير ليعطي صورة حية عن نظام الرهبانية الباسيلية في العمل والصلاة والمأكل والمنامة والملبس ووظائف الرهبان وصولا الى موازنة الدير والمطبعة. مع مشهد الخان والجسر على نهر الدامور، ينهي المؤلف بعرض رأيه برفقة الشرقي التي يصفها بالمضجرة لمحدودية المواضيع المشتركة ورفضه التحدث عن المشاعر والاحاسيس الخاصة وجهله لابواب الفنون والعلوم وتفضيله الغوص في السياسة وهو الجاهل لانظمة اوروبا ومناخها وطبائع اهلها فيختم مهللا لقرب ساعة الافتراق عن مضيفه. استغرقت الرحلة الى بيت الدين ودير القمر ما يقارب الاسبوعين في عز الشتاء تناول خلالها البلدتين بشكل عام وقصر بيت الدين بشكل خاص. كما نقل انطباعاته عن سيده، بشير الشهابي الكبير، مشيرا الى اسلوبه القمعي مع منافسيه ومعارضيه من الاقطاعيين[2]، ملمّحا الى ازدواجية مذهبه الديني[3] ومقارنا سلوكه مع سلوك ابراهيم باشا الذي حل ضيفا على دير القمر. بعدها يتحوّل كارن من رحالة الى عالم اجتماع فيصوّر حياة القرويين في البلدتين: من طباع النساء وشغفهن بالملابس والصبايا وقامتهن المديدة وازيائهن الخاصة، الى الجبليين

(١) حاول المؤلف من خلال هذه المشاحنة، التندر والاستهزاء بالكهنة الشرقيين من خلال كاهنين ماروني وارثوذكسي تبادلا التعنيف والذم وكالا لبعضهما القدح والشتائم وكادا ان يتعاركا لولا تدخل الحضور واقناع احدهما بالانسحاب. كارن، ص. ١١٨ ـ ١١٩.

(٢) «قضى على زعماء العشائر المنافسين له وعلى اولادهم بين جدران قصره... سمل عيون أمراء كثيرين وصادر املاكهم فاانتقلوا واسرهم إلى قرى لبنان النائية...»، كارن، ص. ١٣٦.

(٣) على مقربة من القصر كنيسة صغيرة... «والامير مسيحي في الجبل، ولكنه عندما يزور الباشا في عكا او في مدن الساحل، مؤمن بالنبي». كارن، ص. ١٢٧. في موضع آخر، يفيد ان المسيحيين متعلقون بالامير الذي اعتنق الدين المسيحي هو وعائلته منذ اجل طويل».

الشجعان، جيش الامير عند الملمات، الى تعداد نماذج من السكان[1]، الى الوضع المعيشي ونوعية الاعمال، مشيرا الى ظاهرة توق الحكام الشرقيين الى السلطة والمغنم[2] وغامزا من قناة زعماء الطوائف الدينية محاولا الدس والايقاع بين الدروز والمسيحيين. توقف طويلا عند مشهدين بارزين: الاول، العساكر على مدخل القصر يتأهبون للمعركة الى جانب حلفائهم المصريين بمواجهة العثمانيين؛ الثاني، المدافن وقد استشهد بكتابات رحالة سابق بركهاردت[3] (Burckhardt). اما الاسر المسيحية الثرية، فتقوم على مقابرها قبب صغيرة». فيقول عن الديانة الدرزية: «ان شطرا منها بدعة محمدية، مختلطة بطقوس زائدة ومفاهيم مستعارة من المسيحية وسط جو من الغموض والسرية...»[4]

يأخذ المؤلف رمحالا نموذجا لمعظم قرى لبنان عامة والشوف خاصة فيتطرق الى جملة موضوعات مشتركة تطال الجبل ابرزها: الطرقات، «الاقرب الى المسالك المنحوتة في الصخور منها الى الطرق، يستحيل السير عليها الا للبغال»؛ يقول عن السكان: «انهم في المألوف اهل لطف ورقة في

(١) يقول كارن، دون تحديد للمصدر، «ان المسيحيين هم الاوفر عددا بين السكان، على ان الدروز هم الاوفر غنى». كارن، ص. ١٣٣.

(٢) ان الانطباع الذي تكون لديه هو ظمأ الحكام الشرقيين للسلطة والمغنم ولا يوقف هذا الظمأ سوى الدم، : «ان مياه لبنان (رغم غزارتها) لا تستطيع ان تنقع ظمأ امرائه الى السلطة والمغنم، الدم وحده يقدر على نقع هذا الظمأ، اذن فليهرق الدم غزيرا سخيا.». كارن، ص. ١٣٦.

(٣) رحالة سويسري زار بلدان الشرق ومنها لبنان، اول اوروبي دخل عتبات المدن (الدينية) في السعودية.

(٤) توزعت خلوات الدروز على تفاوت في الجبل، وهي محجوبة عن اعين المراقبين والغرباء، فلا يؤذن لغريب ان يطلع على عبادة الدروز «السرية الغامضة وطقوسهم». «يحتفظ اصحاب هذه العقيدة بسر عقيدتهم احتفاظا شديدا، بالرغم مما لها من تأثيرات بعيدة عن ان تعزي النفس ـ تأثيرات هي أشبه بسحر على عقولهم، شأنها شأن الفرماسونية واتباعها المتشبثين بها» كارن، ص. ١٤١ ـ ١٤٢.

استقبال الغريب الذي لا يعدم فرصة مبيته تحت سقف احدهم، فتوقد له نار الحطب ثم تقدم لقمة العشاء من البيض والجبن والدجاج»؛ كما نالت المرأة القروية حيزا مهما عنده فيبدي استغرابه من تعارض ثيابها البديعة واشغالها اليومية الوضيعة.

استفاض بوصف معبر غابة ارز معاصر الشوف الذي يستحيل عبوره من بداية الشتاء حتى اواسط الربيع»؛ كما استوقفه الزعيم الدرزي في المختارة، صاحب القصر الجبلي الشاهق، الذي تعلق به اتباعه من الدروز واحبوه فنافس طويلا الامير بشير الشهابي الكبير على النفوذ والشهرة، ولكنه انتهى بمصير محزن. كذلك نالت بعلبك وآثارها حصة الاسد (خمسة فصول) تبدأ بالطريق وتاريخ المدينة واحوالها دون اغفال اهميتها التاريخية من عهد الرومان، وسقوطها امام الفتح «الاسلامي» العربي ثم احتلالها من الصليبيين ولم تنج من غزو جنود تيمورلنك بداية القرن الخامس عشر اثناء زحفه على دمشق واخيرا وقعت في قبضة بني عثمان الذين اوكلوا امرها الى ولاة دمشق وبقيت بالتناوب بينهم وبين الامراء المعنيين والشهابيين وفقا لقوة وارجحية كل من الامير والوالي حتى عهد متصرفية جبل لبنان سنة ١٨٦١. تستوقفنا في بعلبك ملاحظتان واستطراد: ظاهرة ازدياد «السياحة» (السفر) الى الشرق، مقاربة تصرف وتكيف اهالي بعلبك مع الاجانب والسياح، اما الاستطراد فيطول مخيم رأس العين وزواره من الانكليز والبلديين.

المسار الثالث: بيروت ـ صيدا وشرقها ـ صور ـ الاراضي المقدسة.

ينتقل المؤلف الى الجنوب فيزور صيدا وضواحيها، قصر «الليدي استير» في جون، مجموعة القرى والاديرة بين صيدا وصور قبل ان يزور عكا وجبل الكرمل في الاراضي المقدسة. يخص صيدا بالعلاقة الوطيدة مع الامير فخر الدين الثاني مما مكنها من لعب دور بارز في الميدان التجاري بفضل مينائها

فاعطى انطباعا انها مدينة تجارية غنية. دوّن عنها جملة محطات: محطة القوافل الموحشة، زيارة اسرة وتناول طعام العشاء الى مائدتها، المقهى الصيداوي الشهير الذي يستضيف «ألاتراك» «حسنو اللباس والهندام» ساعات طويلة من النهار مما دفعه لاصدار احكام قاسية بحق بعض الشرقيين «الشعب المتراخي اللامبالي معظم النهار. . .» يقابله مشهد فلاحي الجوار يعملون بكد وجد في الحقول والبساتين. من صيدا انتقل الى جون، الى اللايدي «استير استنهوب» وافرد لها فصلا خاصا في معرض زيارة قصرها واخر عن سيرة فخر الدين الثاني وبعض انجازاته العمرانية وعلاقاته المستحيلة مع العثمانيين واضطراره للسفر الى فلورنسا تلافيا لوقوع مواجهة لم يتهيأ بعد لها. اللافت في كتابة سيرة الامير، اطلاق جملة احكام قاسية بلغت حد التشكيك بدوره لا بل تعدتها للتحريض ودس الفرقة بينه وبين رعيته وتوسل التفسيرات الدينية الخاصة لهذه الغاية. أخيراً أطل الكاتب على صور من على هضبة تبعد مسافة ميلين فرأى ما تبقى من المدينة القديمة ومرفأها المتهدّم وصيادي الاسماك مع زوارق راسية الى جانب الانقاض؛ بالمقابل، بدت المدينة المعاصرة ذات المباني الحجرية تمتد على بعد ميل من خط الشاطئ وحولها بقايا كثيرة من الاسوار وانقاض من الابراج؛ بعدها انتقل الى مشاهد جنوبية متنوعة تفاوتت بين الساحل والجبل والداخل ومنها: قصر قديم وسط موقع موحش فوق واد عميق؛ دير للموارنة يضم رهبان، راهبات يقمن في بناء منفصل وصفهن «بالجميلات» في بناء مستقل مجاور، واسقف؛ دير آخر مجاور، رهبانه على جانب وفير من الهدوء والخشوع واسقف «من معدن اسمى وانقى» وجده شيخا مهيبا، عميق الاثر في النفس الى أبعد الحدود تلألأ في عينيه بريق من العالم الاخر الذي يقترب منه، ذكرّه بالقديس جيروم الدومينيكي.

نقلت هذه المشاهد المتنوعة صورة حيّة للطبيعة من جهة ولحياة اللبناني في المدن والارياف من جهة ثانية. فنكرر ما قاله رئيف خوري عن سطور

هذا الكتاب ورسومه «المنقولة نقلا فنيا عن امجاد الطبيعة وآثار الانسان في هذه البقاع تزيح، في الخيال، سدولا عتيقة علاها الغبار لتنبسط من وراء هذه السدول مسارح للحياة في ذلك الزمان النائي، في هذه البقاع التي هي بقاعنا. . .»[1].

II ـ صور ونماذج من المجتمع اللبناني اواسط التاسع عشر

١. مظاهر الحياة اليومية في المدن والارياف.

تعددت المظاهر التي عايشها المؤلف وتنوعت بين امكنة السكن للاجانب، احوال المدن، حياة الريف وتعداد السكان وصفات الاهالي وعاداتهم وتقاليدهم وازيائهم التقليدية ولباسهم اليومي.

* تعددت خيارات السكن بين الجودة والنظافة والفقر والوحشة والانس، فنقل الينا والى قرائه «الغربيين» مشاهداته واختباره لنماذج اقامة متناقضة خلال رحلته الاستكشافية «لبلد الارز». توزعت امكنة الاقامة بين: المساكن الخاصة عند عائلات اوروبية او في تجمعات استثنائية خاصة بهم، او عند الاهلين وتتدرج بين الثرية والمتواضعة والبسيطة؛ كما يعرّف القارئ على استضافة الاديرة المنتشرة في كل المناطق للزوار الاجانب ويطلعه على مقومات الحياة الرهبانية؛ اما الخانات العامة، وبخلاف الاديرة، توفر الانس وبعض السلوى والبهجة نظرا لموقعها داخل المدن او على اطرافها ولكنها متفاوتة الضيافة والاستقبال والنظافة ويستعاض عنها في الارياف بالاديرة او منازل المشايخ وكبار القوم. طبعا يحسم المؤلف خياره ويفضل المنازل الخاصة عند العائلات الاجنبية «اذا تيسر الامر» والا في المنازل الخاصة عند الاعيان والمشايخ حيث تتوفر وسائل الراحة فضلا عن النظافة او عند العائلات

(١) جون كارن، ص. ٥ (المقدمة).

المتوسطة في المدن. اما خياره التالي فوقع على الاديرة لانها توفر الحد الادنى من الحياة اللائقة من نظافة ووجبات غذاء بسيطة واخيرا اذا اقفلت الابواب بوجهه ولم يجد مأوى في الطبيعة من مغالاة او عرزال مهجور يلجأ الى احد الخانات.

* عن احوال المدن الساحلية يعتبر بيروت «اوفق» مكان يتخذه المرء مسكنا بسبب الموقع المطل على البحر والجبل وتوفر وسائل الراحة في المنزل واللهو خارجه؛ اما طرابلس ذات البيوت الحجرية وبخاصة «الدرويشية» على ضفة قاديشا التي توفر متطلبات الراحة تغري الغريب الذي «يلتمس العافية او المتعة» فيؤثرها على سائر المدن مقرا لاستجمامه؛ اما صيدا، فليست بالمدينة التي يتجلى فيها الترف والذوق وآثارها ضئيلة القيمة ما عدا قلعتها القديمة؛ اما صور فتخلو من «المتآرف» والملاهي، فيها حمام واحد وليس فيها «حكواتي» يزيد من المتعة لدى تدخين التبغ وشرب القهوة، كما تعدم عيون الماء ومحطات القوافل للغرباء. في حصيلة سريعة لمقاربة اولية بين المدن التي حل فيها الرحالة اثناء تجواله، يستنتج ان بيروت اطرف واوفر حياة من كل المدن بما فيها دمشق،«فلا مجال للمقارنة لان الاوروبي في دمشق، رغم انه يغرق في المناظر الجميلة بين الانهر والجنائن، لا يملك احيانا كثيرة، الا ان يقول: «انني وحيد. . . رفاقي وقومي عني بعيدون، ولا يلتفت الي انسان. . .». يخلص ان بيروت هي الموضع الوحيد الذي اقام فيه دونما ضجر او شعور بالسأم.

* عن حياة الريف يقدم لنا المؤلف صورا متكاملة ونماذج متنوعة من بشري الى زغرتا ومن دير القمر الى بيت الدين، مشاهد من الحياة القروية، الى ايام الآحّاد والاعياد، الى طبيعة المساكن وصعوبات الحياة وقساوة العيش خلال فصل الشتاء الطويل. المشهد الاول يتجلى بارتياح باد للمرء من منظر القرى اللبنانية حيث المنازل منتشرة وموزعة «كالنجوم في السماء»، والفلاحين

في حقولهم الصغيرة «التي انتزعوا ارضها من الصخر»، وقطعان الماشية ترعى ازاء النهر، وحمائم وطيور داجنة تغطي سطوح البيوت التي تنهض بينها اشجار السرو والتين والصنوبر والتوت والكرمة الى نساء واطفال في البسة مزركشة نظيفة «وصحة جيدة هي مثال العافية»[1]. من البيوت، يأخذ نموذجا متشابها من معظم القرى، فيشبّه المساكن غالبا بالاكواخ ذات السطوح المربّعة المغطاة بالتراب المنقول على الاكتاف يسوى ويرص بمحدلة حجرية منعاً لتسرب الامطار ويُزال الثلج الذي يتراكم ليلاً على الاسطح.

يقول في الحياة القروية انها تتم خارج المنزل خلال الصيف حيث «يقضون كل اوقاتهم، لا يدخلون الا لتبديل الثياب او حمل الاغراض والحاجيات ونقلها الى الخارج». اما في الشتاء، فيّحبس السكان ومعهم المسافر وراء الابواب في عتمة تشبه الظلمة حول نار الموقد حيث تجتمع العائلة وبعض الجيران يدخنون، يتذوقون اللوز والجوز والزبيب، يتسامرون حتى يحين موعد النوم. في مقارنة بين ظروف حياة الناس على العموم بين الشوف والشمال، يعتبر ان ظروف اهالي الشوف «ظروف رخاء لا بل استقلال واستغناء» في حين وصف ظروف اهالي الشمال «بالضيق والقلة نسبيا»[2]؛ كما يتقارن بين اكواخ الفلاحين في المملكة المتحدة وبين الارياف اللبنانية؛ «لم أر في الشرق تلك الاكواخ البديعة التي اعتدت مشاهدتها في المملكة المتحدة وفي داخلها النظافة والموقدة التي تدعو الى الجلوس حولها.

٢. السكان: توزعهم، صفاتهم، ابرز ميزاتهم.

* قدم لنا المؤلف لمحات احصائية غير مكتملة عن حركة السكان،

(١) كارن، ص. ٥٥. (من وصف قرية بشري اثناء زيارته لوادي قاديشا والارز).

(٢) كارن، ص. ١١٤.

ويشير «ان المسيحيين في الجبل اوفر عددا، وان الدروز اوفر غنى، وكلاهما ينزعان الى الحرب»[1]. بالمقابل جاء تقديره لاحصاء السكان في بعض القرى الكبيرة او المدن عشوائيا لا يستند الى اي اسس دقيقة واضحة ولم يذكر اي مصدر او مرجع لمعلوماته الاحصائية. يقدر عدد السكان في طرابلس بست عشرة الف نسمة، ثلثهم من النصارى[2]؛ وعدد سكان دير القمر اربعة آلالاف موارنة ودروزاً وغالبيتهم الساحقة من الموارنة[3]؛ اما في صيدا، فقد قدر عدد الاهالي بين ثمانية وتسعة الآلاف مواطن[4]، وفي صور الفان[5]، ويغفل كليا عدد السكان في بيروت لكنه يشير الى وجود عائلات مسيحية قليلة في بعلبك يخدمها كاهن «حقير قذر»؛ نقّدر ان نية الكاتب القول «فقير» الا اذا كان هدفه التهكم على رجال الدين كما عودنا من جملة مواقفه المتكررة ازاء بعض سلوكم وتعاليمهم كما سنرى لاحقا.

* ميز كارن بوضوح بين عادات وتقاليد وتصرفات سكان الارياف والجبال وسكان المدن عامة وصيدا خاصة واعتبر اهاليها من رواد المقاهي «بالاتراك»[6] فنعت الاولين بـ«الشجعان والنشطين» والاخرين بـ«الكسالى والخمولين»[7]. راقب النساء الشرقيات بعين متأنية وميز بين القرويات «البسيطات» وبين «المحظيات» في دور الامير والسيدات في المدن ولكنه

(١) ترقب المؤلف احداث سنة ١٨٤٠ وما تلاها بسبب الاجواء المهيمنة انذاك، اذ رأى نفورا بين الموارنة والدروز. كارن، ص. ١٣٣.

(٢) كارن ، ص. ٤٢.

(٣) كارن، ص. ١٤١.

(٤) كارن، ص. ٢١٨.

(٥) كارن، ص. ٢٤٤.

(٦) أطلق كارن تسمية «الاتراك» (turco) على سكان المدن الساحلية من مسلمين ومسيحيين لان هذه هي الرائجة انذاك في الغرب، أختلط الأمر عند المؤلف واعتبر ان سكان صيدا هم من الاتراك لتشابه الزي واللهجة بالنسبة الى اجنبي يجهل اللغة وعادات اهل البلاد.

(٧) كارن، ص. ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

وصمهن جميعا بصفة واحدة ملازمة لهن، اذ قال: «ان النساء الشرقيات هن مخلوقات يتطبعن بالعادة اكثر من تطبعهن بالظروف والاحوال»[١].

٣. العادات والتقاليد

عالج كارن اشكال الاستقبال وحسن معاملة الغريب وميز بين انواع الضيافة، كما تطرق الى الولائم التي دعي اليها مبينا انواع الاطعمة واصناف الشراب. قدم لنا نماذج من الضيافة في المنازل الخاصة تستوقفنا ثلاثة منها: بيت الشيخ الاهدني، منزل الفلاح البشراوي ومنزل مزارع شوفي. يعتبر المؤلف بيت الشيخ الاهدني ملجأ لكل مسافر وغريب يعد نفسه سعيداً ومحظوظاً اذا قدر له ان يصادف مستظلاً كهذا المستظل. اما الضيافة النموذجية فقد وجدها عند اهالي بشري حيث لاحظ ان اخلاقهم وسيماء وجوههم «تشتمل على كثير من البهجة وحسن الضيافة حتى عشق المكان واهله...»[٢]. الثالث في قرية رمحالا في الشوف حيث قال عن اهلها انهم «في المألوف اهل لطف ورقة في استقبال الغريب الذي لا يعدم الفرصة اذا اراد مبيت ليلة تحت سقف واحد منهم»[٣]. اما الاديرة فتوفر للضيف الحفاوة اللائقة بمقامه ونادراً ما ترفض استضافة مسافر او ايواء زائر عابر.

٤. لم يتناول المؤلف الازياء بوصفها موضوعا قائما بذاته بل ذكرها عرضا وفي مجالين: واحد من خلال الرسوم والمشاهد التي صورها الرسامون المرافقون بدقة متناهية في الساحل والجبل والثاني من خلال مشاهداته العينية وتعليقاته واحكامه على الملبس واصحابه. فالنساء في الاسر

(١) ورد هذا الكلام في سياق الحديث عن النسوة اللواتي صحبن الامير بشير في رحلته الى مصر حيث تعرفن الى السلطانة حرم محمد علي ومرافقاتها . كارن، ص. ١٢٨.
(٢) كارن، ص. ٥٥.
(٣) كارن، ص. ١١٠.

الغنية يلبسن طنطورا والرجال الطرابيش والزنانير العثمانية المنشأ والمتجددة مع المصريين، في حين اقتصر الزي الرهباني على «قميص قطني خشن مقلم وصدرية وجلباب من القماش الاسود الخشن. هذا الاهتمام الثانوي بموضوع الازياء والملابس لم يمنع المؤلف من اطلاق احكامه فجأت عادلة مقبولة بحق النساء عندما يقول ان «حب اللباس والهندام منتشر في هذه البلاد كحبه في باريس ولندن»[١]، وان الشغف بالملابس «هوس قديم في الشرق»[٢]؛ ولكنه يتحول الى نقد جارح عندما يتناول ملابس رجال الدين خلال المناسبات والاحتفالات الدينية.

III ـ الوجه الاجتماعي ـ الاقتصادي للبنان مطلع القرن التاسع عشر.

تناول المؤلف ابوابا مختلفة طالت تفاصيل الحركة الاقتصادية من أجور واسعار وضرائب الى وضع المرافئ وحركة الاستيراد والتصدير ووصف للاسواق في المدن الى تعداد انواع الزراعات في الساحل والارياف وختم باهمية دور السياحة وتكاثر اعداد الاجانب المقيمين وأثر كل ذلك على الحركة الاقتصادية في البلاد.

١. انعكست التجارة يسرا وبحبوحة على بيروت وسكانها، اما مشهد طرابلس الاقتصادي فلا يدل على الازدهار والرخاء بل تلوح عليها «سيماء شيء هو أقرب الى الانحطاط والضعف»؛ اما الجبل فيبرز وجهه الاقتصادي المشرق من خلال الطابع الاستقلالي والصراحة «لان

(١) كارن، ص. ١٤٩.
(٢) «ان هذا الهوس مستوطن لبنان، يحل بين هذه الجدران الموحشة حلوله في الاوساط الاوروبية المرحة...» كارن، ص. ١٢٩.

حكومتهم ليست بالظالمة» وهنا يشير الى منطقة الشوف تحديدا ويقول: «ليس في بيوت اهلها فقر شديد، وان صناعتهم وجهودهم تضمن لهم كفاية حاجاتهم وكثيرا من طيبات الحياة»[١]، يشهد عليها حركة الانتقال النشطة باستمرار بين اقليم الدروز ودمشق، عبر ممرات الشوف الى البقاع ومن ثم الى دمشق. بالمقابل بدت له بعلبك قفرا موحشا، لا يرى فيها الا شوارع مثقلة وبيوتا مصدعة مهجورة. يلاحظ بوادر حركة جديدة تجلت باهتمام اصحاب المعامل ومصانع النسيج في اوروبا لانشاء فروع لاعمالهم وتأسيس المتاجر في هذه المنطقة، فشيدت مؤخرا مقابل المينا مباني للقنصليات الاجنبية كما شهدت المدينة قدوم تجار كثر ابتنى معظمهم منازل في بيروت.

٢. تعرف على الوضع المعيشي من جملة مؤشرات:

* اجور البيوت، اسعار الحاجيات وتفاوتها بين مدينة وأخرى وبين المدينة والريف. يميز بين اجور المنازل الوضيعة وبين الفخمة، بين الكبيرة والمتوسطة والصغيرة ويلفت انتباهنا الى ظاهرة ارتفاع أجور المنازل الكبيرة المعدة للسكن بفضل وجود اجانب وبخاصة من الفرنسيين الذين حلوا في بيروت.

* اسعار الحاجيات الضرورية اليومية، فيقول «انها أغلى من اقاليم جنوب فرنسا والكثير من أقاليم ايطاليا مقارنة مع اسعار بيروت»[٢]. أما في صيدا فضرورات الحياة فيها كما الكماليات «رخيصة» نسبيا

(١) تعّرف المؤلف على هذه المنطقة القريبة من مقر الامير بشير الثاني الذي ارسى سياسة انماء واعمار ووسع الطريق بين دير القمر وبيروت فقصرت المسافة الى تسع ساعات تعترض المسافر عليها مزارع واكواخ واديرة وغابات تضفي على الرحلة تنوعا في المشاهد وحياة وتأثيرا يؤنس نفس المسافر ولا يوحشها. كارن، ص. ١٠٩.

(٢) كارن، ص. ١٥.

وبالتالي تكاليف المعيشة فيها أدنى من بيروت؛ «اوفر» اصنافها اللحم الذي تنقصه سوق نظامية في حين ان اسعاره مرتفعة نسبيا في بيروت (بحدود اربع بنسات للوقية) ومتوفر في معظم الانحاء، وبخاصة لحم الماعز الذي لا رغبة للاوروبي فيه مفضلا لحم البقر الممتاز المساوي بجودته لحم ابقار اوروبا.

* اما الخمرة اللبنانية فهي من اجود انواع الخمور في الشرق؛ تتراوح اسعار الزجاجة في اسواق بيروت بين اربعة وتسعة بنسات او شلن واحد[١] في حين لم يحدد اسعارها في سوق صيدا مكتفيا بالاشارة الى انها معتدلة[٢]. يوضح ان «الخمرة البيضاء الحلوة هي على درجة عالية من الجودة»، اما ذات اللون الذهبي (champagne) فهي «الأرق والأدمث» مطلقا عليها تسمية «شامبانيا الشرق» وهي «سريعة الفوران في زجاجتها وعظيمة الوحي والالهام»[٣].

* عن حركة الصناعة والتجارة وما ينتج عنهما من استيراد وتصدير، يقول ان الصابون هو اهم بضاعة معدة للتصدير[٤] ومدخل الحركة الاقتصادية في طرابلس والشمال، يليه اهمية الاسفنج المستخرج عن الشاطئ[٥]؛ اما اسواق طرابلس الداخلية فضيّقة، قاتمة وطويلة ملاْئ بالبضائع المتنوعة: فيها كل انواع الحرف والتجارات الصغيرة التي توصف بالنشطة. اما سائر المناطق الشمالية مثل الزاوية والكورة

(١) الشلن يساوي تسعة بنسات.

(٢) بالامكان شراء الربعية من النبيذ بشلن (الربعية تساوي القنينة).، كارن، ص. ١٣٨.

(٣) يذكر بالتفصيل انواع الخمور واسعارها ويقارن بينها وبين الخمرة الاجنبية واصنافها. كارن، المرجع السابق، ص. ١٤ و١٣٨.

(٤) تم تصدير حوالي ثمانماية كنتال او قنطار فرنجي (ما يساوي مائة كلغ)، ثمن الكنتال الواحد ثمانون ليرة استرلينية.

(٥) يُصدّر إلى طرطوس وبلاد الأناضول والجزر اليونانية.

والجبة والبترون فتنتج حريرا «موفورا من صنف جيد» مما شجع اهالي طرابلس على حياكة الزنانير الطويلة المقلمة التي يكثر لبسها بلاد الشرق؛ ولكن ما يلفت الانتباه ان «التجارة في طرابلس تكاد تكون احتكارا للمسيحيين ولاسيما الارثوذكس»[١] رغم ان غالبية السكان من المسلمين السنة. ختم المؤلف مع بيروت، مركز التجارة الاول في البلاد، يصفها «مركز تجارة مشترك للموارنة والدروز»[٢]، « في سلم الاولويات التجارية، يحدد الحرير الخام «كأهم سلعة تجارية تتعاطاها بيروت»، يأتي بعدها انتاج القطن والزيتون والتين؛ هذه البضائع تصدر الى القاهرة ودمشق وحلب. يفيدنا المؤلف اخيرا عن «**اعتدال الضرائب**» مع وصول ابراهيم باشا وكان يبتزها سابقا الزعماء والحكام المحليون، كما قلّت «**الضرورة للهدايا**» التي وجب تقديمها لهولاء النافذين المحليين وقد الغي هذا الامر نهائيا في بعض المناطق بعد نزول الجيش المصري الربوع اللبنانية.

* حركة السياحة المتنامية مرتبطة الى حد وثيق بالحالة الاقتصادية الناشئة خير دليل على ازدهار بعض اوجه الحياة الاقتصادية في بعض المدن اللبنانية وبعض الارياف. يستطيع السائح اثناء زيارته بعلبك ان يلتق زملاء من جميع اصقاع العالم: الاميركي من مساشوستس او نيويورك، الروسي، الالماني، البولوني واليوناني الى جانب الانكليزي والفرنسي والايطالي[٣]. ازدهار السياحة مرده، توفر الامن

---

(١) كارن، ص. ٤٢.

(٢) من قراهم يصدرون القطن والحرير ويستبدلونها بالارز والتبغ والنقود» فيشترون بالمقابل القمح والحبوب على انواعها من سهول البقاع وحوران.

(٣) «باستطاعة السائح ان يلتق المواطنين من جميع اصقاع العالم المتمدن من ذوي الاصوات المختلطة والمشارب والمذاهب المنوعة . كارن، ص. ١٧٨

وانخفاض نفقات الرحلة. والتوصيات من القنصليات الأجنبية، فيحل ضيفا كريما في بيوت مندوبي القناصل في المدن ومنازل المشايخ او الوجهاء في الارياف، أو في الاديرة المنتشرة في كل المناطق اللبنانية. وتكتمل الصورة الاقتصادية بالاشارة الى توزع الاجانب في كل المناطق اللبنانية وبخاصة في المدن الساحلية؛ لم تقتصر الاقامة في المدن لسبب الرفاه الاجتماعي بل لضرورات العمل.

* يربط المؤلف كثيرا بين الرفاه الاقتصادي والاجانب ويعلق بجملة ملاحظات ابرزها: اعتقاد اهل البلاد ومعهم الاتراك ان كل اوروبي ملم بخفايا الطب وان غالبيتهم من الاطباء واقله حكماء، فتم التعاطي معهم على هذه الخلفية واحترمهم الناس واكرموا وفادتهم واستضافوهم في منازلهم كما تفانوا في خدمتهم؛ وكما تسابق المشايخ والاعيان لاستقبال ذوي مظاهر الجاه والنفوذ بينهم.

IV ـ الاديرة ورجال الدين

احتلت الاديرة واهلها ونظام العيش فيها حيزا مهما في كتاب الرحالة كارن الى لبنان؛ تناول تفصيلا مواضع الاديرة في اطارها الطبيعي، استعرض نماذج من حياة رهبانها ونظام حياتهم وصلواتهم، خص حياتها الاقتصادية باشارات بارزة، مبينا اوجه زراعاتها وحرف سكانها وحجم موازنات بعضها وتعداد رهبانها واديرتهم فضلا عن دورهم ونفوذهم في محيطهم، لينهي بتسليط الضؤ على المواقف المتناقضة من رسالة الرهبان ودورهم، متأثرا الى حد بعيد بالافكار اللاهوتية التي نشأ عليها في بريطانيا، مغلبا انفعاله بسبب عدة احداث جرت معه وأخرى تعنيه، ففقد موضوعيته، وكال الاتهامات جذافا، ودون اية ضوابط، بحق كل من يخالفه الرأي والتوجه.

١. في تعداد وظائف الاديرة وتجربته معها.

استفاض بوصف الاديرة التي زارها من الشمال الى الجنوب وقارن بين بعضها البعض وبين ما علق بذهنه عن اديرة ورهبان في الغرب. لقد نقل عن لسان رهبان موارنة ان «عدد اديرتهم في لبنان، مطلع القرن التاسع عشر تجاوز المائتين»[١]، ولكنه لم يأت على ذكر مجموع عديد رهبانه او كهنة الرعايا بل استرسل بذكر خصائص كل دير زاره وصفات رهبانه واخلاقهم معلقا على «سيئاتهم الكثيرة» برأيه و«حسناتهم القليلة...». كما ذكر ان في كل قرية مارونية زارها، كبيرة ام صغيرة، كنيسة او اكثر على اسم قديس «شفيع البلدة، يتولى دراية شؤونها». نقل انطباعاته عن اربعة أديرة:

* دير مار انطونيوس قزحيا: «مقر موحش لا يغري المسافر للمبيت فهو ليس كغيره من الاديرة حيث يحل الضيف برفاهية، فعلام يقيم اذا فيه؟ انه دير للتوبة والتفكير لا للمرح والحبور». شهرته التقليدية في المنطقة والجوار هي بكونه مزار للمجانين يئمونه سعيا وراء الشفاء من امراضهم العقلية المزمنة، ولكن المؤلف يعلق ساخرا «أحرى بمثل هذا المكان ان يجنّن العقلاء لا ان يعقّل المجانين».

* دير سيدة قنوبين: يقوم على فوهة كهف في موقع مسنن معلق بالفضاء، وبقربه هاوية عميقة، يقول عنه «لاتراب» لبنان[٢] (La Trappe)، فيه مقر البطاركة الموارنة القدامى وفيه يقيم البطريرك الحالي معظم الاوقات.

---

(١) أخبره احد الرهبان ان عدد اديرة الرهبنة الباسلية هو اثنا عشر ديرا (في غضون ثلاثين سنة) ويقدر عدد الرهابين بحدود الماية الخمسين. اما تعداده الاديرة بالمائتين (للمسيحيين مجتمعين) فجاء نتيجة تجواله في كل البلاد. كارن ، ص. ٨١.

(٢) نظام رهباني اسمه رترو الثالث كونت برست سنة ١١٤٠. انتقل من فرنسا الى سواها من اقطار اوروبا والعالم، وهو نظام مبني على التقشف في الحياة والانقطاع الى العمل اليدوي.

* دير بزمار: بناء فخم ينزل فيه بطريرك الارمن، وظيفته الاساسية مدرسة لاهوت لا دير للرهبان، يضم نحو عشرين اكليريكيا، «اما رهبانه فهم من اكثر رجال الدين كفاءة وتحصيلا في جميع المؤسسات الرهبانية التي التقاها في تجواله وهي عديدة؛ انهم اهل انس ونشاط وثبات».

* دير عين ورقة، مؤسسة تعليمية مارونية يقصدها الطلاب لتلقن اللغة السريانية والتهيؤ للخدمة الدينية. يتجاوز عدد طلابها العشرين، من بينهم السمعاني الصغير حفيد يوسف السمعاني الشهير.

٢. في انظمة حياة رجال الدين.

نقل الكاتب مشاهداته بدقة واتقان واحيانا بموضوعية ولكنه لم يقاوم ميوله ونزواته عندما تتعلق المسألة بعواطفه واهوائه وقناعاته وبخاصة عندما يرتبط الموقف بحادثة ذات صلة بالجماعات التي يشترك معها بالدين والمفاهيم. الموضوعية بلغت مداها في وصف حياة كهنة الرعايا وادائهم وواقعية في نقل يوميات رهبان دير مار يوحنا للكاثوليك ومجحفا وناقما على رهبان دير مار انطونيوس ـ قزحيا ورهبان دير سيدة قنوبين وسيدهم بطريرك الموارنة وذلك بسبب حادثتي اسعد الشدياق والطبيب الانكليزي «المحروم» بسبب «تبشيره» الموارنة في اهدن والجوار.

* كهنة الرعايا: صوّر مشهدين مشرقين لهؤلاء الكهنة: الكاهن الذي يقود قافلة الرحالة بين الاودية والمهاوي وهو في طريقه الى منزله الوضيع حيث تنتظره زوجته ويتجمع حوله اولاده، «يعوض هذا النقص المادي محبة رعية ترحب بعودة راعيها الذي يعايشها معايشة اسرة واحدة كبيرة». هذا الوصف الواقعي انتهى به المطاف بالخروج عن الموضوعية والانحياز الفاضح الى نزعته البروتستنتية وتذمره من المفاهيم الدينية المشرقية عند الموارنة وغيرهم بالتساؤل: «أفلا يمكن الكاهن اللبناني

الماروني، حتى مع الاخطاء التي تنطوي عليها عقيدته، ان يكون امرءا تقيّا سعيدا»[1]. المشهد الثاني عن خادم رعية زغرتا، وعلى منواله معظم كهنة رعايا الجوار، ينزلون في منازل وضيعة منفردة، يشبهون رعاياهم في التقاليد وعادات الحياة؛ رعاياهم جد متعلقون بهم رغم توفر الاديرة العديدة من حولهم والتي لا تبعد عن قراهم كثيراً. عن موارد عيش هؤلاء، يفيد انه «لم يكن للكهنة موارد او مرتبات معينة، بل يعيشون من اعطيات رعاياهم، وما يقدم لهم مقابل القداديس او يعيشون من عمل ايديهم»؛ بعضهم يحترف تجارة ما وبعضهم يحرث حقلا وبستانا وآخرون يعتنون بمزرعة مواشي تضم قطيعا من الماعز او بقرتين حلوب وحمار وفي احسن الاحوال بغل متقدم في العمر. تكّن الرعية لراعيها الاحترام،«فكل من يلقاه، غنيا كان ام فقيرا، صاحب جاه او ضعة، يسارع الى تحيته القاء السلام عليه ويقبّل ايديه ويطلب بركته». تعتبر رعية زغرتا فردوسا صغيرا في نظر الكاهن القنوع، «قليلة هي قرى انكلترا التي توفر لرجال الدين ملجأ اطيب وأدعى الى الطمأنينة وراحة البال والسلام الدخلي»[2].

* في الرهبان؛ رسم المؤلف نماذج متنافرة عنهم في الاديرة والصوامع: نموذج رهبان دير مار يوحنا للروم الكاثوليك يبدأ النهار مع الفجر بالصلاة حيث يمضون اكثر من سبع ساعات يوميا بين الصلاة والتأمل، وحوالي عشر ساعات للعمل والباقي للراحة والنوم؛ يتقشفون في الطعام فلا يجيزون لانفسهم اكل اللحوم الا في النادر اثناء حالات المرض، يصومون كسائر الشرقيين ثلاث مرات في العام، يواظبون على القطاعة

(١) ان نزعة المؤلف البروتستنتية وتأثره بها واضحة في كل مواقفه من رجال الدين الكاثوليك وبخاصة الموارنة. كارن، ص. ٩١.

(٢) كارن، ص. ٨١.

مرارا كثيرة ويمتنعون خلالها من اكل اللحم والبيض والحليب والزبدة حتى الجبن. يعيشون طوال اشهر السنة تقريبا على العدس والفاصوليا وبعض الحبوب مع الزيت والارز والزبدة والزيتون ونادرا من الاسماك. اما خبزهم فرغيف خِشن، يكون قوتهم ليومين. المسكن حجيرة ضيقة بين اربعة وستة امتار مربعة، مجمل اثاثها من حصير واحيانا فراش وحرام ممزق بدون شراشف. لكل راهب مهنة او حرفة ضرورية او عمل نافع للبيت الذي يعيش فيه: من حائك الاقمشة، الى معلم العمار، الى العشي، الى الطحان، الى معلم المدرسة، وعامل المطبعة والتجليد، الى الفران ومعاونيه، الى عمال الارض والبساتين من فلاحين يتقنون كل انواع الحراثة والتقليم والتشحيل والحصاد وغيرها... يعاونهم فلاحين من اهل الجوار يتقاسمون معهم الغلة مناصفة.

نموذج رهبان اديرة قزحيا وقنوبين ومشموشة، «مرسلي اللحى الطويلة»، بعضهم يعمّر طويلا والسبب برأيه «الطمأنينة التي تستغرق فيها حياتهم، ونقاء المناخ ورتابة مواظبتهم على كل عادة من عوائدهم». يستطرد متهكما: «ينهضون مع طلوع الفجر ليرددوا صلوات... يمضون ساعات طويلة في التعبد والصلاة». وصف صلواتهم بالتكرار الالي السريع دون تفكير وتأمل... اما رهبان دير مشموشة فعلق عليهم: «لا يبدو في سيماء هؤلاء الرهابين او في حياتهم ما يدل على السآمة والوحشة، كل شيء في مظهرهم ينم على انهم جماعة مرح لا تقشف او شظف»[1].

* في الاساقفة «المطارنة» الموارنة الذين خبرهم في تجواله «فاشار الى حالتهم المتواضعة غامزا من قناة اساقفة الكنيستين الكاثوليكية والبروتستنتية في الغرب». غالبا ما يلتقي احد المارة بمطران يمتطي بغلا

(١) كارن، ص. ٢٥٣.

لا يرافقه سوى قندلفت او شماس واحد؛ يعيش معظمهم في الاديرة الرهبانية، لا يتجاوز موردهم السنوي حوالي ستين استرلينية.

٣. الحياة الاقتصادية في الاديرة.

انها جزء من مشهد الحياة العامة اليومية للراهب او الكاهن او الانسان العادي؛ تحتل الاعمال الزراعية على انواعها المرتبة الاولى وتليها حاجات الدير الاساسية الالزامية التي توفر له الاكتفاء الذاتي والاستمرار بفضل المهن والحرف التي يتعاطاها رهبانه كالنسج والحياكة والتجارة والحدادة والبناء؛ هذه الاعمال هي سمة ملازمة للرهبان بدليل اتقانها من جميع الاديرة وفي كل الطوائف المسيحية ونادرا ما يشذ دير عن هذه القاعدة الذهبية وان خرج فانه يتعاطى الزراعة حتما الى جانب حرفة او اختصاص لا يجاريه فيه اي من الاخرين. الامثلة عديدة ومن كل المناطق، من الشمال الى الجنوب، من الجبل الى الساحل، فلا يكتمل دير الا بجنائنه وحدائقه وبساتينه وكرومه وجماعته الرهبانية وجواره من الفلاحين والمزارعين والشركاء: من دير مار انطونيوس قزحيا وسيدة قنوبين الى دير سيدة مشموشة اديرة تعلو التلال والقمم تنتشر في كل البلاد من الارز في الشمال الى جزين في الجنوب، تشكل خلايا نحل في قلب هذا الجبل وجزء هام من الدورة الاقتصادية في البلاد.

* الاديرة ـ المدارس: دير بزمار، دير عين ورقة، دير عينطورة للاباء اليسوعيين، وهو من أهم الاديرة المدارس في لبنان وسوريا وفلسطين على الاطلاق، باشراف آباء فرنسيين واوروبيين؛
* الاديرة المتخصصة ببعض المهن او الحرف: ديرا مار انطونيوس قزحيا بالزراعة وطباعة الكتب، ومار يوحنا للروم الكاثوليك...

٤. صفات رجال الاكليروس تفاوتت من دير لآخر الى حد التناقض

فظهرت احيانا ايجابية تجاه بعض الرهبان والاساقفة وسلبية قاسية حتى التجني بحق البطريرك الماروني ورهبان ديري مار انطونيوس وسيدة قنوبين.

* في الصفات الايجابية، يقول «ان المطارنة الموارنة، هم في العادة، اهل دراية وتهذيب ومسلك ابوي وعادات واذواق بسيطة، فيؤلفون في وجوه عدة، صورة اقرب الى الروح والخلق الرسلي، من نظرائهم في كنائس اوروبا الاوفر ثروة، يعصمهم من الترف والغرور فقر ظاهر، بل شيء ادنى الى العيشة المقتصدة اللائقة»[1]، من خلال الاعتناء بأرض الدير والاهتمام بموارده والزيارات الدورية للرعايا وكهنتها والانصراف للدرس والقراءة والتأليف.
* الوجه السلبي الاقرب الى الهجاء والتهكم اكثر منه للنقد الايجابي الاصلاحي. برز هذا الموقف الناقد لا بل «الحاقد» بحق البطريرك الماروني الذي لم يلتقه قطعا ورهبان ديري مار انطونيوس قزحيا وسيدة قنوبين الذين استضافوه وأكرموه، وطال التهكم جوهر معتقداتهم الايمانية فضلا عن الممارسات للشعائر الدينية. تجلت هذه النقمة العارمة من خلال حدثين بارزين: الطبيب الانكليزي المبشر بالمذهب البروتستنتي والذي لقي اعتراضا عاما وانتهى بحرم من البطريرك وقصة اسعد الشدياق الذي انحرف عن دين آبائه واجداده والتحق بالمذهب البروتستنتي معلما ومبشرا فنعت البطريرك «بصاحب النفوذ الهائل على أذهان رعيته»، «بالحاكم المنفرد على رأس ديوان التفتيش» في دير قنوبين

٥. الطقوس والمعتقدات واسلوب ممارسة الجماعة الرهبانية موضع اتهام ونقد بعد حادثتي الطبيب المبشر و«المنشق» اسعد الشدياق، فتصاعدت وتيرة النقد عند المؤلف وتعدت اشخاص البطريرك ورهبان ديري قزحيا وقنوبين

(١) كارن، ص. ٨٩ ـ ٩٠.

لتطال الطقوس والمعتقدات والصلوات واسلوب الجماعة الاكليريكية الرهبانية في تأدية فروضها وتخطت احيانا الاحياء لتنل من الاموات وفق موجات متفاوتة بين النقد الخفيف والقاسي والحاقد.

* النقد الخفيف طال الجماعة الاكليريكية اثر جولة على الكنيسة واروقة الدير في احد اديرة الشوف حيث تقمن راهبات في بناء مجاور فضلا عن النساء اللواتي يئمنه للعمل في حل الحرير فيستنتج «انه لم يبد في سيمائهم او في حياتهم (الرهبان) ما يدل على السآمة والوحشة. كل شيء في مظهرهم يدل على انهم جماعة مرح، لا تقشف او شظف»[1].
* النقد القاسي على اسلوب تلاوة الصلوات اثر اشتراكه بصلاة العشاء في كنيسة دير قزحيا واعتباره «ان المواظبة الدائمة على تكرار الصلوات واي مراسم اخرى، طوال ساعات كثيرة كل يوم، امر يكفي للقضاء على روح التعبد ان كان لها ثمة وجود»[2].
* «الهجمة الحاقدة» جاءت كردة فعل لوفاة اسعد الشدياق واعتقاده ان رهبان دير قزحيا هم السبب المباشر فكال لهم جملة اتهامات لا يوصم بها بشر بل اناس خرافيون؛ قال فيهم «ليس لاباء هذا الدير سيماء مبهجة، فهم اهل بلادة وكمد وزماتة، استنقعت افكارهم طوال سنين كثيرة، وتجمدت عواطفهم لقلة المراس، او تجمد فيهم على الاقل ذلك الشطر الحار الحنون من عواطف البشر وطبيعتهم، فيستحيل على المرء ان لا يشفق على هولاء الناس[3]...». يختم هجمته امام مقبرة دير قزحيا عندما قارن بينها وبين قبور العرب الصحراوية شكلا ليسبر الى جوهر هجومه اللاذع للاجيال الغابرة نقدا وتجريحا واتهاما بالفراغ

(١) كارن، ص. ٢٥٣.
(٢) كارن، ص. ٦٤.
(٣) كارن، ص. ٦٣.

العقلي والذهني وان لا قيمة ولا معنى لحياتهم: «ما اكثر ما يرقد هنا من اجيال، وما افظع الخواء الذهني والفراغ العقلي الذي يعرضه تاريخ هذه الاجيال لو كتب.. فاي سفر مبتكر، او سلسلة من اسفار يمكن كتابتها عمن ينامون ويعيشون طي هذه الجدران... لو ان واحدا من هولاء الرهبان كانت له موهبة الكتابة..[1]».

قبل ان نختم موضوع الاكليروس وشهادات المؤلف المتناقضة حيالها، نذكر واقعتين عابرتين، واحدة عن خدمات الاديرة للسياح التي توفر لهم منزلا مريحا؛ الثانية عن حرية العبادة، «فلكل قرية مسيحية كنيسة، ولكل كنيسة جرسها وهذا شيء لم يسمع به في مكان آخر في الامبرطورية العثمانية». ان طقوس الكنيسة الرومانية التي يتبعها جميع الموارنة لا تمارس في اوروبا بحرية وعلانية اوفر من ممارستها لهذه الطقوس في هذا الاقليم الذي حافظ فيه اساقفته على حالتهم المتواضعة الاولى. كذلك في لبنان وتحديدا في بيروت تجلت حرية العبادات الدينية وامتيازاتها، فالرعاة الدينيون من بلاد شتى يلتقون ويتحاورون ويتفقون كما يختلفون دون بغيضة وغالبا بين هولاء الاساقفة والكهنة واللاهوتيون من موارنة وارثوذكس وكاثوليك...[2].

خاتمة

تكمن قيمة الكتاب بتصوير امجاد الطبيعة وآثار الانسان والوان الحياة وعاداتها في هذه البقاع وقد تمت من قبل اديب، وذواق فن ومؤرخ الى جانب رسامين يدويين نقلوا اجمل لوحات الطبيعة واصطبغت بنصوص صوفية وانفعالات نفسية ازاء روائع الطبيعة وذكريات التاريخ والوان الحياة والعادات القروية ولاسيما حياة الفلاحين وعاداتهم. بالمقارنة بين كارن وغيره من

(١) كارن، ص. ٦٣.
(٢) كارن، ص. ٨١.

الرحالة الغربيين، يستوقفنا خلو كتابه من الاسانيد وافتقاره الى ذكر معلومات مستوحاة من مستندات او مصادر موثوقة وتخطي اسم بعض الرحالة السابقين الى مضمون رحلاتهم ووجهات سيرهم والاماكن التي تنقلوا فيها[1]. لا تفوتنا ايضا انفعالات الكاتب واحكامه متأثرا بعقيدته البروتستنية التبشيرية فيتصدى لمسائل مذهبية طقسية او ايمانية، معتبرها ضلالا او عصبية، ليدعو جهرا او خفية الى امور مذهبية يؤمن بها ولا تشاركه بها الجماعة المؤمنة في البلاد. لقد لمح اكثر من مرة الى حاجة الشرق الى «معلم او مبشر ينظف عقائده من عناكب الخرافة...»

(١) نذكر مثلا واحدا «يوميات في لبنان: تاريخ وجغرافيا» للرحالة روبنسون، لسنة ١٨٣٨ في فترة قريبة جدا من زيارة كارن. لقد بحث المؤلف ونقب واستقصى ولم يترك شاردة مما وقع عليه نظره او سمع بها الا ومحصها ودونها واخرج كتابه على شكل مذكرات او يوميات مطولة شرح فيها ما شاهده وسمعه ساعة فساعة، وخطوة فخطوة، حتى ليخيل للقارئ انه رفيق رحلاته واعتمد على المصادر العديدة والمستندات الوفيرة الوثيقة ليستقي منها معلوماته .

المحتويات

